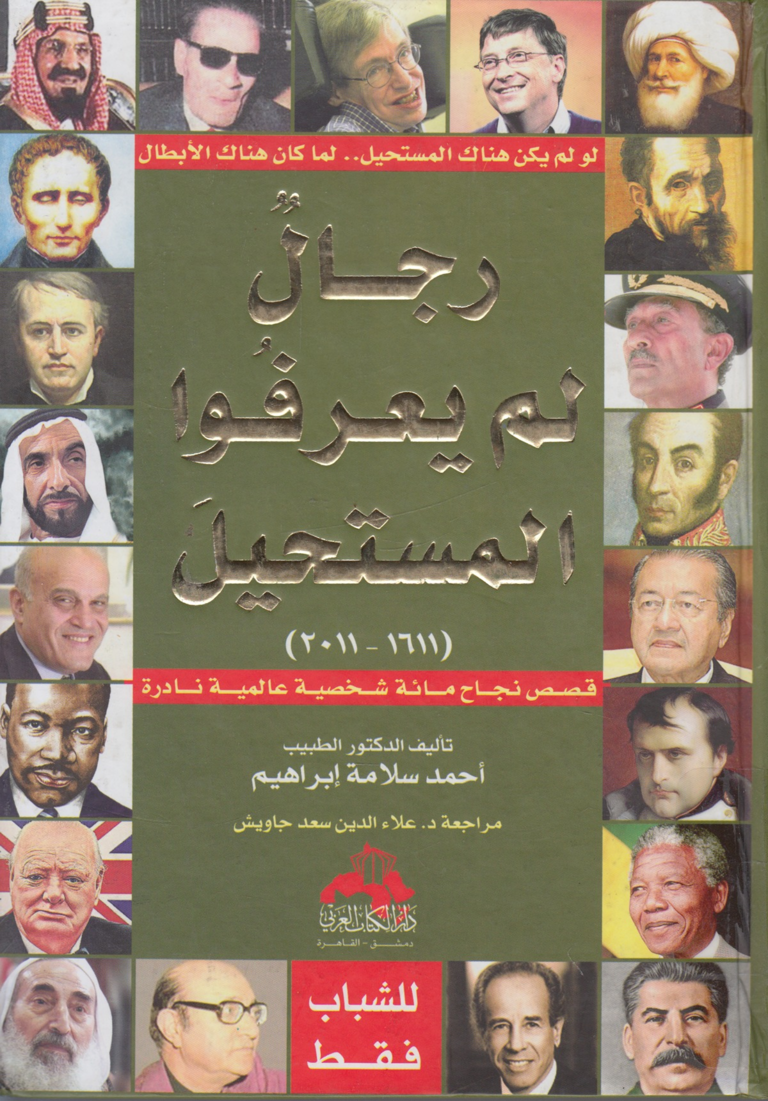


لو لم يكن هناك المستحيل.. لما كان هناك الأبطال
رجالٌ لم يعرفُوا المستحيلَ
(١٦١١ - ٢٠١١)
قصص نجاح مائة شخصية عالمية نادرة
تأليف الدكتور الطبيب
أحمد سلامة إبراهيم
مراجعة د. علاء الدين سعد جاويش
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
للشباب فقط

رجالٌ لمْ يعرفُوا المستحيلَ

(١٦١١ - ٢٠١١)

اسم الكتاب: رجالٌ لَمْ يعرفُوا المستحيلَ
تأليف: الدكتور الطبيب / أحمد سلامة إبراهيم
مراجعة: د. علاء الدين سعد جاويش
المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبدالرءوف سعد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٦٨٩/ ٢٠١١
الترقيم الدولي: 3-652-376-18977

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النوري - أمام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

- فرع ثاني - ت: ٢٢٢٢٣٧٣

حقوق الطبع محفوظة

تحذير:
جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربي للنشر وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الطبعة الأولى
٢٠١٢

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩١٦١٢٢/ ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تلفاكس: ٤٣٤١٨٦/ ٠٥ تليفون: ٦٥٢٢٤١/ ٠٣ - ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات
darkitab - nassif@hotmail.com darelkitab@yahoo.com
عنوان الموقع: www.darketab.com - عنوان البريد الإلكتروني التابع للموقع: info@darketab.com

(لو لم يكن هناك المستحيل ... لما كان هناك الأبطال)

رجالٌ لمْ يعرفُوا المستحيلَ

(١٦١١ - ٢٠١١)

920.02
I 14

تأليف الدكتور الطبيب

أحمد سلامة إبراهيم

مراجعة

د. علاء الدين سعد جاويش

قصص نجـاح مائـة شخصية عالمية نادرة


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أستاذي الجليل في الثقافة والمعرفة والكتابة بالفكر والرؤية الثاقبة المتميزة، الصحفي الكبير الأستاذ صلاح منتصر، أحد أعمدة الصحافة المصرية وجريدة الأهرام الغراء، الذي تعلمت منه أهمية القراءة للبقاء على قيد الحياة الثقافية، وقيمة معرفة التاريخ للاستفادة منه في الحاضر والمستقبل، والصدق في سرد المعلومات ومراجعتها، مما يعطي الكاتب القدرة على المحاورة والتحدي وسجال الفكر بالفكر والشك باليقين، وتقديراً مني لسيادته حيث سمح لي بأن أستعير من مكتبته ما أحتاج إليه من المراجع لمدة عام ونصف عام وأعطاني بعضاً منها هدية من عنده.

د.أحمد سلامة

شكر واجب

أتوجه بالشكر إلى صديق العمر الأستاذ أحمد عاطف البدوي والسيدة حرمه مدام سعاد هانم عباس طاهر زميلة العمل بالخارج عشرين عاماً، على معاونتهما لي في التفرغ للقراءة والبحث والكتابة، لإصدار هذا الكتاب وذلك بتوفيرهما المكان المناسب لي بمدينة الإسكندرية الجميلة التي تركتها منذ خمسة وثلاثين عاماً، جزاهما الله كلَّ الخير والحسنات عن كل من يستفيد من هذا الكتاب من الشباب العربي.

د.أحمد سلامة

استشاري الأمراض الباطنية

المقدمة

"لو لم يكن هناك المستحيل ... لما كان هناك الأبطال"

إذا منحك الله عزَّ وجلَّ القدرة على التميز الاجتماعي أو العلمي، فلا تضيعهما مهما واجهتك مستحيلات أو عقبات .

وهذا الكتاب هدية ورسالة إلى الشباب العربي حيث إنني أتناول فيه كيفية وآلية نجاح الناجحين لكي أذكِّرَهم فيه بأن مقاعد النجاح قد تتسع للكثيرين من البشر، ولكن مقاعد التميز قليلة ولا ينالها إلا الصابرون الطامحون الذين لا يثنيهم شيء عن تحقيق أهدافهم في الحياة الدنيا والآخرة، وكل شخص من شخصيات هذا الكتاب، كان يمكن أن يكون نسْياً منسيًّا في مجتمعه لكثرة المعوقات والعاهات والصعوبات التي واجهته في حياته، ولولا صلابته وقدرته على تحدى الصعاب والعقبات والمستحيلات لما صار نَجماً في التاريخ؛ لأنه وَاجَهه تحديات اقتصادية أو عائلية أو عسكرية أو فقر أو عدم إتاحة فرصة تعليم منتظم له أو حلم خيالي أو وجود إعاقة جسمية وأمراض مستعصية وهكذا.. ومع ذلك لم يعرف المستحيل ونجح في حياته.

إن الإنسان رغم أنه صاحب وجود مؤقت في الدنيا مثل سائر الكائنات، إلا أنه الكائن الوحيد القادر على ابتكار المشروعات وتنفيذها وعلى صياغة عالم الأشياء من حوله. وكذلك على خلق نشاطات إبداعية وهذا كما ذكره الفيلسوف الألماني مارتين هيدجر، وقد أردت أن أترك ذكراي كتباً وثقافة ومعرفة؛ وذلك لأن المعرفة أفضل من الممتلكات كما قال العلاّمة العربي : البيروني، حيث إن عدم الثقافة هو الموت على قيد الحياة..

والثقافة أيضاً كنز لا يفنى كما ذكر أ.د.غازي زين عوض الله المفكر السعودي؛ وذلك لأن العقل هو الإمام الناطق في الكتيبة الخرساء كما قال مفكرنا أبو العلاء المعرى، فالمثقف مُصوِّر مُبكِّر لما هو قادم من أحداث في مجتمعه .

هذا الكتاب عبارة عن سيرة رجال لم يسجنهم الخوف من الهزيمة عن شرف المحاولة والإبحار ضد المستحيل؛ لأن أي تجربة تستحق ثمنَها.

أردت أن أصدر هذا العمل للشباب، فأعطيهم الأمل في المستقبل وفي الأيام والسنين القادمة بشرط أن يكون لديهم قابلية التحدي والاستجابة كما ذكر المفكر الإنجليزي العظيم أرنولد توينبي في كتابه.

هذا الكتاب يسرد سيرة مائة رجل أو يزيدون، لم ينتظروا الحظ أو الفرصة أو المعونة؛"لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، بل اعتمدوا على الله وعلى عقولهم ومجهوداتهم مع مزيج من الصبر والحكمة في صُنع الفرص وتحدى المستحيل، فوصلوا إلى القمة .. كُلٌّ في مجاله سواء: الاقتصادي ، أو العلمي ، أو القيادي ، أو ...... مع التركيز على أن سيرة رجال هذا العمل دائماً ما تبدأ من الصِّغر إلى القمة بفكر ذاتي من صاحبها وتحدٍّ شخصي منه لاجتياز المستحيلات، والصعوبات التي قابلته في حياته، لكي يحقق رؤًى وهدفاً لم يتصد لها أحدٌ قبله، كما ذكر الأستاذ: محمد صابرين في جريدة الأهرام.

كثيرون يأتون إلى هذه الدنيا ويخرجون منها دون أن يشعر بهم أحد، أو أن يكون لهم فيها أثر أو ذِكر، وقليل من الناس تزدهر بهم الحياة ويملأ ون الدنيا عطاءً بفضلهم وعلمهم وما يقدمونه من خير للناس.. وهؤلاء هم المميَّزون الذين بهم ومعهم يكون للحياة معنى. وكما قال الصحفي رشيق الكلمات والألفاظ نبيل شرف الدين :"بعض الناس يكونون كائنات ضد الفشل لأن مواقفهم وخطواتهم واضحة ومستقيمة ذات دروب طويلة ، وتتميز بالصبر وبلا ميوعة ولا مهاترات ".

وأتمنى أن يكون اختياري لشخصيات هذا الكتاب يلبى شروط هذا الكاتب الراقي المتميز ؛ إن قيمة أي شخص في الدنيا هي مدى إقباله على الحياة وعدم التردد. ومدى اشتباكه مع المستحيلات وصراعه السلمي ضد المستحيل في ميادين الإبداع والفكر والعلم والقيادة مما يضيف لمسيرة البشرية نموذجاً يُحتذَى به في القوة من أجل الخير، فالعطاء ليس له عمر معين ولا سن محددة ما دام القلب ينبض والعقل يفكر والعزيمة قائمة؛ لأن عمر الرجال يقاس بالمجد الذي شادوه.(كما سمعت ذلك من والدي الثقافي الأستاذ نصار محمد عبد الرحيم أستاذ الأجيال في اللغة العربية في مدينة طما بمحافظة



سوهاج وكان مريضي في عيادتي الخاصة حيث قال لي نقلاً عن أبي العلاء المعري:

صــاحِ خفـف الوطء ما أظـــن ...

أديم الأرض إلا من هذه الأجســاد

وقبيـــــح بنـا وإن طال العهــد ...

هــــــوان الآبـــاء والأجـــــداد

إلى أن يقول:

عُمر الرجال يقاس بالمجد الذي ...

شـــــادوه لا بتـــقــادم المـيــلاد

والمستحيلات الثلاثة حسب ما ورد في كتاب أستاذنا ومعلمنا الجليل المرحوم أ.د. زكى نجيب محمود باسمه الجديد:" موقف من الميتافزيقا" صـ٨٩ - دار الشروق - كما ذكر لي أستاذي في الفلسفة الأستاذ الدكتور: إمام عبد الفتاح إمام بجامعة عين شمس (مثلي الأعلى في الجد والانضباط والفكر والعطاء) هي :-

- استحالة فنية وتشمل الاختراعات كالتليفون والكهرباء واللاسلكي والغواصة والكمبيوتر.
- استحالة تجريبية مثل اكتشاف تطور قانون الطبيعة كما في اختراعات إسحاق نيوتن وألبرت آينشتاين .
- استحالة منطقية كما في التناقض المنطقي (في منطق أرسطو)، المنطق الحديث أو رياضيات أقليدس أو الهندسات اللاتقليدية .. ريمان- لوبا تشوفسكي ..... إلخ

أي أن ما يكون مستحيلاً فنيًا أو تجريبيًا أو منطقيًا لديك قد لا يكون مستحيلاً عند آخرين وهم الأبطال!!

الدراسات العلمية التاريخية والحضارية يجب أن تكون حيادية ولا تقبل أنصاف الحقائق ولا تخضع لمغازلة رجل الشارع الذي لا يقرأ، ولذا التزمت بالتنوع في عرض الشخصيات وفضَّلتُ أن تكون تلك الدراسة تغطى الـ ٤٠٠ سنة السابقة عن أيامنا هذه فقط؛ لأن الأقدم من ذلك كثرت فيه الكتابات الأخرى ، ولأن الشباب يحتاج إلى نماذج واقعية قريبة للتمثل بهم وأيضاً كما قال الفيلسوف الألماني نيتشه :"يجب استدعاء بعض الماضي الحديث القريب منا؛ حتى لا نغوص في الماضي السحيق دائماً".

وأخيراً أتمنى أن ينال هذا العمل رضا القراء من الشباب، كونه عملا لا ينتمي إلى جنسية أو قارة محددة ولا دين محدد ولا وجهة نظر أحادية الرؤية، بل اعتمد على نجاح شخصياته في الإنجاز وليس على وجهة نظري لهم أو تأييدي أو عدمه لمواقفهم ، فهم أنجح منى أنا شخصيًا، وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أنتقي الكلمات بأسلوب الصحفي، وأفكر بأسلوب المؤرخ، وأعرض الحقائق بالأسلوب الأكاديمي العلمي وأعتذر مسبقاً عن الاختصار في سيرة الشخصيات في هذا العمل، حيث إن سيرة حياة كل منهم تلزمها كتابا كاملا، واضطررت أن يحوي العملُ مائة شخصية، والحقيقة إنهم يجب أن يكونوا أكثر من ألف شخصية، لكي أعطى للشباب نبذة سريعة عنهم، على أن يرجعوا بعد ذلك للمراجع العلمية والكتب الكاملة التي تحتوى على كامل سيرتهم وأعمالهم.

وأتمنى من أبنائي وأحفادي الشباب أن يضعوا بين أيديهم هذه الأبيات الشعرية التي أهداها لي أستاذي الفاضل في الشعر ، الشاعر الكبير محمد إبراهيم أبو سنة والتي تدعو لعدم اليأس وإلى الثبات في المواقف الصعبة التي يقابلونها في حياتهم ولا ينظرون للعثرات الماضية ، وتطوعت بدوري أن أهديها لكم في نهاية المقدمة والتي تقول من قصيدة (علِّم القلب الثبات):

عـلِّـم القلـب الثبـــات   فالـذي لا شك يأتي هو آت

والـذي فـات (ابكه ما شئـت .. فـات)

إن نهـراً جـف لا تغريـه أشـواق النبـات

علِّم القلب الثبات حين تأتي العاصفـات

أو تدوي الزلزلات

واطرح الخوف من الليل وحدق في ظلام عابر

وتأمل كيف تنمو الأمنيات

في صباح أبيض مثـل جواد راكض عبر فجاج الفلوات

عـلِّـم القلـب الثبـــات   عـلِّـم القلـب الثبـــات

والله الموفق

د.أحمد سلامة

الفصل الأول

مفكرون لم يعرفوا المستحيل

1



الإمام محمد عبده

"منارة التحديث والتجديد الفقهي في العصر الحديث"

الإمام الراحل محمد عبده ظاهرة فكرية ودينية واجتماعية لم تتكرر في المجتمع المصري على مدى عدة قرون؛ فعقليته تميزت بالتدين والواقعية والعلم والبساطة مع الحثِّ على العمل والإتقان والرحمة والنظام في مجتمعٍ لا يقرأ، ولك أن تتصور إذا تعرض رجل دين ذو تفكير عصري وحديث إلى هجوم شديد من أقرانه رجال الدين وزملائه في المهنة، ثم وجد المجتمع المحيط به لا يتقبل أفكاره العصرية، ومع ذلك ثبت على موقفه وكأنه يسبح ضد التيار، أليس ذلك يعتبر تحدياً منه للمستحيل؟

وإذا قرأنا مقالاته التي تشبه جرس المنبه مثل: "ما أكثر القول وما أقل العمل" وهي المقال المنشور في جريدة الوقائع المصرية في ١٥ يناير عام١٨٨١ ميلادية ومقاله "عن التدين" المنشور في الوقائع المصرية في ٢٠ يناير سنة١٨٨١ ومقالاته وكتبه عن "إحياء علوم الدين"، "وقيمة المعرفة في المجتمع" المنشورة في جريدة الوقائع المصرية في ١٩فبراير عام١٨٨١، كما ذكر أستاذنا الجليل الأستاذ الدكتور محمد عمارة في كتابه العظيم عن الإمام محمد عبده "الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده" الذي طبعته ونشرته دار الشروق بالقاهرة في سلسلة كتب التراث عام٢٠٠٩ والذي أعتبره من أعظم إصدارات دار الشروق العتيقة التي نترحم على مؤسسها الوالد المفكر المرحوم محمد المعلم [رغم ما عاناه من تأميم لممتلكاته وهجرته الإجبارية إلى لبنان والبدء من جديد في إصدار الأعمال الأدبية القيِّمة التي أفاد بها جيلين أو ثلاثة من المصريين والعرب، ثم تولى أبناؤه تكملة المسيرة فيما بعد حتى يومنا هذا]. كيف

استطاع الإمام المفكر محمد عبده أن يتحدى تلك المستحيلات التي صادفته؟

كان أصعبها أن ترى البعض من الناس لا تميل نفوسهم إلى سماع نصيحة تنفعهم لو وعوها، وينفروا من الأقوال الجديدة على مجتمعهم؛لأنها تخالف صفات ألِفوها ويولوا وجوههم عندما يرتفع إلى أسماعهم شيء من ذلك ويحاولوا توجيه النقد إلى مقالاته، أي أن الإمام محمد عبده كان يتحدى الجهل المجتمعي ومظاهر التدين الزائفة في الدولة المصرية المحتلة بواسطة الإنجليز الذين كانوا يحفرون للمجتمع المصري دروب الطائفية والجهل والدروشة حتى لا يظهر فيه من يعود بالمصريين إلى صحيح الدين الإسلامي.

ولكن ظهر في عهدهم بطلٌ استطاع أن يتحدى المستحيل فكريا واجتماعيًّا ودينيًّا هو: "الإمام محمد عبده" رحمة الله عليه؛ ليستكمل الدور التنويري الذي بدأه جمال الدين الأفغاني.

وكما ذكر الأستاذ الدكتور محمد عمارة : إن من يبتعد عن قراءة كتب الأخلاق والفضيلة هو إنسان يخشى أن يجد فيها من صفات اجتماعية من رقى وكمال وآداب هو بعيد عنها فيخاف أن يفتضح أمره أمام نفسه، حيث إنه سيجد نفسه بعيداً عن تلك الصفات".

وأعتقد - والعلم عند الله - أن تلك كانت معضلة ظهور أفكار الإمام محمد عبده في القرنين التاسع عشر والعشرين في مجتمع لا يريد أن يواجه نفسه بالحقائق ويُفضِّل الكسل والعيش في الأوهام والتواكل... على أن يعمل بجدية ويبتعد عن الطائفية متوكلاً على الله عز وجل.

ولد الإمام محمد عبده أكبر أئمة الفقهاء المسلمين المجددين في العصر الحديث، بقرية "محلة نصر" بمحافظة البحيرة بمصر وكان والده من المزارعين الميسورين وتلقى تعليمه الأولي في الكُتَّاب وحفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة وبعض التفاسير ثم التحق لمدة عام بالجامع الأحمدي في طنطا لتلقي العلوم الدينية ثم التحق بالأزهر الشريف عام١٨٦٦ واستكمل تعليمه لمدة أحد عشر عاماً إلى أن حصل على شهادة العالمية (توازى شهادة الدكتوراه العلمية)، عُيِّن مدرساً للتاريخ الإسلامي بمدرسة دار العلوم بالقاهرة (كلية دار العلوم حالياً) وكان يدرس أيضاً بمدرسة الألسن وعمل بجانب عمله مدرساً لعلم الاجتماع أيضاً ونقد فلسفة التاريخ ، ودرَّس للطلبة تاريخ ابن خلدون مؤسس علم

الاجتماع في العالم، وكان خلال تدريسه للطلبة يحاول أن يزرع في نفوسهم الهمة اللازمة لكي يرفعوا مستوى معيشتهم ويضمنوا مستقبلهم بتعلم العلوم الدينية والعلوم الحديثة ونظراً لارتباطه بصداقة فكرية مع جمال الدين الأفغاني، فعندما تم طرد الأخير من مصر عام١٨٧٩، تم عزل محمد عبده من التدريس في دار العلوم وتحددت إقامته في قريته بالبحيرة، ثم صدر له عفو عام من الخديوي توفيق بعد عام وعيَّنه الخديوي توفيق محرراً بجريدة "الوقائع المصرية" ثم أصبح رئيساً لتحريرها واستطاع من خلال مكانه هذا أن ينشر أفكاره التقدمية والحديثة منطلقاً من إطار الفقه الإسلامي السني نفسه لتطوير المجتمع ، ودعا إلى الأهمية القصوى للتربية والتعليم باعتبارهما الأداة الرئيسة لتحقيق صحوة عقل الأمة الإسلامية وإكسابها القوة اللازمة للنهضة ودعا إلى حكم القانون وتحديد الحقوق والواجبات اللازمة للنهضة اللازمة للأفراد في المجتمع باعتبار أن ذلك هو الأساس السليم الأول لقيام الدولة القوية المنتجة والمجتمع الحر، وقدَّم أكثر من خمسين بحثاً في تلك المجالات جمعها ونقَّحها أستاذنا الكبير أ.د.محمد عمارة في كتابه السابق ذكره، لكن أفكاره الاجتماعية الجريئة أدخلته السجن عام١٨٨٢ بعد هزيمة الثورة العرابية رغم أنه لم يكن أحد القائمين بها، وبعد انقضاء ثلاثة أشهر بالسجن، صدر ضده حكم بالنفي خارج البلاد على أن يختار بنفسه مكان نفيه، فاختار باريس وأمضى بها عدة سنوات وأصدر جريدة "العروة الوثقى" والتي توجهت إلى جميع الشعوب الإسلامية وإلى المثقفين العرب والرأي العام وفي عام١٨٨٥ قرر العيش والعمل في لبنان وعمل مدرساً للتاريخ والفقه بالمدرسة السلطانية، ثم صدر عفو عنه من الحكومة المصرية عام١٨٨٩ وعاد إلى مصر حيث عمل في محكمة بنها ثم المنصورة ثم القاهرة واستغل تلك الفترة في الكتابة والعمل وشرع في تفسير حديث للقرآن الكريم أكمله بعد وفاته تلميذه السوري الشهير الشيخ رشيد رضا.

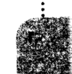
أصبح الإمام نائباً لرئيس محكمة الاستئناف عام١٨٩٥ وفي عام١٨٩٩ اختاره الخديوي عباس حلمي الثاني مفتياً للديار المصرية وظل بهذا المنصب حتى وفاته عام١٩٠٥، وكانت تلك الفترة أكثر الفترات ثراءً في تاريخ الفكر الإسلامي في القرن التاسع عشر والعشرين، حيث دعا الإمام محمد عبده إلى إعمال العقل في النص والاعتماد على التأويل لتقريب المعنى من أصول الفكر العقلي، ودعا إلى تجديد الاجتهاد في تفسير النصوص بعد أن توقف الاجتهاد لأكثر من ألف عام، والتزم في اجتهاده بالأسس المتفق عليها لفقه أئمة أهل السُّنة

وعلم الأصول لديهم وجمع في اجتهادا ته بين الإمام أبى حنيفة، والإمام الشافعي والإمام مالك أساساً واستفاد أيضاً في بعض الاجتهادات من فقه الإمام أحمد بن حنبل، ودعا إلى تحرير العقل الإسلامي وإحياء مدرسة الاجتهاد التي كان آخر من دعا إليها هو المرحوم الشيخ حسن العطار وأفتى بصحة الادخار بهيئة البريد والبنوك، وهو ما ساعد على تأسيس النهضة الأولى للاقتصاد المصري واستثمار المدخرات لإنشاء المصانع وإيجاد فرص العمل للمجتمع المصري فيما بعد.

أي أن الإمام الشيخ محمد عبده كان مصلحاً اجتماعيًّا وإماماً صادقاً في دعوته للنهوض بالعالم الإسلامي علميًّا واقتصاديًّا؛ حتى يصبح المسلمون قوة مؤثرة يهابها العالم، وكان يقول :"**إنما بناء الباطل يتم في غيبة الحق عنه**" ولذا كانت دعوته إلى العلم والتعليم حتى يتعلم الناس حقيقة الدين ويبتعدوا عن الخرافات والشعوذة والكلام في السحر والأعمال السفلية وتفسير الأحلام والتواكل.

إن أهم ما ركن إليه محمد عبده في كتاباته هو الفرق بين التوكل والتواكل، ففي بعض الأحيان إذا لاح في ذهن الواحد منا نور إلهي يرشده إلى فعل شيء مَّا مفيد في العلم أو العمل أو الحرص من الحوادث والمصائب، يأتيه معارض يقول له : إن الإنسان في حالته القادمة لن يرى إلا ما قدَّر الله له ولا حيلة لنا فيها؛ فالمرء متوكل على الله، مُسيَّر بحسب القدرة، فعلينا بتسليم أمورنا إليه تعالى، والتوكل عليه. وبذلك ينطفئ النور الذي لاح بذهنه، وبعد أن كان قد خَطَر بباله داعي العمل والحرص والحذر، ينزع إلى البطالة والكسل، والعجب أنهم يظنون أن ذلك يُعد توكلاً على الله ولكنه تواكل ووساوس يعتقدون أنها من العقائد الدينية، والدين يتبرأ منها، وما للدين عدو آخر من أمثال هذه الاعتقادات، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال (إن المؤمن "كَيِّسٌ فَطِنٌ") أي عاقل متزن ذكى يعرف مصلحته ويأخذ حذره عند اللزوم ولا يترك الأمور تسير من دون فكر وتخطيط اعتمادا على القدرية، وكذلك كان أصحابه الكرام وتابعوه من المسلمين الحقيقيين .

وفي معاملة أصحاب الديانات الأخرى رأى الإمام محمد عبده أن التعاون والتسامح واحترام عقيدة الآخرين أهم أسس السلام الاجتماعي بين الدول وفي داخل الدولة الواحدة؛ لأن أساس فكرة أن الدين معاملة وعلاقة بين العبد وربه، والعقيدة طور من أطوار هذه



العلاقة ويجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب، فهو الذي يحاسب عليها، وأما المخلوق، فلا تطول يده إليها، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل، ويعلم الجاهل وينصح ويرشد الضال. لا يكفر في ذلك نعمة العشير ولا يسلك به مسالك التعسير، ولا يقطع أمل النصير ولا يحيد عن شرائع الصدق في الولاء، ولا يجادل كثيراً فيما يعتقد أنه الحق المطلق في نظره، ولا يُسفِّه من آراء وعقائد الآخرين، فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال والصبر، فعليه أيضاً أن يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه في عقيدته ودينه وملته، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته، (وأعتقد أن رأى الإمام محمد عبده في هذا المجال يليق بنا أن نتعمق في فهمه ودراسته هذه الأيام؛حتى لا يقف المسلمون في مواجهة كل الأديان والملل والعقائد ويعطوهم الفرصة للاجتماع عليهم).

كان الإمام محمد عبده يؤمن أن عنوان أي دين هو حقيقة من يظهره معتنقو هذا الدين من أخلاق ومعاملات وفضائل ولذلك كانت دراساته الاجتماعية والإنسانية تحثُّ على التمسك بثوابت الدين الإسلامي أولاً ثم التحلي بأخلاقياته في الجد والعمل والأمانة والصدق والمحبة حتى إنه عندما سافر إلى أوروبا ثم عاد إلى مصر قال قولته الشهيرة التي يعرفها كل الناس :"رأيت هناك إسلاماً بلا مسلمين ورأيت في معاملاتنا في بلادنا مسلمين بلا إسلام".

كانت ظهور أفكار الإمام الشيخ محمد عبده في أوائل القرن العشرين فاتحة خير على المجتمع المصري، رغم ما عاناه صاحب هذه الأفكار من هجوم وسجن ونفي خلال فترة حياته ولكن حيث إنه تولى منصب المفتي الأكبر لمصر في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني، بدأت براعم المصريين المتعلمين حديثاً وخريجي الجامعة الأهلية وخريجي الجامعات الأوروبية يحملون عبء تطبيق مفاهيمه الحديثة في الدين والعمل والتقدم والتحرر من الاستعمار البريطاني وذلك بعد وفاته عام١٩٠٥ ، مما كان له أبلغ الأثر في رفع درجة الوعي الشعبي والمجتمعي الذي تكلل ببدء تعليم المرأة وثورة١٩١٩ ووضع دستور١٩٢٣ وقيام نهضة تعليمية وصناعية مميزة بعد أن قام المصريون بالادخار في بنك مصر الجديد الذي أنشأه طلعت حرب ، والذي أحدث ثورة صناعية جديدة في مصر على مدى عشرين عاماً ، وذلك نتيجة لفتوى الشيخ محمد عبده، بعد أن كان المصريون ينفقون دخلهم الزائد عن حاجتهم

على المخدرات والمسكرات وتعدد الزوجات والملاهي الليلية بالأزاريطة وروض الفرج وشارع عماد الدين والعوامات النيلية في العجوزة والجيزة والزمالك، أو في لعب القمار الذي أدخله المقيمون من الأجانب على المجتمع المصري، ونلاحظ أن المجتمع المصري تغير إلى الأحسن في فترة العشرينيات والثلاثينيات وظهر شباب رجال الأعمال الجدد مثل عبود باشا وسيد جلال وعبد اللطيف أبو رجيلة والسيد ياسين وسباهى باشا وغيرهم ، وكل ذلك ناتج عن زيادة الوعي الشعبي عندما عرف المصريون حقيقة مبادئ الدين الإسلامي وأنه دين عبادة وعمل وأمانة ومعاملات، كل ذلك من جراء تصدي رجل مسلم حقيقي تصدى للجمود الفكري الذي أصاب العالم الإسلامي ودعا إلى التمسك بمبادئ الإسلام الصحيحة البعيدة عن الغلو والتشدد ودعا إلى احترام عقائد الآخرين والتعامل معهم بالحسنى كما أوصانا رسولنا سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ولم نر نداءات التطرف والعصبية في عصر الإمام محمد عبده ولا بعده بخمسين عاما وقد كرَّمته جامعة الأزهر بأن أطلقت اسمه على إحدى قاعات التدريس بالجامعة؛لأنه كان ابناً وفيًّا من أبناء الأزهر الشريف وحافظ على وسطية الإسلام التي التزمت بها جامعة الأزهر منذ إنشائها.

تُوفي الإمام محمد عبده عام١٩٠٥ إلى رحمة الله، ونعته مصر كلها كأحد رجال الدين المصلحين والمجتهدين الذين يندر أن يجود بمثلهم الزمان.

2



أرنولد توينبي

"التحدي والاستجابة .. نهوض وسقوط الحضارات"

العالم الإنجليزي أرنولد توينبي أستاذ التاريخ في جامعة لندن ، وأكبر مؤلف لكتب التاريخ الحديثة ، ويعتبر أول وأشهر من درس نمو وازدهار الحضارات عبر عصور التاريخ وأسباب انحدارها، والتي دائماً ما تأتى نتيجة محاولة ورغبة مؤسسيها أو وارثيها في الاستئثار بالسلطة المؤثرة أو على الثروة التي أنتجتها تلك الحضارة أو إلى جنوح تلك الحضارات إلى التقليل من شأن المنافسين الجدد لها، وكان أول من تنبأ ببزوغ فجر آسيا وظهور النمور الآسيوية في القرن العشرين متخطية حضارة الغرب ، بل ومتفوقة عليه وكان نداؤه هذا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.

ونادى في الغرب بالتعدد والتفاعل مع الحضارات الأخرى؛ فقد كان يؤمن بتكافؤ الحضارات وينظر إلى الأمور من منظور تعددي لا عنصري، مما جعل الغرب يهاجمه حتى إن الفيلسوف الشهير برتراند راسل قال:إن أرنولد توينبي "ثمرة غير شرعية للإمبراطورية البريطانية".

وهاجم توينبي الاستيطان اليهودي في فلسطين وكان له موقف ثابت أثناء الحرب الباردة ولم يغيِّر من أفكاره التي بناها على دراسته المتعمِّقة في التاريخ وأصدر على أساسها مرجعه العلمي الهائل "**دراسة في التاريخ**" المكون من عشرة أجزاء وقال إن التقدم أو التأخر والبناء أو السقوط والنجاح أو الفشل يتلخص في كلمتين هما: "**التحدي والاستجابة**" وهما كلمتان تعبران عن الحياة بمفهومها الواسع في جميع المجالات والتي منهما اشتققت

عنوان وفكرة هذا الكتاب لأن النجاح هو نهاية من يستجيب للتحدي الذي يواجه الفرد في حياته.

ولد أرنولد توينبي في بريطانيا عام ١٨٨٩ وتلقي تعليمه في إنجلترا واليونان وفي كلية ترينتي وقدَّم أطروحته لنيل درجة الدكتوراه عن التاريخ البيزنطي والحضارة اليونانية القديمة وأصولها في الشرق الأوسط والشرق الأدنى ومصر وفينيقيا وتركيا وسوريا ولبنان وعن كيفية تفاعل تلك الحضارات المجاورة مع الحضارة اليونانية ، وعن مدى التفاعل والتنافس والتجانس والاختلاف والاتفاق بين تلك الحضارات، وأثبت أن الحضارات السابقة كانت تبدو متنافسة مع بعضها الآخر، ولكنها تفاعلت واستفادت من إنجازات الحضارات السابقة عليها حتى وإن كانت قد دمرتها مثلما حدث مع الحضارة اللاتينية التي قضت عليها الحضارة الأوروبية والجرمانية أولاً، ثم عادت للاستفادة من مبادئها مرة أخرى في عصر النهضة الأوربية الحديثة، بعد أن قام العلماء والفلاسفة العرب في الأندلس بإعادة شرح وتفسير فلسفة أرسطو وأفلاطون ونقل علوم أرشميدس وأبوقراط وغيرهما، ونقل تلك العلوم إلى أوروبا من خلال كتابات ابن رشد وأبي حيان التوحيدي وابن خلدون والفارابي وغيرهم .

وتخصص أرنولد توينبي في دراسة الحلقة الضائعة بين الحضارات وأثبت أنها تتكامل ولا تتنافس وأن سبب سقوط وانهيار الحضارات يأتي من داخلها أولاً وركز على الجانب التحذيري من سقوط الحضارات خلال دراسته لإحدى وعشرين حضارة كبرى عبر التاريخ، رأى أنها جميعاً مرت بنفس المراحل: الميلاد فالنمو فالسقوط والتفكك، وهي المرحلة التي يسودها الاضطرابات ثم تليها مرحلة الدمار النهائي، وأن كل الحضارات تبدأ في النمو عندما تتكون دولة شاملة تشارك في تكوينها عناصر اجتماعية عديدة (ثقافية - تربوية - علمية - اقتصادية - بشرية) مع الاحتفاظ بقوة عسكرية لحماية نشوء وارتقاء الحضارة، ولكن سقوط الحضارات يرجع إلى رغبة العنصر الأقوى من المؤسسين للاستئثار بالسلطة المؤثرة أو على الثروة، ومن هنا دائماً ما يأتي السقوط من الداخل .

وأدرك أرنولد توينبي أن أي حضارة أو تكتل أو أمل في البناء يواجه نوعاً من التحدي وأن الاستجابة لذلك التحدي هي التي تحدد مسار الحضارات ومن هنا أصدر كتابا فحواه

"التحدي والاستجابة" والذي يعتبر من أهم المنجزات الأدبية في القرن العشرين، لأنه قال: "إذا نجحت الاستجابة قامت الحضارة".

حذر أرنولد توينبي في كتاباته من تهميش دور الأقليات في المجتمعات ورأى أن: "الأقليات المبدعة غالباً ما تبتكر الحلول العملية لمشكلات المجتمع وتقود عملية تنفيذها أو تطويرها، وهذه الأقليات غالباً ما تُقدِّم أفضل استجابة للتحدي الرئيسي (في الحكم والتشريع والاقتصاد والحرب والتنظيم) وغالباً ما تكون هي القوة الدافعة العملية الرئيسة لحركة النمو .

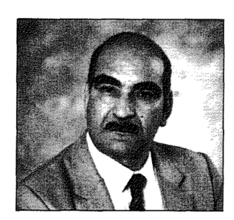
وكانت تلك الآراء العظيمة والجريئة تعتبر جديدة على دارسي علم الاجتماع السياسي ولكن أرنولد توينبي وضع لها تفسيراً منطقيًا مقنعاً عظيماً وهو أن الأغلبية أو "البروليتاريا" يتضخم حجمها وعددها وتعتبر أغلبية رقمية ذات قدرات ومواهب محدودة وعاجزة عن الاستجابة الصحية والسليمة للتحدي الرئيس؛ لأنها ترتكن وتطمئن إلى أغلبيتها العددية، ثم يحدث تضاؤل لدور الأغلبية المبدعة التي تؤسس للدولة الشاملة التي تقوم عليها الحضارة، وقد قرأت سابقاً رأياً مشابهاً لذلك الرأي في كتابات أفلاطون الفيلسوف اليوناني العظيم والذي حذر فيه مما يسمى بـ**"ديمقراطية الغوغاء"** ومعناها أن يحاول الحاكم استحضار من لا يعرفون في إبداء الرأي فيما لا يعرفون - وأيده في هذا المنطق الحكيم الصيني كونفوشيوس، عندما رأى أن جموع المواطنين عليهم أن يعملوا بجد واجتهاد تحت راية قائد يثقون به، وليس لهم الحق في معرفة أسرار وخبايا وتفاصيل كل شيء في الدولة (من كتابي السابق ٣٠٠٠ نصيحة وحكمة ومثال عبر العصور والأجيال) - دائرة معارف أخلاقية صغرى، وحتى نظام الشورى في الإسلام يتولى أمورها أهل الحل والعقد فقط، وكذلك انتخابات المجلس الملي لدى الأقباط.

اللافت للنظر أن تأثير فكر أرنولد توينبي التاريخي كان أوسع وأكثر عمقاً على المثقفين منه على المؤسسة الأكاديمية لعلم التاريخ، لأنه عاصر أيام الاستعمار والحرب الباردة والحربين العالميتين وعاش وكأنه يؤذن في مالطة، ثم بعد ذلك عند العودة لدراسة مؤلفاته في علم الحضارات والتاريخ المقارن والمنظور التعددي للتعاون بين الحضارات القائم على مبدأ التكافؤ بين الحضارات وضرورة إيجاد أرضية عادلة مشتركة ومنهج محايد وموضوعي

لدراسة كل منها وفهمها الفهم الصحيح، أصبحت آراء ومفاهيم أرنولد توينبي هي الوصفة السحرية في العلاقات الدولية والتي أنهت النعرات الكاذبة القائمة على تفوق جنس على جنس وأدت إلى الحروب بين الدول الأوروبية .

وحين صدقت رؤيته بأن النهضة القادمة في النصف الثاني من القرن العشرين ستأتي من الدول الآسيوية وعلى رأسها اليابان والصين والهند، أدرك الجميع أن أرنولد توينبي لم يضيع عمره هباءً واعتبره المفكرون أعظم فلاسفة التاريخ في القرن العشرين لأنه أرسى مبدأ "التحدي والاستجابة" إن كان "بنعم" فمعناه الحضارة والبناء وإن كان بـ"لا" فمعناه السقوط والانهيار، ولم يلتفت كثيراً لمعارضيه ؛ لأنه كان من "الأقلية المبدعة".

3



الدكتور
محمد عابد الجابري

"شعاع الفكر المُشرِق في المغرب العربي"

الدكتور المغربي محمد عابد الجابري ليس مشروعاً فكريًّا فقط، بل هو مشروع حياة تعبر عن مرحلة بأكملها في تاريخ العرب المعاصر، مثل المراحل التي مر بها الوطن العربي في طريقه للتحديث والتنوير منذ أوائل القرن التاسع عشر وتكالبت عليه قوى الاستعمار لتمزيق دولة الخلافة أولاً ثم الانقضاض على صحوة التحديث والعمران التي بدأها محمد علي باشا ورفاعة الطهطاوي، وذلك بإعادة بث الفتن والخرافات والمفاهيم المغلوطة في الدين لإبعاد الشعوب عن أجيال المثقفين الجدد في كل من مصر والشام واليمن والمغرب العربي؛ حتى لا يظهر حلم النهضة الثقافية مرة أخرى في العالم العربي، ومع ذلك ظهرت عبقريات وطفرات فكرية في تلك البلدان وتصدت بجسارة لمحاولات تغييب العقل العربي ومن هؤلاء المفكر الكبير والفيلسوف المغربي الدكتور محمد عابد الجابري الذي قال عنه المفكر الكبير الأستاذ الدكتور حسن حنفي أستاذ علم الاجتماع بالجامعات المصرية: "لا يكون الشاب العربي مفكراً إلا إذا عَرج على الجابري"، وذكره في خطابه وأشار إلى مشروعه وحاور "نقد العقل العربي" إعجاباً أو نقداً. كما ورد في مجلة العربي الكويتية عدد٦٢٤ - نوفمبر٢٠١٠ .

فمن هو هذا الكاتب الفيلسوف الذي تصدى للمستحيلات ليعرفنا بأنفسنا؟

ومن المعروف أن أصعب شيء هو أن تواجه شخصاً مّا بحقيقته وبالصراحة والصدق والحكمة اللازمة لذلك، لأن أول مراحل التقدم هي أن يعرف الفرد نفسه أولاً ثم يطوِّرها بعد ذلك وذلك هو شبه المستحيل الممكن تحقيقه.

كان منهج الدكتور محمد عابد الجابري هو تحرير العقل العربي من تبعيته الفكرية للمبادئ التي لا تتفق والبيئة الشرقية والإسلامية ، وفي نفس الوقت تحريره أيضاً من الجمود الفكري والتشدد الديني الذي أصاب أبناءه ومن هنا جاءت المعضلة الكبرى في حياته؛ لأنه أراد أن ينفذ إلى المجتمع العربي والإسلامي عن طريق كتب الفلسفة المقررة على الثانوية العامة خلال كتابين أصدرهما قبل أن يحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة عام١٩٧٠ من جامعة دمشق وكانا تحت عنوان: "دروس الفلسفة لطلاب البكالوريا" والثاني "الفكر الإسلامي لطلاب البكالوريا" عام١٩٦٦، وميَّز فيهما بين الفلسفة الغربية والفلسفة الإسلامية؛ لأن علم الفلسفة هو علم التفكير واستعمال العقل، فلا يمكن أن ينشأ جيل سليم من دون القدرة على استعمال العقل والفكر، وبروح المجتمع الذي يعيش فيه الفرد حتى لا يُصاب المجتمع بالازدواجية والتشتت الحادثين الآن بأننا نعيش في مجتمع شرقي يتحدث ويتعامل ويُعجب بروح المجتمع الغربي، ، ومن هنا بدأ الدكتور محمد عابد الجابري يضع اللمسات الأولى لمزج الفلسفة بالعلم في كتابه الصادر عام١٩٧٦ تحت عنوان: "مدخل لفلسفة العلوم"وتكلم فيه عن تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة والمنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، ووضع مشروعاً تربويًّا يعتمد على الوعي وذلك عندما تولى مسؤولية التدريس بالجامعة بالمملكة المغربية، وكثيراً ما قوبلت أفكاره بدعاوى **الخروج عن المألوف مما هو معروف** وما شابه ذلك من الشظايا التي تطلق على أي مفكر مستنير وكأن الزمن يعود بنا إلى الوراء أثناء عصر ابن رشد الذي هاجمه العرب والمسلمون واستفاد منه الأوروبيون في بناء نهضتهم الحديثة .

ومن عجائب المصادفات أن البلد الذي أنجب ابن رُشد الحفيد هو البلد الذي أنجب الدكتور محمد عابد الجابري وكلاهما مفكر وفيلسوف إسلامي وقد عاشا في نفس البيئة العربية والإسلامية .

ولذلك كان مبدأ الدكتور محمد عابد الجابري هو ربط التعليم بالتفكير واعتبر أن جودة التعليم هي استكمال لحركة التحرر الوطني لبناء الحرية وذلك ما ذكره في كتابه القَيِّم "رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية" الصادر عام١٩٧٧ وأبرز فيه مفهوم التقدم قبل التحرر؛ لأن التقدم ضد التخلف الذي يجلب كل المصائب، حيث إن كل محاولة لإيقاظ الوعي والفكر يقابلها هجوم بضرورة الحفاظ على التراث القديم وعدم الاقتراب

منه بالاجتهاد العلمي والديني السليم حتى ليخيل لك أننا نعيش في العصور الوسطى في الفكر وبالعصر الحديث في الجسد وهذا ما عبَّر عنه الدكتور محمد عابد الجابري في رؤيته عن الانقسام الحاد في المجتمع بين الأصولية والعلمانية ، وكلاهما لا يتفق مع صحيح ووسطية الدين الإسلامي؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعلنا أمة وسطا.

قد نال الدكتور محمد عابد الجابري درجة الدكتوراه من جامعة دمشق عام١٩٧٠ وكانت أطروحته "معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي" ومشروعه الفكري الذي طرحه وطالب فيه بتحليل الخطاب العربي المعاصر وصنَّف الخطاب إلي ثلاثة أقاويل : القول الخطابي، القول الجدلي و القول البرهاني. وصاغ هذه الأفكار في كتاب تحت عنوان: "الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية" والصادر عام١٩٨٢ ودعا فيه لتحقيق الاستقلال التاريخي للذات العربية عن طريق القول، والقول فكر ، والفكر وجود.

وأصدر عام١٩٨٩ كتاباً آخر تحدث فيه عن أزمة الإبداع وإشكالية التقدم والمشروع الحضاري والروحية الاجتماعية وليست الروحية العرجاء الفارغة من أي مضمون، وتحدث فيه أيضاً عن ظاهرة وهم المستقبل في مقابل سيطرة الماضي، وهذا الكتاب صدر عام١٩٨٩ تحت عنوان "إشكالية الفكر العربي المعاصر" ثم ظهر له كتاب آخر عام١٩٩٧ اسمه "وجهة نظر، نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر" وذكر فيه نصيحة هامة جدًّا يجب على كل عربي أن يعمل بها وهي: أن تحليل الحاضر هو الذي يكشف عن حضور الماضي وضبابية المستقبل.

كان الدكتور محمد عابد الجابري مشروع نهضوى عربي عمل في صمت وتلقى الصدمات والهجوم واتُّهم اتهامات باطلة لسبب واحد فريد، وهو: أنه يُفكر ويحاول أن يُذكِّر الآخرين بأهمية التفكير ويدعوهم لدراسة الماضي للاستفادة منه وأخذ العِبر وليس للغرز فيه والبقاء في دائرة القرون الوسطى .

ولا يمكن في هذا الكتاب البسيط أن أذكر وأسرد أعمال هذه الشخصية التي أعتقد أن العالم العربي لم يستفد من أفكارها وحماسها للتطوير والنهضة، حيث كان للدكتور عابد الجابري مشروعات أخرى للنهوض بالتراث والتي ذكرتها كتبه التالية "نحن والتراث الصادر عام١٩٨٠"، "مشروع قراءة نقدية لفكر ابن خلدون"، "التراث والحداثة، قراءات ومناقشات".

وقد دعا في مؤلفاته إلى الاستفادة من التراث باعتباره تجربة حية متصلة من الماضي للحاضر وهو ما يسمى بالأصالة والمعاصرة، وطالب بعدم التعامل مع التراث بمنطق المستشرقين الذي يكشفون عنه ثم ينشرونه في المجلات العلمية العالمية ثم يعيدون تكفينه ويدفنونه مرة أخرى كما ذكر مفكرنا الجليل الدكتور حسن حنفي في مجلة العربي الكويتية.

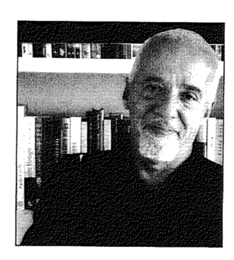
وذكر الدكتور عابد الجابري أن العقلانية ضرورية حتى يمكن في النهاية مواجهة العقل العربي لذاته، واكتشاف نفسه بدلاً من وصف الآخرين له، ومن مؤلفاته أيضاً "العقل السياسي العربي عام١٩٩٠، العقل الأخلاقي العربي عام٢٠٠١ تكوين العقل العربي عام١٩٨٤، بنية العقل العربي عام١٩٨٦، مسألة الهوية، العروبة والإسلام والغرب عام١٩٩٥، المشروع النهضوي العربي عام١٩٩٦، المسألة الثقافية عام١٩٩٤، وذكر فيه أن الإسلام وحَّدَ بين القبائل العربية بالتوحيد وجعل ثقافتهم واحدة أولاً قبل أن يوحِّدهم على الأرض.

وكانت نظرية الدكتور عابد الجابري أن **الوطن يبدأ بالثقافة أي في الوعي الثقافي في الوجدان**، وعندما يقوم المثقفون بدورهم فمهما واجهوا من محن وصعوبات من دعاة القبلية والتفرقة والتخريب، يمكن أن تنمو مظاهر نهضة عربية وذكر ذلك في كتابه "المثقفون في الحضارة العربية" الصادر عام١٩٩٥ وتحدث فيه عن محنة ابن حنبل وابن رشد وكيف أن المجتمع المعاصر لظهورهما لم يكن مستعدًّا لقبولهما.

رحم الله الأستاذ الدكتور محمد عابد الجابري الذي تُوفي عام٢٠١٠ بالمغرب الشقيق وأشعر بأننا لم نستفد من علمه بالقدر الكافي عندما كان بيننا وأعتقد أن هذا العلاَّمة الذي تحدى التخلف والجهل، يُعتبر الرجل المناسب الذي ظهر في الوقت غير المناسب مثل ابن رشد الذي احتفلنا به بعد ألف عام من وفاته.

وقد قال الإمام على رضي الله عنه: "عقل الرجل محسوب عليه من رزقه" وأستاذنا الغالي الدكتور عابد الجابري أفنى حياته في دعوته لنا باستعمال العقل وتحريره من القيود، وتحية للمملكة المغربية الشقيقة التي أنجبت مُفكراً من أهم مفكري وفلاسفة القرن العشرين في العالم العربي، لأن فلسفته كانت علما مذابا في عصير تفاح، سلس وسهل التلقي والفهم لكل أفراد المجتمع بتعبير الأستاذ يحيى حقي أديبنا ومعلمنا الكبير.

4



باولو كويلهو

"من المصحة العقلية إلى السجن إلى أشهر كُتَّاب البرازيل"

في بعض الأحيان يكون الطفل متوجهاً بفطرته إلى ما يرغب أن يكونه ويحاول الوالدان أن يغيرا تلك التوجهات خاصة لو كانت التوجهات أدبية أو روائية أو فنية، وهذا ما حدث مع الكاتب البرازيلي الشهير باولو كويلهو والحائز على عدة جوائز عالمية من مختلف القارات وإحدى مؤلفاته تم توزيع ٢٧ مليون نسخة منها على مستوى العالم وتمت ترجمتها إلى ٥٦ لغة وبيعت في ١٣٠ دولة واعتبرته الصحافة الفرنسية عام١٩٨٨ ثاني المؤلفين مبيعاً لكتبه على مستوى العالم.

هذا الكاتب الموهوب وصفته عائلته بالتمرد على الدراسة الكلاسيكية حيث كان والداه يريدان له أن يدرس الهندسة ، وهو يريد أن يصير كاتباً ويُكرِّس حياته للأدب ، وعندما عرف الوالدان أن القصص التي يكتبها ابنهما في المدرسة يرميها المدرسون في الزبالة، اعتقد الأهل أن إصراره على الكتابة هو درب من الجنون وعلامة من علامات المرض العقلي وأخرجوه من مدرسة الجيزويت التي كان يدرس بها في العاصمة ريو دى جانيرو وأودعوه مستشفى الأمراض العقلية في محاولة منهم أن يُشفَى من مرض الكتابة والأدب، وهناك في المستشفى تعرض للمعاملة القاسية التي يتلقاها المجانين وتلقى العلاج بالصدمات الكهربائية كالمعتاد في تلك الحالات وتم تهدئته وخروجه من المستشفى (وكان عمره في ذلك الوقت ثمانية عشر عاماً) بعد أن كتب تعهداً بألا يعود إلى الكتابة مرة أخرى ، لكنه عاد إلى الكتابة فتم إيداعه مرة ثانية في المستشفى العقلي ، وعندما خرج من المستشفى

تلك المرة انضم إلى فرقة من الشباب في البرازيل لفترة قصيرة وكتب لهم بعض الروايات ثم قرر أن يعمل بالصحافة كاتب فكرة وعمود، وقبل أن يجنى أية ثمرة نجاح من تلك الأعمال، عرف الأهل بالاتجاه الجديد لابنهم وأفزعهم اتجاهه للمسرح والصحافة ؛ لأنهما كانا والدين شديديْ التدين بالطائفة الكاثوليكية فأدخلاه مستشفى الأمراض العقلية مرة ثالثة تحت دعوى أن المسرح والفن هما الدليل الأكيد على الانحراف النفسي لابنهما بعد أن وعدهما بألا يعود للأدب والفن!!

وهنا تصدى لهما أحد الأطباء النفسيين وأخبرهما أنهما مخطآن تماماً في إدخال ابنهما المستشفيات العقلية؛ لأنه ليس مريضاً عقليًّا بل هو مشروع مبدع يحاول بقدر إمكانه أن يتحداهما ويتحدى معهما المجتمع الذي وضعه على شفا الجنون وما هو بمجنون وهذا هو المستحيل في حياة باولو كويلهو.

وتلك الأحداث التي مرت بها حياة هذا الرجل العظيم، أدت إلى أن يقف أحد أعضاء البرلمان البرازيلي عام ١٩٩٩ ويمسك في يديه بأحد روايات الكاتب البرازيلي والتي لاقت شهرة وتقديرا عالميين وهي رواية "فيرونيكا تقرر أن تموت" وقرأ جزءا من الرواية لأعضاء المجلس وذكر بعدها مأساة هذا الكاتب الذي تعرض لدخول مستشفى الأمراض العقلية عدة مرات بناءً على تعليمات من الأهل والشهود، وتم إقرار مشروع يمنع الاحتجاز التعسفي للمرضى النفسيين داخل المستشفيات العقلية إلا بعد موافقة الأطباء أنفسهم (لجنة طبية) .

وكان هذا القانون مدرج على جدول الأعمال منذ عشر سنوات ولم يُصدَّقْ عليه إلا بفضل مأساة وتحدى الكاتب باولو كويليو الذي أصبح أحد أشهر كتاب البرازيل بعد أن عانى الأَمَرَّين منذ مولده في ٢٤أغسطس عام١٩٤٧ بمدينة ريودي جانيرو ولم يشفع له أولاً كتاباته الشعرية والأدبية أثناء فترة الطفولة في مدرسته الأولى مدرسة الجيزويت، رغم حصوله على جائزة مدرسية ولم يشفع له ثانياً اشتراكه في الكتابة لإحدى المجلات البرازيلية الرسمية "كرينج ها" وكانت مجلة ساخرة حيث تم القبض عليه بتهمة إساءة استعمال حرية الصحافة وأودع في الحجز ثم السجن، واضطر إلى الاعتراف بأنه مريض عقلي وأودع ثلاث مرات مستشفى المجانين حتى يمكنه أن يفلت من العقاب، وبالفعل تم الإفراج عنه

وأطلقوا سراحه عندما أخبرهم بأنه مجنون.

عندما بلغ باولو كويلهو السادسة والعشرين قرر أن يتزوج وسافر إلى أسبانيا وقرر أن يعطى نفسه تجربة التعليم من جديد وقام بعدة رحلات أوروبية في كل من أسبانيا وفرنسا وأوروبا الشرقية وكذلك رحلات آسيوية، وكتب الكثير من إبداعاته الأدبية مثل يوميات محارب والكيميائي وبريدا والجبل الخامس وحقق نجاحاً مدويًّا على مستوى العالم، وفي سبتمبر عام٢٠٠٠ تم افتتاح معهد في البرازيل يحمل اسمه (معهد باولو كويلهو) وهذا المعهد يعمل حتى الآن على رعاية الموهوبين أدبيًّا ويقدِّم لهم الدعم المادي والعلمي ويقدِّم خدماته لفقراء القوم والعجزة والأطفال .

واختارت منظمة اليونسكو باولو كويلهو ليكون سفيراً فوق العادة للمنظمة في برامجها الثقافية وبرنامج الحوار بين الحضارات، وحصل على جائزة فارس الفنون والآداب من فرنسا وجائزة أخرى من ألمانيا عام ٢٠٠١ وأصبح عضواً في الأكاديمية البرازيلية للآداب ، وزار المنطقة العربية وأعجب بالأدب العربي وقال: إن الصحراء قد تكون ملهمة للأديب لأنها تساعد على التأمل والتفكير العميق والإيمان القوى وتساعد على تبسيط الأمور لا تعقيدها .

وأعجب أيضاً بالدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، وأُعجب أيضا بالثقافة المسيحية في الشرق ولاحظ أن مسيحيِّ الشرق يحافظون جيدا على تعاليم دينهم بالمقارنة بمسيحيِّ الغرب ، ثم حصل باولو على عديد من الأوسمة والجوائز من كل من إيطاليا وإيران وأيرلندا، وكتب كثيرا من الأغنيات الشعرية الرقيقة لنجوم الغناء على مستوى العالم في فترة التسعينيات من القرن الماضي (العشرين).

وهكذا كانت حياة الرجل الذي أودعوه مستشفى الأمراض العقلية ثلاث مرات ثم السجن ومع ذلك خرج متحدياً المستحيل وأثبت نفسه ونجح وحاز على الجوائز، ومُنع احتجاز البشر داخل المستشفيات العقلية من دون مبرر وبتوصية من الآخرين.





أندريه مالرو

"فرنسي يسبح ضد التيار .. ويطالب بإنهاء الاستعمار"

المفكر والمثقف الكبير أندريه مالرو يعتبر من ألمع كُتَّاب الرواية وأصحاب الفكر الراقي إن لم يكن أشهرهم خلال القرن العشرين من حيث مواقفه الإنسانية والحميمة تجاه أمور هامة مثل: حرية الشعوب في نيل استقلالها من الاستعمار الفرنسي، ومواقفه الجريئة تجاه الاستماع إلى صوت الشباب الصاعد من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وأخيراً تنبيهه لموقف تكامل ثقافات الحضارات المختلفة والابتعاد عن العنصرية، محتملاً في ذلك كل المصاعب والآراء التي هاجمته ومتعاوناً مع الرئيس الفرنسي العظيم الراحل شارل ديجول في مسارهما لوضع رؤية ثقافية حديثة وبناءٍ حضاريٍّ جديدٍ للشعب الفرنسي بعد الحرب، وتحدى الجميع حتى وصل إلى درجة وزير الثقافة الفرنسي فأحيا الآمال في أن تظل الدول الناطقة بالفرنسية والتي كانت مستعمرات فرنسية سابقاً على علاقات وطيدة بفرنسا فيما يسمى الآن بمنطقة الدول الفرانكفونية والتي رأسها سابقاً الوزير والسياسي المصري الكبير الدكتور بطرس غالي بعد أن ترك منصبه كأمين عام لمنظمة الأمم المتحدة.

ولد أندريه مالرو في فرنسا عام١٩٠١ بمدينة باريس العاصمة لعائلة ثرية ما لبثت أن افتقرت؛ ولذلك نشأ يكره طفولته من كثرة الصعاب والمشاكل التي واجهت عائلته، مثل إفلاس جده وانتحاره فيما بعد، ثم إقدام والده على الانتحار أيضاً ولم يكن الطفل أندريا قد تجاوز الثانية عشرة من عمره كما يحكي في كتابه "اللامذكرات"، أرَّقَه توالى الانتحارات في عائلته وكان يسأل نفسه وهو صغير: هل الانتحار أمر من أمور الشجاعة والإحساس

بمسؤولية الفشل في شيء ما ويستحق منا أن نحترم من أقدم عليه! أم أنه نوع من الهروب من المسؤولية ومن الحياة لشخص لم يُحسن تدبير الأمور وأنهى حياته بطريقة تغضب الله ولا تحل مشكلة ؟

وأعتقد أن المشاكل في الطفولة المبكرة أعطته القدرة على الصلابة والمواجهة والإنجاز لمدة خمسة وسبعين عاماً بتواضع لم نرَ له مثيلاً وكان يكره أن يلقبه أحد بالكاتب والفيلسوف العظيم مردداً على أسماع الجميع مقولته الشهيرة: "الحق أنه ليس بين الناس أشخاص عظام".

كانت فلسفة حب الحياة والحرية هي التي تدفعه إلى محاولة إهدائها للآخرين أيضاً، فقد وقف موقفاً صلباً من أجل استقلال جمهورية الجزائر وعضد موقف الرئيس الفرنسي شارل ديجول في ذلك واحترم ثورة الجزائر وثوارها وتقابل مع بعضهم بصفته مثقفاً فرنسيًّا قبل أن يصبح وزيراً للثقافة ؛لكرهه إراقة الدماء والموت في الحروب بعد أن فقد شقيقيه في الحرب العالمية الثانية وفقد معظم أصدقائه قائلاً: "لم يعد لي أصدقاء، فكلهم قد ماتوا في المقاومة السرية وفي الثورات"، وعاصر خلال حياته عدة حروب واشترك فيها مثل الحرب الأهلية الصينية أعوام (١٩٢٥ - ١٩٢٧) والحرب الأهلية الأسبانية أعوام(١٩٣٦-١٩٣٩) واستُدعى مرة أخرى للخدمة العسكرية في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ والتحق بفرقة الدبابات الفرنسية وأصيب في يونيو عام١٩٤٠ ولكنه عاد إلى الجبهة بعد أن شُفي من الإصابة وأسره الألمان وتمكن من الهروب من الأسر وانضم إلى قوات فرنسا الحرة وأصبح قائداً من قادة حرب العصابات في حركة المقاومة الفرنسية وأطلقوا عليه اسم الكولونيل "برجيه".

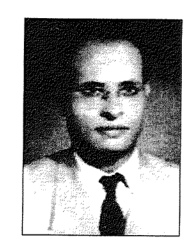
وفي عام١٩٤٤ أسره الألمان مرة ثانية وبقي في الأسر إلى أن حررته قوات فرنسا الحرة عام١٩٤٥ وقام بعد ذلك بتكوين "لواء الألزاس يورين" الذي حرر إقليم الألزاس وهناك تعرف على الجنرال ديجول قائد الجيش الفرنسي وقائد المقاومة، وواصل تقدمه في الأراضي الفرنسية مع الجيش الفرنسي حتى وصل إلى مدينة نورمبرج الألمانية وهي المدينة التي أقيمت بها محاكمة نورمبرج الشهيرة والتي مَثُل أمامها أقطاب النازية عام١٩٤٦ لمحاسبتهم على الجرائم التي ارتكبوها في حق الشعب الألماني والشعوب الأوروبية وروسيا والجالية

اليهودية في أوروبا التي تسببت فيما بعد في نكبة فلسطين .

من يصدق أن تلك الأحداث كانت نصف رحلة عمر أندريه مالرو المتخصص في اللغات الشرقية والفيلسوف والروائي الكبير وحارس تقاليد الثقافة الفرنسية وعالم الآثار وناظم الشِعر والثائر على الاستعمار، الذي أحب الحياة والسعادة للآخرين رغم ما مر به من ظروفٍ قاسية خلال النصف الثاني من عمره، وتمثلت في مصرع زوجته في حادث قطار وموت ولديه في حادث سيارة، ولكنه كان أقوى وأصلب من مصائب الدنيا التي حامت حوله منذ أن كان طفلاً، وعاش حياة جديدة بعد الحرب العالمية الثانية وانسلخ من الجيش ومن شخصية الكولونيل "برجيه" وعُيِّن ملحقاً ثقافيًّا لمجلس الوزراء الفرنسي ثم وزيراً للاستعلامات عام١٩٤٦ وكوَّن ما عُرِف باسم "تجمع الشعب الفرنسي" وهو نواة الحزب الديجولي وتعرض لمحاولة اغتيال، نجا منها عام١٩٤٧ ثم عمل وزير دولة للثقافة في وزارات الرئيس ديجول الأخيرة في الفترة من عام١٩٥٨ حتى عام١٩٦٩، وعلى إثر استقالة الرئيس ديجول ترك العمل السياسي وتفرغ لاستكمال مسيرته التثقيفية والأدبية في المجتمع الفرنسي والأوروبي والعالمي .

كان طوال عمره ثائراً مثقفاً متفائلاً ينظر إلى الموت على أنه أهم وأصدق الحقائق على وجه الأرض ولكن الحياة أيضاً يمكن أن تصبح جميلة ومهمة إذا أسعدنا الآخرين معنا، وقال ذلك في فلسفته العميقة: "إنني أعي جيداً الوضع الإنساني الذي نسيجه القلق واليأس، ومصيره العذاب والموت ورغم علم الإنسان أن الحياة تافهة، إلا أنه يؤمن أنه:" **إذا كانت الحياة لا تساوى شيئاً، فإنه لا شيء يساوى الحياة، وفي حضرة الموت فقط يمكن أن تقاس الحياة قياساً صادقاً**".

6



الدكتور جمال حمدان

"عبقرية نادرة .. شخصية مصر .. وضحية الفكر والتفكير"

ابن مصر الريفي الأصيل الدكتور جمال حمدان الذي ولد في محافظة القليوبية عام١٩٢٨، صار أحد أبرز نجوم الفكر الاجتماعي والجغرافي في القرن العشرين بالنسبة لمصر رغم ما عاناه من الإهمال والتهميش والتكالب عليه بالعداوات من زملائه بالجامعات ووضع العراقيل أمام ترقياته بعد مدة قصيرة من عودته من بزيطانيا حاملاً درجة الدكتوراه في علوم الجغرافيا، تاركاً الفتاة الإنجليزية التي أحبته وأحبها حيث وافقت على الزواج منه ولكنها رفضت المجيء إلى مصر والاستقرار بها، فقرر التضحية بالحب والرجوع إلى مصر لخدمة بلده وقرر عدم الزواج؛ لأنه قد اقترن بحب مصر وحب العلم وهذان كانا يكفيانه، وبدأ رحلته في التحدي!!

عالم الجغرافيا المصري العظيم ومؤسس المدرسة المتميزة في الفكر الثقافي الجديد الذي يربط بين المعطيات الجغرافية والاجتماعية والسياسية والسكانية؛ ليستخرج منها صفات وطبائع واحتياجات البقعة الجغرافية التي يدرسها كما هو الحال في كتابه العظيم "شخصية مصر" وكتابه المظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم أو "العاصمة المثلثة" وكتاب دراسات عن العالم العربي، وكتاب أفريقيا الجديدة والجغرافيا السياسية عام١٩٦٦، وكتابه البالغ الأهمية عن: العالم الإسلامي المعاصر عام١٩٧١، وكتابة ٦ أكتوبر والإستراتجية العالمية، كل ذلك فضلاً عن كتبه السابقة واللاحقة لتلك المجموعة المذكورة.

وقد ظهر نبوغ المرحوم الدكتور جمال حمدان عندما حصل على ليسانس الآداب من

جامعة القاهرة عام١٩٤٧ بدرجة امتياز وحصل على درجة الماجستير من نفس الجامعة ثم أرسلته الجامعة للملكة المتحدة للحصول على درجة الدكتوراه في جامعة ريدينج عام١٩٤٩، وحصل على درجة الدكتوراه عام١٩٥٣ وكانت أطروحته عن: "سكان وسط الدلتا قديماً وحديثاً، وأصبح أول من يحصل على الدكتوراه في فلسفة الجغرافيا البشرية في مصر.

قرأت أنه أثناء دراسته لدرجة الدكتوراه في بريطانيا تعرف على إحدى الزميلات الإنجليزيات بالجامعة التي أُعجبت بعقليته وتفوقه وجديته واتفقا على الزواج بعد انتهاء دراسته، ولكنها كانت تريد منه بعد انتهاء الدراسة أن يعمل في بريطانيا ويعيش بها، فأخبرها أن لديه التزاما تجاه بلده ولا يريد أن يعمل خارجها عندما يعود إلى كلية الآداب جامعة القاهرة، فلم توافقه على أن يصطحبها معه إلى مصر وانتهت قصة الحب الأولى في حياته ، وبدأت قصة حبه الثانية والأخيره في حياته لبلده مصر فقط.

عاد جمال حمدان إلى جامعة القاهرة عام١٩٥٣ وعُيِّن مدرساً للجغرافيا بكلية الآداب ثم رُقي إلى درجة أستاذ مساعد، خلال السبع سنوات الأولى في الجامعة كان له نشاط علمي متميز وفريد عن زملائه في الجامعة لدرجة أنه أصدر ثلاثة كتب قيمة خلال تلك السنوات القليلة، نال عن أحدها جائزة الدولة التشجيعية عام١٩٥٩ من الرئيس المرحوم جمال عبدالناصر - الذي كان يرعى العلم والعلماء جدًّا خلال تلك الفترة وكان هناك ما يسمي بـ"عيد العلم" في شهر ديسمبر من كل عام وتفضل فيه سيادة الرئيس بتسليم الجوائز لمتفوقي الجامعات والعلماء في مصر- .

كانت تلك الجائزة المبكرة للشاب الذي لم يتعدَّ الخامسة والثلاثين من عمره سلاحا ذا حدين في مستقبله فيما بعد، حيث أولاً لفتت إليه الأنظار الثقافية والعلمية في مصر والعالم العربي؛ لأن حيثيات منح الجائزة كانت عن أطروحته المتميزة عن الاهتمام بالتخطيط والفهم التاريخي للمكان من حيث السكان والقوى البشرية ومنها مثلا :علاقات مصر بدوائرها العربية والإسلامية والأفريقية والمتوسطية ، وألحقها بدراسة أخرى عن نهر النيل ومنابعه وتأثيره في حياة الشعوب التي يمر بها وعناصر الالتقاء والاختلاف وعناصر البيئة الجغرافية والتغييرات والتطورات وثقافة الحضارات المتباينة بين البشر الذين يعيشون على

ضفافه، ولكن ثانياً وضعته تلك الجائزة مثل تبة ضرب النار لزملائه في كلية الآداب فالكل أصبح يصوب عليه طلقاته .

والجماعة وإن كانت على غير حق تغلب الشجاعة ولو كانت متميزة، ومن كثرة المضايقات وعدم ترقيته للمكانة التي تليق به في كلية الآداب قدم استقالته من الكلية عام١٩٦٣ وتفرغ للتأليف والكتابة والإنتاج العلمي ، ولم ينعزل عن المجتمع كما كان يُشاع عنه ولكنه انعزل عن مجتمع الكيد والعداوات وأصبح يكتب في مجلة الهلال العريقة، ومجلة المجلة ، ومجلة كلية الآداب ومقالات في جريدة الأهرام العريقة ، ومجلة الكاتب .

وخلال فترة الرهبنة والصومعة العلمية التي نصبها حول نفسه أصدر سبعة عشر كتاباً باللغة العربية وكتابين باللغة الإنجليزية و٢٥دراسة علمية نُشرت في المجلات السابق ذكرها . وكان جمال حمدان أول من حذر من الزيادة السكانية الرهيبة في ظل ضيق الوادي والأراضي الزراعية مع احتمال ندرة المياه ، مما يؤدي إلى الاحتياج لمساعدات الأعداء.

أهم وأعظم تلك الكتب هو كتاب عمره كما قال بنفسه واسمه: "شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان". وكانت النسخة الأولَى التي صدرت عام١٩٦٧ مؤلفة من ٣٠٠صفحة وتناول في هذا العمل التكوين الثقافي والاجتماعي والسكاني للشخصية المصرية وعلاقة الموقع المميز لمصر كنقطة تلاقي بين الطرف الآسيوي والطرف الأفريقي في العالمين العربي والإسلامي والإطلالة المميزة على البحر الأبيض المتوسط لتقابل العالم الغربي شمالاً، وأثر ذلك على البشر ومدى أهمية نقطة تلاقي ثلاث حضارات وتأثيرها على التركيبة السكانية .

ولكن صغر حجم الكتاب مع ما به من موضوعات مهمة جعل الدكتور جمال حمدان يتفرغ عشر سنوات لإعداد موسوعة كبيرة بنفس الاسم مع شرحٍ وافٍ وإضافة متميزة للموضوعات حتى خرجت إلى العالم في صورة ٤ مجلدات ضخمةً عام١٩٨٤ تحمل اسم "شخصية مصر" ذكر فيها كل شيء من حيث الفكر الجيوستراتيجي (المكانى) والمدلول الحضاري والاجتماعي والثقافي والسكاني والسياسي ، ووصف فيها المتناقضات المتكاملة التي تتميز بها الأرض المصرية والشعب المصري وكيف أنها وسيلة للذوبان في البوتقة المصرية وليست وسيلة للعداء الاجتماعي على مدار تاريخ مصر القديم والحديث، وكانت تلك الدراسة الرائعة هي توحيد منهجي مبكر لكل العلوم الاجتماعية تقريباً التي تهم الشعب المصري على غرار كتاب المفكر الفرنسي لي لابلاش عن شخصية فرنسا الجغرافية

وكتاب المفكر الإنجليزي فوكس عن "شخصية بريطانيا".

اتسمت شخصية جمال حمدان البحثية بالتعمق في كيفية التوصل للحقائق من عدة مصادر موثَّقة ، وكتابات الدكتور جمال حمدان تكشف عن ثقافته الموسوعية الإنسانية ، لقد أدرك أن الدارس لعلم الجغرافيا والإنسانيات يحتاج إلى العديد من الدراسات الأخرى التاريخية والاجتماعية والسياسية ؛لأنه يدرس كل موضوع بعد أن يستكمل أدوات البحث ، ويضع أمامه خريطة العلم كله شرقا وغربا .

فعلى سبيل المثال: عندما كتب عن محاور إشعاع الإسلام ، نراه يتحدث عن المحور النيلي في مصر ثم السودان وغيرهما من البلدان وعن المحور الخاص بشرق أفريقيا والمحور التركي ، وأخيراً المحور الآسيوي الذي يشمل إندونيسيا والهند والملايو ويحلل العلاقة الوثيقة بين الإسلام واللغة العربية ، كما يرى أن آسيا هي مركز ثقل الإسلام ، وأنها تضم ثمانين في المائة من مسلمي العالم .

وأضاف إلى ذلك ملاحظته الدقيقة بأن الإسلام يختلف في اتساعه عن بعض الأديان الكبرى الأخرى (امتداد أفقي) إذ توجد أديان تنشأ في موطن وتترعرع فيه ثم تهجر المكان لتنتشر خارجه ، مثال لذلك البوذية في الهند .

ويصف الدكتور جمال حمدان أهمية الأديان في أنها تشكل غلافاً روحانيًا شفافاً غير مادي ، يمكن أن يُضاف إلى طبقات الغطاءات المادية المتعددة التي تُغلف سطح الكرة الأرضية ، فتضفي عليها أثوابا من المحبة والرحمة والسمو الأخلاقي .

كان جمال حمدان عندما يُقدم رأيا من الآراء ، فإنه يستند إلى العديد من المصادر والمراجع، ولم يكن مكتفيا بعرض الرأي ، بل إنه يلجأ إلى المناقشة والتحليل والمقارنة والموازنة.

كان الدكتور جمال حمدان الريفي البسيط من محافظة القليوبية يتلقى الصدمات خلال حياته ، ولا يسقط ، ولكن يستعيد قوته ويستفيد منها، فلولا صومعته الفكرية وقدرته على تحدى المستحيلات لما كان في أيدينا تلك المؤلفات العظيمة التي ستعيش للأجيال القادمة شاهدة على عبقرية هذا الرجل الذي لو كانت حياته سهلة مثلنا، وتدرج في الوظائف والدرجات الجامعية ولم يصادفه التحدي لما وصلت إلينا إنجازاته ، ولما حصل على جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية عام١٩٨٤ والتي منحها له الرئيس السابق محمد حسني

مبارك رئيس جمهورية مصر العربية آنذاك تقديراً لأعماله العلمية المتميزة.

تُوفِّيَ الدكتور جمال حمدان عام ١٩٩٣ في منزله بحي الدقي بمحافظة الجيزة إثر احتراق شقته لتسرب غاز البوتاجاز بعد أن تركه سهواً أثناء نومه ليلاً.

وتنطبق الأبيات الشعرية التالية للشاعر العراقي محمد مهدى الجواهرى على العبقري جمال حمدان :

كم عبقريات مشت ضرماً

في جنح داجي الجنح غربيب

وتنفست رئة الحياة بها

من بعد تعبيس، وتقطيب

عاشت وماتت في حمى جشب

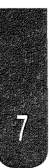
جاس، شتيم العيش مسبوب

مجلودةً . تلوى أعنتها

بسياط ترغيب، وترهيب

بمرجَّمين ... نهار مرتخص

وبليل نابي الجنب ، مرعوب





ماريو يوسا

"أحرقوا كتبه منذ أربعين عاماً .. وفاز بنوبل في الأدب عام ٢٠١٠"

الكاتب الكبير الذي ولد وعاش في دولة بيرو ، ماريو بارجس يوسا من أشهر الكُتَّاب المعاصرين في البلاد الناطقة باللغة الأسبانية ولديه أعمال أدبية شديدة التفرد والعمق وقد ترجمت بعض أعماله إلى اللغة العربية حتى قبل أن ينال جائزة نوبل في الآداب عام ٢٠١٠، وكان يقول دائماً :"**أمة بلا شعر هي أمة صماء**"، "**وأمة بلا نقد هي أمة عمياء**".

وإختياره للغة كان بطريقة مميزة مما يعطيك الإحساس بأنها قطعة موسيقية، معطياً تتابعا قصصيا سريعا للزمن، والحكى عنده يكون بضمير المتكلم في الحدث القريب أما الحدث البعيد فيكون بضمير الراوي .

ويُعتبر ماريو يوسا مناضلاً أكثر منه كاتباً من كثرة عدد من وجهوا له اللكمات الأدبية والسياسية والدينية في حياته، لا سيما عندما أصدر كتابه "خريف البطريرك"وتحدث فيه عن دكتاتورية رجال الدين، وقد ترجم بعض أعماله الأستاذ الدكتور حامد أبو أحمد أستاذ اللغة الأسبانية وقد صدرت الترجمات بدءاً من عام١٩٨٩ وقام أيضاً بعض من الكتاب في سوريا ولبنان بترجمة بعض أعماله ، ومن أهم هؤلاء الكتاب المترجم السوري الكبير أستاذ صالح علماني، وقد تشرفت بحضور جلسة الاحتفال بحصوله على جائزة نوبل في الأدب عام٢٠١٠ في المجلس الأعلى للثقافة برئاسة الأستاذ الدكتور عماد أبو غازي والأستاذ الدكتور جابر عصفور رئيس المركز القومي للترجمة والأستاذ الدكتور حامد أبوأحمد (الذي ألف كتاباً كاملاً عن أدب أمريكا اللاتينية) و أ.د.محمود السيد و أ.د.نادية جمال الدين

و أ.د. هالة عواد في٢١/ ١٠/ ٢٠١٠ .

وذكر المحتفلون كيف قاسى وعانى هذا الكاتب الكبير وهو في سن الثلاثينيات ، وتم جمع رواياته وكتبه وأُحرقت ؛حتى لا تنتشر أعماله التي كان معظمها يدور في القالب الاجتماعي مثل قصة "المدينة والكلاب" التي كتبها وكان عمره ٢٩ عاماً وتعرض للتشرد والتنكيل به خلال فترة الخمسينيات والستينيات، مما جعلني أضعه تحت تصنيف"مفكرون لم يعرفوا المستحيل" ؛لأنه صبر واحتسب وتوكل على الله واجتهد حتى حصل على جائزة نوبل عام٢٠١٠، وكان شعاره "الكاتب لا يجب أن يفكر في الانسحاب".

وكان فوز يوسا بتلك الجائزة هو سادس فوز لأديب من أمريكا اللاتينية.

الأديب ماريو يوسا قد زار مصر منذ عدة سنوات ورافقه في الزيارة أ.د.حامد أبو أحمد، وزار مدينة الإسكندرية وأعجب جدًّا بهذه التحفة الفنية على ساحل البحر المتوسط وعندما أقام بها لبعض الوقت وسار في شوارعها القديمة والحديثة وطريق الكورنيش، يبدو أنه قد انطبع لديه إحساس بأن تلك المدينة تعتبر مثالاً حيًّا لتلاقي الحضارات اليونانية والرومانية والإسلامية والقبطية والعربية والأفريقية والأوروبية ؛لأن فيها ملامح من تلك الحضارات مجتمعة في مدينة واحدة.

في أغلب كتاباته يكتب عن شخصيات حقيقية في مجتمعه أو المجتمع المحيط به في أمريكا اللاتينية، بعد أن يقوم بمزج تلك الشخصيات الواقعية ببعض الخيال الروائي والأدبي بصورة مدهشة كما في رواياته "حفلة التيس" و "الفردوس في الناصية الأخرى" وأحياناً يكتب بالأسلوب الساحر المتخفي وراء الحقيقة كما في روايته "بانتا ليون والزائرات" التي يهاجم فيها الدعارة وأساليبها؛لأنه كان يعتبر الأدب والصحافة هما اللذان يحسنان من أحوال الناس إذا أصبحا جزءاً من برنامج الناس والمجتمع والحياة وكان يُكِنُّ حبًّا شديداً وعميقاً للصحافة حيث كان يعتبر مهنة الصحفي أحسن مهنة في المجتمع .

واستمر يكتب في الصحف والمجلات طوال عمره ، واعترف بأن الصحافة ألهمته نصف ما كتبه وذاعت شهرته في بيرو حتى قبل أن يُمنح جائزة نوبل فرشح نفسه لرئاسة الدولة ودخل في جولة الإعادة وخسر، ولكنها كانت تجربة مريرة في عمره خرج منها بنتيجة مفادها أن **شهوة السلطة السياسية يمكن أن تدمر عقلاً بشريًّا وتدمر مبادئ وقيما يتمسك**

بها الإنسان قبل تولية السلطة .

وقد نشر أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور أحمد عكاشة أستاذ الأمراض النفسية بجامعة عين شمس بالقاهرة ورئيس اتحاد الأطباء النفسيين العالمي بحثاً في هذا الموضوع خلص فيه إلى نتائج توضح أن تولى السلطة لمدة طويلة يزيد من نسبة المورفين المُخلَّق في المخ بحيث تصبح إدماناً، وهكذت اتفقت آراء الأدب والطب في هذه المعضلة.

وللكاتب الكبير قصة تسمى "زمن البهلوانات" ترجمها الأستاذ أحمد عبد اللطيف وكان يعالج فيها أزمة ثقافة الاستعراض التي أصبحت ظاهرة في المجتمعات العالمية، وهاجم التعصب في كتاباته واعتبر المتعصب يضع الأولويات التي يقتنع بها في صورة حقائق يجب أن ينصاع لها الجميع أولاً وقبل المناقشة مما يُصعِّب عليه إمكانية الحوار مع الآخرين فيما بعد.

وكان له رأى في أن بعض المجتمعات التي لا تنظر باهتمام للقراءة والمعلومات الجادة مما يجعل الصحافة ووسائل الإعلام تعطيهم التحليلات والمواد السهلة، التي لا تشعرهم بالملل فأصبحت القراءة في أغلب الأحيان وسيلة للتسلية ، وليست وسيلة للمعرفة وأصبحت المعلومة الجادة مصيرها القبر.

تلك كانت أفكار وكتابات ماريو يوسا التي جلبت له المشاكل في أول عمره، وتمَّ إحراق كتبه واضطر إلى ترك بلاده والعيش في أسبانيا بعض الفترات، مع أنه كان يرنو إلى كبد الحقيقة ويحاول تعرية المجتمعات ؛لكي تعرف نفسها وتتقدم، وكان ضد المجتمع الذكوري واتهموه أولاً بالماركسية ثم عابوا عليه تحوله إلى المبادئ الرأسمالية، واضطر إلى العمل في مهن أخرى لمدة عشرين عاماً حتى يستطيع أن يعيش؛ لأن كتبه كانت تحتمل القراءة من زاويتين : الواقعية ، والرومانسية. كما في قصة الرؤساء، ولم يكن كاتباً تجاريًّا وكان يعتبر توجيه النقد إلى كتاباته يعني أنها كتابات تستحق النقد، وجعل الأدب في خدمة المجتمع رغم ما تعرض له من ظلم ، ومن فرط ذكائه حصل على درجة الدكتوراه في عام ونصف وله كتابات شعرية وترجمت قصته المدينة والكلاب إلى١٤ لغة، وكان قد كتبها وعمره ٢٩ سنة.

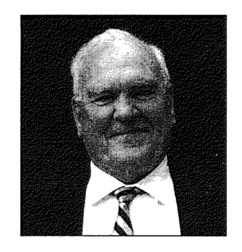
عندما أُحرقت كتبه زادت شهرته وعاش حياته يناضل ويلفت يوسا الانتباه **لئلا تتحول التسلية فتكون القيمة الأهم في المجتمعات ؛ ثم يضطر المسؤولون تحت إلحاح المجتمع**

لتلبية رغباته أن ينتجوا له أعمالاً تافهة في الفن والثقافة ، فيسطحوا أفكاره وتتراجع أدوار الثقافة والفنون والآداب .

وكان يعتبر أن الأدب هو أفضل ما تم اختراعه من أجل الوقاية من التعاسة، وتعمد الكاتب الكبير أن يكتب في المواضيع التي تفرض نفسها عليه وتهمه، لا أن يكتب وعينه على رغبات الناس، وما يمكن أن يبيع أكثر، وله عمل أدبي عظيم بعنوان "رسائل إلى روائي شاب" ترجمه الأستاذ صالح علماني وبه ١٢ رسالة إلى كل شاب يريد أن يصبح روائيًا .

وهكذا انتهت قصة الأديب الذي أحرقت كتبه منذ أربعين عاماً ثم فاز بجائزة نوبل في الأدب.





جورج جالوب

"أستاذ استطلاع الآراء قبل تنفيذ المشروعات"

من المستحيل أن يجتمع الناس على رأي واحد، لكن أسهل المستحيلات هو أن تعرف آراءهم ولم يستطع أحد على مر التاريخ أن يجمع الناس على رأى موحد يتفقون عليه، ولم يصل أحد عبر الأجيال أن يُرضى الناس جميعاً ، وقالوا : إن إرضاء الناس غاية لا يمكن الوصول إليها، ومن هنا جاءت فكرة جورج هوارس جالوب في تجميع آراء الناس على موضوع معين سواء اتفقوا أو اختلفوا وأدخل علماً جديداً هو علم إحصاء الآراء والاتجاهات ، مما كان له أبلغ الأثر في معرفة ما يريده الناس أو الأغلبية بحيث تحقق المصلحة العامة في التقدم والبناء والتطور .

وقبل ذلك العلم كان من المستحيل معرفة النسبة الصحيحة لنجاح المخططات اللازمة لجدوى المشروعات إلا من خلال ذهن المخطط منفرداً مع قلة من المحيطين به.

ولد هوارس جورج جالوب في الولايات المتحدة الأمريكية عام١٩٠١، درس جالوب في جامعة أيوا وحصل على درجة البكالوريوس ثم حصل من نفس الجامعة على درجة الدكتوراه عام١٩٢٨ في علم النفس الاجتماعي، تولى التدريس في الجامعة، وكذلك في جامعة دريك وجامعة ويسترن وجامعة كولومبيا.

في ثلاثينيات القرن العشرين حدثت الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى وساد الكساد الأوساط الاقتصادية والصناعية والبنوك ، وكان هناك نوع من العشوائية في طرق الحل لتلك الأزمة التي توسعت فأثرت على جموع الشعب الأمريكي، ولم يكن هناك جهات

مؤهلة لمعرفة ما يريده الجماهير والعمال وربات البيوت بصورة منظمة حتى يمكن الإمساك بالخيط الأول لحل تلك الأزمات، من هنا فكر جورج جالوب في عمل إحصاء لاستطلاع رأى الجماهير في كل شيء ويمكن أن ينفذ لصالحهم وأجريت تلك الاستطلاعات بطريقة علمية مبنية على علوم الإحصاء ومعطيات علوم الاجتماع العام والاجتماع السكاني والاجتماع السياسي، ثم تم جدولة الإجابات على الأسئلة بطريقة منهجية علمية سميت فيما بعد منهج "قياس الرأي العام" وهي تختلف عن أخذ آراء أعضاء مجلسي النواب والشيوخ الذين يمثلون الجماهير في دوائرهم، إنما هي تمثل الرأي المباشر لمنطقة معينة في زمن معين لموضوع محدد أو مشروع سوف يجرى العمل به، وتستجوب عينة مماثلة يتم اختيارهم عشوائيًا أو وفق خريطة لتوزيع فئات السكان (من نواحي: السن، المهنة، العمل، النوع، السكن، الموطن، الأجر أو الدخل، نوع ومستوى التعليم، الدين، درجة الالتزام الديني، الميول السياسية، الزواج، درجة الرضا، السعادة ...إلخ).

بداية من عام ١٩٣٥ قرر جورج جالوب إصدار نشرات وتقارير أسبوعية تُنشر في المجلات الأمريكية تعبر عن موقف الرأى العام الأمريكي تجاه ما يحدث من أمور أو قضايا اجتماعية أو قومية أو مشكلات محيطة بالجماهير، خاصة عندما تستقطب قضية معينة اهتمام "الرأى العام" سواء كانت سياسية أو تشريعية أو أخلاقية أو ثقافية .

وسرعان ما تحولت عملية استطلاع الرأى العام إلى صناعة التركيز على "تخطيط المدن الصناعية، تخطيط الأساليب الجديدة في تطوير التعليم والخدمات الصحية التي تقدمها الولايات المختلفة لأبناء الولاية ؛حيث تختلف احتياجات كل منطقة عن الأخرى، حتى إن الفرد الذي لم يصادفه الحظ في استطلاع رأيه عن طريق معهد جالوب أو غيره، عندما يقرأ النتائج المبدئية لاستطلاع آراء الآخرين تتولد لديه الرغبة في التفكير فيما هو صواب أو خطأ في هذا الموضوع ، ويكون لديه استعداد لإبداء رأيه مستقبلاً في موضوع آخر .

لولا هذا العلم الذي طوّعه جورج جالوب وأنشأ له معهداً يحمل اسمه لظل المخططون يفرضون علينا آراءهم بحجة أنه "لا يمكن إرضاء الناس جميعاً" فهل سألتم عينة من هؤلاء الناس ووثقتم إجاباتهم إحصائيًا كما فعل جورج جالوب ، أم أن الرد سابق التجهيز "الجمهور عايز كده" هو الحل الأسهل.

توفي جورج جالوب عام١٩٨٤ بعد أن وضع خطة طويلة المدى لتطوير مدينته ومسقط رأسه "ليونز" وصمم للمدينة سوق الماشية والمذبح ومدينة رياضية وعدة أحياء سكنية، وبرنامج تطوير طويل الأجل للمدينة لم يكتمل إلا بعد وفاته ، وكل تلك الأعمال بدأها بعد استطلاع رأى أهل المدينة، ومعهد "جالوب" ومنظمة لاستطلاع الرأي ما زالت قائمة حتى الآن في أمريكا ، وحذا حذوها كثير من المنظمات وبيوت الخبرة ومعاهد الإحصاء في دول العالم.

9



جبرائيل جارسيا ماركيز

"البشرية ستدخل ألفيتها الثالثة تحت إمبراطورية الكلمة"

" لم تكن للكلمة مطلقاً سلطة شبيهة بسلطة اليوم"، هذه هي المقولة التي أطلقها جبرائيل ماركيز الكاتب الكولومبي الحائز جائزة نوبل في الأدب عام١٩٨٢، والذي ظل مؤمناً بأهمية الكلمة والكتابة طوال خمسين عاماً من المطاردة والنفي الاختياري ، والفصل من العمل في الصحافة في بلده والهروب إلى أوروبا ، وحياة التشرد التي عاشها من أجل البحث عن لقمة العيش، حتى إنه في إحدى مراحل حياته أثناء منفاه، كان يجمع الزجاجات الفارغة من الشوارع ليعيد بيعها من أجل الحصول على لقمة العيش، وكُتب عليه أن يصارع في الحياة يتحدى الفشل **ويعيش على القليل من الطعام والكثير من المبادئ**، حتى تُوج عطاؤه في عام ١٩٦٧ وكتب أشهر رواياته (مائة عام من العزلة) والتي بيع منها عشرة ملايين نسخة ، وترجمت إلى اثنتي عشرة لغة وجعلته أشهر كاتب روائي في أمريكا اللاتينية، التي لفظته شابًا وأغلقت الصحيفة التي يعمل بها ومنعته من الكتابة في الصحف الكبرى، ولكنه قَبل التحدي وحطم المستحيلات.

ولد جبرائيل خوسيه جارسيا ماركيز في ٦مارس عام١٩٢٨ في مدينة أراكا تاكا في محافظة ماجدلينا بجمهورية كولومبيا، وبدأ عشقه للقراءة عندما تركته أمه لجدته وجده لكي ينفقا عليه؛ حيث كانت شديدة الفقر وكانا يقصان عليه الحكايات الأسطورية.

بدأ الكتابة وهو في سن الثامنة عشرة حين كتب أول قصة حياته وكانت بعنوان "استقالة"

وتعجب صاحب الجريدة من اسم ومحتوى القصة، ووصفها بالإبداع وأيقن أن هذا الشاب هو بذرة لمتمرد صحفي يرى ما لا يراه الآخرون .

واستمر ماركيز يكتب في الصحيفة عشرات القصص لمدة سنوات والتحق بالجامعة؛ ليستكمل تعليمه في كلية الحقوق، وبدأ في كتابة مقالات صحفية في جريدة العالمية بكولومبيا ، وترك الدراسة وتفرغ للصحافة والأدب وكانت أفكاره تقدمية وتميل إلى اليسارية، فتم إغلاق الجريدة بأكملها ، ومُنعَ من الكتابة في الصحف الأخرى وغادر البلاد هارباً وهائماً على وجهه في متاهات أوروبا ، واشتغل بعدة مهن من أجل لقمة العيش كما ذكرت سابقاً، ثم عاد خلسة إلى كولومبيا وتزوج من حبيبته "مرسيدس" سرًّا وسافر بها إلى فنزويلا عام ١٩٥٨ وعمل هناك بالصحافة أيضاً، ولكنه وجد أن المناخ العام لا يروق لأفكاره، فقرر ماركيز السفر إلى كوبا ؛وذلك لسابق صداقته بالرئيس فيدل كاسترو ، وعمل في وكالة الأنباء وبعض الصحف الكوبية، ولكنه فوجئ بأن وسائل الإعلام في الدولة الشيوعية تهيمن على أفكار المجتمع لدرجة الإغراق ، ولا مجال لحرية الرأي والإبداع فقرر ترك كوبا أيضاً وغادر إلى أوروبا وعاش حياة قاسية بها من الآلام أكثر ما بها من الأيام ، حتى جاءه الفرج ونجحت قصته (مائة عام من العزلة) كما ذكرت سابقاً .

كل هذا الترحال كان بسبب أن جبرائيل ماركيز لم يكن يعطى قلمه وفكره للقائد أو الزعيم، ولا يشترك في الهتاف لأصحاب الصوت العالي من بائعي الكلمات، وكأنه كان يدرك أن "الكلمات الضخمة الكبيرة والعنترية.. لا قدم لها ولا ساق" وهي الحكمة التي استمعت إليها في قناة "الرحمة" الفضائية في مايو عام٢٠١١ من أحد الشيوخ الأفاضل، ولذلك عندما اتهم البعض جبرائيل ماركيز بأنه غير مبادئه وأصبح يحابي الرأسمالية في ثمانينيات القرن الماضي، كان رده عليهم أنه :"لم يكن شيوعيًّا من قبل حتى يتحول إلى الرأسمالية، وأنه عاش طوال حياته يحمل فكراً حرًّا ، تحمل هو وحده تبعات أفكاره ومبادئه".

تميزت كتابات جبرائيل ماركيز بالفكر المتعمق وعدم التسرع في تحويل الفكرة إلى عمل إبداعي حيث قال : إن بعض أفكار رواياته استغرقت عشر سنوات لكي يبلورها قصة على الورق، **وكان لا يحدد متى يكتب ولكنه يعرف ماذا يجب** أن يكتب مثل كتابه الشهير بعنوان: "لم آت لإلقاء خطبة" والذي يضم ٢٢ خطبة كتبها طول حياته ليقرأها على الجمهور، وهو في الحقيقة مجموعة أفكار أكثر منه كلمات.

اعتبر جبرائيل ماركيز الصحافة أفضل مهنة في التاريخ واستمر في الكتابة بالصحف حتى بعد أن أصيب بالسرطان واعتزل الحياة العامة قبل وفاته ، وكان يقول: إن إدمان القراءة يجعل الصحفي مثقفاً وأن الصحافة ليست دراسة أكاديمية بقدر ما هي ثقافة وفكر وجرأة وإبداع وقدرة على الابتكار ؛لأنه أكاديمي كان أسوأ دارس للحقوق وهو في سن التاسعة عشرة، ولكنه نجح في الصحافة لأنها مهنة غير أكاديمية ، تعتمد على الإبداع والممارسة والمباغتة في الحصول على الخبر أو المعلومة ولو بقراءة المستند بالمقلوب على مكتب المسؤول .

ويقول جبرائيل ماركيز: "**إن أفضل خبر ليس هو ما يكتب أولاً، بل في كثير من الأحيان هو ما يكتب بشكل أفضل**" أي أن طريقة تقديم الخبر هي التي تزيد أو تقلل من قيمته في عين القارئ، وكان يقول": إن صالات التحرير الكبرى معامل عقيمة للبحارة الفرادى".

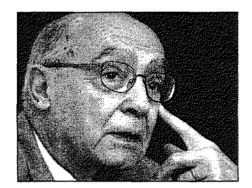
كان يكره الأخبار التي ترد على لسان مصدر مسؤول يرفض ذكر اسمه أو من مراقب مطلع لا أحد يعرفه ولا يراه، ويقول:" إن ذلك يعطى الخبر عظمة سلاح قاتل قد يشوبه تحريفات سامَّة.

تلك كانت أفكار ومبادئ جبرائيل ماركيز الصحفية الذي أعتقد أنه لو كان هناك جائزة نوبل في الصحافة لحصل عليها قبل وفاته.

ومن أعماله الأدبية الشهيرة "خريف الجنرال" عام١٩٧٥، "أحداث موت معلن" ، "الحب في زمن الكوليرا"عام١٩٨٦.

أصيب ماركيز بمرض السرطان عام١٩٩٩ واعتزل الكتابة الأدبية وعاش بقية عمره في بلده كولومبيا بالعاصمة "بوجوتا" وتفرغ لكتابة مذكراته التي أصدرها في جزءين.

10



جوزيه سارا ماجو

"صانع أقفال ثم ميكانيكي سيارات ثم جائزة نوبل في الأدب"

قصة هذا الأديب البرتغالي العظيم جوزيه سارا ماجو جديرة بأن تروَى كمثالٍ للإصرار والتحدي، وكيف يمكن أن ينتقل حلم الإنسان إلى واقع ملموس يمكن تحقيقه.

البرتغالي جوزيه سارا ماجو بدأ حياته التي امتدت إلى٨٧ سنة، عاملاً بسيطاً يصنع الأقفال ثم عمل ميكانيكي سيارات لفترة محدودة، ولكنه كان يهوى الكتابة، ومارس تلك الهواية في سن الشباب ونشر أحد أعماله وهو "دليل الرسم والخط"، وكان وهو يتلمس خطواته الأولى في الكتابة مستلهماً أفكاره الجريئة عن حياة البؤساء ومدى الشقاء الذي يعيشون فيه ومدى القيود المفروضة على أفكارهم ، وكان يعتبر أن الإنسانية ضلت طريقها وأصيبت بالعمى عندما أطلقت صيحات العولمة التي أخذت في طريقها حقوق المقهورين الذين يمثلون حوالي ٥٠٪ من البشر على وجه الأرض، ونذر نفسه للدفاع عن حقوق المظلومين في العالم مثل أبناء الشعب الفلسطيني وأبناء العالم الثالث.

وكانت رواياته في بعض الأحيان صاخبة ومثيرة للجدل مما أثار غضب الكنيسة الكاثوليكية البرتغالية والفاتيكان، وقد اعتبروه معادياً للدين. وقد اتخذ قراره بنفي نفسه اختياريا إلى أسبانيا، وهناك شعر بالحرية أكثر في آرائه وكتاباته وأصدر روايته (الكهف) للتنديد بسياسة العولمة وأصدر بعد ذلك رواية "دراسة في البصيرة" التي انتقد فيها طريقة تطبيق الديمقراطية التي لا تلتزم باختيار الأفضل لتبوأ المناصب الكبرى.

الفارق الزمني بين أولى روايته واسمها (أرض الخطيئة) وقد كتبها وعمره ٢٥عاماً ولم

تلق النجاح المأمول لها، وبين آخر رواياته هو ثلاثة وخمسون عاماً، حيث إنه توقف عن الكتابة لمدة ٢١ عاماً مضطراً وعمل كما ذكرت في مهن أخرى كي يستطيع أن يعيش ؛ولكن جذوة الأدب والإصرار وتحدى المستحيل أعادته للكتابة مرةً أخرى في الأربعينيات من عمره، واعتبر من أحسن كتاب العالم في شرح وكتابة الأفكار بطريقة السرد المطول مع قليل من الفواصل (كما ذكر في لقاء مع جريدة لوموند الفرنسية).

كان جوزيه سارا ماجو يميل للكتابة عن حياة البسطاء والمتعبين والمعذبين بأسلوب فني لا يخلو من الواقعية والإيقاع السردي الموسيقي، ومن أعماله التي ترجمها للعربية كل من الأستاذ الدكتور أحمد عبد اللطيف والأستاذ الدكتور بدر الدين عرودكي "ثورة الأرض، البصيرة، الذكريات الصغيرة، الآخر مثلي، الكهف، تاريخ حصار لشبونة".

وقد حصل جوزيه سارا ماجو على جائزة نوبل في الأدب عام١٩٩٨، وذلك تتويجاً لمسيرته الأدبية التي امتدت لثلاثة وخمسين عاماً تصدى خلالها لقذائف الموتورين والمعارضين لأفكاره واشتغل بمهن عديدة حتى أمكنه أن يتفرغ للأعمال الأدبية الفكرية بداية من عام١٩٧٧ حتى وفاته .

ولذا اعتبرت هذه الشخصية من أصلب المفكرين الذين لم يعرفوا المستحيل.



الفصل الثاني

معاقون ولم يعرفوا المستحيل



11



لويس برايل

"عبقري كفيف جعل العميان يقرأون"

لويس برايل العبقري الفرنسي يجب أن يوضع على قمة الرجال الذين لم يعرفوا المستحيل ، كما وضعت السيدة الأمريكية هيلين كيلر في كتابي السابق (الخالدات مائة أولاهن السيدة مريم) على قمة النساء اللائي قبلن التحدي واعتبرتها معجزة بشرية وفقها الله لتحقيق طموحاتها .

مثل أي مكان في العالم ، العامة لا يصدقون ولا يلتفتون للعباقرة في مجتمعاتهم وكذلك المسؤولون الحكوميون ، حدث ذلك مع لويس برايل في فرنسا حيث سخر العامة من اختراعه ولم يصدقوه وقالوا : إنه قد حفظ مسبقاً ما يقرأه عليهم من خلال طريقته في الحروف البارزة وانبرى المسؤولون الحكوميون في مهاجمته قائلين :إن ما نقدمه للمكفوفين يكفي ولا نستطيع المزيد ، ومن هنا بدأ برايل في تحديه للمستحيل.

ولد لويس برايل عام ١٨٠٤ في بلدة صغيرة بفرنسا ، وكان أبوه يمتلك محلاً للمصنوعات الجلدية وتصادف أن سقط الطفل البالغ من العمر سبع سنوات على آلة حادة مدببة في دكان أبيه ودخلت الآلة المشرشبة في عينيه ونزف كثيرا وعندما نقلوه إلى أقرب مستشفى وجد الأطباء أن الطفل قد حدث له تهتك ونزيف بالعينين مما أفقده بصره في كلتيهما .

لم يتحول برايل إلى رقم في سجل الفاشلين بعد تلك الحادثة ، بل قرر أن يتعلم بمدرسة قريبة من منزله وكان يذهب إليها متكئاً على عصاه ، وكانت جموع الناس بالقرية تنظر إليه بعين الشفقة والحزن عليه.

سافر إلى باريس والتحق بمدرسة للمكفوفين تابعة للحكومة الفرنسية ومجانية ، أمكنه تمييز الحروف عن طريق التحسس بمجسمات شكلية تميز الستة عشر حرفاً في اللغة ولكنه كان يقول : المكفوفون هم الأكثر عزلة في العالم ؛لأن الكتب فقط هي التي تستطيع تعليم المكفوفين ، لكنه لا توجد كتب نستطيع أن نقرأها.

سمع من أحد أصدقائه أن أحد الضباط في الجيش الفرنسي اخترع طريقة للكتابة في الظلام (الكتابة الليلية) وذلك لإرسال المعلومات السرية إلى قيادته في الجيش الفرنسي أثناء الحرب وهي كتابة كانت تعتمد على التنقيط على الورق وتخريمه من الخلف وعند رفع النقاط والفواصل يمكن معرفة المحتوي يدويا .

التقط لويس برايل الفكرة وكان حاد الذكاء ، وذهب إلى الكولونيل – صاحب الفكرة – بيير لسكي وسأله عن ذلك النظام في الكتابة الليلية واستوعبه قائلاً: الآن يستطيع المكفوفون أن يقرأوا بأنفسهم ويمتلكوا الكتب.

عكف لويس برايل على دراسة الأمر وأمكنه التوصل إلى نظام بسيط استعمل من خلاله نقاط خلال فراغ صغير واحد وتمكن من عمل ٦٣ مجموعة مختلفة من النقاط والفراغات كل منها تشير إلى حرف من الحروف وبعض الكلمات المجمعة القصيرة.

لم يصدقه أحد عندما بدأ يقرأ على الناس الكلمات من خلال تلك الحروف المجمعة ، فاضطر إلى تأليف كتاب كامل مستعملاً نظامه الجديد " برايل" ، وبدأ يتكلم في المنتديات عن هذا الاختراع الذي سيجعل المكفوفين قادرين على التعلم بأنفسهم ولكن المبصرين لم يصدقوه ومسئولي الحكومة الفرنسية كذلك اعتبروا أن هذا النظام صعب التطبيق عمليا ولم يستمعوا إلى أي توصيات بوجوب الدخول في تلك التجربة ؛لأن ما يقدم للمكفوفين حتى الآن يكفي ، فانهار لويس برايل وسقط صريع المرض في منزله.

لكنه لم ييأس وبدأ في تنفيذ فكرته على النوتة الموسيقية واستطاع أن يكتب حروف السلم الموسيقي بطريقة برايل لإحدى الفرق الموسيقية للمكفوفات والمكفوفين ، وعندما عزفت فرقة المكفوفين أشهر المقطوعات الموسيقية على جمهور الحاضرين بأحد مسارح فرنسا ، صفق لهم الجمهور طويلا وأثنوا عليهم فتقدمت فتاة تتحسس أحد الميكروفونات وقالت للجمهور : لا تصفقوا لنا فقط ، وتشكرونا بل اشكروا لويس برايل الذي مكننا من أن نقرأ

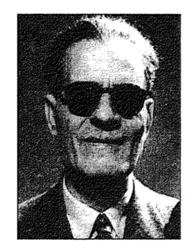
النوتة الموسيقية بأصابع أيدينا وسهَّل لنا تعلم الموسيقى والعزف على البيانو ، وأخبرتهم أنه مريض في منزله راقد على فراش الموت متأثر من جحود المبصرين الذين لم ينتبهوا لوجوب تحقيق أحلامه ، ومن هنا ذاعت شهرة لويس برايل وعرف الناس والصحف اختراعه وبدأت فرنسا كلها تشيد به ، واهتمت الحكومة بتطبيق نظامه الخاص بالقراءة للمكفوفين.

وزاره أصدقاؤه في منزله وأبلغوه بما حدث فأخذ يبكي قائلا: الحمد لله الآن أبكي لأن حياتي لم تكن فاشلة ".

توفي بعدها بأيام وهو في الثالثة والأربعين من عمره تاركاً للبشرية وللمكفوفين أهم وأنبل اختراع لهم الذي تطور بعد ذلك وأصبح ملحقا به لوحة كمبيوتر ونظام قارئ الشاشة "فيرجو" الذي يستطيع الكفيف من خلاله قراءة ما يعرضه الكمبيوتر من معلومات ومعرفته بمنتهى السهولة وأصبح الكفيف قرينا للمبصر في دور العلم والعمل والفن بعد أن تعهد الاتحاد الدولي للمكفوفين بالالتزام بالعمل على نشر طريقة برايل بين المكفوفين وإمدادهم بتقنيات الحاسوب الذي يقوم بتحويل الكتابة العادية إلى طريقة برايل على أسطر إليكترونية .

تلك كانت قصة نجاح وتحدٍّ للمستحيل ، حدثت منذ مائتي عام لشاب فرنسي عظيم اسمه "لويس برايل".

12



الدكتور طه حسين

"الكفيف المنير .. الذي أنار طريقنا ببصيرته وفكره"

عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين ، كان هبة الله للمصريين في القرن العشرين ، فهذا الشاب الكفيف الذي كافح وناضل حتى أصبح أول مصري يحصل على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية ثم الفرنسية ، ولم يكتف بنجاحه الشخصي وتحقيق أحلامه وتحديه لإعاقته ، بل حمل شعلة التنوير والتعليم للعالم العربي عامة وللمجتمع المصري خاصة ، وهذا يعني أن الدكتور طه حسين الكفيف قد أنار لنا الطريق للعلم وذلك حين أوصى بأن يكون التعليم حقًّا لكل مواطن مثل الماء والهواء ومن أوائل من نادوا بمجانية التعليم ، التي أفادتنا جميعا ، منذ خمسينيات وستينيات القرن الماضي ، وحتى الآن ، ولذا أطلقت عليه صفة " الكفيف المنير".

فما نحن إلا أولاد وأحفاد هذا الرعيل الأول الذي علمنا وهم الأساتذة والعلماء العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين الذين علمونا وأضاءوا لنا شعلة العلم والمدنية والحضارة ، وكانوا من كل من مصر والشام والمغرب العربي والعراق والجزيرة العربية والذين تعبوا وسهروا وقاسوا الأَمَرِّين في سبيل تحصيل المعرفة في المنطقة العربية أولا ثم في أوربا وأمريكا ثانيا ، وعادوا إلى بلادهم ليؤسسوا حضارة حديثة في بلادهم العربية ولينقلوا إلينا المعارف التي اكتسبوها بشق الأنفس وشظف العيش أثناء فترتي الحرب العالمية الأولى والثانية ، إضافة إلى ما عانوه قبلها في بلادهم في سبيل الحصول على الشهادات الأولى في حياتهم في مجتمعات عربية بدائية ليس بها وسائل اتصال ولا طرق ممهدة ولا مكتبات كبرى

ولا كهرباء وإنارة على المستوى العام ، حتى إن معظم خريجي جيل العمالقة في العالم العربي كانوا يستذكرون دروسهم على لمبة الجاز أو لمبة الزيت أو على ضوء القمر ، أو على نور الأرصفة في الشوارع أو في نور المساجد والكنائس ، ولهذا أردت أن أذكِّر شباب الجيل الحالي بكيفية نجاح وصمود هذا الجيل الذهبي في العالم العربي واخترت مثلاً لهم من كل منطقة عربية وذلك احتراما وتقديرا لرواد التنوير في عالمنا العربي والذين يحتاجون إلى كتاب كامل أتمنى من الله أن يعينني على إصداره .

ولد الدكتور طه حسين في ١٤ نوفمبر عام ١٨٨٩ في محافظة المنيا جنوب مصر (منطقة الصعيد أو مصر العليا) بقرية تدعى الكيلو تابعة لمديرية مغاغة من أب وأم مصريين من المزارعين وفقراء القوم ، وعندما بلغ السابعة من عمره أُصيب بمرض الرمد الصديدي وفقد بصره على إثر مضاعفات هذا المرض ، وألحقه أبوه بكتاب القرية فتعلم أصول اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم ، وقد كرَّمته الشبكة العالمية للمعرفة(جوجل) بأن وضعت صورته على صفحتها الرئيسة يوم ١٤/ ١١/ ٢٠١٠ وهو تاريخ ميلاده ؛ ليراه كل متصفح لهذه الشبكة في هذا اليوم على مستوى العالم وذلك تقديراً لكفاحه وصبره.

ألحقه والده بالأزهر الشريف عام ١٩٠٢ لاستكمال دراسته وكان أثناء الدراسة متفوقاً على زملائه من الطلبة رغم فقدانه لبصره ؛ لأنه خلال فترة تواجده في المنيا ساعده ذكاؤه المفرط على أن يُحصِّل ثقافة سمعية كبيرة من استماعه إلى "أخبار الهلاليين" وقصص القرآن الكريم وأغاني القرية وقصص المعلم جريس وأحاديث الكبار الذين كان يجلس بينهم وتملك منه حب الأدب والرواية والشعر والسيرة النبوية الشريفة وكان يكره الجهل الذي تسبب في فقدانه لبصره عندما سلموه لحلاق القرية كي يعالج عينيه وهو طفل مما تسبب في إعاقته ، ومن هنا ظهر الفارق المعرفي بينه وبين زملائه الذين كانوا ينادونه "بالأعمى" وكانوا يأكلون الطعام من أمامه أثناء تناول الوجبات في القسم الداخلي بالسكن الأزهري وعندما يجد الصحن فارغا يقولون له: إنك أكلته دون أن تدري لأنك أعمى ومن تلك الأيام الخوالي في طفولته قرر أن تكون مسيرة حياته هي التحدي ثم التحدي للتفوق على الجميع.

بعد أن نال قسطاً كبيراً من علوم الأزهر ، ضاق ذرعا بطريقة الدراسة التي لا تتطور مع أنه كان يحب الأزهر ويجد فيه راحة وأمناً وطمأنينة واستقرارا ، وظل يتردد على الأزهر

حتى عام ١٩١٤ حتى بعد أن تركه ؛لأنه كان يطمح إلى دراسة نوع آخر جديد على المجتمع ومتطور بعد أن علَّم نفسه اللغة الأجنبية ، وكانت نفسه تواقة للأبحاث والتجديد ولذلك التحق بالجامعة الأهلية المصرية فور افتتاحها عام ١٩٠٨ ولم يكن متبرماً من فقدانه لبصره ولم يكن لديه الإحساس بعدم القدرة على استكمال تعليمه العالي بعد أن درس بالأزهر المنطق والبلاغة والأدب والفقه بالإضافة إلى علوم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

أي أن انتقاله للتعليم الجامعي المدني كان نوعًا من الطموح لتحصيل المزيد من العلم والمعرفة وليس تمردا على الدراسة الدينية ؛والدليل على ذلك مؤلفاته العديدة في الدين الإسلامي وعلى هامش السيرة النبوية .

حصل طه حسين على شهادته الجامعية عام ١٩١٤ من الجامعة الأهلية وتقدم للدارسات العليا وعرض أطروحته لنيل الدرجة العلمية التالية ، وتمت مناقشتها في الجامعة ونال درجة الدكتوراه بتفوق وكانت أول رسالة تناقش في جامعة القاهرة ، وكان موضوعها عن "أبي العلاء المعري" كان الدكتور طه حسين أول من افتتح الطريق ثم أصبح أول قاطرة في العالم العربي تقطر عربات الثقافة والمعرفة والآداب الحديثة وتنقلها من أوربا إلى مصر والعالم العربي وذلك بعد أن نال درجة الدكتوراه من جامعة السوربون بفرنسا وعاد ليدرِّس في جامعة القاهرة .

هي رحلة تحدٍّ وتصدٍّ للمستحيلات نادرة الوجود ونادرة التطبيق ووراء هذا الرجل العظيم سيدة فرنسية عظيمة ندُرَ أن تجد مثلها في وقتنا الحالي وهي حرمه السيدة الفرنسية سوزان طه حسين التي لولا توفيق الله له بزواجه منها في أول سنوات دراسته ، ولولا وجودها بجانبه تقرأ له المراجع وتعينه على صعوبات الحياة لتغيرت مسيرة حياته في فرنسا، والتي قال لها طه حسين في أحد خطاباته لها عندما طلب منها العودة إلى فرنسا مع ولديهما -بعد أن فصلوه من الجامعة ومنعوه من الكتابة في الصحف وأصبح من دون عمل لمدة ثلاث سنوات- كتب يقول :" لم أشعر أنني أعمى في يوم من الأيام إلا عندما سافرتِ إلى باريس وابتعدتِ عني مُجبرةً وبناءً على طلبي".

وقد ذكرتُ هذه السيدة العظيمة في كتابي السابق "الخالدات مائة أولاهن السيدة مريم"

سافر الدكتور طه حسين إلى فرنسا لاستكمال دراسته العليا والحصول على درجة الدكتوراه الثانية وكان بحثه فيها عن عالم الاجتماع العربي التونسي والأول في العالم "عبدالرحمن بن خلدون" وكانت بعثته على نفقة الحكومة المصرية عام ١٩١٤ ونزل أولا في مونبيليه ودرس الأدب الفرنسي وعلم النفس والتاريخ الحديث حتى عام ١٩١٥ وأثناء الدراسة حدثت صراعات سياسية في مصر والحرب العالمية الأولى اندلعت في أوربا وتدخلت السياسة في العلم ، وكاد أن يعود من البعثة الدراسية بعد أن تم حرمانه من المنحة لولا تدخل المغفور له السلطان حسين كامل (حاكم مصر قبل الملك فؤاد) الذي أمر باستكمال بعثته على نفقة الدولة حتى عاد إلى مصر بعد حصوله على درجة الدكتوراه في الآداب عام ١٩١٩ ، ومن يومها بدأ يكتب للعرب ويحثهم على التفكير فيما يقرأ ونه بعد أن عُيِّن أستاذا في جامعة القاهرة متخصصا في التاريخ اليوناني والأدب العربي .

كان أستاذا متميزا ؛لأنه تمكن من دراسة اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والفرنسية والسريالية ، فأصبح طه حسين يمثل حلقة الوصل بين الحضارتين العربية والأوربية وكان يعتبر الحضارة العربية والإسلامية امتدادا للحضارة اليونانية العريقة وتحدث كثيرا في الإذاعة المصرية عن تكامل الحضارات وليس تنافسها ، ثم عاد مر ة أخرى إلى فرنسا لدراسة الفلسفة والتي كان يهواها وتعلق بها أشد التعلق منذ أن درَّسها له أستاذه في مصر الشيخ طنطاوي الجوهري مدرس الفلسفة الإسلامية ، وعندما درس في فرنسا فلسفة أرسطو وأفلاطون تكونت لديه العقلية الفلسفية الكاملة من التراثين الإسلامي واليوناني بالإضافة إلى الفلسفة الأوربية الحديثة ومن هنا جاءت أفكار الدكتور طه حسين التنويرية والتي تدعو إلى إعمال العقل ، وكانت صرخته المدوية للعالم العربي والإسلامي بضرورة اتساع أفق التفكير وتفضيل الجانب العقلاني على الخرافات التي لا تتفق مع المنطق العقلاني في التفكير ومحاولة تصحيح ما شابَ سير الأولين وأخبارهم من تحريف وتضليل وتهويل .

كل تلك المبادئ التي تمسك بها طه حسين جلبت عليه سلسلةً من الهجوم والمشاكل والصدامات مع بعض مفكري عصره وبعض رجال الدين وبعض رجال السياسة ، غير أنه كان أقوى منهم جميعاً بثقافته العالية والشامخة التي اكتسبها من قراءة وفهم مائة ألف كتاب في حياته ومن ثقافته الإسلامية الوسطية التي اكتسبها من دراسته بالأزهر ، ومن

مؤلفاته التي تعدت المائة كتاب في شتى مناحي الآداب والدين والفلسفة والقصة ، فيكفيه فخرا كتابه الذهبي الذي مازلنا في حاجة إليه ألا وهو :" الأيام " الذي تطرق فيه إلى قصة حياته ومعاناته حتى وصل إلى هذه الدرجة من العلم والثقافة ، ومحاولة الآخرين محاربته والنيل منه وإسقاطه وكذلك كتاب " مستقبل الثقافة في مصر" وكتاباته عن " كيف نقرأ التاريخ" والذي علَّمنا من خلاله أن التاريخ نوعٌ من أنواع الأدب الثقافي والمعرفي التي نتلقاها عن طريق النقل والرواية المتصلة ومعنى هذا أن علمك بأحداث التاريخ لا يتأتى لك إلا بعد أن يمر بعقول أخرى غير عقلك وعصور أخرى غير عصرك وظروف أخرى غير الظروف التي تحيط بك ومن هنا ننظر إلى التاريخ نظرتين مختلفين : إحداهما تفرض كثيرا من الاحتياط وتضطر القارئ إلى الجهد والبحث والتحري ليصل إلى ما يرجح أنه الحق والنظرة الأخرى أن نأخذ ما نقرأه على علاته وألا نناقشه وألا نفكر في مغزاه وهؤلاء القراء ينغرزون في الماضي ويتعلقون بسِيَر الأجداد وأعمالهم ، ويظلون واقفين في محلهم ، بينما العالم كله يسير للأمام وهم متمتعين فقط بسير التاريخ .

كانت هذه عقلية الدكتور طه حسين ، فريد عصره في الثقافة والذكاء والتحدي ، وهذا التفوق والتميز العلمي أهَّله لأن يصير وزيرا للمعارف بالحكومة المصرية في العهد الملكي وأستاذا بكلية الآداب جامعة القاهرة ثم عميدا للكلية مرتين ولعب دورا مؤثرا وهاما في إنشاء جامعة الإسكندرية وكان عضوا بالبرلمان المصري وسفيرا فوق العادة للثقافة المصرية والإسلامية في مختلف الدول الأوربية ، وخيرَ مدافع عن الحضارة والثقافة الإسلامية ، حتى إن معظم تلك الدول منحته العديد من الأوسمةً فحصد (٣٦)جائزة مصرية ودولية أثناء حياته ، وكرَّمته العديد من الدول العربية مثل لبنان وسوريا والسودان والمغرب وتونس والمملكة العربية السعودية ، في عهد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، وكرَّمته جمهورية مصر العربية بإهدائه قلادة النيل في عهد الرئيس جمال عبد الناصر وجعلت من منزله متحفاً يحتوي على آثاره وكرَّمت السيدة الفاضلة زوجته الفرنسية " سوزان" بعد وفاته. وأهدته الحكومة الفرنسية وساما تقديرا لجهوده العلمية والثقافية للتقريب بين الثقافتين العربية الإسلامية والأوربية ووضعته مؤسسة جوجل المعرفية على صفحتها الأولى يوم١٤/ ١١/ ٢٠١١ الموافق ليوم عيد ميلاده في ١٤/ ١١/ ١٨٨٩ تقديرا لمسيرته التنويرية في العالم العربي والإسلامي وأصدرت الهيئات الثقافية العديد من أعماله الهامة

والمثمرة في الثقافة العربية مثل : كتب : على هامش السيرة ، الحياة الأدبية في جزيرة العرب، الأيام ، شجرة البؤس ، دعاء الكروان ، المعذبون في الأرض ، وغيرها من الإصدارات القيّمة وحصل على جائزة الدولة التقديرية في العهد الملكي عام ١٩٤٩ ، وتقلَّد منصب رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة(مجمع الخالدين) مرتين عام ١٩٦٣ ، وعام ١٩٦٧ ونال جائزة حقوق الإنسان من الأمم المتحدة قبل وفاته بيوم واحد في شهر أكتوبر عام ١٩٧٣، وكرَّمته هذا التكريم نظراً لعبقريته الفذة ، وكرَّمته جامعة مونبيليه وعدة جامعات عالمية مثل ليون وروما وأثينا ومدريد وأكسفورد وجاء ذلك بعد طول تشهير به وبكتاباته منذ عام ١٩٢٧ عندما بدأت معاركه الأدبية ضد الجهل والتخلف ، وكانت البداية عندما صودر كتابه " في الشعر الجاهلي" وتعرض للمحاكمة وفي حادثة أخرى تم فصله من الجامعة المصرية وأوقف عن العمل والكتابة في الصحف المصرية خلال فترة حياته، ولم يكن يستطيع تدبير مصاريف بيته وأرسل زوجته وابنه وابنته إلى أقاربهم في باريس ، ولولا إعجاب دور الصحافة في لبنان بموهبته وقيمة كتاباته فطلبت منه أن يكتب لها مقالات دورية بالمراسلة ، لما وجد ثمن دوائه وطعامه هو وأبناؤه ، ولم يهتز ولم يضعف عندما هتف طلبة كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ضده صائحين : يسقط الوزير الأعمى!

فرد عليهم قائلاً – بنبرة العالم الواثق: أحمد الله أنني أعمى حتى لا أرى وجوهكم"

وقد سخَّر الله تعالى للدكتور طه حسين العديد من خلقه الذين وقفوا بجانبه في المحن مثل السيدة سوزان زوجته والأستاذ أحمد لطفي السيد العالم الكبير وأحد مؤسسي جامعة القاهرة ومديرها السابق ، وعددا من الصحفيين والكتاب الذين دافعوا عن مواقفه الجليلة في تصديه للجهل والجمود الذي كان سائدا في المجتمع إبان أوائل القرن الماضي ، وله دوره الهام في تأسيس العديد من صروح العلم والمعرفة في مصر مثل جامعة الإسكندرية والمجلس الأعلى للفنون والعلوم والآداب (المجلس الأعلى للثقافة الآن) ومجلة الكاتب والمجلس الأعلى للجامعات ، وكذلك كان أول من نادى باستقلال الجامعات عن إدارة الحكومة لها ورفض منح الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة لأحد السياسيين ، عندما كان رئيسا للجامعة ، وعاش الأستاذ الدكتور طه حسين ولديه إحساس عميق بالرضا على ما أعطاه الله له من نعمة العقل والفكر ولم يحزن يوماً أن كان كفيفا لأن الله عوَّضه عن ذلك

بالقدرة على الكفاح والعمل والصبر حتى ترك الدنيا أعمالا لا أقولا وأنار طريق العلم للمبصرين رغم أنه كفيف وانتقل إلى رحمة الله تعالى مرتاحا ومطمئنا على ما أسدى للعرب والمسلمين من خير ، وكما قال الرئيس السنغالي الحالي السيد : عبد الله واد (الفرنسي الثقافة) في إحدى كلماته عام ٢٠١١ : إن رجل الأفعال لا الأقوال .. يشعر بارتياح داخلي دائم"

رحم الله أستاذنا الكبير عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الذي تُوفِّي في ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٣ شامخا معززا من كل العرب ؛لأنه تحدى الفقر والجهل والجمود الفكري وتحدى الإعاقة البصرية والمجتمع ، أي إنه تحدى خمسة مستحيلات وعلى رأسها بائعي القصص التاريخية في أسواق الظلام الذين يحاولون العودة بشباب الأمة إلى العصور الوسطى ، ويكفيه فخراً أنه علَّمنا كيف نقرأ التاريخ وننقيه ونستفيد من تجارب الذين سبقونا بأقل قدر ممكن من الأخطاء ، ونتبع السلف الصالح على حق بأسلحة الإيمان والعلم والثقافة ، وكما قال سيدنا على كرم الله وجهه : " العقل رزق" وكما قال فرانسيس بيكون "المعرفة قوة" وأوصيكم بنصيحة غالية وهي أن" الفكر سلاح " فلا تهملوه كما علمنا عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين رحمه الله وجزاه خيراً عما قدَّمه للإسلام وللعرب.

13



ستيفن هوكنج

"عالم مُقعَد على كرسي متحرك ... ونوبل في الفيزياء"

أي زائر لقسم الرياضيات التطبيقية والفيزياء النظرية بجامعة كمبريدج يرى صورة إسحاق نيوتن وصورة العالم البريطاني ستيفن هوكنج الحائز جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٨٨ والذي يُطلِق عليه العلماء" جاليليو القرن العشرين" والذي أقعدته الإصابة بمرض عصبي نادر ومنعته من القدرة على الحركة على القدمين أو تحريك اليدين ، وهو معجزة القرن العشرين في الفيزياء والتحدي وعينة من أفراد قليلين في المجتمع ينظرون إلى الحياة بعيون الأمل والعمل والكفاح وعادة ما يكون سلاحهم الهدف والصبر والرضا بما قسمه الله لهم في الدنيا ومن صفات هؤلاء الرجال أيضا ، القدرة على النهوض سريعاً من بعد السقوط ، ولديهم مناعة ضد الفشل والاكتئاب وقد اخترت العالم ستيفن هوكنج ليوضع في مقدمة فصل معاقين لم يعرفوا المستحيل ؛لأن قصته عظة وعبر للكسالى من البشر الذين أعطاهم الله الصحة والعقل والمال ومع ذلك لم ينظروا ولم يتفحصوا في الكون المحيط بهم والذي خلقه الله عز وجل وأبدع في خلقه ، مع أن المزيد من العلم والتدبر في خلق الله يؤدي إلى المزيد من الإيمان.

وهذا العالم معجزة علمية بجميع المقاييس لكونه عبقرية علمية تجلس على كرسي متحرك، رجل مقعد يصعب عليه الكلام أو الكتابة ولكنه تغلب على ذلك بالصبر والعزيمة واستعمال عقله ، وبدأ البحث في نظرية ما يسمى : بالانفجار العظيم" الذي بدأ منه الكون وفسر ظاهرة الثقوب السوداء الذي ذكرها العديد من العلماء قبله ومنهم ألبرت آينشتاين ،

وألَّف كتاب " تاريخ موجز للزمن" وفسره تفسيرا مبسطا جعله من أكثر الكتب العلمية الشعبية رواجا في القرن العشرين ، وأضاف معلومات قيِّمة إلى نظرية النسبية التي قدمها العالم العظيم "ألبرت آينشتاين" الأب الروحي لعلماء الفيزياء في العالم بعد إسحاق نيوتن.

وقدم ستيفن هوكنج عرضا علميا شاملا يجمع بين رياضيات الكم ونظرية النسبية ، ونال مكانة أحد علماء الفيزياء العظماء في تاريخ البشرية ، أمثال آينشتاين وإسحاق نيوتن ؛ ذلك لأنه أحيا علما جديدا وهو " علم الكونيات" والذي ظهرت أول الأبحاث فيه عام ١٩٢٨ ثم تم إهماله فيما بعد .

عاد ستيفن هوكنج المولود عام ١٩٤٢ في إنجلترا ليفتح هذا المجال مرة أخرى ويسجل رسالته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كمبريدج ، بعد أن حصل على شهادته العلمية الأولى من جامعة أكسفورد عام ١٩٦٢ ، وداهمه المرض اللعين الذي يصيب الأعصاب الطرفية واسمه مرض التصلب الجانبي للأعصاب

Amyotrophic Lateral Sclerosis(ALS)

وهذا المرض مميت ولا يمكن الشفاء منه وأمهله الأطباء عامين فقط حتى ميعاد الوفاة المحتمل بإذن الله ، وخيَّب الله ظنهم ، وعاش حتى وقتنا الحالي ، بلغ من العمر ٦٩ عاما ، وكانت أول أعراض المرض إحساسه بأنه لا يستطيع ربط حذائه ولا تحريك يده وكاد أن يدخل في مرحلة اكتئاب عميق لما أصابه عام ١٩٦٢ ولكن الله سخَّر له ما يعينه على تحمل هذا البلاء وذلك بأن أُعجبت به وبذكائه فتاة اسمها جان وايلد واتفقا على الزواج عام ١٩٦٥ ، وقدرت جامعة كمبريدج ظروفه الصحية الطارئة ولم يكلفه أستاذه المشرف على الرسالة فوق طاقته الصحية وذلك لأن الجامعة كلفت أكفأ أساتذة الفيزياء ليكون مشرفا على رسالته في علم الكونيات ؛ولهذا عندما سأله أحد الكتاب عام ١٩٩٤ سؤالا ثقيلا (بعد حصوله على نوبل) :هل تعتبر نفسك سعيدا ومحظوظا يا دكتور ستيفن؟!

أجابه قائلاً: "لا تحسبني غاضبا أو تعيسا لأنني مقعد ولا أتحرك بمفردي ، أعتقد أنني محظوظ في كل شيء عدا إصابتي بمرض محرك الأعصاب وحتى المرض لم يكن نكبة لي وكنت على قدر كبير من الرضا لأصل للنجاح بغض النظر عن المرض، وفي الحقيقة إنني أكثر سعادة مما كنت قبل المرض، ولا أستطيع أن أجزم بأن المرض كان بمثابة منفعة لي،

ولكنه لم يكن على درجة العيب العالية المتوقعة منه وأن الله قد وهبني عقلا وذكاءً مكنني من أن أحقق ما لم يحققه أقراني من الباحثين في مثل سني وزملائي في الجامعة وكانت أداتي الوحيدة في أبحاثي هي عقلي وتصوراتي وليست الأدوات المعملية التي لا أستطيع استعمالها لأنني لا أحرك يديَّ ولا قدميَّ ، وكذلك أعضائي ، وكذلك أعطاني شريكة حياتي زوجتي جين وايلد التي أعطاها الله القدرة على مساعدتي عندما أحتاج إليها ، وكذلك أعطاني مشرفاً على رسالتي لم يفرض عليَّ بحثا من عنده وتركني أختار موضوعا علميًّا، ملائما لهوايتي في البحث وقدراتي الصحية وكان متعاوناً معي إلى أبعد الحدود وهو البروفيسور "وليم سيكاما" ووضعني الله في المكان المناسب في الوقت المناسب حيث بدأت أبحاثي في العصر الذهبي لعلم الكون ودراسة الثقوب السوداء وعلم الكون الفيزيائي في فترة الستينيات وأعطاني كذلك صديقي الحميم " مارسيل" الذي ساعدني كثيرا .

أي أن ستيفن هوكنج كان يتذكر إيجابيات حياته قبل سلبياتها ، وقد قرأت قصة حياته في كتاب من تأليف عالم الفيزياء والكاتب ج . ب . ماك إيفوي الحاصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة لندن عام ١٩٦٨ وقام بترجمة الكتاب الأستاذ ممدوح عبد المنعم محمد وأشرف على مراجعته وتقديمه أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام رئيس قسم الفلسفة بجامعة عين شمس سابقا وأصدره المشروع القومي للترجمة والمجلس الأعلى للثقافة بمصر عام ٢٠٠٢م ، فأحسست بعد قراءة هذا الكتاب وما فيه من صبرٍ وعملٍ وتحدٍّ وجهدٍ ونجاحٍ أن" الصبر هو الفريضة الغائبة في حياة البشر" (ولنا لقاء آخرٌ في هذا الموضوع بإذن الله ؛ لدراسة الصبر دينيا وعلميا واجتماعيا واقتصاديا ومروريا).

كان اكتشاف الانشطار النووي بواسطة العالمين الألمانيين أتوهان (١٨٧٩-١٩٦٨) وفريتز سترسمان ، يمثل نذيرا للفيزيائيين والسياسيين بأن الألمان على وشك إنتاج قنبلة ذرية ليستخدموها في عملية تحويل العالم إلى إمبراطورية نازية عن طريق الحكم الألماني باستخدام تهديد التدمير النووي ، وهكذا كان من السهل أن نتوقع سبب توقف علم الكونيات والتأمل في ألغاز الكون الفيزيائية، وقد هرب عالمان ألمانيان آخران من ألمانيا النازية قبل الحرب العالمية الثانية وهما :" هيرمان بوندي وتوماس جولدمان" وثالث هذين العالمين كان عالما إنجليزيا بحث في نظرية الحالة المستقرة للكون ، وهو العالم فريد هويل والذي أشرف أولا على أطروحة

ستيفن هوكنج ولكنه اختلف معه بعد أن تبين تفوق التلميذ على أستاذه في النظريات العلمية لرسالة الدكتوراه التي كان موضوعها " خصائص الكون المتمدد".

وهذا موضوع يربط بين الرياضيات التطبيقية والفيزياء النظرية وظاهرة الجاذبية الأرضية ونظرية النسبية واتضح فيما بعد أن دارس الدكتوراه ستيفن هوكنج يعلم في الرياضيات والحسابات والفيزياء أكثر مما يعرفه أستاذه في الجامعة في علم الكونيات فريد هويل والذي كان قد رفضه من قبل، وعندما تمت المناظرة العلمية بينهما في إحدى قاعات المحاضرات ، وأثبت هوكنج صحة نظريته وخطأ أستاذه وضجت القاعة بالضحك الممزوج بالسخرية بين أحد أشهر العلماء والطالب الذي رفضه الأستاذ لتسجيل الدكتوراه معه ، وتم فض الجلسة العلمية سريعاً، أي أن ستيفن هوكنج صادفته أيضا عقبات علمية .

كان عقل ستيفن هوكنج غير قادر على التوقف ويتمتع بدرجة ذكاء تفوق المعتاد بمراحل حتى إنه عندما كان في جامعة أكسفورد احتاج مجموعة من الزملاء أسابيع لحل ثلاث عشرة مسألة رياضية معقدة ، ولم يستطيعوا خلال تلك المدة إلا حل ثلاث منها فقط، وأعطيت تلك المسائل لستيفن هوكنج واستطاع حل عشرة من هذه المسائل في ليلة واحدة ، وعندما سقط على الأرض في أحد الأيام وفقد الوعي لمدة بسيطة ونسي اسمه ، عندما أفاق وعاد إلى وعيه ، خاف أن يكون قد فقد جزءا من ذاكرته أو ذكائه أو حدثت له إصابة دائمة في المخ، ولكي يتأكد من سلامة قواه العقلية والفكرية قرر أن يخوض أحد اختبارات الذكاء ، وقد كان مسرورا لأنه تمكن من اجتياز اختبارات الألوان الطائرة (أحد اختبارات الذكاء) بتقدير يتراوح بين ٢٠٠، ٢٥٠ درجة ذكاء ، وتأكد من أنه لازال يستطيع أن يجري الحسابات والمعادلات الرياضية في ذهنه ويصل إلى نتائج أسرع من التي يجريها العلماء الآخرون على الورق وبالآلات الحاسبة .

مع نهاية السبعينيات تحقق هوكنج من أن النسبية العامة لا يمكن استخدامها في حساب وقت الانفجار العظيم وذلك بسبب مبدأ عدم التأكد ، وبدأ في استكشاف إمكانية دمج النسبية العامة وميكانيكا الكم ونجح في ذلك خلال فترة الثمانينيات ، ثم حضر مؤتمر علمي في الفاتيكان بعد إثبات نظرياته وقال للحاضرين :من الممكن دراسة التطور بعد الانفجار العظيم ، ولكن لا تسأل عما حدث في الانفجار نفسه ؛لأن هذه الأشياء من أعمال

الله وقدرته على خلق الأشياء وكان هذا المؤتمر في دولة الفاتيكان عام ١٩٨١، وقد كان سعيدا جدا عند دعوته وزوجته للزيارة التاريخية لمكتبة الفاتيكان ولزيارة متحف مقتنيات ورؤية تسجيلات محاولة العالم جاليليو ، وذلك تقديرا لأبحاثه التي قربت العلم من الدين ، وأصبح العلم طريقا للتعريف بقدرة الله عز وجل وقامت الأكاديمية البابوية بمنح العالم المتميز ستيفن هوكنج ميدالية البابا لويس العاشر وتوالى التكريم للعالم الإنجليزي العظيم ستيفن هوكنج.

ففي عام ١٩٧٦ حصل على وسام هيوز من الجمعية الملكية البريطانية.

وفي عام ١٩٧٩ حصل على ميدالية ألبرت آينشتاين.

وفي عام ١٩٨٢ حصل على وسام الإمبراطورية البريطانية.

وفي عام ١٩٨٥ حصل على الميدالية الذهبية للجمعية الفلكية الملكية .

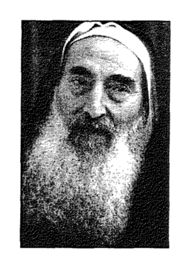
وفي عام ١٩٨٦ اختير عضوا في الأكاديمية البابوية العامة.

وكان يفخر دائما بأنه حظي بذات اللقب وكرسي الأستاذية، الذي حظي به العالم الكبير إسحاق نيوتن وكل تلك الجوائز تقديرا لأبحاثه وجهوده في علم الفيزياء ، وتفسيره لظاهرة الثقوب السوداء وهي بقايا النجوم التي استنفدت طاقتها وأثبت أنها تطلق إشعاعا سمي على اسمه (إشعاع هوكنج) عام ١٩٧٤ وطور مع زميله جيم هارتل من جامعة كاليفورنيا بأمريكا نظرية اللاحدود للكون التي غيرت التصور القديم للحظة الانفجار الكبير ، وطور نظرية الديناميكا الحرارية ، وأخيرا حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٨٨ وبعدها تعرض لمشكلة في القصبة الهوائية ، وأجرى جراحة بها أدت إلى فقدانه النطق تماما والقدرة على الكلام وأصيب بشلل كامل.

وتقديرا لعبقريته ومكانته العلمية قامت شركة "آبل" للكمبيوتر بتصميم جهاز كمبيوتر خاص لحالته الصحية الجديدة والقديمة وتسلم ستيفن هوكنج الجهاز الجديد من الشركة وهو عبارة عن كمبيوتر متصل بكرسيه المتحرك ويستطيع التحكم بحركة كرسيه والتخاطب باستخدام صوت مولد إلكتروني وإصدار الأوامر عن طريق حركة عينه ورأسه وذلك عن طريق تحريك العينين ، بحيث يستطيع إخراج بيانات مخزنة مسبقا في الجهاز تمثل كلمات وأوامر وأصبح هذا الكمبيوتر هو وسيلته في الحياة الجديدة بداية من القرن الحادي

والعشرين ، كل هذا تقديرا لصبره واجتهاده وعبقريته ورضاه بما أُبتلي به من مرض عضال لمدة ثمانية وأربعين عاما وقدرته على تحدي ما صادفه من مستحيلات وتصدى لها خلال حياته العلمية ، حتى أصبح أستاذا للفيزياء بالجامعات الإنجليزية وأثبت لنا أن الإنسان عقل أولا وجسد ثانيا ، فإذا أحسن استعمال عقله وتدبر الأمور بالصبر والهدوء والمنهج العلمي يمكن أن يحقق المعجزات.

14



الشيخ أحمد ياسين

"عزيمة + شلل + سجن + يُتم + = مصباح المقاومة"

إذا كانت الأقدار قد حرمت المرحوم الشيخ الفلسطيني العظيم أحمد ياسين من نعمة الحركة حيث أصيب بشلل رباعي وهو في سن الرابعة عشرة من عمره ، وحرمته من والده حيث أصبح يتيماً وهو في سن الخامسة وحرمته من نعمة البصر الحاد حيث كان ضعيف النظر في عينه اليمنى ومتوسط النظر في عينه اليسرى ... لكن الله عز وجل قد وهبه وأعطاه القدرة الفائقة على الصبر وأعطاه العزيمة الجبارة على تحدي قسوة الحياة والمصائب الكبيرة ، التي تعرضت لها عائلته عندما اضطروا للنزوح من عسقلان إلى غزة عام ١٩٤٨ بعد سيطرة القوات الإسرائيلية عليها ، وأعطاه الله الذكاء الحاد والقدرة على القيادة حتى استطاع أن يستكمل تعليمه بعد أن ترك المدرسة مضطرا عام ١٩٤٩ ، لكي يعمل في إحدى المحلات في غزة (محل فول) حتى يستطيع أن يدبر جزءا من نفقات المعيشة لعائلته الكبيرة المكونة من سبعة أفراد .

ثم عاد للدراسة واستكمل تعليمه حتى أصبح مدرسا للغة العربية وخطيبا بأحد المساجد في غزة ، ثم أصبح أكثر الخطباء قدرة على الإقناع ، حتى بدأ نجمه يلمع وسط دعاة غزة مما لفت الأنظار إليه ، وقاد المظاهرات التي نُظمت في القطاع عام ١٩٥٦ لمؤازرة الشعب المصري أثناء العدوان الثلاثي على مصر ، ونشط مع زملائه من الفلسطينيين في مواجهة المخطط الذي يدبر لفرض الإشراف الدولي على غزة مؤكدا ضرورة عودتها للإدارة المصرية بعد انسحاب قوات العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ .

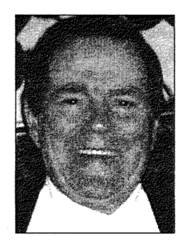
واستمرت رحلة هذا الرجل المعجزة المرحوم أحمد ياسين القائد المقعد المشلول جسديا وعضليا ولكنه القوي دينيا وفكريا ويحمل جينات القيادة والمقاومة رافعا رايات الحق والنضال حتى آخر يوم في حياته عام ٢٠٠٥ و؛ وهذا ما جعلني أضعه في مقدمة المعاقين الذين لم يعرفوا المستحيل في حياتهم واعتبرته نموذجا للإبطال الذين خلقهم الله ومنحهم من فضله قدرة عظيمة على مواجهة الصعاب ، وستظل ذكراهم باقية بيننا كي نتعلم منهم الصمود وتحدي المستحيلات.

ولد الشيخ أحمد ياسين في مدينة عسقلان ونشأ يتيماً حيث توفي والده وهو في سن الخامسة وأعالته والدته واضطرت العائلة للنزوح إلى قطاع غزة عام ١٩٤٨ ، وفي عام ١٩٥٢ أثناء ممارسته الرياضة أصيب بكسر في الفقرات للعمود الفقري مما تسبب في إصابته بشلل رباعي، عاش به طوال عمره صابراً محتسباً واعتنق فكر جماعة الإخوان المسلمين المصرية منذ شبابه ، حتى إنه اعتقل لمدة شهر عام ١٩٦٥ وتم الإفراج عنه بعد أن أثبتت التحقيقات براءته من كل التهم ، وأيضا نظرا لظروفه الصحية . وحصل على شهادة الثانوية العامة المصرية عام ٥٧ / ١٩٥٨ وعمل مدرسا للغة العربية بإحدى مدارس غزة ولتمكنه القوي من اللغة العربية وحفظه للقرآن الكريم أصبح خطيباً مفوهاً في المساجد يستمع إليه الجميع، وكأنه قائد عسكري ، وأصبح الشيخ أحمد ياسين والزعيم ياسر عرفات هما النسختان الفلسطينيتان للمقاومة في تاريخ الشعوب العربية والعالمية التي تقود شعوبها إلى التحرر مثل ماوتسي تونج وسيمون دي بوليفار وشي جيفارا وغاندي ومانديلا وغيرهم من المناضلين العظام ولكن الشيخ أحمد ياسين كان علامة بارزة في القرن العشرين ؛حيث كان قعيد الكرسي المتحرك ولم يمنعه ضعف جسده من أن يصير قائدا ويحاكم عدة مرات ويدخل السجون الإسرائيلية عدة مرات بتهمة حيازة أسلحة وتشكيل تنظيم عسكري والتحريض على العنف والمقاومة وذلك خلال فترة الثمانينيات من القرن الماضي ، وتم الإفراج عنه عن طريق المرحوم جلالة الملك حسين ملك الأردن ، الذي أجبر الحكومة الإسرائيلية على الإفراج عنه ، في عملية تبادل للأسرى الفلسطينيين مقابل عميلين إسرائيليين كانا قد قاما بعمل مشين على الأراضي الأردنية عام ١٩٩٦، وتم الإفراج عن الشيخ أحمد ياسين يوم ١/ ١/ ١٩٩٧.

عاد الشيخ أحمد ياسين إلى قطاع غزة من غياهب السجن وأصبح أكثر قوة وأكثر عزما على تحدي المستحيل وأكثر إصرارا على استكمال مسيرة المقاومة واعتبره الشعب الفلسطيني بمثابة الأب والأخ رمزا لهم في كل شيء ، وكان تأثيره عليهم أقوى من تأثير أي زعيم فلسطيني آخر مر بحياتهم منذ عام ١٩٤٨ بالإضافة إلى الرئيس ياسر عرفات رحمه الله ، ولم تستطع إسرائيل أن تغير من مواقف الشيخ ياسين ولم تستطيع أن تنتزع أو تغير حُب ملايين الفلسطينيين لهذا الشيخ المقعد الذي تعدي عمره الستين عاماً ولا يزال يتحدى ويصارع ، فما كان أمام الحكومة الإسرائيلية إلا أن دبرت عملية لاغتياله عام ٢٠٠٤ حيث قامت طائرات الهليوكوبتر التابعة للجيش الإسرائيلي بإطلاق ثلاثة صواريخ تجاه الشيخ المقعد أحمد ياسين وهو في طريقه إلى سيارته مدفوعاً على كرسيه المتحرك بواسطة مساعديه ، سقط الشيخ قتيلاً وشهيداً في الحال وقُتل بعض من مرافقيه وجُرح اثنان وشيعته الجماهير في قطاع غزة بالدموع وبالدعاء له متضرعين إلى الله أن يجزيه خيرا على سجل حياته النبيل والشريف في خدمة قضية أبناء وطنه من الفلسطينيين .

وصار الشيخ أحمد ياسين شخصية عظيمة ونادرة في تاريخ العرب والمسلمين في كل الأنحاء ورمزا من الرموز العظام للرجال الذين تحدوا المستحيل.

15



جان دومينيك بابي

"يكتب قصة برموش عينيه بعد إصابته بالشلل والخرس"

الصحفي الفرنسي جان دومينيك بابي المولود بفرنسا في ٢٣ إبريل عام ١٩٥٢ ، تلقى تعليمه الأولى والعالي وتخرج من الجامعة والتحق بالعمل بعدة صحف فرنسية كمحرر مبتدئ لفترة قصيرة ثم صار صحفيا مرموقا في إحدى المجلات الفرنسية التي تصدر في باريس ألا وهي "فرينش فاشون مجازين" وما أن جاء عام ١٩٩٥ حتى أصبح نائب رئيس التحرير ولم يكن قد بلغ إلا ثلاثة وأربعين عاما .

وفي ليلة الثامن من ديسمبر عام ١٩٩٥ حدثت فيها حادثة أدت إلى حدوث نزيف داخلي بالمخ تسبب له في شلل كامل بالأطراف وعدم القدرة على السمع والكلام وصار قعيد الفراش والعناية المركزة بالمستشفى لمدة عشرين يوما .

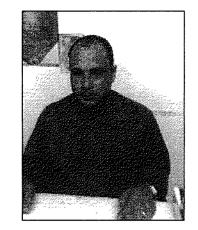
فوجئ بعد إفاقته من الغيبوبة أنه لا يستطيع أن يتعامل أو يتفاعل مع المحيطين حوله إلا بالقدرة على تحريك رموش عينيه فقط ، وذلك مع احتفاظه بكامل قواه العقلية من حيث التفكير وفهم ما يدور حوله من حيث القدرة على الرؤية فقط ، ولكن اللسان لا ينطق والأيدي لا تتحرك ، والساقان مشلولتان ولا يستطيع الكلام وفقد عشرين في المائة من وزنه خلال تلك المحنة المفاجئة .

رغم حالته الصحية والنفسية المتدهورة ، عزم جان دومينيك بابي على ألا يستسلم للإعاقة التي ألمت به وكان في نيته كتابة قصة اسمها" غرفة الغوص والفراشة " والمعنى المقصود بها الغرفة التي يحتمي بها الغواصون وسمكة الفراشة عروس البحر ، وما كان

منه إلا أن بدأ في التعبير عما يقصد من حروف الكتابة باللغة الفرنسية بتحريك رمش عينه اليسرى لأحد الأصدقاء الذي جلس أمامه لكي يستنتج الحرف المقصود كتابته في الكلمة الواحدة تلو الأخرى وذلك بإشارة الموافقة من جان دومينيك بابي ، عن طريق تحريك رمش عينه بعد المرور على الحروف، الحرف بعد الحرف واستمرت تلك الطريقة ، حتى أمكنه تأليف القصة التي كانت تدور في ذهنه قبل إصابته بالنزيف الداخلي واستطاع إملاء الحروف اللازمة لكل كلمة في القصة على صديقه بهذه الطريقة وكانت القصة تحتوي كثيرا من الحوارات مثل أي قصة عادية وتعهد أحد الناشرين الفرنسيين بالقيام بنشر هذه القصة على نفقته الخاصة تقديرا وتكريما لهذا الرجل الفرنسي الذي تحدى إعاقته وابتكر وسيلة جديدة للتعبير عن نفسه في الأدب والصحافة رغم ما كان يعانيه من إعاقة كاملة في كل أنحاء جسمه ، وظهرت القصة إلى الوجود وفي الأسواق في السابع من مارس عام ١٩٩٧ .

ومن غرابة ما حدث في هذا العمل الفني والأدبي ، تم عمل سيناريو وحوار للقصة (غرفة الغواصين والفراشة) وظهرت كفيلم سينمائي بعد وفاته ولاقى الفيلم نجاحا في الأوساط الفنية وذلك تقديرا لقصة المؤلف نفسه جان دومينيك بابي الذي لم تمنعه إعاقته من تحدي المستحيل وأصر على أن يترك شيئا للآخرين من بعده يُخلِّد سيرته وعدم يأسه وصبره ورضاه بقضاء الله تعالى.

16



الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس

"الكفيف الذي وثّق الأدب الشعبي المصري والعربي"

إن استمعت إلى الموروثات الشعبية التي تنتمي إلى عصور أجدادك وأجدادهم والأشعار والأغاني التي كان يشدو بها المصريون وأهل وادي النيل أيام الحصاد والزواج والموالد وقدوم شهر رمضان وأغاني المحمل قبل موسم الحج وسيرة أبي زيد الهلالي والملاحم الشعبية في صعيد مصر وأغاني الأفراح في دلتا مصر ومواويل أهل السواحل في السويس والإسكندرية وبورسعيد وسوالف بدو الصحراء الغربية في منطقة مرسى مطروح وسيدي براني والسلوم وكذلك الفن الشعبي وحكاوي أهل سيناء وأغانيهم الشعبية.

هذا التراث العظيم جمعه ووثقه في صورة علمية أستاذ الأدب الشعبي بكلية الآداب جامعة القاهرة الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس ابن مصر الكفيف الذي أعطاها أضعاف ما أعطاها المبصرون من أهلها ؛ لأنه كان يفترق عنهم في شيء هام كما الأستاذ الدكتور طه حسين ، وهو أنه لا يعرف المستحيل ولم يهن ولا ينكسر عندما فقد بصره وهو في سن الشباب.

قرأت عن أستاذنا الجليل في مقالة نشرها الأخ الفاضل أ.د/ طارق عباس في جريدة "المصري اليوم" يوم السبت ٢١/ ٨/ ٢٠١٠ ورأيت أن من واجبي أن أضع بين أيديكم بقدر استطاعتي نبذة بسيطة ومختصرة عن هذا العالم الذي لم تهزمه ظروفه القاسية على أن يُبدع ، على أن تعودوا للكتاب الكامل عن سيرة حياته الذي أصدره تلميذه أ. د/ مصطفى جاد عام ٢٠١٠ بمناسبة مرور مائة عام على مولد الدكتور عبدالحميد يونس والكتاب يحمل

عنوان :" عبد الحميد يونس رائد الدراسات الشعبية" .

ولد عبد الحميد يونس عام ١٩١٠ بمحافظة الشرقية مركز شلشمون يوم ٤ فبراير ، تلقى تعليمه الأولي بالمدارس الحكومية العادية ولكنه تعرض لحادث أفقده بصره عام ١٩٢٦ وهو لم يزل في زهرة شبابه ، ثم كافح وحصل على شهادة الثانوية العامة(البكالوريا) والتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة ثم خرج منها قبل أن يحصل على درجة الليسانس وعمل في الصحف والمجلات وأصبح كاتبا لامعا في مجتمع شباب الصحفيين ثم عاد لاستكمال دراسته في كلية الآداب ، فحصل على درجة الليسانس عام ١٩٤٠ ثم درجة الماجستير عام ١٩٤٦ وكانت أطروحته عن سيرة الظاهر بيبرس ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٥٠ وكانت أطروحته عن السيرة الهلالية ؛ ليصبح أستاذا في تخصص هو الذي أنشأه في الدول العربية وصنع أجيالا وتلاميذ له في هذا التخصص لأنه أعطى الفنون الشعبية العربية البُعد الوثائقي الذي يمكن الرجوع إليه في أي وقت بعد أن جاب البلاد بحثا عن المصادر ليوثق ويسجل هذا التراث .

وكان أيضا من أنشط كتاب العمود الصحفي في الجرائد والمجلات خلال تلك الفترة وكان يكتب في الجرائد والمجلات خلال تلك الفترة وكان يكتب في مجلة المصري والمجلة الجديدة وأصدر مجلة العربي الجديدة وكان رئيس تحريرها ورأس تحرير مجلة العربي عام ١٩٦٥ وأسس مجلة الفنون الشعبية عام ١٩٦٤ وكان ينشر مقالات في مجلة المصور وجريدة البلاغ وجريدة المساء والكتاب العربي ومجلة الأدب واشترك في تأسيس وترجمة دائرة المعارف الإسلامية وأسس مركز دراسات الفنون الشعبية الذي يقوم بتسجيل وتصنيف الفلكلور الشعبي .

وفي بداية حياته تعاون مع المرحوم الصحفي الكبير وأحد أعمدة الصحافة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين الأستاذ سلامة موسى ، وأسهم في إصدار وتحرير المجلة الجديدة ، وتدرج في الوظائف الجامعية حتى وصل إلى أستاذ كرسي الأدب الشعبي عام ١٩٦٤ بكلية الآداب وساهم في تأسيس وأنشطة الثقافة الجماهيرية وحصل على جوائز عديدة خلال عمره أولها من أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر الأسبق ثم وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٥٥ من الزعيم جمال عبد الناصر ثم جائزة الدولة التقديرية

مع وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام ١٩٨٠ من الرئيس أنور السادات ثم جائزة الكويت للتقدم العلمي عام ١٩٨٥.

إذا تحدثنا عن مآثر هذا الرجل العظيم وكيف حول مأساته إلى نجاح متميز وكان أقوى من الظروف التي أحاطت به ، سنعترف أنه أكثر بصيرة وجلدا، عندما نعرف أن ابنه الوحيد أحمد تعرض لنفس المرض وفقد بصره في سن السابعة ، فتولى والده رعايته واعتمد على الله وصبر واحتسب حتى صار ابنه أستاذا جامعيا في الفلسفة وقد حصل على درجة الدكتوراه من الجامعات الأوربية ويشرفنا دائما بمقالاته الصحفية مثل المرحوم والده ، الذي توفي في عام ١٩٨٨، والدكتور أحمد يكتب في جريدة القاهرة ، المتميزة ثقافيًا وفكريًا .

وكما ذكر الأخ العزيز أ./ طارق عباس في مقاله "من الناس من فطر على التطلع والطموح والسعي الدائم والاتساق بالواقع لتغييره ، ومن الناس من يأتي للحياة متفرجا ، يؤثر السلامة دائما ويعيش الحياة بحلوها ومرها ، لا يصنع الأحداث بل تصنعه الأحداث".

وقد كان أستاذنا الراحل الدكتور عبد الحميد يونس من الصِّنف الأول الذي صنع الأحداث وتحدى المستحيل.

17

فريدريك بارتليت

"من مريض تلقى تعليمه بالمنزل إلى مؤسس علم النفس التجريبي"

قصة عالم النفس البريطاني فريدريك بارتليت تعطي الأمل لمن حرمته الأقدار من إحدى الآمال المادية الخمس لأي فرد في الحياة ، وهي المال والبنون والصحة والزوجة الصالحة والستر.

ولد فريدريك بارتليت في المملكة المتحدة عام ١٨٨٦ ونشأ في مجتمع أسري مستقر ، ولكنه أصيب في طفولته بالتهاب رئوي حاد وكانت الأدوية المستعملة في تلك الفترة أدوية بدائية إلى حد ما ، وهي عبارة عن مركبات السلفاديازين ومشتقاتها ولم يكن البنسلين ومشتقاته قد أُكتشف بعد (اكتشف عام ١٩٢١) واستعمل فعليا وتجاريا عام ١٩٤٢ في معركة نورماندي بفرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية، بواسطة المتطوعة العالمة الدكتورة : إيثيل فلوري (مذكورة في كتاب الخالدات مائة أولاهن السيدة مريم).

تدهورت صحة الطفل فريدريك وأدى الالتهاب الرئوي إلى حدوث ما يشبه التليف الرئوي بلغتنا الحديثة وهذا المرض يؤدي إلى النهجان وضيق التنفس عند بذل أي مجهود بسيط ، فلم يستطع فريدريك استكمال تعليمه الأولي بالمدرسة حيث كان الذهاب والعودة من وإلى المدرسة من الصعوبة بمكان وكان لا يقدر عليها فاضطر أن يتلقى تعليمه بالمنزل عن طريق والديه وبعض المدرسين المتطوعين، ومن إيجابيات هذا التعليم المنزلي في حياته أنه نشأ متحررا من القيود في أسلوب التفكير وغير تابع للمناهج الأكاديمية المعهودة وفروضها المنهجية الصارمة.

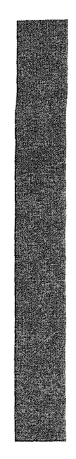
في عام ١٩٠٦ تخرج من جامعة لندن كطالب منتسب متخصصا في الفلسفة والتاريخ ، ونظرا لذكائه وتفوقه واحتراما لنجاحه رغم مرضه ، تم تعيينه مساعد باحث في أول مركز للتجارب على كيفية عمل المخ البشري وخلال تلك الفترة توصل إلى نتائج مذهلة عن

كيفية احتفاظ المخ بالذاكرة القوية وكيفية تراكم المعلومات وتجديدها والإضافة إليها منذ الصغر حتى الشيخوخة .

ونظرا لإعجاب أساتذته في المركز بما توصل إليه من أبحاث ، طلب منهم أن ينشئ مركزا خاصا به بداخل نفس المبنى لدراسة "علم النفس التجريبي" كجزء من تخصصات المركز وترقى من مساعد باحث إلى باحث ثم أستاذ بالمركز وفي عام ١٩٢٢ أصبح مديرا للمركز نفسه بعد أن توصل إلى الرابط بين سلوكيات الأفراد ومدى تمثيلها لتكوينهم النفسي الحقيقي، وفي عام ١٩٣٢ أنشأت جامعة كمبريدج أول كرسي أستاذية لعلم النفس التجريبي وكان فريدريك بارتليت أول من شغله ، وفي ذلك الوقت أصدر كتابه التاريخي عن الذاكرة والتذكر " الذي شرح فيه نظريته عن المهام التي يقوم بها المخ وتتضمن عدة عمليات ، فالمخ يسجل التجارب الفعلية كلها سواء تلك التي ينقلها من الحواس أو المنقولة أو التي تأتي عن طريق التعليم أو التربية ويحولها إلى ما يشبه الرموز أو العلامات الخاصة في المراكز العصبية المختلفة بداخله ، وفي حالات التذكر فإن مركزا خاصا في المخ يقوم باستدعاء انتقائي عفوي للتجارب المطلوبة من حيث يتم تخزينها في المراكز الخاصة الأخرى في المخ ، وثبت صحة تلك النظرية واستعملت فيما بعد في كيفية تخزين المعلومات في أجهزة الكمبيوتر وكيفية استردادها مطعمة بمعلومات أخرى أُضيفت إليها ، وانتهت نظرية المدرسة الألمانية التي كانت تقول : إن التذكر يحدث لأن أحداثا أو معارف جديدة تحدث تشبه القديمة فتستدعي القديمة إلى التذكر .

استفادت البشرية من تأسيس علم النفس التجريبي بفضل العالم المريض فريدريك بارتليت حيث استطاع أن يربط علم النفس بعلم العقل ووضع الأسس النظرية والتطبيقية في فسيولوجيا الذاكرة كما ساهمت دراساته في علم بناء الذاكرة الاصطناعية التي تطورت على أساسها تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي وجهاز الكمبيوتر في مرحلته الأولى وحتى الآن ، وهكذا نجد أن مريضاً واحداً تحدى المستحيل وأنشأ تخصصاً جديدا في العلم ، قد أفاد البشرية أكثر من ألف مولود سليم عاش ومات مثل الدجاج الأبيض شكل ووزن واحد ولون واحد لا يظهر بينهم أحد متميز في الحياة أو المات (عند الذبح).

توفي العالم فريدريك بارتليت عام ١٩٦٩ عن عمر يناهز ثلاثا وثمانين سنة ، بعد أن أدى رسالة علمية في حياته رغم مرضه وذلك ما جعلني أضعه ضمن الرجال الذين لم يعرفوا المستحيل.

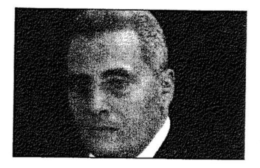


الفصل الثالث

اقتصاديون لم يعرفوا المستحيل



18



الدكتور محمد يونس

"رَجُلٌ من ذهب، مؤسس بنك الفقراء ببنجلاديش وحائز جائزة نوبل"

أعظم الناجحين هو من ينجح من أجل الآخرين، وليس من أجل منفعته الشخصية بحيث يكون عمله وجهده من أجل رضا الله ورضا الذين يحتاجون مساعدته ، وهذا هو رأيي في الدكتور محمد يونس مؤسس بنك الفقراء (جرامين بنك) في بنجلاديش، والذى حاز على جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٦ تقديراً لمبادرته لخلق وإنشاء مجتمع اقتصادى وتطوير مُجتمعى فى بلده بنجلاديش عن طريق إنشاء بنك لإقراض الفقراء .

تحية للرجل الذى بدأ مشروع إقراض المعدمين من دون أرباح ولا فائدة ، وذلك من ماله الخاص أولاً حتى لا يدعى أحد أنه فى سبيله لإنشاء مشروع تجارى، يهدف إلى الربح أو إلى مصلحة شخصية، وقد كان من الممكن أن يكتفيَ الدكتور "محمد يونس" بأنه أستاذ اقتصاد بجامعة ببنجلاديش، مثل الآلاف من أساتذة الجامعات فى البلاد العربية الذين لا يحتكون مباشرة بأهل الريف أو الفقراء، وينقلون مشاكلهم ومعاناتهم ويبادرون لعمل المشروعات اللازمة لحل تلك المشاكل، وإنما يكتفون بكتابة التقارير الأكاديمية أو بنتائج الأبحاث ، والتى يحصلون بها على الترقيات العلمية بالجامعات ومراكز الأبحاث ، ومن هنا أعجبتنى مقالة معبرة وصادقة قرأتها فى جريدة "الوفد" المصرية عام ٢٠١٠ واستعرت منها عنوان المقال بعد استئذان صاحبها الصديق الكاتب الصحفى الذكى اللامع الأستاذ محمد أمين حين وصف فيها تجربة الدكتور محمد يونس بأنها "تجربة من ذهب " ، أعطى بنجلاديش حياته وانتشلها من الفقر عندما أسس بنك جرامين (بنك الفقراء) .

يعانى من الفقر الشديد ، ولن يخاطر أحد بتنفيذ هذه التجربة الجريئة .

وخلال توسعه في عمليات الإقراض أنشأ الدكتور محمد يونس ما يشبه مجموعات تعليمية من المسؤولين والمقترضين كانت مسؤوليتهم توجية المقترضين وحثهم على سداد الأقساط فى موعدها بدلاً من أخذ ضمانات عليهم ، وفى نفس الوقت إشعارهم بأن سداد القروض سيُمكِّن البنك من إقراض فقراء آخرين ، فحدث التزام كامل بالسداد وتوجيه مثالى من المسؤولين عن كيفية استخدام القرض ، حيث تم توجيه بعض الأفراد إلى شراء طلمبات المياه والبعض إلى الآلات الزراعية وبعضهم إلى امتلاك مراكب صيد أسماك، وتم إنشاء أقسام خاصة بالبنك لكل مجموعة مقترضين من تخصصات مختلفة (صناعة – زراعة – رى – صيد) وتم فصل القروض ذات النشاطات سريعة الربح عن النشاطات متوسطة الربح، وعن النشاطات التى تؤدى إلى مجرد تشغيل الأيدى العاملة ، والتى كانت أغلب قروضها تسدد بنفس قيمة القرض؛ لأن الغرض منها مجرد العمل ، وتم عمل جدول زمنى لسداد قروض الأنشطة ذات الأجل الطويل فى الاستثمار (استصلاح الأراضى).

تم تكريم الدكتور محمد يونس فى العديد من الجامعات والمحافل الدولية واستعانت حوالى ٣٨ دولة بخبرته وتجربته فى مكافحة الفقر ، وتقابل مع معظم رؤساء العالم واختارته المجلات العالمية ليكون من أحسن ٥٠ شخصية عام ٢٠١٠وحصل على ميدالية الملك عبدالعزيز من المملكة العربية السعودية عام ٢٠٠٧ وجائزة منظمة الغذاء العالمى وجائزة باركلى فى كاليفورنيا عام ٢٠٠٢ والعديد من الجوائز العالمية والتى تعدت ٢٦ جائزة وكرمتهُ ولاية تكساس بأن جعلت يوم ٢٨ يناير عام ٢٠٠٨ يوم محمد يونس.

استمر دكتور محمد يونس مديراً ومشرفاً على بنك الفقراء حتى مارس ٢٠١١ حيث تم إحالته على التقاعد تحت بند كبر سنه !!

بعدما أثبت للعالم أن هناك رجلاً يستطيع أن يتحدى الفقر ويعيش للفقراء وهذا هو الدرب المستحيل .

19

الأمريكي بيل جيتس مؤسس شركة مايكروسوفت



"إن لم تكن الأفضل في مجالك ، فغيّر هذا المجال"

العملاق الاقتصادي بيل جيتس وإمبراطوريته التكنولوجية والمالية التي تتعدى قيمتها ما يزيد عن الدخل القومي لحوالى ٧٠ دولة من دول العالم مجتمعة .

كان وراء نجاحه قصة كفاح واجتهاد امتدت لما يزيد عن أربعين عاماً من السهر والابتكار وساعات من العمل الطويل حتى أنه في بعض الأحيان كان يوم عمله يبدأ من الساعة الخامسة فجراً ، أي إنه إنسان لدية موهبة استكشاف ما يجهله الآخرون ومعرفة ما يحتاجه الآخرون والسعي لتحقيق الاثنين سويًّا ، حتى إنه أثناء دراسته الثانوية طلبت منه مدرسته أن يصمم برنامجا لتوزيع العمل في المدرسة على المدرسين والإداريين وربط ذلك بمواعيد اليوم الدراسي وعدد تلاميذ المدرسة وعدد الفصول الدراسية ووضع هذا النظام بطريقة إلكترونية منظمة وأتم بيل جيتس (الطالب في ذلك الحين) العمل ، وتسلم من المدرسة ٢٤٠٠ دولار نظير هذا العمل !! وهذا هو المجتمع الأمريكي الذي يكافئ الناجح ويشجعه على الاستمرار في النجاح ، فلا مكان بالمجتمع الأمريكي للكسالى ولا توجد مقاهٍ كثيرة تفتح أبوابها صباحاً أثناء أوقات العمل ولا توجد مقاهٍ كاملة العدد بالزبائن في وضح النهار ولا يتأفف المواطن الأمريكي من أن يبدأ حياته بأي نوع من العمل ، حتى يستكمل تعليمه أو يجد عملا آخر يليق بخبرته أو بشهادته ولا أنسى إنني قرأت أن ابنة الرئيس الأمريكي الراحل ليندون جونسون كانت تعمل بائعة في أحد المحلات أثناء فترة دراستها الجامعية وأثناء تولى والدها منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، علينا

أن ننسى أمريكا السياسية والعسكرية ونتذكر أمريكا العلمية والاقتصادية لأن السياسيين والعسكريين يتغيرون ويذهبون ، أما الإيمان بالله والعلم والاقتصاد فيبقون في الأرض وينفعون المجتمع .

وعندما أقمت فترات طويلة في الولايات المتحدة الأمريكية وجدت أن أهم أسباب نجاح الأفراد في المجتمع الأمريكي هو أن كل فرد في المجتمع لديه الإحساس بأنه مسؤول عن نفسه ، ولا يوجد فرد يركز كل اهتمامه على متابعة تصرفات الآخرين والتدخل في شؤونهم وتوجيه النقد لهم أو مهاجمتهم أو مدحهم كما يحدث في عالمنا العربي ، حيث نجد الناس عندنا من طول تفرغهم لمتابعة تصرفات الآخرين قد أضاعوا على أنفسهم فرصة العمل والإنتاج وانغمسوا في مواويل النميمة والحقد والحسد ونسوا الابتكار والأبحاث والقراءة والثقافة لأنهم كما قال أحد الصحفيين المصريين اللامعين في أحد برامج التليفزيون:

" كل واحد يصحح في ورقة الشخص الذي يجلس بجواره وليس في ورقته هو "

والآن معنا قصة نجاح الأمريكي بيل جيتس ورحلة صعوده إلى القمة متحدياً جميع المستحيلات التي قابلته في حياته منتصراً عليها ، ثم تبرعه بمعظم أمواله للفقراء فيما بعد.

ولد بيل هنرى جيتس في ٢٨ أكتوبر عام ١٩٥٥ في مدينة سياتل بالولايات المتحدة الأمريكية ونشأ في عائلة غنية حيث كان والده محامياً ناجحاً ، وتولى تربية أولاده بيل وأختيه كريستين وليبى على مبدأ الفضيلة والالتزام وكانت والدة بيل سيدة متعلمة وتعمل عضو هيئة تدريس في جامعة واشنطن وكان بيل جيتس منذ صغره يحب الاعتماد على النفس في كل شيء وبدأ من النقود، حتى كيفية استغلال وقت فراغه حيث كان لا يضيعه في المقاهي والملاهي ابتداءً من سن التاسعة من عمره وشبَّ على هذا المنوال أثناء فترة دراسته الأولى حيث التحق بالمدرسة وتفوق بمادة الرياضيات وعلوم الإحصاء والحسابات .

وفى عام١٩٦٨ اشترت المدرسة جهاز كمبيوتر بدائي (بعد جمع التبرعات لهذا الغرض) لاستعماله في معالجة البيانات وكان الأصدقاء الثلاثة بيل جيتس وكنت إيفانس وبول الن ، أكثر طلاب المدرسة اهتماما بهذا الجهاز العجيب وأكثرهم نقداً لكبر حجمه وضخامته وصوته المزعج وبطئه ، كان بيل جيتس في ذلك الحين يبلغ من العمر ١٤ سنة ويتميز عن أقرانه بالذكاء الحاد والتواضع واستطاع بخبرته في الرياضيات وحبه للبرمجيات

أن يصمم برنامج خاص به للعبة "التيك تاك تو" واشترته منه المدرسة وذلك لتشجيعه على الاستمرار في هذا المجال استغل بيل جيتس هذا المبلغ عام ١٩٦٩ في عمل شركة صغيرة مع أصدقائه وسماها " مجموعة مبرمجي ليكسايد للكمبيوتر " ومن خلال اكتساب مزيد من الخبرة في البرامج تمكن الثلاثة من فك شفرات عمل أجهزة الكمبيوتر الخاصة بفواتير اشتراك الحاسب الآلي وأمكنهم تخفيض قيمتها وعاقبتهم الشركة بالامتناع عن توفير الخدمة لهم شهراً ونصفاً ولكن لم تقدم بلاغاً ضدهم لأنها اكتشفت أنها أمام ثلاثة عباقرة لم يتعدوا الثامنة عشرة من العمر ، حصلت شركتهم الصغيرة على بعض العقود البسيطة لعمل نظام لإدارة شؤون العاملين في عدة جهات واستثنى بيل جيتس من العمل لصغر سنه ، ولكن تعثر العمل لعدم وجوده فتمت الاستعانة بخدماته وعبقريته لإتمام تلك العقود ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره وفى ذلك الوقت ابتكر بيل جيتس وبول ألن نظاماً آليا لتخفيف زحام المرور في المدن وفى عام ١٩٧٢ أسس مع صديقه الثاني كنت إيفانس شركة أخرى ولكن صديقه توفى عام ١٩٧٢ في حادث تسلق جبال ، لاحظت المدرسة أن هناك عبقريين في الفصول الدراسية فتم تكليفهما بتنظيم عمل الحصص الدراسية والمدرسين وجداول الامتحانات الدورية بالمدرسة عن طريق الحاسب الآلي ، فتغلب بيل جيتس على أحزانه بفقد صديقه وأتم المطلوب منه بكفاءة خلال أسبوعين مع صديقه بول الن ومن هنا نكتشف قيمة العزيمة والاجتهاد .

حصل بيل جيتس على الشهادة الثانوية ١٩٧٣ وطلب منه والده أن يلتحق بكلية الحقوق جامعة هارفارد وهى من أحسن جامعات العالم حتى يصبح محامياً مثله .

وافق بيل جيتس مبدئياً ودخل كلية الحقوق واستمر سنة دراسية واحدة تعرف فيها على محتويات الدراسة وعلى صديقه ستيف بالمر ، ولكن لم يجد نفسه في دراسة الحقوق وهو مغرم بالرياضيات والبرمجيات ولغة الكمبيوتر وأحس أنه لن يصير متفوقاً في مجال الدراسة الجامعية فقال لوالديه وللآخرين حكمته الشهيرة " إن لم تكن الأفضل في مجالك ، فغيِّر هذا المجال " .

وترك بيل جيتس الدراسة في الجامعة مؤقتاً وبدأ يهتم بالشركة التي أسسها وعندما اكتسب مزيداً من الخبرة أدرك أن المستقبل سيكون لكمبيوتر الشخص الذي يحمله الإنسان

ويُجرى عليه معاملاته عندما يكون متوفراً للناس فأسس عام ١٩٧٥ مع صديقه بول ألن شركه لعمل برمجيات سهلة الاستعمال للكمبيوتر الشخصي لأحد شركات تصنيع الحاسب الآلي وزادت عائدات شركته التي كان يعمل بها من الساعة الخامسة فجراً حتى انتهاء يوم العمل وتفرغ تماماً لتطوير أجهزة الحاسب الآلي وبرامجها وكان لا يحصل على إجازات سنوية طويلة ويكتفي باجازتين قصيرتين في الأعياد كما ذكر في الكتاب الذي ألفه عن حياته وقصة كفاحه وصعوده وأسماه " الطريق إلى الأمام " وانهمرت عليه الملايين أولاً خلال فترة الثمانينيات ثم البلايين ثانيا خلال فترة التسعينيات والألفية الثالثة حتى إنه احتفظ بمرتبة أغنى رجل في العالم لمدة اثنتي عشرة سنة متواصلة وذلك من عائدات شركته ميكروسوفت التي أسسها فعليًا في يونيو عام ١٩٨١ وغزت الأسواق بكمبيوترتها الخاص I B M والذي لاقى نجاحاً رائعاً على مستوى العالم وحاولت عدة شركات أخرى أن تلاحقه في التطوير ولم تنجح وحاول عدد من المنافسين تكسيره فتحداهم ووقف للجميع بمرصاد العلم والمنافسة الشريفة واكتسح الأسواق في فترة التسعينيات بإطلاق نظام ويندوز وكان بيل جيتس رائعاً في كيفية الترويج لمنتجاته والإعلان عنها قبل نزولها الأسواق فحقق الشهرة والنجاح اللذين كان يصبو إليهما قبل أن يبلغ الرابعة والأربعين من العمر ، حيث أصبح أصغر مليونير سنًّا وأغنى رجل في العالم بثروة تقدر بمليارات الدولارات وكان يقول: "**إن كثرة الأعداء قد تؤدى بك إلى مزيد من النجاح** " وأيضا صديق طفولته وزميله بول ألان أصبح بليونيراً أيضا بثروة قدرها ٥,٢ بليون دولار عندما كانت ثروة بيل جيتس ٥٠ بليون دولار والتي تبرع أولاً بنصفها ٢٢,٥ بليون دولار للفقراء والأعمال الخيرية ومشروعات الرعاية الصحية والتطعيم وعلاج الملاريا والسل والإيدز والمعاهد البحثية والجامعات لدول العالم الثالث الفقراء في كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وغيرها من الدول .

أسس مع زوجته السيدة مليندا جيتس صندوق تبرعات للأعمال الخيرية في بداية القرن الحادي والعشرين ، اتفق بيل جيتس مع رجل الأعمال والبليونير الأمريكي بافيت على إنشاء مشروع خيري دائم يتم تمويله من ثلثي أموالهما هما الاثنان على أن يتولى بيل جيتس إدارته وتبرع الأمريكيان العظيمان بما يعادل ٧٠٪ من أموالهما وممتلكاتهما لهذا العمل والذي يعتبر أكبر تبرع في تاريخ البشرية لصالح الفقراء والمرضى.

قرر بيل جيتس التفرغ لإدارة مشروعات الأعمال الخيرية عام ٢٠٠٨ على أن يترك إدارة شركة ميكروسوفت لكبار العاملين بها ويكون هو مستشاراً فقط عند الاحتياج إلى خدماته.

وقد تم تكريمه في عديد من دول العالم على نبوغه أولاً ونجاحه ثانياً وعطائه ثالثاً ؛ حيث أصبح مثالاً نادراً في كل شيء ، صحيح يمكن أن يصبو إليه أي شاب يريد النجاح والعلو وقد كرمته عدة جامعات عالمية ومنحته الملكة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا لقب "فارس" وعاد إلى الجامعة دارساً متميزاً مضيفاً لها من عبقريته التي منحه الله إياها ، فأحسن استغلال عطاء الله له وشكره على نعمته ومنح الفقراء ٧٠٪ من حصيلة ما أعطاه الله له بجده وعرقه وصبره وتحديه للمستحيلات التي صادفته في حياته وكان شعاره هو ما قاله العالم الإنجليزي الكبير إسحاق نيوتن :

" إذا رُكِلْتَ من الخلف .. فاعلم أنك في المقدمة "

20



طلعت باشا حرب

"اقتصادى لم يحلم بمفرده .. بل حلمت مصر معه"

على المصريين تعلم كيفية ادخار رؤوس أموالهم إذا ما رغبوا في مقاومة رأس المال الأجنبي .

هذه كانت أهم فكرة راودت ابن مصر الاقتصادي الكبير طلعت حرب باشا في أولى خطواته لتأسيس بنك مصر و الصروح الاقتصادية التي أنشاها ، ووضعته تلك الفكرة أن يصير أول ربان مصري يقود سفينة مصر الاقتصادية في مواجهة أعاصير رؤوس الأموال الأجنبية والبنوك الأوروبية التي كانت مسيطرة على دفة الاقتصاد المصري وفى مواجهة الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٢٩ مع ما صاحبها من انهيار اقتصادى عالمي وبطالة .

فكيف استطاع طلعت حرب باشا ابن حي الجمالية الشعبي الفقير بالقاهرة والذي ينحدر من أصول بدوية في سيناء (توجد قبيلة تسمى الحروب أو بنى حرب ولها أصول في السعودية بالمنطقة الشمالية الغربية وفي الأردن في المنطقة الجنوبية وجبال عمان) أن يتحدى تلك المستحيلات في مجتمع لا يعرف الادخار .

حيث عمل من قبل كوكيل لعدد من كبار ملاك الأراضي المصريين المعروفين وأسس معهم علاقات صداقة متينة استغلها فيما بعد عندما احتاج إلى شركاء في تأسيس بنك مصر ، تعلم أيضاً طلعت حرب الكثير من قواعد وأصول الأعمال التجارية من العائلات اليهودية المصرية الذين عمل معهم وازدادت خبرته حول كيفية إدارة رأس المال الدولي وكيفية أعمال البنوك من حيث الإقراض والضمانات وفتح الاعتمادات والمساهمات في المشاريع وفتح

الحسابات وتجنيب المخصصات (الديون معدومة السداد) والأرباح والخسائر ، وحدث نوع من الانتعاش الاقتصادي البسيط قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى وتزايد حجم الاستثمار الأجنبي في مصر ، مما أدى إلى توسيع الفوارق بين طبقات الشعب ، وانصرف بعض الأغنياء الجدد إلى تناول المسكرات وارتياد الملاهي الليلية وتعدد الزوجات، وكان هناك حرص من سلطات الاحتلال البريطاني على ألا تتحرك أرباح تلك الاستثمارات وتصب في أيدي المستثمرين المصريين ، وهنا فكر طلعت حرب باشا عام ١٩١٠ ومعه بعض الوطنيين المصريين في فكرة إنشاء بنك وطني مصري خالص لا تشارك فيه رؤوس أموال غير مصرية ، ويديره مصريون فقط .

لنبدأ قصة طلعت حرب الذي أسس بنك مصر من أجل مصر ، واستقال من بنك مصر من أجل بنك مصر !!

وُلد طلعت حرب باشا في القاهرة في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٧ بشارع قصر الشوق في حي الجمالية وعائلته من أصل بدوى في شبه جزيرة سيناء العزيزة ، مما جعله شديد الانتماء إلى جذوره العربية وكان من رفاقه في المدرسة الثانوية مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك والشاعر حفني ناصف وفى نفس الركب الموازى تاريخيًّا كان هناك سعد زغلول باشا وإسماعيل صدقي باشا ولطفي السيد وقاسم أمين وفخري عبد النور وعبد العزيز فهمي وويصا حنا ويوسف قطاى وقليني باشا وهم من الرعيل الأول الذي تحمل عبء النهضة المصرية علميًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا في النصف الأول من القرن العشرين ، وهى تعتبر زمنياً فترة تكوين الخبرات والمهارات السياسية والعلمية والاقتصادية في مصر ، عمل طلعت حرب أولاً في الدائرة السنية كمترجم بعد تخرجه من مدرسة الألسن والإدارة حيث كان يجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية أكسبه هذا العمل خبرة عملية في المعاملات المالية والعلاقات العامة ثم عمل مديراً لشركة كوم- أمبو ، ثم الشركة العقارية المصرية التي مصَّرها فيما بعد وتوطدت علاقتها مع العائلات المصرية الكبيرة وكبار ملاك الأراضي وشجعه كبار ملاك الأراضي المصريين وبعد كبار التجار المصريين ودعموا فكرته بتقديم أراضيهم كضمان لرأس المال المستثمر وأنشأ شركة التعاون المالي والتجاري مع بعض من ملاك الأراضي والتجار وكانت تعتبر نموذجاً مصغراً للبنك عام ١٩١٠ ، عندما وقعت

أحداث الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وحدثت زيادة في أسعار القطن المصري وتعثرت طرق التجارة البحرية بين مصر وأوروبا ، أسست الحكومة المصرية ما سُمي وقتها بلجنة للتجارة والصناعة وخلصت تلك اللجنة إلى نتيجة مفادها أن مصر تحتاج لتأسيس بنك صناعي يتولى تأسيس مشاريع صناعية ويعطى اعتمادات قصيرة الأجل للتجارة واعتمادات طويلة الأجل للصناعة (كما هو متبع حالياً) وكان تقرير اللجنة يشير إلى أهمية هذا المنحى حتى يمكن مواجهة البطالة (حيث بدأت من عام ١٩١١ أولى موجات الهجرة الداخلية المصرية من الريف إلى المدن للبحث عن الرزق أو للتعليم) هنا أصبحت أفكار طلعت حرب قابلة للتنفيذ عمليًا ورسميًا فبدأ الاتصال بأصدقائه من كبار العائلات الثرية في مصر وأقنعهم أن إنشاء بنك مصري خالص هو بوابة التنمية الاقتصادية وجوهر الاستقلال الاقتصادي عن الأجانب المتحكمين في كل شيء يهم التجارة والصناعة والاستيراد والتصدير ، وسيجعل أرباح تلك المعاملات تصب مباشرة في شرايين الاقتصاد المصري وتساعد على دوران رأس المال بمزيد من المشروعات وتم تأسيس بنك مصر عام ١٩٢٠ شهر أبريل في ذكرى مرور سنة على ثورة الشعب المصري بقيادة سعد زغلول ورفاقه على الاحتلال الانجليزى وكان أول رأسمال له ٨٠ ألف جنية مصري ، لاقى البنك نجاحاً كبيراً وبدأ في إنشاء عدد من الشركات المصرية في الصناعات الحيوية وتحول إلى شركة قابضة فيما بعد ذات رأسمال ضخم يبلغ ٤ ملايين جنية ، وتولى طلبة الجامعات والثانوي الترويج للبنك بين المصرين وقاموا بحملة دعوا فيها المصريين لسحب ودائعهم من البنوك الإنجليزية وإيداعها ببنك مصر .

أنشأ طلعت حرب عدة شركات للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى بالوجه البحري شمال القاهرة وشركة مصر للطيران وشركة مصر للتأمين ومطبعة مصر ومصر للملاحة البحرية ومصر للجلود ومصر للشحن ، ورغم أن البنوك دورها في الدول اقتصادي دائماً ولكن يبدو أن طلعت حرب باشا كان يعي مقولة ابن خلدون " إن أول ما ينهار في الأمم هي الفنون ثم ينهار كل شيء بعد ذلك " والله أعلم ، لأن بوابة التقدم هي الاستثمار الثقافي والتعليمي والمعرفي ، فأنشأ شركة ستوديو مصر للإنتاج السينمائي وأرسل شباب السينمائيين في بعثات إلى أوروبا لكي يحلوا محل الأجانب الذين يعملون بمصر ، حتى يمكنهم أن يتعمقوا في الوجدان الفني للشعب المصري آنذاك لأنه من المعروف إذا كانت نسبة الأمية مرتفعة في

الشعب تصبح أول وأسهل وسيلة لتثقيفه هي المسرح والسينما لأنهم لا يحتاجون قراءة وكتابة إلى أن تصل بالشعب إلى مرحلة محو الأمية ، وهنا أنشأ طلعت حرب أيضا مسرح الأزبكية الذي كان يعرض الأعمال المسرحية المصرية والعالمية ، ومن فرط ذكائه أنه لم يكن له انتماءات سياسية معينة حتى يبتعد بمشاريعه عن صراعاتها ويُنسب الفضل في إنشائها لحزب معين وتنهار عند انهيار شعبية هذا الحزب ، ثم بعد النجاح المتوالي أنشأ فروعاً لبنك مصر بالشام .

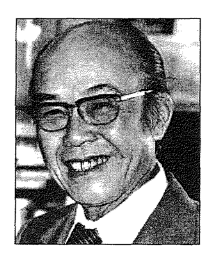
تعرض البنك لعواصف عاتية قبل الحرب العالمية الثانية وحدث تدهور في المركز المالي للبنك وسارع بعض المودعين لمحاولة سحب مدخراتهم قبل الحرب عام ١٩٣٨ وكان هناك شبه مؤامرة غير مؤكدة لإسقاط هذا الصرح الاقتصادي ، فحاول البنك الاستدانة من البنك الأهلي المصري الذي كان رئيسه شخصية إنجليزية هو إدوارد كول ولكنه رفض، فطلب طلعت حرب توسط حسين سرى (وزير المالية) لدى المدير الإنجليزى لإتمام القرض فوافق البنك الأهلي المصري وحسين سرى باشا على شرط أن يقدم طلعت حرب استقالته من بنك مصر حيث اعتبروا أن سبب الأزمة هو سوء الإدارة ، فقرر طلعت حرب الاستقالة إنقاذا لبنك مصر عام ١٩٣٩ وقال كلمته الشهيرة بعد تقديم استقالته "فليذهب ألف طلعت حرب وليبق بنك مصر" وضرب لنا مثلاً في الحلم والصمود والبناء ثم الانسحاب من أجل المصلحة الكبرى ، وبقي بنك مصر خالداً ، البنك الذي غنى له الموسيقار محمد عبد الوهاب رحمه الله أحد أغانيه وأسماها بنك مصر كما أخبرني الصديق العزيز والأخ الكبير المهندس زكريا عامر أطال الله عمره مهندس الصوت بالإذاعة والتليفزيون المصري وصديق ورفيق الأستاذ محمد عبد الوهاب رحمه الله خلال الثلاثين سنة الأخيرة من عمره .

توفى المصرفي الكبير طلعت باشا حرب إلى رحمة الله عام ١٩٤١ بعد أن ترك أثره صروحاً اقتصادية مصرية سنظل نتذكره بها و صار مثالا للرجال الذين لم يعرفوا المستحيل اقتصاديا مثل آل ساويرس وعثمان أحمد عثمان في عصرنا الحالى.

من الأشياء التي تسعدنا في سيرة الرجل العظيم الراحل محمد طلعت حرب والذي ظُلم في نهاية حياته بإقصائه من مجلس إدارة بنك مصر بعد أن أنشأ عشرين شركة مصرية

خالصة بتمويل وائتمان من إدارة البنك ، ذلك أن المرحوم الرئيس "محمد أنور السادات" قد أهدى إلى اسمه جائزة "قلادة النيل" عام ١٩٨٠ وهى أرفع وسام في جمهورية مصر العربية، وكان المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ، قد أهدى أحفاد محمد طلعت باشا حرب بعض الهدايا وقطعة من كسوة الكعبة المشرفة ، ونال الاقتصادي الكبير العديد من الأوسمة خلال حياته ، وقد اتفق أحفاده على إهداء هذه الهدايا والمقتنيات الخاصة به والصور النادرة لمتحف بنك مصر الذي أُفتتح بالمبنى الرئيسي بالقاهرة في شهر مايو عام ٢٠١١ وأقامت حفيدته مبنى لمستشفى خيري لعلاج أمراض القلب وجراحتها داخل مستشفى الدمرداش التعليمي عام ٢٠٠٧م .

21



سيكيرو هوندا

"من ميكانيكي إلى مخترع الموتوسيكل إلى السيارة هوندا"

قصة هذا المليونير العصامي الياباني سيكيرو هوندا أغرب من الخيال ، فمن طالب لم يستكمل تعليمه إلى ميكانيكي سيارات في شركة تويوتا يحمل في شخصيته شجاعة وروح وطبيعة المصارع اليابانى الذي لا يُهزَم وهى الروح التي جعلته يفكر في صنع الدراجة النارية (الموتوسيكل) بعد حدوث أزمة البنزين في اليابان ، ففكر هوندا أن يُركِب موتور قديم صغير يعمل بالسولار على دراجته الهوائية بدلاً من استعمال سيارته ونجحت التجربة في دفع الدراجة الهوائية إلى الأمام وطلب منه أصدقاؤه أن يعدل لهم دراجاتهم الهوائية إلى دراجات نارية تسير بالسولار وحصل على براءة اختراع الموتوسيكل الذي نراه الآن في كل مكان وكل ذلك نتيجة جهد وفكر رجل آمن أن الدراسة والجامعة الحقيقية هي الممارسة في الحياة وحرفية التعامل والاصطدام مع المستحيلات التي تواجه الإنسان بالإمكانيات المتاحة في المجتمع مع كثير من الصبر والفكر الجديد لكي تضع قدميك في مسار جديد لم يطرقه أحد قبلك وأن تعتبر أن الأخطاء هي جزء من التطور في الطريق لبلوغ القمة لكن **المهم أن لا تخطئ مرتين لنفس السبب لأن ذلك معناه الفشل مرتين وتلك** كانت مقولة الاقتصادي اليابانى الكبير سيكيرو هوندا أثناء تسلمه شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة ميتشجان في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولد سيكيرو هوندا في إحدى القرى البعيدة في اليابان في السابع عشر من يناير عام ١٩٠٦ لعائلة فقيرة جدًّا وكان والده يعمل حداداً جوالاً يصلح الدراجات في الطريق ودخل المدرسة حتى سن خمسة عشر عاماً ثم قرر تركها لعدم إعجابه بطرق التدريس

الكلاسيكية التي تعتمد على الحفظ والتلقين ولأنه أيضاً كان يهوى السيارات منذ صغره ويتمنى أن يصمم سيارته بنفسه وكان يحمل في نفسه ثلاثة أسلحة هي الأمل والطموح والعزيمة ، فقرر ترك القرية التي وُلد بها وسافر إلى طوكيو العاصمة عام ١٩٢٢ حيث عالم السيارات والأضواء والتحق بالعمل في ورشة لتصليح السيارات لمدة ستة أعوام بعد أن عمل لفترة قصيرة ميكانيكيًّا في شركة تويوتا .

ثم قرر عام ١٩٢٨ أن يفتتح ورشة صغيرة خاصة به لإصلاح السيارات من حصيلة مدخراته مع الاستعانة ببعض القروض .

استطاع خلال عمله بالورشة أن يصمم جهاز فرملة للسيارات مصنوع من المعادن بدلاً من الفرملة المصنوعة من الخشب في ذلك الوقت وسجل براءة الاختراع باسمه وتوالت اختراعاته وتصميماته الجديدة لتحسين أداء السيارات حتى وصلت إلى ١٥٠ براءة اختراع.

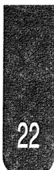
بعد عدة سنوات من العمل المتواصل فكر أن يُنشئ مصنعاً للبساتم الخاصة بالموتور عام ١٩٣٨ وبعد أن أنشأ المصنع سقطت عليه قنبلة دمرت المعدات وعندما عاد المصنع للعمل بعد إصلاح الآلات حدث زلزال عام ١٩٤٥ دمر المصنع بالكامل ولم ييأس سيكرو هوندا ولم يتحطم لأنه كان يتصور نفسه مصارعاً يابانيًّا في عالم الميكانيكا لن يرضى إلا بالنصر ، وكان الله في عونه أثناء تلك الظروف ووفقه إلى فكرة جاءت له أثناء أزمة البنزين التي طالت اليابان عام ١٩٤٥ وكان هوندا لا يستطيع ركوب سيارته لارتفاع سعر الوقود وهنا هداه تفكيره إلى الاستعانة بأحد الموتورات الصغيرة المهملة في الورشة وكان يعمل بالسولار وفكر أن يركِّب هذا الموتور على الدراجة الهوائية (العجلة) التي يمتلكها وبعد عدة محاولات استطاع هوندا أن يحرك العجلة إلى الأمام بواسطة الموتور من دون استعمال البدال ، وأعجب أصدقاؤه بالفكرة وطلبوا منه تحويل درجاتهم الهوائية إلى دراجات نارية مثل التي يركبها هوندا واستطاع أن يحصل على براءة اختراع الموتوسيكل وأسس شركة هوندا لصناعة الموتوسيكلات عام ١٩٤٨ وطرح أول موديل أواخر الأربعينيات ولاقت الدراجات النارية نجاحاً كبيراً على مستوى اليابان والعالم أجمع وأصبح الموتوسيكل وسيلة انتقال سهلة ورخيصة الثمن وقليلة المصاريف بالنسبة للسيارات خاصةً لشباب أمريكا الذين أقبلوا على شراء ملايين الموتوسيكلات من مصنع هوندا حتى إنه عام ١٩٩٠ تم بيع ثلاثة ملايين قطعة في السوق الأمريكية وكانت الإعلانات الذكية عن الموتوسيكلات

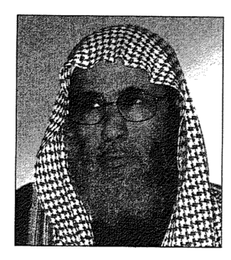
تقول " سترى أصدقاء كثيرين أثناء قيادة الموتوسيكل وستقابل ألطف الناس في الشوارع بسهولة " .

وعندما حاولت إحدى شركات الموتوسيكلات اليابانية أن تدخل مع سيكيرو هوندا في منافسة تكسير عظام في السوق دفع هوندا بكل ثقله في السوق وتجرأ وقرر إنتاج موديل جديد من الموتوسيكلات كل أسبوع لمدة سنة كاملة متحملاً مخاطر الخسارة وركود المبيعات وكسب جولة المنافسة وزادت شهرته .

وهو ما حدث أيضاً عندما قرر أن يدخل عالم إنتاج السيارات وتسويقها وبذكائه الفطري وقدرته على المنافسة والمخاطرة أدرك ما لم يدركه الآخرون في ذلك الوقت من عام ١٩٧٥ من حيث ظهور مشاكل تلوث البيئة وارتفاع أسعار البترول بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ فصمم سيكيرو هوندا أول محرك سيارة صديق للبيئة وأطلق عليه اسم سيفيك ومن هنا ظهرت السيارة هوندا سيفيك التي أجبرت كبار مصنعي السيارات في العالم أن تحذو حذوها في السعر المنخفض والاستهلاك القليل للوقود مع الكفاءة والسرعة العالية وقليلة التلويث للبيئة .

وكانت له فلسفة اقتصادية تحمل كثيراً من المخاطرة وهى " **عند حدوث ركود بالأسواق عليك أن تزيد الإنتاج وتخفض الأسعار حتى يمكن إحياء وتنشيط السوق مرة أخرى** " وهذه الفلسفة جعلت من شركته أشهر شركة أجنبية في توزيع وبيع السيارات في أمريكا من عام ١٩٨٩ حتى عام ١٩٩٢ على التوالي وكانت شخصية هوندا وقدرته على المخاطرة من أهم أسباب نجاح شركته لأنه كان أيضاً إداريًا ناجحاً ويهتم بكل تفاصيل العمل في الشركة ويناقش العاملين لديه بكل دقه ويعرف كيف يأخذ منهم أقصى ما يستطيع من ابتكارات وأفكار ويقف بالمرصاد لكل من يتصدى لتحطيمه سواء بالتكنولوجيا أو بضرب الأسعار ولكي يثبت للجميع أنه قوي دائما ومغامر ومصارع من الدرجة الأولى تعلم قيادة الطائرة وهو في الستين وقبل ذلك كان يشترك في سباق السيارات العالمي بالسيارات التي يصممها ، أي أن الله خلقه بموهبة الإصرار والتحدي ومقاومة الفشل حتى توفى في الخامس من أغسطس عام ١٩٩١ تاركاً مملكته الاقتصادية لأولاده الأربعة بعد أن حقق آماله وطموحاته وتحدى العثرات التي صادفته في حياته وصعد إلى القمة .





سليمان بن عبد العزيز الراجحي

"مؤسس بنك الراجحي وأشهر عصامي بالجزيرة العربية"

سيرة الشيخ سليمان الراجحى الشخصية يمكن أن تصبح مساراً وطريقاً سليماً لأي فرد يحلم بأن يكون إنساناً مؤمناً بالله ومتوكلاً عليه ومصدقاً بأن تعمير الأرض والعمل الجاد بها والسعي في مناكبها والبناء فيها وزراعة الأرض واستثمار الأموال فيما يرضى الله والعباد هو الطريق الصحيح للفرد المسلم وغير المسلم في الدنيا .

والذكرى الخالدة التي يمكن أن يتذكرك بها عباد الله بعد أن تودع الحياة ، وقد ترك فيها أثراً شاهداً على فطنته وذكائه وإقدامه على المخاطرة وتحدى المستحيلات التي تواجه البشر خلال حياتهم والتي يستكين لعواصفها مئات الملايين من الناس ويتراجعون عن التحدي مؤثرين السلامة والهدوء، ثم يرحلون تاركين أسماءهم مكتوبة فقط على شواهد قبورهم ويطويهم النسيان بعد جيل أو جيلين على الأكثر ، ولكن يظهر فرد أو فردان كل عشر سنوات في كل مجتمع يأبى أن يكون مجرد عدد يضاف إلى الملايين المتشابهة التي تولد وتعيش وتتزوج وتنجب وتموت في صمت .

من أمثلة هؤلاء الأشخاص النابغين المنفردين في عالمنا العربي الشيخ عبد العزيز الراجحى الذي بدأ حياته بائعاً عاديًّا حتى كوَّن مملكته المالية والصناعية الضخمة في السعودية وفى البلاد العربية وتوجها بتأسيس مراكز صرافة الراجحى وبنك الراجحى فيما بعد والذي امتدت فروعه إلى معظم الدول العربية وبعض الدول الأوروبية وقد تشرفت بمقابلة أحد أبنائه منذ خمسة وعشرين عاماً وعرفت قصة صعود ونجاح والده .

ولد الشيخ سليمان عبد العزيز الراجحى في مدينة البكيرية بالمملكة العربية السعودية عام ١٣٥٠ هجرية لوالدين سعوديين فقيرين من عامة الشعب ونشأ في بيئة مسلمة متدينة الشيء الذي أثر في حياته فيما بعد من جهة الأمانة وحسن المعاملة للآخرين وأيضا أثرت فيه البيئة الصحراوية التي تُجبر الفرد على العمل الشاق والحذر والاعتماد على الله وانتقلت أسرته إلى مدينة الرياض العاصمة عام ١٣٥٧ والتحق سليمان الراجحى بالمدرسة لمدة ثلاث سنوات فقط تعلم فيها القراءة والكتابة وقرر دخول سوق العمل لمساعدة عائلته الفقيرة فعمل أولاً وهو طفل صغير في جمع الحطب والجلة (روث الجمال) وصار يبيعه للأفراد الذين يستعملونه كوقود قبل ظهور وسائل التدفئة والطهي الحديثة ثم انتقل إلى بيع الجاز باللتر وذلك بالمرور على البيوت وبذلك انتقل من مكسب القرش الواحد في بيع الجلة إلى مكسب ثلاثة قروش في اليوم من بيع الجاز ، ثم انتقل إلى بيع الحلوى على ألواح خشبية في السوق في المواسم وكان في غير المواسم يعمل شيالاً لحمل الأمتعة وعندما ادخر جزءا من المال بدأ يشترى المحاصيل الزراعية من المزارعين ويبيعها بنفسه في الأسواق وكان يحملها على الحمار أو الجمل وفى غير أوقات جنى المحاصيل كان يصنع بعض الأشياء من سعف النخيل المتوفر في السعودية كل ذلك في الفترة العمرية من العاشرة حتى الثامنة عشرة وهو السن التي تزوج فيها واستهلك زواجه كل مدخراته .

عرض عليه شقيقه صالح الراجحى أن يعمل معه في مهنة الصرافة وهنا نتذكر الحكمة الصينية التي تقول"**إذا اتفق الشقيقان وعملا معاً يمكن أن يتغلبا على الجبال**" وفعلاً عمل الشقيقان وتوسعت تجارتهما في فروع مكاتب الصرافة التي افتتحوها في جدة ومكة لخدمة الحجاج أولاً ثم توسعت حتى شملت كل أرجاء المملكة العربية السعودية .

ثم فكر الشيخ سليمان الراجحى وأخوه في إنشاء مصرف يحمل اسم العائلة سُمي مصرف الراجحى واتفقا سويًا على أن تكون معاملاته وفقاً للشريعة الإسلامية وكان هناك شيخان في مجلس إدارة البنك يراقبان التعاملات البنكية ويتأكدان من مطابقتها لأغراض أصحاب رأس المال والمساهمين وأصبح مصرف الراجحى من أوائل البنوك الإسلامية على مستوى العالم العربي بعد بنك فيصل الإسلامي .

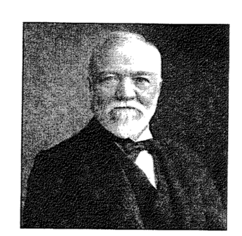
افتتح الشيخ سليمان الراجحى أحد أكبر المشاريع الزراعية في المملكة توطيداً لمبدأ

استثمار الأموال العربية في المنطقة العربية مثل مشروع مزارع الراجحى ومشروع الدواجن الوطنية لإنتاج البيض والدجاج وشارك في مشاريع زراعية في كل من مصر والسودان وأنشأ مزارع لا تدخل الكيماويات في إنتاج زراعة المحاصيل واستخدم كبار المهندسين الزراعيين لإتمام هذا المشروع الأول في الدول العربية ولم يهتم بالجدوى الاقتصادية في أول الأمر حتى نجح المشروع وأنتج الزيتون من دون كيماويات ولا مبيدات وحصل زيت الزيتون من إنتاج مزرعته على المركز الأول عالميًّا ثم أنشأ مصنعاً لتصنيع الأعلاف ووصلت قيمة مشروعاته في السعودية وخارجها إلى حوالي عشرة مليارات دولار وتشمل البنك والمزارع والمصانع كل ذلك من إصرار رجل عظيم على السعي والنجاح والعمل على ما يفيد المجتمع من مشروعات، ثم قرر بعدها أن يهب جزءا من ثروته لعمل الخير فأنشأ كلية طب بمسقط رأسه مدينة البكيرية شكراً وعرفاناً لأهل بلدته وأهل دولته وشاكراً لله الذي كان بجانبه أثناء تعرضه لخسائر كبيرة في فترة الثمانينيات من القرن الماضي في سوق الذهب، والتي كادت أن تطيح به من السوق وتدخله السجون ، لولا توفيق الله ووقوف المسؤولين السعوديين بجانبه حتى عاد وكبرت تجارته وأعماله مره أخرى ولم ييأس وكان يتذكر دائماً أنه بدأ برأسمال قدره ٢٠ ريالا سعوديًّا هي مجمل مدخراته عندما كان طفلاً يعمل في عدة مهن منذ خمسين عاماً وشكر الله على أن وفقه ليصبح أحد أكبر رجال الأعمال في العالم العربي ولأن الله وهبه حب العمل وهى هبة عظيمة وكبيرة لو عرفنا معناها وعرفنا كيف نستثمرها .

وكان الشيخ سليمان يقول " لو كان الأسبوع تسعة أيام لعملت فيها كلها؛ لأن العمل صحة ونشاط وقوة وسعادة وإحساس بقيمة الفرد ويُذْهِبُ الحزن عن الشخص والله أعطانا العمر والعقل فيجب أن نستثمرهما في الطاعة والعمل ، والعمل في حد ذاته عبادة فيجب أن نحسنها " .

تلك كانت قصة حياة العصامي الكبير ورجل الأعمال السعودي الناجح سليمان بن عبدالعزيز الراجحى الذي صار في الحياة متحدياً المستحيلات حتى صار اسما يُذكرُ في كل مكان .

23



أندرو كارنيجى

"عامل تلغراف ثم ملك صناعة الصلب ثم أكبر متبرع"

الإسكتلندي أندرو كارنيجى الذي يعتبر أكبر مُصنع وتاجر للحديد والفولاذ في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يعتبر نموذجاً مثاليًا لرجل الأعمال العصامى الذي بدأ حياته من الصفر حيث ولد عام ١٨٣٥ لعائلة فقيرة، حيث كان والده عامل نسيج بسيط فقد وظيفته بعد ميلاد ابنه فاضطرت والدته أن تعمل في مهنة تصليح الأحذية حتى توفر للعائلة قوتها ثم اضطر أندرو أن يترك الدراسة ويعتمد على الله وعلى نفسه في بناء مستقبله عندما هاجرت العائلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٧ وأصبح أندرو عازماً على شق طريق الحياة الصعب بإصرار وتحدٍّ بعد اجتياز ذكريات مساعدته لأمه أثناء عملها في محل تصليح الأحذية عندما وصلت العائلة إلى أمريكا كان أندرو يبلغ من العمر ١٢ سنة ولم يكن قد حصل على شهادات دراسية ولكنه كان كثير القراءة في السياسة والاقتصاد وبدأ يراسل الصحف الكبرى ويبدى آراءه في الموضوعات التي تهم المجتمع في صورة خطابات ، التحق والده للعمل بأحد مصانع النسيج في أمريكا والتحق أندرو للعمل بنفس المصنع بأجر قدره دولار ونصف بالأسبوع ، عندما بلغ سن العمل الرسمي التحق بالعمل في مكتب التلغراف (عامل) ثم التحق بالعمل بمكتب البريد التابع لولاية بنسلفانيا وظهرت أمانته عندما عثر على مبلغ ٥٠٠ دولار في أحد الأماكن بالمكتب وسلمها لإدارة البريد وتم ترقيته إلى وظيفة أعلى بأجر شهري قدره خمسة وعشرون دولاراً وكان ذلك بالنسبة له حلماً لم يكن يتوقعه لشدة فقر عائلته .

عمل بعد ذلك في إدارة السكك الحديدية في ولاية بنسلفانيا ولفرط جديته وذكائه استطاع أن يكتسب خبرات عديدة من مديره في العمل مستر توماس سكوت والذي اهتم بتعليمه فنون الإدارة عندما رأى قدرته الكبيرة على الانضباط والاستيعاب وظل بالسكك الحديدية حتى تولى منصب مدير المحطة خلال اثني عشر عاماً وفي تلك الفترة بدأ يستثمر أمواله في المساهمة في رأسمال الشركة التي تدير السكك الحديدية بالولاية ووضع بعض الأموال في سوق النفط .

فكر أندرو سكوت في الدخول إلى عالم مقاولات بناء جسور السكك الحديدية والتي ازدهرت بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية فأسس مع بعض رجال الأعمال الأمريكيين شركة لبناء الجسور عام ١٨٦٢ ثم قدم استقالته من الوظيفة وتفرغ للشركة عام ١٨٦٥ وحصل على العديد من العقود لبناء الجسور والكباري في أمريكا وعندما رأى أن المكون الرئيس لبناء الجسور هو معدن الحديد فكر أن يبنى مصنعاً للحديد والصلب يتولى إمداد الشركة بمستلزمات الإنتاج وترك الشركة للمساهمين الآخرين وتفرغ لإنتاج أنواع جديدة من الحديد الفولاذي والمقاوم للصدأ والعوامل الجوية حتى أصبح من أشهر منتجي الصلب بالولايات المتحدة الأمريكية وتوسعت مصانعه وشركاته .

وكان يختار مساعديه بنفسه من خلال اختبار عملي وشفوي وكان يتعمد أن يكون مساعدوه أكثر ذكاءً وحيوية وقدرة على العمل المنظم عنه (مجتمع متعاون) ، حتى إن أغلب من كانوا يعملون لديه أصبحوا رجال أعمال متميزين في إدارة أعمالهم الخاصة فيما بعد عندما استقلوا بأنفسهم واشتهر أندرو كارنيجى بأنه مدرسة متميزة لتخريج رجال الأعمال الناجحين ، حيث كان لا يعارض أحد من معاونيه عندما يطلب منه أن يترك العمل لديه لافتتاح مشروع خاص به ومن هنا كانت أهم صفاته عدم الأنانية واستعداده الدائم لمساعدة الضعفاء وشباب رجال الأعمال حتى لو كان في احتياج لهم وكذلك ردًّا لجميل مديره بالسكك الحديدية الذي تبناه وعلمه الإدارة خلال الإثنى عشر عاماً التي عمل فيها تحت قيادته (مجتمع متعاون) .

لم يفكر أندرو كارينجى في الزواج إلا بعد أن بنى إمبراطوريته الصناعية والمالية وأيضا لم يكن يريد أن تشاركه زوجته في حبه لأمه التي هام بها وظل يعتبرها مثلهُ الأعلى في الكفاح

والجد وظل يقوم على خدمتها بنفسه حتى توفيت عام ١٨٨٧ (مثل ما حدث مع العالم الكبير ألفريد نوبل مؤسس جائزة نوبل) .

تزوج أندرو كارينجى عام ١٨٨٧ بعد وفاة والدته من السيدة لويزا ويتفليد وكانت حياته معها تتسم بالود والتفاهم الكامل ووقفت بجانبه حتى حقق حلمه بأن يكون أكبر منتج للحديد والصلب في أمريكا وأيضاً جعل الولايات المتحدة الأمريكية أكبر مصدر للحديد والصلب في نهاية القرن التاسع عشر ، وعندما بلغ الخامسة والستين من عمره عام ١٩٠١ قرر أندرو كارينجى وزوجته أن يتفرغا لأعمال الخير ولثقافة المجتمع الأمريكي حيث باع جميع شركاته ومصانعه بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار عام ١٩٠١ وعليك أن تتصور قيمة هذا المبلغ الآن ووهب الجزء الكبير من هذا المبلغ للفقراء ودور رعاية الأيتام ودور العلم وأسس ٢٨١١ مكتبة عامة في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية وبدأ يشرف بنفسه على إدارة أمواله في الأعمال الخيرية لمدة عشر سنوات ، تاركاً لزوجته وابنته الوحيدة ما يكفيهما للعيش الكريم وأسس معهد كارنيجي للأبحاث، وكأنه كان يريد أن يمحو سيرة الفقر من حياته الأولى عن طريق محو الفقر في مجتمعه المعاصر وكان يرى أن السعادة الأساسية إذا كانت هي أن تكسب الأموال فإن السعادة الحقيقية هي أن تنفقه في إسعاد الآخرين أثناء حياتك وترى في وجوههم الفرحة والابتهاج عندما يبتعد عنهم شبح الفقر ، كما أنا سعيد الآن بابتعاد أيام الفقر والحرمان عن حياتي الحالية .

وتوفى أندرو كارينجى عام ١٩١٩ عندما بلغ الرابعة والثمانين عاما وصدر كتاب في أمريكا عن حياته وفلسفته في العمل والإدارة والصعود إلى أعلى سلم المجد الاقتصادي بتحديه للمستحيلات التي صادفته خلال حياته ثم تبرعه بأغلب أمواله للفقراء والأبحاث العلمية فيما بعد.

24

محمد سيد ياسين

" مؤسس صناعة الزجاج في الشرق الذي بدأ حياته بتسديد ديون والده "

العصامي الناجح المرحوم محمد سيد ياسين يعتبر نموذجاً يحتذَى به كل شاب يريد النجاح ، ويرى أن الحياة الحقيقية هي الحافلة بالعطاء الإيجابي البناء والرغبة النبيلة في النجاح وتحدى المستحيلات التي تقابلك في بداية حياتك ، مع تحديد أهدافك بدقة حتى لو كنت تنوى أن تصبح من محترفي الكلمة والقلم ، أو الآلة والمصنع ، أو الأرض والزراعة ، أو العسكرية... ففي كلٍّ خير ، وكما قالت السيدة العظيمة أنديرا غاندي التي أكملت البناء الاقتصادي والسياسي لدولة الهند حينما توفى والدها الرئيس نهرو وتولت رئاسة الهند بعده "راقب أفكارك لأنها ستصبح أقوالاً ، **وراقب أقوالك لأنها ستصبح أفعالاً ، ثم راقب أفعالك جيداً لأن فيها مصيرك ... إما للمجد أو الزوال "**

الأستاذ سيد ياسين لم يفكر إلا أن يكون اقتصاديا ناجحا ينفع نفسه وبلده ومجتمعه من دون الانتماء إلى تيار سياسي معين في فترة الليبرالية المصرية في الثلاثينيات من القرن الماضي (العشرين) ، وشق طريقه بالجد والاجتهاد فانطبقت عليه مقولة السيدة أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند " **راقب خطواتك وتصرفاتك فقد يتبعك الآخرون ، وراقب كلماتك فقد يتعلم منها الناس وتُحسب عليك "**

كان سيد ياسين يرى أن المصريين لديهم المال دائماً ولكنهم يقنعون باستعمال ما يقدمه غيرهم ولا يفكرون في تنويع مصادر عملهم للخروج من حصار الموروثات التقليدية وهي الزراعة والأعمال الحرفية اليدوية وتقديم الخدمات ودائما ما يهابون نقطة البداية من الصفر ويميلون إلى عدم المخاطرة وقد ذكر ذلك الأستاذ الصحفي "على أمين " في جريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٧-١٠-١٩٥٧ (كما جاء في مطبوعات وزارة الاستثمار ، سلسلة رواد الاستثمار) حيث ذكر سيد ياسين إذا كانت المشكلة هي كيف تبدأ من الصفر ؟ فأنا قد بدأت من قبل الصفر حيث

ورثت عن والدي ديناً بمبلغ ٣٠ ألف جنيه مصري في فترة الثلاثينيات (يساوى أكثر من ٣٠ ألف جنيه ذهباً في وقتنا الحالي) وفضلت أن أبدأ وأعمل وأشقى وأسدد هذا الدين أولاً على أن يقول الناس إن أحد أفراد أسرة هذا الشاب لم يسدد ديون والده ، حيث كان والده تاجراً يمارس الأعمال الحرة ومقاولاً ويمتلك مراكب نقل نيلية ، ولكن العملاء في السوق والتجار والأصدقاء الذين كان ضامناً لهم ، لم يحترموا كلمة الشرف التي أعطاها لدائنيهم فآلت ديونهم على والده أي أنه (دين شرف) أكثر من أنه دين خسائر كما ذكر الأستاذ مصطفى بيومي في كتابه الصادر عن وزارة الاستثمار .

كان منطق السيد ياسين أنه لا يجب أن يتأثر الجيل الحاضر (١٩٢١ - ١٩٣١) بالنكسات التي طالت الصناعة المصرية بعد وفاة محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة وما آلت إليه البلاد من احتلال إنجليزي تعمد إغلاق الأبواب أمام أي خطوات للتصنيع الحديث حتى يتسنى له بيع المنتجات الإنجليزية في السوق المصرية وكانت أول محاولات سيد ياسين هي الاستثمار في مجال النقل الداخلي، فقد بدأ مشروعا بسيطا لنقل الركاب بين الأحياء باستعمال عربات النقل القديمة بتطويرها وعمل مقاعد بداخلها وأسقف وقوائم جانبية تحمى الركاب من المطر بعد أن عاد من الإسكندرية في يوم ممطر وكان هناك إضراب لعمال الترام ورأى استغلال العربجية للمواطنين في الأزمات ، فنفذ مشروعه الذي نجح جدًّا وتوسع به حتى أنه امتلك عشرين أتوبيساً معدلاً من سيارات النقل القديمة وكان يربح ١٢٠ جنيهاً شهريًّا من الأوتوبيس الواحد ، ولكن محافظة القاهرة (المديرية) ومسؤول النقل بها الذي كان إنجليزيًّا أمر بإيقاف تراخيص تلك المركبات بدعوى عدم وجود وسائل أمان بها وتراكمت على سيد ياسين ديون ثمن السيارات الحديثة حتى كاد أن يفلس مثلما حدث لأبيه وكان قد عانى الأمَرّين في تسديد ديون والده والتي استغرقت عشر سنوات من عمره فنصحه المحامون برفع قضية على الحكومة ليطالب بتعويض ١٥٠ ألف جنيه ولكنه وجد أن القضية ستستغرق عشر سنوات في حين أن الحكومة المصرية عرضت عليه تعويضاً قدره خمسة عشر ألف جنيه مقابل خسائره في مشروع النقل الداخلي الذي تم منحه للشركات الأجنبية، لم يشأ سيد ياسين أن يطيل أمر المنازعات القضائية ويسير وراء رغبات المحامين فوافق على أخذ التعويض .

وفكر في عمل مشروع آخر يكون جديداً على المجتمع المصري وفى نفس الوقت تكون مواده الخام متوفرة في البيئة المصرية ففكر في عمل مشروع لصناعة الزجاج بمبلغ التعويض

وكان منطقه في ذلك أن الزجاج في حد ذاته أحد منجزات حضارة مصر الفرعونية ويشهد على ذلك وجود الزجاج الملون الذي يزين المعابد وأن مدينة الإسكندرية هي منشأ الزخارف الزجاجية في العصر البطلمى والروماني، وقد أخذ عنها الرومان والفرس والعرب عندما دخلوا مصر في حقب متتالية وتعلموا تلوين الزجاج والرسم عليه كما هو مشاهد في آثارهم في المعابد والكنائس والجوامع مع بعض التعديلات من الحضارة الصينية التي اكتشفت الزجاج في نفس الحقبة الزمنية مع الفراعنة ، كانت مصر خلال أوائل القرن الماضي تستورد الزجاج من الخارج بما يعادل نصف مليون جنيه مصري (جنيه ذهبي) .

وكان سيد ياسين أستاذاً في التعامل مع الأزمات وقادرا على اتخاذ القرار الرشيد العقلاني دون عناد أو مكابرة ولا يهاب السقوط ما دام قادرا على الوقوف والبدء من جديد مرة أخرى بعون الله وكان يميل إلى تنفيذ مشروعات ذات هدف عام تلبى احتياجات ومصلحة المجتمع أولا ثم استفادته هو ثانيا مع تشغيل أكبر قدر من العمال المصريين، وهو نفس منطق طلعت حرب باشا الذي صادقه وعاونه كثيرا في مشروعه لإنشاء مصنع الزجاج الأول في تاريخ مصر الحديث في منطقة شبرا الخيمة بعد أن تعثر المشروع السابق له في عهد محمد على باشا والى مصر نتيجة تحالف الإنجليز والفرنسيين عليه بتشتيت مشروعاته النهضوية عن طريق إجهاده في حروب متفرقة خارج الأراضي المصرية لإنهاك قوة مصر الاقتصادية، كما حدث مع المرحوم الراحل الزعيم جمال عبد الناصر فيما بعد ..

وكان قرار سيد ياسين هو إنشاء مصنع للزجاج يلبى احتياجات السوق المحلية و يصل الماضي بالحاضر مادام هناك عمال مصريون مهرة ، أدرك سيد ياسين أن الموارد الأولية لصناعة الزجاج وهي الرمال (وبها مادة السيلبس) والجير والصودا والمنجنيز والبوتاسا متوفرة بكميات كبيرة في الصحارى المصرية في الفيوم والإسكندرية وأسوان وسيناء وأن تأمين النقل لن يحتاج إلا لحوالى ٢٥٪، من قيمة الناتج والعمالة ١٥ ٪ والتسويق والطاقة ٢٠ ٪، ومن هنا ستكون الأرباح المؤكدة ٤٠ ٪ **في حالة عدم وجود بطالة مقنَّعة في المصانع ، فبدأ في إنشاء المصنع** (وكان يحمل تفكيراً حرًّا لا يعتمد على انتظار وظيفة الحكومة وما يتبعها من إذلال وحاجة و اضطرار لنفاق رؤسائه) .

وهو نفس رأى المرحوم المهندس عثمان أحمد عثمان في توظيف الخريجين إجباريا في الوظائف الحكومية و الشركات و الحكم المحلى إرضاءً للأغلبية تحت مسمى إدراة القوى العاملة ، ضد

مصلحة المجتمع الاقتصادية و الإنتاجية قبل ظهور توصيات البنك الدولي وغيره (كما ذكرت الصحفية الكبيرة سناء البيسي في مقالة لها بجريدة الأهرام عن المهندس عثمان أحمد عثمان) .

بدأ سيد ياسين مشروعة الجديد بالمبلغ الذي تسلمه من التعويضات عن مشروع النقل الداخلي بمحافظة القاهرة وما ادخره من مبالغ بعد عمله الشاق في تجارة المحاصيل الذي تعلمه من والده ، وكان يضع أمامه تقرير "اللورد كرومر" عن مصر الذي قال فيه مفاخراً: " **لقد اختفت الصناعات الوطنية من الأسواق ، ولم يعد موجود إلا السلع الأجنبية** " .

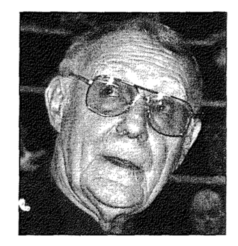
وهنا بدأت المرحلة الثالثة في تحدى المستحيل في حياة سيد ياسين حيث كانت المرحلة الأولى تسديد ديون والده و الثانية مشروع نقل الركاب بالقاهرة ، وبدأ بداية قوية وعملية وسافر إلى أوروبا في رحلة طويلة مستكشفاً مصانع الزجاج بها وكيفية إداراتها و بخاصة في ألمانيا و بلاد التشيك وأحضر فنيين من التشيك المهرة لكي يدربوا العمال المصرين بعد إنشاء المصنع واستيراد الآلات الحديثة بحيث يبدأ من حيث توقف الآخرون و ليس من حيث بدأ الآخرون ، و تحمل التمويل الكبير في بداية المشروع و تحمل صابراً الخسائر لمدة ثلاث سنوات متصلة وتلف الخامات و ضعف القوة الإنتاجية بسبب جهل العمال و تصدى لذلك العناء من أجل أن يصل إلى استكمال مقومات إنتاج منتَج نهائي يقترب من وجود المنتجات المستوردة المنافسة المتوفرة بالسوق المصرية و اضطر أن ينزل بالأسعار إلى مستوى التكلفة من خامات وأجور عاملين وطاقة مع هامش ربح بسيط جدًا حتى أثبت مكانته في السوق المصرية وبالذات في القطاع الريفي فأنتج له زجاج اللمبات (الكروسونية) والأكواب و الأدوات المنزلية بحيث يستطيع المصنع أن يغطى تكاليفه أولا ، وهو ما حدث فعلاً و لكن بعد خمس سنوات من إنشائه في الثلاثينيات من القرن الماضي ، دارت عجلة الإنتاج بالمصنع و بدأ سيد ياسين يفكر في إنشاء مصنع للزجاج المسطح ، وكان هناك تشجيع من الحكومة المصرية لرجال الأعمال الجادين فيما كان يسمى "سلف صناعية" فتقدم بطلب سلفة ٨٠ ألف جنية ، وافقت الحكومة و أوكلت إلى طلعت حرب باشا مدير بنك مصر دراسة الجدوى الاقتصادية لمشروع سيد ياسين عن طريق إدارتي الائتمان و الشؤون القانونية وخلصت الإدارتان إلى نتيجة مفادها أنه لا توجد ضمانات كافية لدى سيد ياسين لهذه السلفة و القرض المكمل من البنك و لكن الاقتصادي الوطني طلعت حرب قال لمديري البنك :كيف لا توجد ضمانات وهذا الرجل سيد ياسين وضع فيه كل ما يملك من أرض وتعويض وسيارات كان يؤجرها لمصلحة مجارى

القاهرة (كما ذكر الأستاذ فتحي رضوان في كتابه عن طلعت حرب) .

في هذا المشروع الذي هو حلم عمره وحلم كل المصرين إنه وضع نفسه وحياته في مجازفة مدروسة علميا و اقتصاديا وكلف اثنين من العاملين بالبنك بالإشراف و الزيارة الدورية الودية مرة كل أسبوع للاطمنان على رأس المال المقترض من الحكومة و البنك من دون التدخل والمراقبة الملحة التي تخدش حياء صاحب المشروع سيد ياسين ، حتى تم إنشاء المصنع في منطقة شبرا الخيمة وقد كان أول مصنع في مصر والشرق الأوسط لصناعة الزجاج ولاقت منتجاته نجاحاً باهراً بعد أن كان على وشك الإفلاس أثناء الحرب العالمية الثانية لولا عبقرية سيد ياسين وإيمانه بالقدر مع الأخذ بالأسباب، حيث جرى تخزين بعض المواد اللازمة التي كانت تستورد من الخارج أثناء الحرب وتلك المواد كانت مهمة لتدوير عجلة الإنتاج ، وتم سد احتياجات المجتمع المصري أثناء الحرب حيث كان من المتعذر استيراد البضائع كاملة الصنع من أروبا لمخاطر وصعوبة النقل البحري وزيادة أعمال القرصنة عبر البحار .

تلك هي قصة صعود الاقتصادي الكبير سيد ياسين رجل الأعمال الجريء الذي لم يبحث عن الليسانس و البكالوريوس كما ذكر الأستاذ مصطفى أمين والأستاذ إحسان عبد القدوس والأستاذ أحمد بهاء الدين ، الاقتصادي الذي لم يعرف المستحيل ، الذي كان جزاؤه تأميم مصانعه عام ١٩٦١ والتى آلت ملكيتها للدولة في أكبر عملية ظلم اجتماعي شهدته لأن تأميم الصناعة المصرية والتي قامت قبل الثورة على يد شركات بنك مصر وعبود باشا وأبو رجيلة وغيرهم ، جعلت المجتمع لا يبدع ، لأن المجتمعات الاشتراكية و الشيوعية لا يبدعان إلا تحت تأثير ثلاثة أشياء هي: حب العمل والقسوة والضمير، أما القسوة فهي غير مأمونة العواقب من حيث إهدار حقوق الإنسان و ظهور الدكتاتوريات ، أما الضمير فليس له مقياس وقاموس فردى يمكن الرجوع إليهما لكي تختبر بهما العاملين لديك إذا كانوا يتمتعون بالضمير الحي وحب الوطن وحب العمل أم لا، وقد صدق أجدادنا عندما قالوا كلمتهم الذهبية "كل واحد وضميره" وهى حكمة بالغة الأهمية لمن هو قادر على فهم معناها فالذي يبنى ويشيد يكون حريصاً على ما بناه ولا يمكن أن يشترك في هدمه أما الذي يرث فلا يعنيه قيمة البناء كما تقول الحكمة النيجيرية في لغة الهوسا " ما تدخره الجدود تنفقه القرود " حيث آلت الشركة إلى القطاع العام وتعثرت عدة مرات إلى أن تم إنقاذها ، وتسديد ديونها الكبيرة للبنوك في الفترة من عام ١٩٩٩ - ٢٠٠٩م أثناء تولي يوسف بطرس غالي وزارة المالية.

25



أنجبار كامبراد

"من بائع كبريت إلى مؤسس أكبر شركة أثاث في أوروبا"

الطموح ليس له سقف إذا تواكب مع العمل والعمل شرف في أي مهنة ما دمت ملتزماً والالتزام والسهر والصبر يجعلانك تصعد سلم النجاح للدور العاشر في حين يبقى الكسالى وزبائن المقاهي الدائمين في الدور الأول أو الثاني على أقصى تقدير ، حيث لا يوجد مقهى بالأدوار العليا دائماً ، وقصة هذا الرجل السويدي المكافح أنجبار كامبراد تصلح لأن توضع على لوحة كبيرة في مدرسة إعدادية أو ثانوية لكي يقرأها الطلاب ويتعلموا منها كيف يصعد الرجال إلى القمة ؟؟؟

من المعروف والمتعارف عليه أن عمر الإنسان مقسم إلى خمس مراحل أساسية وهى:

١- من سن ٥-١٥ هو عمر التعليم الأولى والدلع من الأهل والتعود على عادات المجتمع.

٢- من سن ١٥ – ٢٥ هو عمر التعليم الجدي والصداقات والتنزه والفسح مع الأصدقاء وبداية الإحساس بالمسؤولية والتعليم العالي إن توافرت السبل إليه.

٣- من سن ٢٥ – ٣٥ هو عمر بداية العمل واكتساب الخبرة والاستعداد للزواج وبدء الدخول في مرحلة الدراسات العليا إن أمكن ذلك .

٤- من سن ٣٥ – ٤٥ هو سن بداية جنى ثمار ما سبق من السنين ، وسن النشاط الذهني والعمل الدائم وأهم شيء في هذه الفترة من العمر هو عمل مستقبلك المادي (تعمل فلوس) والادخار للمستقبل ومن لا يدخر مالاً قبل سن ٤٥ قد لا يستطيع الادخار مطلقاً فيما يليها من سنوات عمره.

٥- سن ٤٥ - ٥٥ هو سن العطاء المادي منك لأولادك لتربيتهم وتعليمهم وتنشئتهم التنشئة اللائقة حتى لو كان ذلك من مدخراتك لأنهم أهم منك في تلك المرحلة ، أما بعد سن ٥٥ سنة فأنت حر في حياتك وأموالك إذا كنت قد أديت واجبك أمام الله في أولادك وأسرتك ومجتمعك .

ولد أنجبار كامبراد فى مملكة السويد عام ١٩٢٦ وتلقى تعليمه الأولي في مدرسة قريته التي تقع جنوب البلاد في منطقة تحيطها الغابات والمزارع أحب التجارة منذ نعومة أظافره وكان يريد أن يبيع أي شيء ، فبدأ يتنقل بين أحياء القرية على دراجته ليبيع لهم علب الكبريت ثم ذهب إلى العاصمة أستوكهولم وبدأ يشترى الكبريت بالجملة من المصنع ويبيعه بالقطاعي للزبائن ، وعندما وجد أن لديه مزيداً من الوقت بدأ يبيع الأقلام الرصاص والأقلام الحبر والأسماك ، وفى موسم الكريسماس يبيع أشجار عيد الميلاد المجيد .

عندما بلغ السابعة عشرة من عمره كان قد ادخر جزءا من المال ، وقرر أن يفتتح مؤسسة بسيطة ليبيع الأثاث والمفروشات واقترض مبلغا من والده من أجل إتمام مشروعه وساعده ذكاؤه في اختيار هذا المشروع حيث قُرب الغابات مع وجود العاملين المحليين في منطقة الغابات واتفق معهم على توريد الأثاث لمؤسسته وابتكر طريقة جديدة للإعلان عن منتجاته عن طريق توصيل الكتالوج إلى الزبائن أولاً ثم عند الشراء يقوم بنفسه بتوصيل البضائع بسيارته النقل الخاصة وصدر أول كتالوج لشركته عام ١٩٥١ واختار لتلك الشركة اسم " إيكيا "وهى الأحرف الأربعة الأولى من اسمه واسم عائلته وكان كامبراد أول من أدخل نظام البيع بالبريد ثم شحن الأثاث بالقطارات حتى عندما توسعت شركته وأصبحت أكبر شركات الأثاث في أوروبا افتتح مطعماً، واستراحة خاصة للزبائن القادمين من أماكن بعيدة ؛لكي يقدم لهم الخدمات والطعام والراحة اللازمة أثناء يوم اختيار الأثاث ثم الشراء.

بدأ أنجبار يفكر في توسيع نشاطه عن طريق ابتداع تصميمات جديدة لكي يرضى معظم الأذواق في الدول الأسكندنافية السويد - النرويج - الدانمرك وذلك عام ١٩٦٣ ، وكان يبحث دائماً عن رضا الزبائن حتى إنه كان أول من عرض الأثاث للبيع مفككاً في صناديق مغلقة تُشحن للعميل وكل قطعه بالداخل لها رقم معين ويقوم العميل (الزبون) بتركيب القطع جنباً إلى جنب حسب التعليمات الموضحة بالكتالوج المرفق وخلال عشرين عاماً

أصبح للشركة فروعٌ في عشرين دولة ، وكان كامبراد يحاول أن يبتكر الجديد في التصنيع والتسويق والدعاية وافتتحت فروعاً للبيع في كل من سويسرا وألمانيا وهولندا وسنغافورة وأستراليا وكندا والنمسا والسعودية والكويت وبلجيكا وانجلترا، وأصبحت شركة إيكيا الأمريكية للأثاث أكبر شركة مصنعة وموردة للأثاث في العالم بقارتي أوروبا وآسيا ثم بدأ عام ١٩٨٥ في الدخول للسوق الأمريكية وحقق نجاحاً مذهلاً .

ومن عبقرية أنجبار كامبراد أنه حافظ على تنوع المنتجات لكل منطقة من مناطق العالم مع المحافظة على معدل الجودة العالي الذي اشتهرت به شركته ووصل عدد العاملين في شركته إلي ما يزيد ٤٠٠٠٠ عامل ومهندس ومصمم علاوة على العاملين في فروع البيع التي بلغت ١٣٦ فرعاً في ٢٨ دولة وكان يقوم على إدارة شركته بنفسه وينتقل من بلد إلى بلد ويقابل العملاء ويسألهم عن شكواهم ومدى رضاهم عن المنتَج ويجتمع بالعاملين لديه دائماً لمناقشة أساليب التطوير والتحديث ، وعندما تقاعد تسلم الشركة أولاده الثلاثة ليديروها ، أخيراً أصبح من أغنى أغنياء العالم وحصل علي المركز الثالث عالميًّا في قائمة المائة الأكثر ثراءً في العالم بثروة تُقدر بسبعة وعشرين مليار دولار ، كل ذلك جاء من طموح شاب في سن السابعة عشرة من عمره قرر أن يبدأ حياته من الصفر ولم يخجل أن يعمل بائعاً شريفاً وادخر واقترض لكي يحقق أمانيه رغم أنه لم ينشأ في عائلة غنية ولم يتلق تعليماً جامعيًّا ، ولكن كان سلاحه الجد والاجتهاد وتحدى المستحيلات .

26



عبد اللطيف أبو رجيلة

"ابن السودان ومصر وإيطاليا .. متعته التشييد والبناء"

عبد اللطيف أبو رجيلة رجل اقتصاد من الدرجة الأولى يهوي الإنجاز ويستمتع بالعمل والنجاح ويبنى ، كأنه يزاول هواية أو يرسم لوحة أو يمارس نشاطا رياضيا، حتى عندما تولى رئيس مجلس إدارة نادى الزمالك في الخمسينيات توجت فترة رئاسته بالمزيد من البناء حتى في النشاط الرياضي ، حتى تم تأميم شركاته وأملاكه بما فيها شركة أتوبيس نقل الركاب بالقاهرة فقرر أن يرتدى زى الرجل الصعيدي (الذي طالما افتخر بأنه صعيدي مصري سوداني) الذي يتميز بالصلابة وعلو الهمة ولا يقبل المساومة ولا السقوط ، فغادر مصر وبدأ حياة ناجحة جدًا اقتصاديا في إيطاليا ثم توج نجاحه بالاستثمار في السودان البلد الذي ولد فيه وتلقى تعليمه الأولي متحدياً المستحيلات: التأميم ومصادرة الأملاك ونقل الاستثمارات عبر الدول الأوروبية ، حتى أصبح عبد الطيف أبو رجيلة خبيرا في الخروج الآمن من مطبات الزعماء والمنافسين ، وأقدر من يقود عجلة الاقتصاد في الأزمات واستطاع أن يحاور كل من تصدى له خلال أربعين عاماً.

ولد عبد اللطيف أبو رجيلة بجمهورية السودان بمدينة أم درمان عند أقرباء والدته حيث كانت مصر والسودان مملكة واحدة في ذلك الحين ، أبوه من مركز إسنا بصعيد مصر (محافظة قنا) وكان من كبار التجار وملاك الأراضي تلقى تعليمه الأولي في السودان ثم رحل إلى القاهرة وتلقى تعليمه الثانوي بمدرسة السعيدية الثانوية ثم التحق بكلية التجارة جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) وخلال سنوات الدراسة الجامعية كان يحاول الاعتماد على نفسه في المصاريف بقدر الإمكان، رغم أنه من عائلة ثرية بصعيد مصر ولكن حب

العمل والنشاط غلبا عليه وبدأ يزاول بعض الأنشطة التجارية من بيع وشراء مع بعض زملائه في الجامعة عمل في بنك مصر بعد تخرجه من الجامعة وأعجب بطلعت حرب باشا مؤسس ورئيس بنك مصر وتابع باهتمام الأنشطة الاقتصادية التي يقوم بها البنك بتمويل المشروعات والصروح الاقتصادية التي قام طلعت حرب ببنائها في كل أنحاء مصر واستهوته فكرة بناء المشاريع والاستثمارات من نقطة صفر قرر عبد اللطيف أبو رجيلة السفر إلى إيطاليا وإنجلترا لاكتساب مزيد من الخبرة في إدارة المشروعات بعد أن اكتسب خبرة البناء من مصر ، عاد إلى مصر واستقال من البنك وبدأ مشروعه الأول في الاستيراد والتصدير منافساً التجار الأجانب الذين كانوا يحتكرون هذا المجال ، وبدأ برأسمال لا يتعدى الخمسة والثلاثين جنيهاً !!

بدأت سنوات الصمود والكفاح خلال السنوات الثلاث الأولى من حياته الاقتصادية ، وما أن توسعت تجارته مع إيطاليا حتى أصيب بأكبر نكسة تجارية في حياته حيث كانت كل ثروته في مواني إيطاليا في صورة بضائع في المخازن وعلى الأرصفة انتظارا لنقلها إلى مواني الإسكندرية بالبواخر وتم تدمير المواني الإيطالية في الحرب العالمية الثانية وضاعت بضائعه ورأسماله وأصبح علي حافة الإفلاس؛ حيث وصف نفسه أثناء حديثه مع الصحفية " سكينة السادات " في مجلة المصور بأنه كان (على الحديدة) ولكن لأن شخصيته كانت لا تعرف المستحيل لم ييأس ولم يبك بل أعاد البناء مرة أخرى وعاد إلى التجارة والعمل الشاق وعندما تزوج من " ليندا " **المرأة الإيطالية التي أحبها وعاش عمره كله معها ولم يرزقهما الله بأولاد لم يفكر في الزواج مرة أخرى ولم يصعب عليه حاله ولم يسأل نفسه من الذي سيرثني بعد هذا العمل الشاق** ، ولماذا لا أتوقف عن شراء الأرض الزراعية و بناء العمارات السكنية و افتتاح مشروع نقل الركاب بالقاهرة مادام لن يستفيد منه أولادي .

كل تلك الأسئلة لم تراوده بالطبع لأنه إنسان خلق من أجل العطاء والبناء للغير و فتح أبواب الرزق للعمال بمزيد من الاستثمارات و الشركات حتى لو كان سيتركها من دون وريث !!

عاد أبو رجيلة إلى مصر أواخر الأربعينيات وبدأ يستثمر أمواله في مصر و لكنه غادرها بعد ثورة يوليو عائداً إلى إيطاليا في شهر ديسمبر ١٩٥٢ ، ولكن الحكومة المصرية استدعته عام ١٩٥٤ للاستفادة من خبرته في التجارة وإدارة الأعمال فلبى النداء ، وقام بعمل عدة مشروعات كان أهمها شركة أتوبيسات أبو رجيلة التي اكتمل إنشاؤها وغطت خطوطها

نصف مساحة القاهرة على أعلى مستوى حضاري في نقل الركاب وكان يديرها بنفسه وكان يقول " إنني وضعت في اعتباري أن أجتهد لكي أصير مليونيراً ووضعت هدفاً لكفاحي وجهادي ، ولكنني لم أقدر لهذا الجهاد وهذا الكفاح ثمناً .

كان هدفي الوحيد هو أن أنجح في أي عمل أقوم به.. المسألة تبدأ بأن تفكر في النجاح.. أن تكون مستعدًّا للعمل .. أن تكون شجاعاً في هذا العمل .. أن يكون لديك الإصرار والتحدي .. أن تكون ذكياً فإن باب الملايين لا يفتحه الأغبياء " - عن مطبوعات رواد الاستثمار الصادرة عن وزارة الاستثمار بمصر ، مركز إعداد القادة لإدارة الأعمال ، الأستاذ مصطفي بيومي - كان هناك قدوة لهذا الرجل العصامي الناجح وهو طلعت حرب باشا حيث تتبع خطاه في عمل المشروعات التي يحتاجها المواطنون وزاد على ذلك هوايته في استصلاح الأراضي البور ، وكان عبد اللطيف أبو رجيلة لا يفضل اكتناز الأموال السائلة ، بل يفضل أن تجرى الأموال في المشاريع على حد قوله .

مع كل ما قدمه عبد اللطيف أبو رجيلة لوطنه مصر تم تأميم شركته عام ١٩٦١ ومصادرة أمواله وأملاكه لكنه لم ينحنِ حيث غادر البلاد مضطراً وعاد إلى ايطاليا وبدأ حياة جديدة وتجارة جديدة ونجح مرة أخرى وامتلك عدداً من الفنادق ثم اتجه إلى الاستثمار في السودان وأقام بها المشروعات الناجحة ، وأثبت للجميع أنه شخصية غير قابلة للاستسلام لأنه صعيدي أصيل يفضل الموت على الاستسلام.(مثل أغلب أبناء الصعيد دوماً)

وعندما أتجول بشوارع القاهرة العتيقة وشوارع الإسكندرية الجميلة بعد غيبة طالت أعواماً طوالاً وأرى المباني الشاهقة الارتفاع والعمران الذي طال هاتين المدينتين أتذكر عمال الصعيد الذين أقاموا تلك المباني بسواعدهم و تحت حرارة الشمس الحارقة صيفاً ، حيث لا يوجد مبنى ضخم بمصر إلا و به بصمات أبناء الصعيد الكرام.

عاد عبد الطيف أبو رجيله إلى مصر زائراً وضيفاً بعد أكثر من عشرين عاماً من مغادرته للأراضي المصرية بعد تأميم ممتلكاته ، وكان في أوج نجاحه الاقتصادي في إيطاليا والسودان ، وكأنه كان يريد أن يقول لنا إنني رجل لا أعرف المستحيل .

هذه كانت قصة رجل آمن بأن الحياة هي مجموعة من الحواجز علينا أن نتخطاها بنجاح مثل حصان السباق ، حتى نصل إلى نهاية العمر متمتعين برضا الله أولا ثم رضا المجتمع الذي نعيش فيه ثانياً بقدر الإمكان.

27



عبد الحميد شومان

"عامل عصامي فلسطيني يؤسس أحد أكبر البنوك العربية"

قصة حياة المصرفي الكبير عبد الحميد شومان هي قصة الطموح الذي ليس له سقف محدود والتفاؤل والصبر والاجتهاد والغربة من أجل إنشاء أحد أهم الصروح الاقتصادية في الجانب الأسيوي من العالم العربي أوائل القرن العشرين من أجل تحرير المعاملات المالية العربية من سيطرة الأجانب في نفس الزمن الذي بدأ فيه طلعت حرب إنشاء الصرح الاقتصادي في الجانب الأفريقي من العالم العربي ، بدأ عبد الحميد شومان في إنشاء أكبر صرح اقتصادى عربي في الجانب الآسيوى ، مع أنه بدأ حياته بتعليم بسيط في مدرسة ابتدائية في قرية بيت حنين بفلسطين، وترك المدرسة لظروف عائلته الاقتصادية وعمل في محاجر القرية يكسر الصخور ويحملها وينقلها ، فهل تكسيره الصخور في شبابه أكسبه الصلابة التي مكنته من تحطيم المستحيلات التي واجهها طوال عمره !!

وُلد عبد الحميد شومان في قرية بيت حنين بالضفة الغربية بفلسطين عام ١٨٨٩ والتحق بكتاب القرية ومدرسة أولية لم يكمل تعليمه بها و اضطر للعمل في أحد المحاجر عاملاً باليومية وظهرت عليه بوادر العصامية في الحياة فلم يدخن ولم يشرب الخمور وعندما وصل إلى سن الشباب كانت الأحوال الاقتصادية بفلسطين متدهورة والأوضاع السياسية مضطربة من جراء أفول نجم الإمبراطورية العثمانية ، وبدأت الموجات الأولى للهجرة اليهودية إلى الأرض الفلسطينية وحدثت في نفس الوقت موجات من الهجرة العربية إلى أمريكا للبحث عن مستقبل أفضل للشباب العربي من أبناء الشام ، وكان عبدالحميد شومان ممن فكروا في الهجرة لأمريكا في ذلك الوقت واقتطع من دخله البسيط

المال اللازم لتدبير احتياجاته لرحلة العمر الجديدة ...

وصل عبد الحميد شومان إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١١ صيفاً و بدأ العمل من أول أسبوع وضع فيه قدميه في الأرض الجديدة ولم يفكر في أن يبدأ بزيارة المعالم والانبهار بما يطلقون عليها "جنة المهاجرين " واعتبر نفسه قادماً من عالم المناجم و الصخور فليكن أحد المعاول في البناء !!.

عمل أولا بائعاً متجولاً وجمع مبلغا من المال ادخره وافتتح محلاً صغيراً في نيويورك ثم ادخر من أرباحه مبلغاً و افتتح متجراً كبيراً وتوسع في التجارة خلال وجوده في أمريكا .

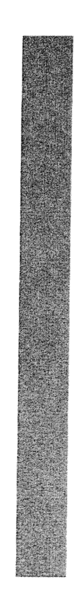
اطلع على الخدمات البنكية الكثيرة التي تقدمها البنوك والمؤسسات المالية الأمريكية لرجال الأعمال والصناعة والتجارة من تمويل وضمانات ، كان من خلال تلك الفترة يتابع أحوال بلده فلسطين بعد أن قامت الحرب العالمية الأولى وما آلت إليه نتائجها من وضع أغلب البلاد العربية تحت الانتداب و الاحتلال الإنجليزي والفرنسي تبعاً لمعاهدة سايكس- بيكو عام ١٩١٨ وهاله ما وصلت إليه الحالة الاقتصادية للشعب الفلسطيني وتعسف سلطة الانتداب وإهمالها في تنفيذ أية مشاريع خدمية واقتصادية للشعب الفلسطيني حيث كان الأستاذ عبد الحميد شومان على اتصال وعلم دائم بأحوال الأهل في فلسطين .

فكر عبد الحميد شومان في تأسيس بنك عربي يدعم به اقتصاديات وطنه ومشروعات أبنائه عام ١٩٢٠ ، وبالمصادفة كان ذلك هو توقيت تأسيس بنك مصر المصرفي الكبير طلعت باشا حرب فأرسل عبد الحميد شومان يعرض عليه فيها فكرة المساهمة في إنشاء بنك في القدس باسم (البنك المصري - الفلسطيني) ولكن انشغال طلعت حرب في تأسيس بنك مصر حال دون إتمام الاتفاق حتى عاد عبد الحميد شومان من أمريكا عام ١٩٢٩ وفي طريق عودته زار القاهرة وقابل طلعت حرب وجرى الاتفاق على تنفيذ فكرة إنشاء البنك المشترك من جديد .

ووصل عبد الحميد شومان إلى القدس وشرع في إنشاء البنك ولقي استجابة كاملة من بعض الماليين العرب والفلسطينيين الذين دخلوا كمساهمين في البناء ، ولكن أثناء الإعداد لهذا الصرح الاقتصادي العربي الأول في الجانب الآسيوى للعالم العربي اندلعت في فلسطين اضطرابات سياسية واشتباكات دموية بين العرب واليهود فيما سُمي بعد ذلك "ثورة البراق" واهتزت الأوضاع الاقتصادية في البلاد ، وفي نفس الزمن كان بنك مصر يؤسس لمشاريع

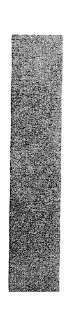
كبيرة في مصر فاضطر طلعت حرب للانسحاب من اتفاق المساهمة في إنشاء البنك في القدس خوفاً من ضياع رأس المال ، ولكن كانت تلك نقطة التحدي الكبرى في حياة عبدالحميد شومان فقرر استكمال إنشاء البنك بمفرده مع المساهمين الآخرين من العرب وأطلق عليه اسم البنك العربي واشترك معه مساهماً الأستاذ أحمد حلمي (رئيس حكومة عموم فلسطين) فيما بعد وسبعة مساهمون آخرون وكان رأسمال البنك أولا ١٥ ألف جنيه وتم تأسيسه في ٢١ مايو عام ١٩٣١ وافتتح في ١٤ يوليو عام ١٩٣١ وحدثت عقبات كثيرة في الحصول على موافقة التأسيس للشركات ولكن تصدى لها بصبر وإصرار عبد الحميد شومان ولم يتراجع رغم أن كل الأمور المالية في البلاد كان يديرها الإنجليز واليهود وواجه البنك صدمات اقتصادية عاتية أثناء الحرب العالمية الثانية في الفترة من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٥ وتمكنت إدارة البنك بقيادة عبد الحميد شومان الاقتصادي العبقري الذي افتتح البنك في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣١ من أن تصمد وتفي بالتزاماتها المالية من قروض ومديونيات وائتمان وتغيير عملة وفتح اعتمادات وتمويل بنكي للمشروعات بقوة وصلابة وخرج من تلك السنين العجاف أكثر قوة وخبرة وتحد بل اشتهر البنك وتوسع بعدها وافتتح فروعاً جديدة في البلاد العربية وتلتها فروع في البلاد الأوروبية ، وكان خلال فترة الخمسينيات والستينيات حلقة الوصل الاقتصادية العربية بين أوروبا والعالم العربي من المحيط إلى الخليج بالاشتراك مع بنوك مصر ولبنان والبحرين ، حتى جاءت فترة السبعينيات وامتدت فروع البنك على مستوى العالم بما يزيد عن ٥٠٠ فرع في أكثر من ٣٠ دولة .

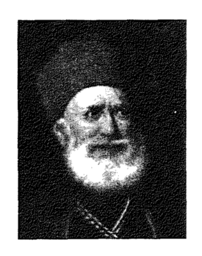
كانت تلك رحلة صعود العامل الفلسطيني البسيط الذي علَّم نفسه بنفسه الأمور والمعاملات الاقتصادية عبد الحميد شومان العصامي المجتهد الذي سيذكره التاريخ ويؤرخ له تجربته في الصعود من أول سلم الهرم الاقتصادي العربي إلى قمة هذا الهرم في النصف الأول من القرن العشرين حيث توفى إلى رحمة الله في ٥ سبتمبر عام ١٩٧٤ عن عمر يناهز الخامس والثمانين عاماً وتولى أبناؤه الكرام إدارة البنك من بعده تاركاً لنا نموذجاً يحتذَى به ومثالاً للرجال الذين لم يعرفوا المستحيل .



الفصل الرابع

قادة لم يعرفوا المستحيل





محمد علي باشا

"أكبر الإنجازات ولم يُلق خطبة جماهيرية واحدة خلال فترة حكمه"

قائد لم يُلق خطبة جماهيرية واحدة خلال فترة حكم استمرت اثنين وأربعين عاماً ، حيث لم يكن يجيد التحدث باللغة العربية، ولكنه ترك أفعالاً بدلاً من الأقوال، هذا الرجل العظيم المتميز في تاريخ مصر منذ عهد الفراعنة حتى الآن ، ويعتبر من الرجال الذين كانت لديهم أحلام كبيرة وعظيمة لا تعرف المنطق التقليدي وحياتهم لم تكن تكراراً لحياة الآخرين الذين سبقوه في حكم مصر قبله، وكذلك لم يحقق الذين أتوا بعده بقرنين النهضة الشاملة في البناء والزراعة والتخطيط والتعليم ما حققه هو ومعاونوه من المصريين والأجانب خلال ٤٢ عاماً هي فترة حكمه.

ولد محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية في ٤ مارس عام١٧٦٩ في بلده قَولَة إحدى الموانئ الصغيرة الواقعة قرب مقدونيا ، وينحدر من سلالة ألبانية، توفى والده إبراهيم أغا وهو طفل فاعتنى به عمه طوسون، إلا أنه توفي هو الآخر، فتبناه أحد أصدقاء والده وقام على تربيته وتعليمه الفروسية وهو في سن الثامنة عشرة ثم التحق بالجندية ، وتعلم فنون القتال وعمل لدى حاكم قولة الذي اكتشف ذكاءه ومهارته، فأرجعه للالتحاق بالجيش مره أخرى.

قال المؤرخون الأجانب ومنهم مستر شيرول في كتابه "المسالة المصرية": أتى محمد على إلى تلك الأرض الطيبة أرض الفراعنة ليحاول أن ينهض بمصر كدولة ذات هوية مستقلة ويمكن تلخيص أسس سياسته في ثلاثة أبعاد هي : التحديث - التصنيع - التغريب(أي

الاستفادة من علوم الغرب) وكان يقول : إن مصر هي جنة الله في الأرض ولو منحني الله ألف حياة غير حياتي هذه لأفنيتها جميعاً من أجل مصر(صـ٢٦من الطبعة الإنجليزية الأولى).

بعد انضام محمد علي إلى الجيش مرة أخرى، جاء إلى مصر عام ١٨٠١ كمعاون لرئيس كتيبة قولة مع جيش القائد حسين باشا الذي أرسله الباب العالي (الدولة العثمانية) لإجلاء الفرنسيين عن مصر وطرد جيش نابليون بونابرت، بقي محمد علي بعد خروج الفرنسيين، ونظراً لتفوقه وتميزه وذكائه فقد رقى إلى عدة مناصب، حتى أصبح نائباً للسلطان العثماني ثم رقي إلى مرتبة والي مصر بعد أن رشحه المصريون وخاصة السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي وغيرهما، وقادوا عملية دعمه للولاية أمام السلطات العثمانية.

وقد ذكر الأستاذ صلاح منتصر في مقالة بالأهرام أن محمد علي حضر إلى مصر في شهر مارس ١٨٠١مع الحملة العثمانية لطرد الفرنسيين من مصر ، وبعد خروجهم اختاره أهل الحل والعقد وكبار التجار والصناع ليتولى حكم مصر بدلا من خورشيد باشا ، الحاكم التركي الذي طالبوا بعزله ، واجتمعوا يوم ١٣ مايو بدار الحكمة ، واتفقوا على ذلك ، ثم انتقلوا إلى منزل محمد على لإبلاغه بذلك، على أن يتولى الحكم بشروطهم ، وتقدم السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي ألبساه خلعة الولاية ؛لما توسموه فيه من العدالة والخير وحماسه للبناء ، وتم النداء بمبايعته في أنحاء البلاد ومصر كلها.

وقد حقق عدة إنجازات مهمة بعد فترة قصيرة، حيث حارب الإنجليز وتمكنت القوات المصرية من طردهم من رشيد ١٨٠٧ وقام بالقضاء على المماليك بعدها عام١٨١١ في مذبحة القلعة وبدأ في تأسيس جيش قوى تمكن من الدفاع عن البلاد، أي أنه في خلال عشر سنوات من حكمة انتقل بمصر من عهد الاحتلال والتقلبات والاضطرابات والتناحر على السلطة إلى عهد الاستقرار والبناء ماضياً بها إلى التحديث والتحدي والندية للدول الكبرى في ذلك الزمن، الندية القائمة على مرحلة الاستقرار والبناء على سائر المستويات كالتصنيع والتسليح والثقافة والطب والزراعة والاقتصاد والتعليم التنمية ، وكل ذلك يجب أن يكون مدعماً بالقوة العسكرية، وليست الندية القائمة على الخطب والوعود، فأصبح مثل من تسلم أرضاً متدينة وصالحة وجديدة ووضع لها الأُسس اللازمة لتحويلها إلى مدينة متكاملة.

واجه انتقادات كثيرة من قناصل الدول الأجنبية المقيمين في مصر على الأسلوب الذي

اتبعه في كيفية تشغيل المصريين، ومصادرته للأراضي الزراعية لحساب الدولة، بحيث من يريد أن يعمل بالزراعة يؤجر مساحة من الأفدنة عن طريق ملتزم المنطقة (نظام الالتزام) وعندما يتم جنى المحصول يتم توريده بالكامل إلى الدولة بعد أخذ احتياجات المزارع عن طريق الدولة فقط وإعطائه مقابلاً نقديًّا بسيطاً على مجهوداته خلال العام الزراعي، ونظام الالتزام ليس به توريث للالتزام أي أن أبناء المزارع عليهم أن يتقدموا للحصول على الأراضي مرة أخرى بعد وفاته أو عند تقاعده، وتحدد الدولة للمزارع نوع المحاصيل اللازمة للمجتمع المصري سواء للاستهلاك المحلي أو للتصدير كما في حالة القطن وقصب السكر والقمح والذرة والأرز والأعشاب الطبية والفواكه، حتى لا تتذبذب أسعار المحاصيل في الأسواق وفي نفس الوقت تستطيع الدولة أن تضع الخطة التصديرية للمنتجات الزراعية على المدى الطويل.

وجهة نظر قناصل الدول الأجنبية المقيمين في مصر الذين وصفوه بالدكتاتورية، كانت قائمة على أنه صادر حق الشعب في الملكية واستولى على الأراضي لحساب الدولة ولكن رد محمد على باشا عليهم بالحكمة (جاءت هذه المعلومات من وثائق محادثات محمد علي باشا مع قناصل كل من فرنسا وإنجلترا والنمسا، حيث أن محمد على لم يترك مذكرات شخصية ولكن هؤلاء القناصل أرسلوا لدولهم ملخصات اجتماعاتهم مع محمد على باشا في الإسكندرية والقاهرة أثناء فترة توليه حكم مصر، (كما جاء في كتاب ديوان الحياة المعاصر للمؤرخ الكبير الأستاذ يونان لبيب رزق أستاذ التاريخ بالجامعات المصرية)، حيث قال لأولئك القناصل: "إنكم لا تعرفون الشعب المصري جيداً عندما تتهمونني بالدكتاتورية؛ لأن الشعب المصري تعود أن يعمل ويبحث عن رزقه بنظام اليوم بيوم، لكي يكسب قليلاً من الخردة (أقل من المليم) (الجنيه ألف مليم) ويرضى بذلك، ويعود يشترى بها الطعام واحتياجاته اليومية وقصيرة المدى، وإذا زاد دخله عن احتياجاته اليومية قد لا يذهب إلى العمل إلا عندما ينفق ما لديه من نقود، وأنا أخطط لكي أجعل المصريين يعملون أعمالا منتظمة بصورة جماعية وفقاً لاحتياجاتهم البعيدة وليست اليومية، ولن يتأتى ذلك إلا ببناء مؤسسات وكيانات يكونون ملتزمين فيها أمام الدولة بالعمل المتواصل طوال العام لدى أنفسهم ، وليس فقط لدى الغير ومن لا يريد أن يعمل بالزراعة فليترك الأراضي ويأتي للدولة التي ستفتح لهم أبواب عمل منتظمة أيضاً طوال العام في :العسكرية والخدمات

والتصنيع والملاحة والبناء.

تلك الردود التي تتسم بالحكمة والعقلانية والواقعية أفحمت كل منْ وصفه بالدكتاتورية سواء في الماضي أو بعد وفاته عام ١٨٤٩ أو في وقتنا الحالي؛ لأن أفكاره كانت تتلخص في تغيير طبيعة وثقافة المجتمع عن العملية الإنتاجية وعن كيفية الحصول على حقوق الدولة من الفرد وكيفية حصول الفرد على حقوقه من المجتمع والدولة، ويا ليتنا في الوقت الحالي نتعلم هذا التوازن المهم والصعب، هل حقوق الإنسان تسبق واجبات الإنسان أم أن واجبات الإنسان تسبق حقوقه، وأعتقد أن واجبات الإنسان يجب أن تسبق حقوقه حتى لو تأخرت تلك الحقوق قليلاً؛ لأن تأدية الواجبات في المجتمع يؤدي إلى تراكم الثروة في المجتمع ومن ثم يمكن أن تصل الحقوق للجميع ولو بنسب متفاوتة كُل حسب جهده ومرتبته؛ لأن المجتمع الضعيف والمديون لن تجد به إلا نصيبك في الدَّيْن والضعف.

كان محمد علي باشا يختار معاونيه من الشراكسة والأجانب أو المصريين أو الأتراك بدقة متناهية والاختيار لم يكن بناءً على الجنسية أو الديانة، بل بناءً على القدرة على التنفيذ، تنفيذ ما يكلفه به ولم تكن له سهرات أو جلسات خصوصية، بل كان يتسلم تقارير يومية وشهرية وسنوية من الأشخاص المكلفين بعمل ما، ولا يتوانى عن الطرد والعزل من الوظيفة ومصادرة الأموال لمن ينحرفون عن الالتزام بما كلفهم به .

(وأعتقد أن فضيلة الطرد من الوظيفة أو الطرد من العمل هي الفريضة الغائبة في مجتمعنا الحالي لمن يتقاعسون عن الإنتاج والعمل بأمانة وضمير وأيضاً الحرص على الوظيفة وفرصة العمل المتاحة هي التي تجعل المصريين والعرب عموماً يتفوقون ويبدعون عندما يعملون خارج بلادهم في الدول الأوربية وأمريكا وكندا وأستراليا ودول الخليج؛ لأنه في تلك المجتمعات يتحمل الإنسان مسؤولية نجاحه أو فشله فيتفانى في محاولة التفوق بالأبحاث والعمل الجاد والسهر والالتزام حيث إن تلك هي صورة وبيئة المجتمع المحيط به في تلك البلاد، وإلا سيطرد من العمل والمجتمع معاً في آن واحد)، وأعتقد أننا في احتياج لعمل رسالة دكتوراه عن عصر محمد علي باشا يقوم بها باحث في عصرنا الحديث، وتنشر على نفقة أحد رجال الأعمال أو على نفقة الدولة وتوزع مجاناً على الشباب والجمهور، حتى لو كان هناك رسائل دكتوراه سابقة عن أعماله تمت من قبل؛ لأن الكتابة بوسائل العصر الحديث يتم نشرها على الإنترنت أو على الكمبيوتر سيفيد الجيل الحالي من المصريين العازمين على

إعادة تعمير بلادهم؛ **لأن صفة الدكتاتورية والدكتاتور يجب أن نلغي نغمة إطلاقها على القادة والزعماء الذين يتولون الحكم في مجتمع كسلان**؛ فالتقدم الاقتصادي يقاس بالساعة الإنتاجية للفرد في المجتمع، وليس بأيام وشهور حضوره وانصرافه من العمل، حيث لم يكن لدينا دفاتر حضور وانصراف خلال ٢٧ عاماً من العمل خارج المجتمع العربي.

كان لمذبحة القلعة التي نفذها محمد علي للتخلص من المماليك دور كبير ومهم في حياة مصر، حيث أصبح بإمكانه التفرغ للبناء والتحديث والتعليم، من دون معارضة من أجل المعارضة، حيث لم يكن لدى المماليك برامج بديلة للإصلاحات التي ينوي محمد علي تنفيذها ولم يكن لديهم برنامج اقتصادي محدد للإنجازات، بل كانوا سيدخلون مصر ويدخلونه في معارك جانبية واشتباكات متواصلة معهم تبدد قوة المجتمع وتعوق التقدم حتى لا يشعر أهل مصر بأن عهد محمد على القادم من ألبانيا أحسن من عهدهم، وفطن محمد على بذكائه الحاد وقوة بصيرته إلى تلك العقبة المستحيلة التي تواجهه، وحيث إن الحيلة تهزم القوة (في رأيي أنا)، فكر في تلك الفكرة الجهنمية حتى يمكنه الظفر بهم وبأملاكهم التي يستطيع بها بناء مصر الحديثة في ضربة واحدة.

ذكر المؤرخون أن محمد علي عاد من رحلة إلى الصعيد أخذ يجهز جيشاً كبيراً لإتمام إحدى غزواته وأسند قيادة هذا الجيش إلي ابنه طوسون وأعد احتفالاً ضخماً بالقلعة لعرض هذا الجيش واستعراض قوته، ودعا المماليك يوم الجمعة أول مارس عام ١٨١١ ومعهم رجال الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين، وجميع الأمراء والبكوات لحضور تلك الاحتفالية، واستقبل المماليك تلك الدعوة بالابتهاج واعتبروها بداية رضا الوالي عنهم واستبشروا خيراً بتلك المصالحة، ولبوا الدعوة العامة عند رأوا أن كل كبار البلاد مدعوون معهم، واستقبلهم محمد علي بحفاوة بالغة عندما دخلوا عليه، وقدم لهم آخر قهوة ومرطبات في حياتهم شكرهم على الحضور، وقال لهم إن ابنه طوسون سيناله مزيد من التشريف والتكريم إذا ساروا في موكبه أمام جموع المحتفلين، وافق المماليك على هذا الاقتراح وتحرك الموكب مجتازاً الممر الوعر إلى باب العزب خلف القلعة وداخل أسوارها وأخذ المماليك موقعهم خلف الموكب، وما أن مر آخر فارس من حملة طوسون باشا، حتى أُغلق باب الخروج من الممر الطويل الوعر بتعليمات وإشارة متفق عليها بين محمد علي ومعاونيه، فاندفع المماليك إلى داخل الممر الوعر المغلق مخارجه ووراءهم طائفة

الأرناؤوط التابعين لمحمد علي حتى اكتمل دخول المماليك كلهم ثم تراجع آخر الأرناؤوط وتم إغلاق باب الدخول ، وحوصر المماليك داخل الطريق الوعر وصحن الفناء الذي تطل عليه الصخور من كل جانب، حيث اعتلى الجنود والأرناؤوط الصخور وبدأوا يطلقون وابلا من الرصاص على المماليك المحاصَرين من كل اتجاه فيما يشبه الدراما الدموية في عصور الرومان ، ولم ينجُ من المماليك إلا المملوك أبو الدهب بك الذي قفز من أعلى سور القلعة بحصانه فيما يشبه الحيل السينمائية وقبل وصول الحصان إلى الأرض قفز من على ظهره لينجو بمفرده، ويفر هارباً إلى الصحراء، ناجياً من تلك المذبحة التي استمرت حوالي سبع ساعات ، وهناك شاهدان اثنان على سلوك محمد علي أثناء أحداث تلك المذبحة أحدهم هو الناجي منها والثاني الإيطاليماندر ريتشي طبيب محمد علي الذي ذكر أن محمد علي ساوره القلق أولاً عند تحرك الموكب ولكنه التزم بالصمت حتى سمع أول طلقات الرصاص، ولم يتحدث مع أحد حتى انتهت أصوات الاستغاثة والعويل وصهيل الجياد، فطلب كوباً من الماء وشربه دفعة واحدة وقال له الطبيب :"لقد انتهى الأمر سموكم، واليوم هو يوم سعد لسموكم".

ومن هنا انتهت أهم وأكبر المستحيلات التي صادفته في طريقه لبناء مصر.

بدأ محمد علي باشا عملية بناء مصر الحديثة كما ذكر المؤرخون الأجانب ، ومنهم الفرنسي جان مارى كاريه الذي وصفه بالمصلح ا ستنير الذي اضطلع بأعباء الحكم وتحمل تبعاته، لا حبًّا في إشباع غريزة السيطرة أو تحقيق مصلحة خاصة، بل رغبة في الإشراف الجدي على كل ما له علاقة بحياة الشعب من قريب أو بعيد، وكان بطلاً في التصدي لصعوبات الإصلاح والبناء في بلاد أَلِف أهلها حياة الكسل والتراخي، فهكذا بات العمل على إحياء نفوس المصريين ورفع مستوى تفكيرهم أمراً ملحًّا ولا يمكن السكوت عليه إذا أريد السير في طريق الإصلاح، وقد لقى تجاوباً صادقاً من جانب كبار رجال البلاد ورجال الأزهر في أول الأمر، الذين أبغلهم بأنه في شدة الأسف لوجود حالة الجهل المخيم على ربوع البلاد! وهذا ما ذكره لمستر "بورنج" في حديثه معه حتى لا يقارنه بحكام أوروبا الذين يتسلمون بلادهم في حالة علمية وفكرية تختلف عن حالة مصر في عهده، ولذلك بدأ محمد علي في إنشاء المدارس أولاً، وأخذ المتفوقين من طلبة الأزهر وغيرهم وأرسلهم في بعثات خارجية لفرنسا وإيطاليا لكي يكملوا تعليمهم ويعودوا إلى مصر، ويتولوا تعليم أجيال أخرى من

التلاميذ والشباب وللاستعانة بهم في إدارة الدواوين الجديدة التي أنشأها لإدارة شؤون البلاد وهي:

ديوان الجهادية المسؤول عن نظام العساكر البرية والدفاع عن الوطن والمستشفيات العسكرية والورش الهندسية ، ومخازن المهمات وصناعة البارود والتعيينات العسكرية ، ولوازم المعسكرات من خيام وملابس وأغطية.

ديوان المدارس وهو مسؤول عن المدارس الابتدائية والتجهيزية ومطبعة بولاق التي أنشأها (المطبعة الأميرية حالياً) وحفظ الكتب (الكتبخانه) والوثائق ولوازم الطباعة.

ديوان الأمور الأفرنجية والتجارة المصرية وإليه يرجع النظر في كل معاملات الأهالي مع التجار الأجانب ومسؤول عن مشتريات ومبيعات الجهات الحكومية.

ديوان الإيرادات وكان مسؤولاً عن شيئين هما :أولاً ما يختص بحسابات كافة المديريات في أنحاء مصر كلها من إيرادات الجمارك والمقاطعات ، وعلى رأس كل محافظة مفتش مالي مسؤول عن ذلك أمامه وكان كثيراً ما يستعين بالمصريين الأقباط في ذلك الديوان لحسن إدارتهم وفهمهم العالي في الأمور المالية مثل الخواجة غالي مسؤول المالية الذي امتد نسله إلى وزير المالية الأسبق الدكتور يوسف بطرس غالي.

ديوان الفبريكات وكان مسؤولاً عن الصناعات التي بدأت في مصر ومنها صناعة الطرابيش والزجاج والملابس.

ديوان البحرية وهو المسؤول عن الترسانة البحرية والمخازن وتجهيزات الحملات العسكرية البحرية وبناء السفن وتنظيم الحركة في الموانئ.

ديوان لإدارة شؤون الأوقاف والاحتساب والبوستة وبيت المال والمحاجر ، وميناء أثر النبي النيلي بالقاهرة ومجلس التجار وأمور الأحكام وتجارة وعلاج المواشي ، والضبط والربط في الخصومات والمنازعات والإشراف على مصلحة الأبنية الحكومية وهذا الديوان كان يسمى الديوان العالي (الخديوي) نسبة إلى أنه كان الديوان المسؤول عن الأمور المركزية في القاهرة والإسكندرية.

ومن أثر نجاح محمد علي في تنظيم شؤون تلك الدواوين التي كان يجتمع بالمسؤولين عنها كل يوم خميس أسبوعيًا، أرسل قنصل روسيا في مصر دوهاميل إلى بلاده ملخصاً عن

تلك الدواوين ومهامها وكيفية إدارتها وقال :إن محمد علي يختار رؤوساء الدواوين بنفسه من كبار القوم من المصريين الذين لديهم الحمية والحماس للإنجاز.

أنشأ محمد علي باشا عام ١٨٢٤ ما يسمى بالمجلس العالي أو مجلس المشورة وكانت مسؤوليته البحث في شؤون الحكم وإدارة البلاد والفتوحات العسكرية، وتبادل الآراء في المشروعات التي تعرض عليهم، وسمح لهم بعرض الخواطر التي تجيش بصدورهم لإصلاح ما هو قائم أو عرض ما هو جديد في مناقشات حرة ، يفكر هو فيما دار بعد انصرافهم وتولى تنفيذ الصالح منها.

ألغى محمد علي باشا كثيرا من المظاهر الطائفية التي كانت تسود المجتمع المصري من تفرقة بين المسلمين والمسيحيين واليهود، والتي أدخلها الأتراك، وسمح لكل طائفة أن تمارس طقوسها بحرية كاملة، وبناء دور العبادة بالقدر اللازم لكل طائفة وألغى التمييز في الملابس الذي كان مفروضاً على المسيحيين ، وألغى التمييز في الوظائف العليا بالبلاد وقصره على فئة معينة وعين عديداً من العمد ومشايخ القرى من الأقباط المصريين ، مثل: تادرس بك وهبي وميخائيل عبد السيد وصالح بك مجدي وكانت اختياراته قائمة على الكفاءة والقدرة على العطاء وكان يرد على منتقديه في هذا المجال بقولة: " إذا كنا نستعين بالغرب المسيحي في تعليم أبنائنا في فرنسا والدول الأخرى، ولدينا معلمون أجانب مسيحيون في الداخل، ونتعامل في التجارة والاستيرا. والتصدير وتبادل المنافع مع المسيحيين في العالم كله، فلماذا لا نستعين بأبناء مصر من المسيحيين النبهاء إلى جانب المسلمين النبهاء في تطوير البلاد وأيده في ذلك السيد رفاعة رافع الطهطاوي الشخصية العظيمة في التاريخ العلمي والتعليمي لمصر، ويد محمد علي باشا اليمنى في برنامجه الطموح للنهضة التعليمية في القطر المصري، والذي تسلم منه الراية في القرن العشرين الدكتور أحمد لطفي السيد والدكتور طه حسين وساروا على نفس مبدأ المواطنة الحقيقية كما جاء في كتاب الدكتورة عفاف لطفي السيد (الطبعة الإنجليزية ص ١١٢).

تميز عصر محمد علي بالتسامح الديني بين طوائف الشعب المصري ، وأذن للكنائس أن تدق أجراسها ، وسمح لكل الطوائف الأخرى أن تقيم قداساتها بمنتهى الحرية ، وعلنا وألغى كثيراً من المظاهر التي كانت تضع قيوداً على ركوب الخيول لغير المسلدين ومنعهم من لبس أزياء محددة مما جعل الأقليات تخرج من أحيائهم المغلقة عليهم وتدخل

في نسيج المجتمع المصري .

وشجع كذلك الأجانب من مهندسين وأطباء وصناع من كل من اليونان وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا وسوريا ولبنان وسويسرا والمغرب وألمانيا على الإقامة بمصر وبمدينة الإسكندرية خصوصاً بعد أن شاهدوا مظاهر التسامح الديني بين المصريين وبعضهم وبين المصريين والأجانب، وجعل قناصل الدول الغربية مسؤولين عن حل المشاكل التي تنشأ بين رعاياهم بعضهم البعض فقط، ولكن المشاكل التي يكون أحد طرفيها مصري يتولي القضاء المصري النظر فيها في وجود مندوب عن القنصل أثناء التحقيق .

ارتبط محمد علي بصداقات كبيرة وعظيمة مع الأجانب المقيمين في مصر والذين يريدون أن يخدموا البلاد مثل مستر زيزينيا ومستر جيطاني ومستر توسيجه ، والدكتور كلوت بك الطبيب الفرنسي الذي له الفضل بعد الله في إنشاء أول مستشفى عسكري ويعالج به المدنيون عند الضرورة وعند ظهور وباء عام١٩٢٧ في منطقة أبو زعبل في مديرية القليوبية ، والذي أصبح في عهده نواة لإنشاء أول كلية طب في أفريقيا والشرق الأوسط منذ مائة وخمسين عاماً ، وتولى إنشاءها كلوت بك ، وأحضر لها محمد علي أساتذة من فرنسا وأنشأ بها أول قسم لتخريج مولدات قانونيات من النساء، وأصبحت فيما بعد تسمى مدرسة الطب والصيدلة ثم كلية طب القصر العيني بعد أن توسعت وانتقلت إلى مدينة القاهرة.

بدأ محمد علي باشا أولى مشروعاته لاستصلاح الأراضي البور، وكان يمنح الأرض بأسعار زهيدة للقادر على استصلاحها في الأماكن البعيدة عن العمران، ويسمح لهم بامتلاكها بعد ذلك ومن هنا جاءت تسمية كلمة (الأبعدية) وهي تعني الأرض البعيدة التي منحت من الوالي شبه مجانية من أجل الاستصلاح، رغم أن سكان مصر في عهد محمد علي لم يكونوا يتعدوا الثلاثة ملايين نسمة حسب تقدير مستر كادلفين عام١٨٣٧ ميلادية، ولكنه بُعد النظر في التخطيط والتعمير لهذا الحاكم المخلص النادر حتى إن الأراضي الزراعية في عهده وصلت إلى ما يقرب من خمسة ملايين فدان، مقابل عدد سكان لم يتجاوز خمسة ملايين نسمة.

اهتم محمد علي بالجيش اهتماماً كبيراً، وأقام بعض الصناعات العسكرية وأدخل المصريين الفلاحين سلك العسكرية ، واستعان بهم في عمل الفتوحات العسكرية لأراضي وادي

النيل حيث كان ينظر إلى دول منابع النيل نظرة خاصة ذات أبعاد اقتصادية وسياسية ، ولم يسمح لأي من الدول الاستعمارية في ذلك الوقت بالسيطرة الكلية على أراضي دول المنبع، وساعده في تدريب الجيش المصري الجنرال الفرنسي سليمان باشا الفرنساوي، الذي حضر إلى مصر وأسلم وتولى تعليم المصريين فنون العسكرية الحديثة ، وعلمهم الاغتراب عن أهليهم أثناء التدريب حتى يتعودوا على خوض المعارك خارج الحدود المصرية، حيث كان عهد محمد علي باشا هو أول عهد للمصريين للحرب خارج بلادهم، وقد منح محمد علي باشا رتبة الباشاوية لسليمان باشا وزوج ابنته تقديراً لجهوده في تطوير الجيش المصري، وبنائه ومن نسل سليمان باشا الفرنساوي جاءت حفيدته الملكة نازلي زوجة الملك فؤاد ووالدة المرحوم الملك فاروق آخر حكام مصر من الأسرة العلوية.

بدأ محمد علي باشا في التخطيط لتنفيذ مشروع عمره الكبير ، وهو بناء القناطر الخيرية التي يمكن من خلالها احتجاز جزء من مياه الفيضان السنوي للنيل للاستفادة بها في رى أراضي دلتا وادي النيل في الفترات التي تشح فيها المياه خلال العام وأرسل إلى المهندسين الأجانب تصوره لمشروع القرن التاسع عشر لأبناء مصر، وبدأ بناء القناطر الخيرية في عهده واكتلمت بعد وفاته ومن حُسن تصرف الباشا أنه جعل مع المهندسين الأجانب مهندس مصري من خريجي البعثات الأجنبية التي أرسلها للدراسة في الخارج هو المهندس "محمد مظهر" الذي يطلق اسمه على أحد شوارع الزمالك بمدينة القاهرة بمصر.

كان محمد علي يتوق إلى عمل الجديد في كل شيء في المجتمع المصري ، وبدأ بالزراعة ؛ لأنها عماد الاقتصاد الوطني، فبدأ في إدخال زراعات جديدة مثل القطن طويل التيلة وقد نبهه إلى ذلك " مسيو جوميل" الفرنسي من أهالي ليون الذي استقدمه الباشا لتنظيم مصانع النسيج، حيث عثر بالمصادفة على شجيرة قطن طويل التيلة في إحدى حدائق القاهرة وقال لمحمد علي: إن هذا القطن لا ينمو في مزارع أوربا حيث المناخ البارد ، فيمكن أن نستفيد من مناخ مصر والإنتاج الوفير وتصبح مصر المصدر الوحيد لهذا القطن في المنطقة!!

بدأ محمد علي في تطبيق الفكرة ليس على القطن وحده ولكن اختار مزروعات جديدة سريعة النضج في المناخ المصري، قبل ميعاد نضوجها في أوروبا وقام بزراعتها في مصر لغرض التصدير، وبدأ في استصلاح أراضٍ جديدة وزراعتها بمحاصيل جديدة، مثل قصب السكر وأشجار التوت لصناعة الحرير، والدخان وأشجار الفاكهة الجديدة التي

أحضرها من أوروبا وبدأ في شق الترع الجديدة مثل ترعة المحمودية .

وكان عبقريًّا في كيفية تشغيل العمالة المصرية، فأمر كل مدير مديرية وكل محتسب وكل عمدة تمر الترعة في حدود دائرته أن يكون مسؤولاً عن الحفر في منطقته وتوريد العمال اللازمين من أهل قريته أو مديريته وإعاشتهم والتكفل بالخيام اللازمة لنومهم، مع بقاء الإشراف الهندسي على شق الترع مسؤولية الحكومة وكانت فكرته في ذلك أن أهل القرى والنجوع الذين ستمر الترعة على دائرتهم سيصبحون هم المستفيدين منها، فعليهم العمل فيها بصورة شبه مجانية!!

واهتم أيضاً بإنشاء السواقي لرفع المياه من الترع حيث ذكر القنصل الإنجليزي مستر "بارنت" أن محمد علي قام بإنشاء ٣٨ ألف ساقية على مستوى أنحاء مصر وأنشأ جسراً من الأحجار يمنع انسياب المياه من فرع دمياط حتى لا تضيع هباءً، وقرر إنشاء ترعة داخل أراضي البحيرة بصورة عاجلة وضرورية استخدم ٨٠ ألف عامل في شقها الذي استغرق خمسة عشر يوماً فقط لاستيعاب مياه الفيضان الغزيرة القادمة من السودان ذلك العام ، وكان طول الترعة خمسة وثلاثين كيلو مترا!! وحفر كذلك ترعة في طنطا والترعة السوهاجية في الصعيد وترعة القاهرة (الخليج) المارة بين مدينة القاهرة وحي بولاق وطولها ٨كيلو مترات ، وكل تلك الأعمال الزراعية من استصلاح أراضٍ وحفر الترع كان من عام١٨١٦ حتى عام١٨٢٦ ، أي إنه أقام قلعة زراعية ضخمة تؤمن غذاء الشعب قبل أن يبدأ في بناء قلعة صناعية ، وشق ترعة المحمودية البالغ طولها مع فروعها حوالي مائة كيلو متر بأيدي المستفيدين منها لكي يؤمن مجرى نهرى لنقل المحاصيل من شمال مصر إلى جنوبها بانسياب مضمون وغير مُكلف، واستعمل في بنائها ٤٠٠ألف عامل (٣٠ألفاً من الجيزة، ١٥ ألفاً من المنصورة، ٣٠ألفاً من الغربية، ٢٠ألفاً من المنوفية، ٣٠ألفاً من القليوبية، ٢٥ألفاً من الشرقية والباقي من محافظات أخرى .

وقد بلغت تكاليف شق ترعة المحمودية وفروعها وتكسية جوانبها حوالي ٣٠٠ألف جنيه كما ذكر كلوت بك والمهندس الفرنسي لينان دي بلفون ، الذي صمم القناطر الخيرية فيما بعد .

وزادت المساحة المنزرعة في ضواحي الإسكندرية ومديرية البحيرة إلى أربعة أضعاف ما كانت عليه قبل الترعة، فضلاً عن الاستفادة من النقل النهري.

أما بالنسبة للقناطر الخيرية فعندما فكر محمد علي في إنشائها عام١٨٣٣، استغل المنافسة المشتعلة بين إنجلترا وفرنسا للفوز بتنفيذ المشروع وطلب من علمائهما وضع الرسومات والتصورات فيما يشبه المناقصة بشقيها المالي والفني، وشكّل لجنة من سبعة عشر عضواً من المهندسين وموظفي الأشغال العمومية للبت في التنفيذ واجتمعت اللجنة في ١٠ يونيو ١٨٣٨ ولكن لم يتمكن محمد علي من بدء التنفيذ لانشغاله بالحروب الإقليمية حول القطر المصري ، والتي كان يدخلها لحساب الغير وهي السلطنة العثمانية والتي تعتبر من أكبر أخطاء الباشا؛لأن من يريد أن يُعمِّر، لا يجب أن يرفع سلاحه إلا للدفاع عن أرض بلاده (كما حدث في القرن العشرين في ألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وإعادة بناء تلك الدول، حيث ينص الدستور بها على عدم إرسال قوات عسكرية إلى خارج الحدود إلا بموافقة البرلمان وليس بموافقة رئيس الوزراء أو وزير الدفاع؛ لأن من يحارب خارج حدوده يسهل اصطياده من القوى الخارجية الكارهة لتقدم بلاده عن طريق إنهاكه اقتصاديًا وعسكريًا ، فيتوقف البناء في الداخل كما حدث في معركة قونيه البحرية عام١٨٤٠ في اليونان عندما تم تدمير الأسطول المصري وأرغم محمد علي على توقيع معاهدات تضر بمصلحة مصر العسكرية وحدث نفس الأمر مع المرحوم جمال عبدالناصر عام١٩٦٧ في حرب يونيو التي سميت في دوائر المخابرات باسم "عملية اصطياد الديك الرومي" .

وهكذا كانت حروب محمد علي في الحجاز والجزيرة العربية وحروبه في الشام وفي اليونان وفي البحر المتوسط، تعتبر من الأخطاء التي عثرته اقتصاديًا، كما أن الحركة الوهابية في الحجاز والاتفاق مع آل سعود كانتا تسعيان إلى توحيد المملكة وبنائها على أسس دينية ووحدوية بأراضي شبه الجزيرة العربية ، وجمع القبائل المتنازعة والمتفرقة وجعلها على قلب رجل واحد ، لكي تتخلص من الحكم العثماني ، وهو الأمر الذي لم يكن لمصر دور فيه ولا مصلحة سواء بالتأييد أو المعارضة ، ولكنه دخل معظم تلك الحروب للدفاع عن أراضي وممتلكات الإمبراطورية العثمانية ولذلك تعثر.

عاد محمد علي إلى البدء في تنفيذ مشروع القناطر الخيرية بعد انتهاء الحروب عندما قدم إلى مصر المهندس الفرنسي موجبيل عام ١٨٤٢ للعمل في مهمة بمدينة الإسكندرية، ثم درس المشروع الأول للقناطر للمهندس الفرنسي لينان عام ١٨٣٨ وقام ببعض التعديلات

بناءً على رغبة محمد علي بحيث يكون إنشاء القناطر عند تفرع مجرى النيل إلى فرعين: رشيد ودمياط ، وليس بقنطرتين واحدة عند كل فرع ويفصل بينهما ثماني كيلو مترات واقتنع محمد علي، وتم وضع حجر الأساس للبدء في المشروع في ٩ إبريل عام ١٨٤٧ وعمل مع المهندس الفرنسي موجبيل كل من المهندسين المصريين مصطفي باشا بهجت ومحمد باشا مظهر الذي ذكر سابقاً وتم إنشاء ثلاث رياحات في البحيرة والمنوفية والشرقية ، وقد بدأت أعمال الحفر في تلك الترع في نفس توقيت بناء القناطر حتى تكون مستعدة لاستقبال المياه، حيث بدأ الحفر في هذه الترع في٣١مايو١٨٤٧ ، وانتهي العمل في القناطر الخيرية عام١٨٦١ في عهد الخديوي سعيد بعد أن أوقف العمل بها في عهد الخديوي عباس الأول الذي كان يريد أن يعود بمصر إلى الوراء اقتصاديًا وعسكريًا أثناء فترة حكمه القصيرة حتى قُتل في محافظة القليوبية.

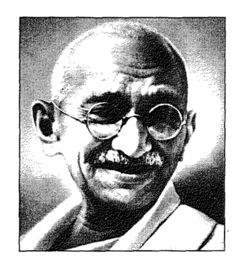
لن أستطيع في هذا الكتاب الصغير إعطاء صورة كاملة عن سيرة الأبطال الواردة سيرتهم في هذا العمل لأن كلاً منهم يحتاج ، ويستحق كتابا كاملا عن سيرته وحده، ولهذا سأكتفي بما سبق عن إنجازات محمد علي في مجالات الزراعة والعلاقات مع الدول الخارجية وتقوية مصر عسكريًا، على أن ترجعوا إلى مراجع أخرى لقراءة إنجازاته في التجارة الداخلية والخارجية ومحاربته احتكار الأسواق والسلع بالداخل، وإنشاء الطرق البرية، وبدء العلاقات مع أمريكا، وتنظيم الضرائب ونظم إنفاق الميزانية العمومية، وإنشاء المصانع والصناعات الجديدة مثل الجلود والجوخ وغزل القطن في قليوب وبنها والمنصورة والقاهرة ورشيد وزفتى وميت غمر ونبروه وشبين الكوم والمحلة الكبرى وسمنود وفوه ودمنهور وبني سويف والمنيا وملوى والفشن وجرجا وفرشوط وقنا وإسنا، وكل مصنع من تلك المصانع كان يعمل به حوالي ٥٠٠عامل إضافة إلى مصانع تكرير السكر في الصعيد، وكذلك كان لمحمد علي دور كبير في الرقي بالخدمات الصحية التي تقدم للشعب المصري حيث بدأ ينتهي عصر العلاج بالأعشاب والعطارين والحلاقين وشهدت مصر الطب الحديث والعلاج بالأدوية كما ذكرت سابقاً ، وتم السيطرة على كثير من موجات الأوبئة التي هاجمت المصريين مثل الطاعون والتيتفوس، حتى إن قيصر روسيا أرسل بعثة طبية روسية لدراسة كيفية التخلص من وباء الطاعون بالطريقة التي اتبعتها الإدارة الصحية المصرية عام١٨٤٢ في عهد محمد على.

وأنشأ محمد على مستشفى خاصا للمرضي النفسيين في منطقة الأزبكية سمى "المارستان" حتى يمكن العناية بهم داخلها ولا يصبحو تائهين في الشوارع يتخلص منهم أهلهم، ويصبحو مثار سخرية وضحك للعامة والجهلاء من الناس، وأنشأ كذلك نظام الحجر الصحي بمداخل مصر البرية والبحيرة لفحص الزائرين والمنتجات والبضائع التي تدخل البلاد.

وأكتفي بهذا القدر من الإنجازات الصحية والتي هي صميم تخصصي كطبيب وأختتم ولكن لا أنهي سيرة هذا الرجل العظيم الذي تحدى المستحيلات التي صادفته في طريقه لبناء مصر الحديثة والمحاولات الحثيثة من الدول الكبرى في ذلك الحين للانقضاض على مشروعاته ، وتعطيل مسيرته التنموية وتصديه لتلك المحاولات حتى اعتزل الحكم عام١٨٤٧ وسلم قيادة الدولة لابنه إبراهيم باشا ، الذي توفي فجأة أثناء حياة والده المريض، وتوفي محمد علي باشا في ٢ أغسطس عام١٨٤٩ إلى رحمة الله، تاركاً ذكرى رجل لم يعرف المستحيل في حياته ومثالاً للبطولة في البناء والتعمير لم تتكرر منذ عهد الفراعنة، ولم يكن مصريًا أو مولوداً في مصر من أبوين مصريين ولم تكن زوجته مصرية كما ينص الدستور المصري الحالي ولم يفرق بين المصريين هذا مسلم وهذا مسيحي، ولم يرفع شعارات سياسية أو دينية أو فئوية في حياته ، ولم يلقِ خطبة جماهيرية واحدة خلال فترة حكمه التي امتدت اثنين وأربعين عاما، حيث لم يكن يجيد اللغة العربية!!، وأظن من أسباب نجاح محمد على أنه لم يكن في عصره أحزاب ولا فتن طائفية ولا أغانٍ وطنية، ولا تشدد ديني ، وهم الرباعي المرح الذي نلهو به الآن.

29

غاندي



"ثائر زادُه الوقار.. والحلم والصبر والنضال"

أعظم سياسي أنجبته البشرية بشهادة المؤرخين والقادة والشعوب ، يمكن أن يكون المهتاما غاندي أو على الأقل من أعظمهم؛ لأنه تبعاً للحكمة الصينية: "أعظم المنتصرين هو من ينتصر من دون معركة وإراقة دماء"، وفلسفة غاندي في النضال من أجل استقلال الهند عن الإمبراطورية البريطانية كانت فلسفة عقلانية تم التخطيط لها بناءً على الإمكانيات المتاحة للشعب الهندي في ذلك الوقت، وكانت فلسفة لا تعتمد على شهوة الانتقام والثأر ومناطحة الأقوياء بالقوة في ظل عدم التكافؤ بين الشعب وبينهم؛ حتى لا يكون الضحية ملايين الهنود الفقراء والضعفاء في ذلك الحين.

آمن غاندي بالحكمة التي تقول :"إن شجرة الحرية والاستقلال لا تنمو في يوم واحد"، ومن هنا بدأ كفاحه السلمي لِاسترداد استقلال بلاده من يد المغتصبين بأسلوبه الفلسفي العميق الذي يتمثل في سلاح المقاطعة والعصيان المدني، وذلك هو المستحيل في عالمنا الحالي الذي لا يعترف إلا بالقوة، ونجح غاندي واعتُبر أحد أهم المنتصرين في التاريخ.

ظفرت الإمبراطورية البريطانية باستعمار أرض الهند عن طريق حيلة إنشاء وتأسيس شركة الهند الشرقية للتجارة الإنجليزية عام١٦٠٠ ميلادية ، وتوسعت تلك الشركة بحيث أصبح لها فروع في كل أنحاء الهند، ثم بدأت في زرع الخونة والعملاء والبؤر التجسسية في ربوع البلاد ؛لزرع بذور الفتن الطائفية بين أبناء الهند من سيخ وبوذيين وهندوس ومسيحيين ومسلمين، وتم تجنيد المرتزقة من أبناء الشعب الهندي؛ لتأليف جيش موالٍ

للسلطات الإنجليزية بدعوى حماية المصالح التجارية لبريطانيا في بلاد الهند، ولكنها كانت مظلة استعمارية ، لم تظهر آثارها إلا بعد قرن من الزمان .

عندما اجتاحت الهند جحافل الجيش الإنجليزي وقامت معارك طاحنة بينهم، وبين آخر سلاطين الهند "بهادرشاه" واستطاعت بريطانيا احتلال أراضي الهند كاملة بشكل رسمي واعتبرت الهند "درة التاج البريطاني وتم عزل السلطان"بهادرشاه" ثم نُفيَ إلى "بورما" وتوفي بعد أربع سنوات عام ١٨٦٢وتم تعيين حاكم إنجليزي صوري للهند ولُقِّب بالحاكم العام للهند أو نائب ملك الإمبراطورية البريطانية.

بدأت بريطانيا في تعزيز دورها في تفتيت المجتمع الهندي وعمل الوقيعة بين عناصره عن طريق تشجيع التطرف الإسلامي والتطرف الهندوسي وإبعاد علماء الأديان المعتدلين ، وعزلهم عن المجتمع، وإحلال زعامات دينية متطرفة بدلاً منهم والعبث بمناهج التعليم ونشر الانحلال والمجون والنفخ في مبادئ العلمانية غير الحقيقية وفي نفس الوقت تشجيع التطرف الديني في كل الأديان لدرجة أن غاندي الدارس لمبادئ القانون والحقوق وجد أن بلاده واقعة بين مخلبي التطرف والاستعمار، وهو ما يؤدى في النهاية لتغليب مصلحة الإنجليز ويدعم بقاءهم في البلاد ؛لأن المجتمع منقسم على بعضه، وهنا نرى حكمته في الاتفاق مع العنصر الإسلامي في الهند لإنشاء دولة باكستان ذات الأغلبية المسلمة، لنزع أحد أوراق اللعبة الإنجليزية.

وُلد غاندي في الثاني من أكتوبر عام ١٨٦٩ في بلده بورباندر (المدينة البيضاء) بشمال بومباي ونشأ في أسرة هندوسية متدينة جدًّا، وكانت أسرته تعمل بالتجارة ومن هنا جاء اسم "غاندي" لقب العائلة وتعني "بقال" باللغة المحلية، وشبَّ غاندي شديد التأثر بوالدته كما ذكر في مذكراته، حيث كانت امرأة بسيطة وعطوفاً وكثيرة الصلاة ، وتحب الخير وكان يشبهها بأخلاق القديسات ، ومن هنا استمد أغلب أخلاقه وخلقياته منها ، حتى إنه أصبح نباتيا في الطعام وكثير الصيام ، حيث اعتبر الصيام ممارسة روحية ، ثم أداة سياسية فيما بعد، وأوصته بعدم الكذب مطلقاً وسار على ذلك النهج طوال حياته، وعلَّمته الصبر الطويل على المحن حتى إنه اشتهر بقدرته على تحويل المعاناة إلى سلاح فعال كما ذكر المؤرخ البريطاني "ستانلي ولبرت" .

والد غاندي يدعى كرمتشند غاندي عمل عضواً في محكمة راجستابك ، ورئيس للوزراء في مقاطعة راجكوت، وجِدُّ غاندي كان رئيساً للوزراء على ثلاث مدن، تعلم غاندي من والده العصامية وعدم التكالب على المصلحة الخاصة، والصدق في المعاملات المالية والصلابة في مواجهة المحن، أي أن الله قد منح غاندي والدا ووالدة فاضلين أحسنا تربيته وجعلا منه نموذجاً يحتذَى به في العالم كله.

تزوج غاندي في سن أربعة عشر عام، طبقاً للتقاليد الهندية من فتاة تدعى : كاستورباي وكانت أهم شخصية في حياته بعد والدته، وسُجنت من أجله عدة مرات ، وأنجب أربعة أبناء وعاش مع زوجته ٦٢ عاماً متواصلة وتوفيت بعد مرض شديد عام ١٩٤٢.

تلقى غاندي تعليمه الابتدائي في مدرسة بورباندر وفي سن العاشرة انتقل إلى مدرسة راجكوت ثم مدرسة كاتيافار ، وكان يريد أن يدرس الطب ويصبح طبيباً ، ولكن والده رفض وأصر أن يدرس ابنه الحقوق فأرسله إلى لندن عام ١٨٨٨ لدراسة القانون، والحمد لله أن غاندي لم يصر طبيباً؛ لأنه في تلك الحالة لن ينفع إلا مرضاه فقط، أما دراسته للحقوق والعدالة والقانون فقد أصقلت لديه الشخصية التي تبحث في الحق والمتنورة التي حررت ملايين الهنود والباكستانيين فيما بعد على أسس من العدالة.

فلسفة غاندي الروحية كانت تندرج فيما يعرف في الهند بمصطلح (الكرمايوجا) وقوامها رياضة يومية دائمة تستهدف سيادة المرء على حواسه وأهوائه وشهواته .. عن طريق الاكتفاء بالقليل من الطعام والملبس والكثير من الصيام البدني والنفسي وهو ما يطلق عليه "صيام الحواس" وهو عبارة عن صيام القلب واللسان والصمت الداخلي وكثرة التأمل والعمل الجدي في هدوء من دون انتظار للنتيجة الفورية أو لثمار هذا العمل ، والزهد في جني الثمار التي يتكالب عليها العامة دائماً، وهذه الفلسفة يمكن أن تعطيك مسحة من الوقت لشحن ملكاتك الفكرية والنفسية وتبعد عنك الأنانية ، وتتعالى أن تشرب من الحوض الذي يتكالب عليه الدهماء (كما ذكر مفكرنا الكبير عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين).

كان غاندي بجانب دراسته للقانون كثير القراءة ومثقف على مستوى عالٍ، حيث قرأ "نشيد الطوبارى" وهو ملحمة شعرية هندوسية "وموعظة الجبل" وهو من كتب المسيحية ومستمد من تعاليم الإنجيل، و"العصيان المدني" للمؤلف الأمريكي هنري ديفيد تورو،

وكتاب "الجيتا" وهو كتاب من التراث الهندي، وقرأ أيضاً كتب الصوفية والفلسفة الإسلامية وتعاليم الدين الإسلامي ، وأعجب إعجاباً شديداً بأخلاق وخصال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

وكان غاندي يعتبر المقاومة السلمية أو سياسة اللاعنف هي قوة نابعة من الروح وليس من الجد والعضلات، ومن هنا بدأت رحلة كفاحه لاستقلال الهند، وهي فلسفة مبنية على عدد من الأسس الدينية والاقتصادية والسياسية تندمج معاً لتشكل في النهاية صورة خاصة جدًّا من صور المقاومة الشعبية ضد الظلم والاحتلال ، وكان يقول "وحده اللاعنف.. قادر على استعادة الحقوق.. ثم بالعنف إن لم يوجد خيار آخر" فأصبح غاندي مناضلاً وفيلسوفاً ومعلماً، وكان لا يؤمن بمبدأ الثورات ؛ لأن معظم الثورات تأكل أبناءها، ولكن القوة المبنية على تكاتف الجميع على مبدأ واحد سوف تنتصر أخيراً ، وليست القوة المبنية على الثورة وتحطيم المنشآت والمظاهرات، وكان يراهن على أنه يستطيع أن يحارب العدو بالسلاح الذي يخشاه هو.. وليس بالسلاح الذي نخشاه نحن، وكان يقول :"إن الإمتناع عن العقاب لا يعتبر غفراناً إلا عندما تكون القدرة عليه قائمة فعليًّا .. ومن الممكن اللجوء للعنف إن لم يوجد سبيل آخر غيره".

عندما مكث غاندي في لندن لدراسة الحقوق أبقى على وعده لأمه بأن لا يمس اللحوم والخمور والنساء وعاش منعزلاً عن المجتمع ، واهتم بدراسته فقط وعندما حاول أصدقاؤه أن يعلموه الرقص، رفض واعتذر لهم بأدب وقال: إنني خجول بطبيعتي وأشعر بالخجل أكثر عندما أحاول الرقص، ومن هنا بدأ يستفيد من وجوده في المجتمع الغربي بملاحظة مبادئ الحرية وسيادة القانون، ورفع شأن العلم والمتعلمين ، وعقد مقارنات بين أحوال الهنود في بلده وأحوال الإنجليز في بلدهم ، وسجل ذلك في ذاكرته وأقسم أن يجعل من الهند بلداً يتمتع بما يرى عليه الشعب الإنجليزي، واضعاً في اعتباره أن الظلم قد يؤدى إلى الثورة وقد أحس هو بالظلم الواقع على الشعب الهندي الفقير من قبل الإمبراطورية البريطانية عندما عاش في لندن.

عاد غاندي إلى الهند عام١٨٩١ يحمل شهادة الحقوق التي تؤهله أن يعمل محامياً وعُيِّن محاميا بمحكمة الاستئناف في بومباى ، ولم يحقق نجاحاً كبيراً في بومباى لاستقامته الشديدة

وشدة حيائه فعاد إلى بلدته راجكوت، وعمل كاتباً للعرائض، في عام ١٨٩٢ ذهب إلى جنوب أفريقيا للدفاع عن أحد أقربائه ضد أحد أثرياء الهنود في جنوب أفريقيا على خلفية خلاف تجارى، واستطاع أن يكسب القضية، ثم اشتغل ممثلاً قانونيًّا لشركة تجارية لمسلمين هنود، وأثناء إقامته بجنوب أفريقيا لاحظ سياسة التفرقة العنصرية بين السود أصحاب الأرض والبيض المغتصبين، وإكراه المقيمين من المسلمين والهنود على دفع ضرائب باهظة ومطاردتهم، ومنع المزيد من هجرتهم إلى جنوب أفريقيا، ولاحظ أيضاً أن هناك تفرقة بين البيض والهنود، والسخرة التي يتعرض لها العمال في المناجم ومزارع قصب السكر، ومن هنا اختمرت مبادئ مقاومة الإنجليز في عقليته، وأعاد المحامى الشاب الخجول اكتشاف نفسه وحصل على عقد عمل بجنوب أفريقيا ، وبدأت تلتف حوله الجالية الهندية في جنوب أفريقيا وشن حرباً لا هوادة فيها للاعتراف بحقوق العاملين الهنود ، والجالية الهندية في جنوب أفريقيا وإنهاء التمييز العرقي تجاههم.

ورفض إدخال أولاده المدارس الأوروبية واتخذ من الفقراء قاعدة شعبية ، وحصل للهنود على حق التصويت في الانتخابات وأسس صحفا باللغة الهندية.

وصلت أصداء ما فعله غاندي للهنود في جنوب أفريقيا للمواطنين في الهند ، وسبقته قبل أن تعود إلى الهند، وأُعجب الناس في الهند بتلك الصورة المصغرة من كفاح هذا البطل، فلماذا لا يتم تكبير تلك الصورة وجعلها صورة رائعة تغطى أرض الهند بأكملها مادام الرسام حاضراً والشعب جاهزاً والمثقفون والمتعلمون على أهبة الاستعداد للتعاون معه ؟!

كان أول عصيان مدني للهنود في جنوب أفريقيا بدعوى من غاندي ، وانسحب الهنود من المدن الرئيسة.. مما أصاب الأعمال الصناعية بالشلل واعتُقل غاندي بعد ذلك العصيان في جنوب أفريقيا عام ١٩٠٦ بعد عمل قانون (تفصيل) له يسمي "بالقانون الآسيوي الجديد" والذي بمقتضاه أُعتبر غاندي من الأشخاص المناوئين للسلطة، فاندلعت المظاهرات في جوهانسبرج وتعاطفت معهم الجالية الصينية بالبلاد ، فانزعجت إنجلترا خوفاً من امتداد التمرد إلى الأغلبية السوداء فبدأت في اقتحام المنازل الخاصة بالهنود ومحاولة القبض على بعضهم وترحيل البعض الآخر، وهنا ظهر غاندي كمحاور وقرر إرسال وفد إلى لندن للتفاوض، وجمع التبرعات لتغطية نفقات سفر الوفد وإقامته، وضعوه في السجن مرة

أخرى لمده شهرين ، وهناك تذكر كلمات الروائي الروسي العظيم "تولستوى" ومقالاته التي كان يدعو فيها إلى المقاومة باللاعنف للسلطة المستبدة، وهذا ما ذكره عنه الكاتب الأمريكي "هنري دافيد" من أن غاندي اكتشف أن العصيان المدني يساعد على تشتيت قوى المستعمر الظالم.

أعيد اعتقال غاندي مرة أخرى عام ١٩٠٨ في جنوب أفريقيا ، وبدأت المطاردات تتوالى على الجالية الهندية في جنوب أفريقيا ، وتمت عمليات جلد وسجن وإطلاق رصاص على المتظاهرين وإزهاق أرواحهم ، وشعرت الحكومة البريطانية بالحرج وخافت أن يصحو الجبل الأسود في البلاد، ممثلاً في أصحاب البلد الأصليين (السود) فقررت أن تجرى تسوية اضطرارية مع غاندي يتم بموجبها إعطاء بعض الحقوق للهنود في البلاد على أن يغادر غاندي جنوب أفريقيا ، وهو ما تم فعلاً عام ١٩١٥ ، ولكن فات على الإنجليز أنهم بفعلتهم تلك قد سمحوا بنقل القنبلة الهادئة بمبادئها السامية من بلد صغير وهي جنوب أفريقيا إلى بلد عريق وكبير وعظيم وهي الإمبراطورية الهندية، التي يمتد تاريخها وثقافتها وحضارتها إلى قبل قيام الإمبراطورية البريطانية بكثير، وأعتقد أن بريطانيا قررت من يومها أن تحتفظ بالمعارضين السياسيين والجماعات المنشقة على أراضيها، حتى تأمن من تصرفاتهم وتتحكم فيهم ، وذلك بدلاً من أن تعيدهم إلى بلادهم ؛ فيسببوا لها المشاكل وأيضاً حتى تذلهم بمساعدتها لهم.

عاد غاندي إلى الهند عام ١٩١٥ بعد أن قضى ٢٢ عاماً في جنوب أفريقيا ، وهي المدة التي تعتبر معملاً لأبحاثه الثورية والفكرية، حيث كان نجاح التجربة في جنوب أفريقيا دافعاً وحافزاً له على بدء التطبيق العملي والفعلي لأبحاثه واكتشافاته في تحرير الشعوب.

انتقلت القنبلة الجميلة الهادئة إلى أرض المعركة الرئيسة في الهند. وجد غاندي الهند في حالة اقتصادية سيئة جدًا ، والفقر المدقع منتشر والضرائب التي فرضها الإنجليز على الشعب عالية أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان الإنجليز يحاربون الصناعة الوطنية كي يتمكنوا من ترويج صناعاتهم، رغم أن الهند وقفت في صف الإنجليز أثناء الحرب وحاربت معهم على أمل الحصول على الاستقلال بعد نهاية الحرب العالمية الأولي (كما حدث مع مصر) لكن الإنجليز نكثوا بوعودهم بعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء، بل زادوا أيضاً من تنكيلهم

بالشعب الهندي الذي يطالب بالاستقلال ، وجرت عدة مذابح وكانت أكبرها مذبحة "أمري ستار" عام١٩١٩ التي راح ضحيتها ٤٠٠ فرد قتلوا عشوائيًا في مظاهرات سلمية وغير مسلحين، وهنا كان أول ظهور لغاندي باعتباره زعيماً شعبيًا ، وأمل الأمة في قيادته لها من أجل التحرير وأطلقوا عليه لقب "المهاتما" أي الروح العظيم؛ لأنه كان خلال فترة الحرب العالمية يدفع الهنود للتوحد من أجل هدف واحد وهو تحرير وطنهم ويبث فيهم روح الوحدة ويهاجم الطائفية التي فرقتهم واهتم بشكل خاص بمشاكل العمال والفلاحين الذين هم ملح الأرض ووقود التقدم والاكتفاء الذاتي.

بدأ غاندي يضع في تخطيطه كيفية شل حركة الإنجليز من دون محاربتهم بالسلاح، حيث كان الشعب الهندي فقيراً ولا يمتلك السلاح، واكتشف أن سبب تفوق الإنجليز عليهم في إدارة البلاد هو اعتمادهم على تعاون الشعب من جميع طبقاته معهم، وأيضاً بسبب تسويق منتجاتهم في الأسواق الهندية، ونجح في الحصول على موافقة مسلمي الهند حيث كانوا غاضبين من إنجلترا لمحاولتها تفكيك الإمبراطورية التركية وإنهاء الخلافة الإسلامية.

اجتمعت في يد غاندي عدة عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية تمكنه من محاصرة الإنجليز سلميًا في الهند ، وبدأ على الفور تأسيس نقابات عمالية حتى يوحِّد آراء العمال وفي عام١٩٢٠ بدأ مشروع النسيج والحياكة اليدويان، أي أن كل عائلة تنسج ما تحتاجه من أقمشة على نول يدوي بالمنزل ولا تشتري المنسوجات الإنجليزية المستوردة (التي هي أساساً قطن زُرِعَ بالهند وتم تصنيعه في إنجلترا، عمل على الاهتمام بالفلاحين وخفض الضرائب عليهم فزاد إنتاج المحاصيل الزراعية والقطن وأعلن أنه سيقضي ٤ ساعات يوميًا في منزله لكي ينسج ملابسه بنفسه فأصبح قدوة للهنود وفعلوا مثله، وجاء أغنياء التجار من باعة الأقمشة بما كان لديهم من المنسوجات الواردة من الخارج فأشعلوا فيها النيران، حتى إن مدينة بومباى وحدها تم إشعال النيران في مائة وخمسين ألف ثوب مستورد، ونهضت روح الكبرياء والتحدي في الشعب الهندي العظيم بعد أن أصبحت المصانع في إنجلترا على وشك الإفلاس ؛ لعدم تصدير بضاعتها للهند، وكلما حاولت إنجلترا فرض ضرائب باهظة مع أي منتج مستورد، دعا غاندي إلى مقاطعته حتى إنه في عام١٩٣٠ عندما رفعت إنجلترا الضريبة المفروضة على الملح قرر غاندي أن يبدأ مسيرة

طولها ٣٢٢كيلو متر من منزله حتى شاطئ البحر سيراً على الأقدام لكي يستخرج الملح من البحر بنفسه مع المجموعة ، التي صاحبته وكانت تتكون من ٧٩ فرداً وكانوا يستريحون من المشي يوم الإثنين فقط وهب الشعب الهندي يحذو حذوه، وبدأوا في استخراج الملح بأنفسهم من البحر ، وتعجبوا كيف يسير رجل يبلغ الستين عاماً لمدة ٢٤يوما متواصلة، ولكن مسيرة الملح انتشرت في الهند وعرف العالم بها، وانزعجت إنجلترا وحاكمته ، وكان عقابه السجن لمدة عام وقد عمت الفوضى أنحاء الهند احتجاجاً على سجنه وذاق الإنجليز الأمرِّين، من جراء المصادمات والعصيان المدني والمقاطعة الاقتصادية ، حيث دعا غاندي لمقاطعة المنتجات الغذائية الإنجليزية، وبدأ بنفسه حيث كان يشرب اللبن من العنزة التي يربيها بمنزله وحذا الهنود حذوه.

تحالف حزب المؤتمر الهندي الذي يتزعمه غاندي مع جمعية إنقاذ الخلافة الإسلامية السابق ذكرها لكي يكسر شوكة الإنجليز على عدة جبهات، وفي عام١٩٣٢ هدد بالصيام حتى الموت من أجل منح المنبوذين حقوقهم الانتخابية، وكانت أفعاله وقراراته لها صدى كبير في جميع أرجاء البلاد، ثم بدأ برامج لزيادة الوعي وتعليم الكبار والرعاية الصحية ؛لأن الشعب الهندي شعب مسالم بطبيعته ، ولا يستطيع غاندي أن يدعوهم إلى الثورة حيث إن تاريخهم ليس به ثورات كبرى، فكان أن اتجه إلى إيقاظ فكرة "الكرامة الوطنية والعزة" عن طريق التعليم وزيادة الوعي .

وعادت الهند ودخلت مرة ثانية في الحرب العالمية الثانية لصالح الإنجليز على أمل أن تحصل على استقلالها بعد الحرب، رغم العديد من المشاكل التي واجهتها إنجلترا في الهند من مقاطعة اقتصادية حتى لأمواس الحلاقة؛ حيث قرر غاندي أنه لن يحلق ذقنة إلا عندما تستطيع الهند إنتاج أمواس الحلاقة.. وقد كان، وانضم إلى غاندي عدد من الشباب الهندي من الجيل التالي المتعلم من أبرزهم جواهر لال نهرو ومحمد على جناح ، وكلاهما تلقي تعليمه في أرقى الجامعات الإنجليزية، ونالهم من حُب الإنجليز جانب أيضاً ، حيث سُجنوا وتم الإفراج عنهم عام ١٩٤٤ .

ووجدت إنجلترا نفسها بعد الحرب العالمية الثانية أمام شعب جديد متعلم ومثقف وأمامه شخصية قدوة ومُلهِمة وهو المهاتما غاندي ورفاقه الذين لا يهابون السجن أو

الموت من أجل بلادهم، فبدأت معهم مفاوضات الاستقلال الذي تمت في ١٦ أغسطس عام١٩٤٧ بعد أن اتفق على فصل الجزء ذي الأغلبية المسلمة في دولة جديدة اسمها باكستان بناءً على طلب الزعيم محمد على جناح ، ووافق غاندي على ذلك حقناً لدماء الشعب الهندي قبل انسحاب الإنجليز، وسنجد أن موافقة غاندي على ذلك التقسيم كلفته حياته، حيث اغتيل على يد أحد المتطرفين الهندوس من أبناء طائفته في ٣٠يناير عام ١٩٤٨ يدعى ناثوران جودس وكان معادياً للمسلمين، وقد اعتبر غاندي أحد المسؤولين عن تقسيم الهند وإنشاء دولة باكستان الخاصة بالمسلمين ، وكان غاندي متوكأ على كتفي حفيديه في طريقه للصلاة بالمعبد ، وأطلق ناثوران عليه الرصاص فأرداه قتيلاً ، وأعلنت الهند الحداد عليه ١٢ يوماً.

وهكذا انتهت قصة الرجل الذي تحدى ثلاثة مستحيلات في حياته، الفتنه الطائفية، الحصول على حقوق الهنود في جنوب أفريقيا ، ثم تحدي استقلال الهند عن الإمبراطورية البريطانية من دون أن يمسك سلاحا، وقضى حياته دارساً للحقوق ومدافعاً عن الحقوق قائلاً: "المصدر الحقيقي للحقوق كلِّها هو الواجب.. إذا قام كلٌّ منا بواجبه فإن الحقوق سوف تأتي من تلقاء نفسها.. العمل هو الواجب.. والحق هو ثمرة هذا الواجب" .

30



محمد أنور السادات

"أستاذ الواقعية العسكرية والسياسية في التاريخ المصري"

تقييم الأعمال السياسية لقادة الدول يتم بالنتائج وليس بالنوايا، إذا اختلف الناس كثيراً على شخصية رجل مَّا وانقسموا إلى رأيين كليهما به جزء من الصواب، إذن ذلك الرجل شخصية عظيمة تحمل كثيرا من الإنجازات التي لا يمكن أن ننكرها ، سواء الذين يمدحونه أو الذين لا يمدحونه .

ذلك هو المرحوم الرئيس محمد أنور السادات، أستاذ الواقعية في السياسة المصرية ومن فخر ما أنجبت مصر في القرن العشرين من عبقرية وذكاء وشجاعة وصبر ومناورة ودقة التصويب على الهدف بغتة في الوقت والمكان المناسبين .

حتى إن مدير المخابرات الأمريكية السابق "وليم كولي" قال عنه: السادات كانت تصرفاته يصعب التنبؤ بها، وردود أفعاله لا يمكن حساباتها مقدماً" .

وقال عنه صحفي أجنبي آخر "يزداد الشك في السادات مع كثرة التعامل لأنك ستكتشف أنه مخادع بارع وباهر، يجعل طرفا يظن أنه يملكه ويسيطر عليه.. وهذا غير صحيح لأنه في النهاية مثل الزئبق لا يمكن الإمساك به" .

وكانوا يصفونه بأنه مثل الطريق الواحد الناعم ذي الاتجاهين ، خطورته مزدوجة، حتى إنه يقال إن الرئيس رونالد ريجان في أوائل الثمانينيات أراد أن يتخلص من مراوغاته وذكائه ؛ حتى يستطيع أن يبدأ عهداً جديداً في مرحلة سلام الشرق الأوسط، فعرض على السادات أن يتقاعد عن العمل السياسي ويشترى مزرعة في فلوريدا ويعيش فيها، في محاولة لتجريده من قوته بعد أن فشلت عملية تشويه سمعته في الولايات المتحدة

الأمريكية التي استمرت لعدة أشهر.

وكما قال الكاتب المرحوم الدكتور/ مصطفي محمود عنه: "كان السادات يغمض عينيه فيرى المستقبل، ونحن نفتح عيوننا ولا نرى إلا الماضي".

السادات الذي كان يرى أن الرغبة والقدرة والصبر ثم المباغتة في الوقت المناسب، هي سبيل تحقيق المستحيل.

ذلك هو السادات الذي برع في السياسة وعانى من السياسة وقُتل من جراء السياسة، وأوصى أبناءه بعدم العمل في السياسة، كما ذكرت السيدة حرمه جيهان السادات حيث لم يكن يرضى لهم أن يعيشوا وناس رايحه جايه تهاجمهم من دون أية خلفية سياسية أو نقد بناء كما يحدث في الدول النامية وتحدثت عنه السيدة جيهان السادات للإعلامي الكبير الأستاذ طارق حبيب وقالت: كان له خبرة كبيرة في الحياة، وصبور جدًّا جدًّا ولا يتعجل الأمور وكان يتميز بالصمت والتفكير الجيد العميق، وكان يفاجأ الجميع بعصارة **الصمت العميق والذكاء وبُعد النظر**، وكان شخصيته قوية ولا يمكن أن تسيطر عليه زوجته أو غيرها؛ لأنه كان يعرف أهدافه بدقة ويسير في طريق تحقيقها بإصرار وجدية وشجاعة، وتجربته في الحياة صاحبتها الحكمة في أن لا يضع قدمه في مكان وقدمه يمكن أن تغرز في هذا المكان (نفس منطق عنترة ابن شداد عندما سألوه لماذا لم تنهزم في معركة دخلتها) وقالت أيضاً: لم ينزلق إلى هوة التصاريح الإعلامية الصاخبة في الردود على الإعلاميين والصحفيين وجموع الجماهير، والتي يسعي إليها الرؤساء في بداية توليهم السلطة.

ويعرف أيضاً أن مشكلة فلسطين هي صراع أجيال لن يُحَلَّ بين عشية وضحاها أو خلال سنة، وكان يعرف كل ما يقال عنه ولا يرد؛ لأن الردود في بعض الأحيان تؤدي إلى التراشق بالكلمات بين المؤيدين والمعارضين، وتنتهي الأمور بالكلمات وليس بالأعمال (مثل ما فعل محمد على باشا عندما هزم الإنجليز أولاً عام١٨٠٧ ثم أنهى سطوة المماليك ثم بدأ بناء مصر الحديثة من دون كلمات أو تصريحات أو معارضة)، وكما ذكرت سابقاً أن تقييم الزعماء يتم بمجمل أعمالهم أثناء فترة القيادة ثم بالنتيجة النهائية التي تركوها لشعوبهم بعد تلك الأعمال، فقد استعاد أنور السادات الأرض وكما كان يقول للصحفي أحمد الطويلة ومرافقيه في إحدي رحلاته خارج الوطن "الأرض عرض يا أولاد".

ولد أنور السادات في ٢٥ديسمبر عام١٩١٨ في قرية ميت أبو الكوم بمركز تلا بمحافظة

المنوفية بمصر، كان والده أول من حصل على الابتدائية في قرية ميت أبو الكوم، وكانت هذه الشهادة ذات قيمة كبيرة في ذلك العصر ، لأن من يحملها كان يحمل لقب "الأفندي" واهتم والده بتعليمه في كتاب القرية ثم المدرسة، وتعلم القرآن ثم أدخله مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وعندما انتقل والده للعمل بالقاهرة أكمل أنور السادات تعليمه الابتدائي في مدرسة السلطان حسين ثم التحق بمدرسة فؤاد الأول الثانوية ، حيث حصل منها على شهادة الثانوية العامة (البكالوريا في ذلك الحين)، كان والد أنور السادات يثق فيه كثيراً ودائماً ما كان يوصيه بإخوته وأخواته ، فيطمئنه بأنه سيكون أباً لهم دائماً، والد السادات وأولاده كانوا يعيشون في القاهرة تحت خط الفقر ، حيث شكلوا أسرة كبيرة تتكون من ١٣ فرداً، كان أنور السادات سعيداً رغم مصروفه القليل الذي يبلغ مليمين (الجنيه ألف مليم) ، حيث يشرب بهما كوبا من الشاي فقط، ولكن يشعر بعدها بالرضا والسعادة، وكان منذ شبابه يهتم جدًّا بملابسه والأزياء الشيك والراقية.

حصل أنور السادات على الشهادة الثانوية عام ١٩٣٦ وهو نفس العام الذي وقَّع فيه الزعيم مصطفى النحاس معاهدة عام١٩٣٦ مع الإنجليز والتي كانت مفروضاً أن تمهد الطريق لحصول مصر على استقلالها عن بريطانيا، وجرى التوسع في قبول الطلاب بالكلية الحربية تمهيداً لبناء جيش مصري مستقل مستقبلاً ، وهذا ما سهَّل دخول أنور السادات وجمال عبد الناصر الكلية الحربية، حيث كانت شروط القبول صعبة قبل ذلك، تخرج أنور السادات في الكلية الحربية، وأصبح ضابطاً بالجيش المصري، وعمل أولاً في محافظة الإسكندرية بمنطقة المكس ثم نُقل إلى منقباد ثم المعادي ثم الصحراء الغربية ومرسى مطروح .

في يونيو عام ١٩٤١ عُين في كتيبة إشارة بسلاح الحدود حتى يوم ٧أكتوبر١٩٤٢ حيث تم إبعاده عن الجيش حتى يوم١٥ يناير ١٩٥٠ المفترض في ضابط الجيش قانونا ألا يزاول أي نشاط سياسي ، وألا ينضم لأي حزب وأن يحتفظ بأفكاره السياسية لنفسه وألا يحضر أية اجتماعات أو نشاطات ذات بعد مشبوه، إلا أن أنور السادات كان مفتوناً بشخصه وكان يرى أن قدراته أكبر من أن تختزل في زيه العسكري، ومعلوماته التاريخية وذكاءه يؤهله أن يكون له رأى في الأحداث التي تمر بها بلاده، ومن حقه أن يُعجب أو ينقد شخصية ما في مصر بحرية كاملة .

ومن هنا جاء التعارض بين زيه العسكري وطبيعة شخصيته القوية الفذه فأعجب وتأثر

بالمغفور له الإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، وتعرف عليه وأُعجب أيضاً وتأثر أكثر بالفريق عزيز المصري رئيس أركان الجيش المصري الذي كان يكن عداءً شديداً للإنجليز ، وحاول التحالف مع الألمان ضد الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية .

ونجح الإنجليز في استصدار أمر من الحكومة المصرية بإحالته إلى الاستيداع (المعاش) عام١٩٤١.

حاول الفريق عزيز المصري بعدها السفر للخارج لإبلاغ الألمان بنوايا الإنجليز ، وكان أنور السادات من المجموعة التي ساعدت عزيز المصري على الهروب ، وتم التحقيق مع أنور السادات ولم تثبت عليه التهمة وعاد للجيش مرة أخرى .

عاود أنور السادات التنسيق مع الألمان واتصل بهم سرًّا عام١٩٤٢ للاتفاق معهم ضد المحتلين الإنجليز وكشفت المخابرات البريطانية اتصالاته فجرت محاكمته ، وطرد من الجيش عام١٩٤٢ ، ثم تم اعتقاله بعدها تبعاً لقوانين الأحكام العرفية التي كانت مطبقة أثناء الحرب العالمية الثانية في مصر ، قضى أنور السادات فترة الاعتقال في عدة سجون مثل سجن الأجانب ومعتقل الزيتون وسجن المنيا، ثم نجح في الهروب من السجن واختفي عن الأنظار وعمل عتالاً على سيارة لنقل الطوب والأخشاب والأحجار من المراكب النيلية، والغريب أنه دخل عدة مرات معسكرات للجيش البريطاني بالإسماعيلية بصفته شيالا لدى المقاول المتعهد بإدخال الحاجيات للجيش!!

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية خرج أنور السادات من المعتقل عام ١٩٤٥ واشترك في جمعية سرية لمقاومة الإنجليز وعملائهم مع بعض أصدقائه، وقام أحد أفراد تلك الجمعية بإغتيال أمين عثمان ، وقبض على مرتكب الحادثة واتُّهم السادات فيها بالتدبير للاغتيال وقدم للمحاكمة، ولكنه نجح في الإفلات وحكم ببراءته، بعد كل تلك المغامرات السياسية والعسكرية والقضائية التي يمر بها السادات، استطاع أن يعود إلى الخدمة العسكرية بالجيش المصري بعد أن توسط أحد المقربين من الملك فاروق لإعادته للجيش؛ طمعاً في أن يستفيد من صبره وذكائه في تكوين تنظيم جديد بالجيش، يدين للملك بالولاء (الحرس الحديدي)، بعد أن عاد إلى الجيش عام١٩٥٠ ، ناور من أعادوه حيث كان مصريًّا وطنيًّا خالصاً، ولا يبغي إلا مصلحة الوطن فانضم إلى تنظيم الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر واشترك معهم في ثورة ٢٣ يوليو .

ولأنه عبقري في التعامل مع الإعلام والإعلاميين كلفوه بإذاعة بيان الثورة بالراديو، كل تلك الأحداث الجسام هي نصف عمره السياسي فقط أما النصف الآخر فكان الإبداع في القيادة، عندما تولى منصب نائب رئيس الجمهورية في عصر المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر ثم تولى الحكم بعد وفاته في سبتمبر ١٩٧٠ واستطاع بالذكاء والمناورة التخلص من معارضيه عام١٩٧١ فيما عُرف بثورة التصحيح في مايو ١٩٧١، لأنه كان ينوى أن يكمل الاستعدادات العسكرية وإعادة بناء الجيش المصري التي بدأها الرئيس جمال عبد الناصر، ويبني عليها ولم يكن يريد أن تلهيه صراعات الأصدقاء القادمة ولا تكالب الورثة على منجزات وتركة جمال عبد الناصر؛ لأن الحرب تحتاج شجاعة والبناء يحتاج شجاعة أيضاً، وهي شجاعة التخلص من المعوقات والخلافات بين الأصدقاء حتى لو كانت نياتهم سليمة.

خلال تحضيره لاستعادة الأرض المحتلة في سيناء، وحتى يتفرغ لبناء القوة العسكرية لمصر، اضطر للمخاطرة بتقليب التيارات الأيديولوحية المختلفة في مصر بعضها على بعض؛ حتى لا تتكتل ضده أثناء استعداده للمعركة القادمة، وسواء كان مخطئاً أو مصيباً في هذه الفكرة فقد نجح في تنفيذها حتى عبر بمصر أكبر إنجاز عسكري في تاريخها، وهو حرب أكتوبر عام١٩٧٣ التي بهرت العالم بالتكتيك العسكري لعبور قناة السويس ونقل ٨٠ألف مقاتل في ٢٤ ساعةونصف مليون خلال ٤٨ ساعة، وتحطيم خط بارليف بأسلوب لم يسمع عنه العلم العسكري سابقاً، وهو فتح ثغرات وممرات في خط بارليف بخراطيم ومضخات المياه، والتي كانت فكرة رائعة لأحد المهندسين العسكريين الشبان في ذلك الوقت اسمه باقي زكي سليمان ضابط مهندس قبطي مصري، ترقى حتى وصل إلى رتبه لواء، وتكتم أنور السادات على الفكرة التي استمع إليها الرئيس جمال عبد الناصر في حينها وقرر الأخذ بها ولكنه توفي.

وبدأت القيادة العليا في الجيش تتدرب عليها بعد استيراد مضخات عملاقة من أوروبا والتمويه على أنها مضخات بغرض الزراعة ورفع المياه من النيل ولم يخبر أنور السادات أي مسؤول عن توقيت المعركة إلا كبار القادة وتم الترتيب لها مع المرحوم الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله ملك السعودية، والمرحوم الرئيس حافظ الأسد رئيس سوريا، وبدأت الحرب بالضربة الجوية المباغتة التي بدأها الطيران المصري ظهر يوم ٦أكتوبر بقيادة اللواء طيار محمد حسني مبارك الذي كان قائداً للقوات الجوية التي قامت أولاً بضرب مطارات العدو في سيناء وحطمتها، ثم نجحت في عمل غطاء جوى فوق القوات المصرية التي تعبر القناة بالاشتراك مع قوات الدفاع الجوي التي تولت تأمين المواقع المصرية من الهجمات

المضادة للطائرات الإسرائيلية (وقد كان لي شرف الاشتراك في علاج بعض المصابين في حرب أكتوبر حيث كنت ضابط احتياط طبيباً حديثاً في القوات المسلحة دفعة ١٩٧٣)، وهكذا أنجز أنور السادات ثالث المستحيلات في حياته حيث إن الأول كان هروبه من السجن والعمل شيالاً عدة سنوات متخفياً والثاني عودته للخدمة في الجيش بعد طرده لمدة أحد عشر عاماً، إذا اعتبرنا أن التخلص من معارضيه عام ١٩٧١ دهاءً وتكتيكاً أكثر منه مستحيلاً.

المستحيل الرابع في حياة أنور السادات هو اتفاقية السلام التي عقدها بعد كامب ديفيد مع الرئيس جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ومناجم بيجين رئيس وزراء إسرائيل عام١٩٧٩، والتي بموجبها يتم اكتمال جلاء القوات الإسرائيلية عن أرض سيناء وكانت أمنيته أن يتفاوض على الأرض من موقع القوة بعد حرب ١٩٧٣، وفعلاً عملية الجلاء عن سيناء اكتملت في عهد الرئيس محمد حسني مبارك عام١٩٨٢ (رئيس مصر السابق) وتلك الاتفاقية بما لها وما عليها من آراء أعطت لمصر أرضها من دون حروب أخرى بعد أن تجرأ أنور السادات وسبح ضد التيار، وقام بزيارة مفاجئة للقدس مما وضع القيادة الإسرائيلية في حرج أمام العالم أجمع، وظهر أنور السادات بطلاً للسلام أمام العالم فلم تستطع إسرائيل أن تتراجع عن المضي في طريق المفاوضات الجادة للجلاء عن الأرض المحتلة في سيناء، حتى إن رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين أصيب بالاكتئاب بعد حصوله على جائزة نوبل للسلام مشاركة مع الرئيس أنور السادات، وانطبع لدية إحساس بأنه ربح نصف جائزة نوبل للسلام وخسر أرض سيناء المملوءة بالبترول والثروات، والتي كانت خط دفاع مهم وعميق للاستراتيجية الإسرائيلية، ولمن لا يعرف مدى المعاناة التي عاناها السادات أثناء محادثات كامب ديفيد وكيفية عقد اتفاقية السلام وانسحاب إسرائيل من سيناء إليكم المعلومات الآتية التي قرأتها في لندن في شهر مايو عام ١٩٩١ :

١. كان الرئيس السادات يفاجئ الوفد الإسرائيلي وبطريقة ذكية بمناقشاتهم بما يفكرون هم فيه؛ لكي يقطع عليهم طرق إفشال المحادثات وفي نفس الوقت يناور هو على طريقين: طريق إنجاح المحادثات والحصول على الأرض المحتلة كاملة، أو طريق إفشال المفاوضات حتى ينقلب الرأى العام على إسرائيل، وتنكشف المخططات الإسرائيلية أمام المجتمع الدولي.

٢. استطاع أن يجعل وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية، وكذلك مجتمعاتهم على الحياد أثناء المفاوضات حتى يكون له رصيد من التأييد العالمي في حالة ظهور أي عوامل توثر

في سير المفوضات لصالحه، ويفكر وكأنه في مباراة يحكمها الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ، وتدار بين المصريين والإسرائيليين واستطاع أن يكسب تأييد وتشجيع المتفرجين من المجتمع الدولي، ووسائل الإعلام وكان يخفي بعضا من تكتيكاته حتى على الوفد المصري المرافق له، ثم يفاجئهم بطرحها على مائدة المفاوضات .

٣. رفض المبدأ الذي كان رئيس الوزراء الإسرائيلي يدعيه بأن الأراضي التي تم الاستيلاء عليها في حرب دفاعية ، يمكن الاحتفاظ بها على عكس الأراضي التي يتم الاستيلاء عليها في الحرب الهجومية وانتهى التفكير في هذا الأمر.

٤. تحمل السادات شائعة أن الوفد المصري على وشك الانسحاب من جلسات التوقيع واستغل تلك الشائعات بالإيحاء إلى الوفدين الأمريكي والإسرائيلي ، بأن أفكاره تحمل مزيدا من المرونة على عكس بعض آراء المرافقين له من وفده وبناءً على ذلك اضطراره لطلب المزيد من المكتسبات في اتفاقية السلام.

٥. رفض الرئيس أنور السادات مبدأ تبادل وثائق الموافقة على اتفاقية السلام في مقر الحكومة الإسرائلية بمدينة القدس، موافقاً في ذلك توصية ونصيحة الأستاذ الدكتور بطرس غالي وزير الدولة لشؤون الخارجية في ذلك الوقت ، والدكتور مصطفي خليل حتى لا تستغل إسرائيل هذا الموقف وتعتبره اعترافاً مصريًّا بالقدس عاصمة لها.

٦. وافق مجلس الشعب المصري بإجماع ٣٢٩عضواً ورفض ١٥عضواً وامتناع عضو عن التصويت على اتفاقية السلام في اجتماع مهيب أنشدت فيه الفنانة فايدة كامل كلمات بلادي بلادي وتحمس الأعضاء ورددوها وراءها ومن هنا قرر الرئيس أنور السادات اعتماد نشيد بلادي بلادي سلاماً وطنيا جديداً لمصر.

٧. كان أنور السادات ذكيًّا ويفهم جيداً مراوغات ومبررات تأجيل الانسحاب الإسرائيلي من سيناء ، وحدث أن طلب موشي ديان من الدكتور بطرس غالي وبشكل ودي أن يتم تأجيل انسحاب الإسرائيليين من العريش بحجة إعطاء الفرصة للمزارعين الإسرائيليين ليتمكنوا من جني محاصيلهم فقال الدكتور للرئيس السادات "إن توقيع الاتفاقيات يمثل جزءا من أهميتها ولكن تطبيق الاتفاقيات هو الأهم" واستمع الرئيس السادات لرأيه واقتنع به، وتم رفض هذا الطلب ويرجع ذلك أيضاً لحصافة ودبلوماسية الدكتور بطرس غالي، والذي وقف أيضاً بجانب الرئيس حسني مبارك فيما بعد عندما تولى رئاسة الجمهورية

عام١٩٨١ وكان أول ما اهتم به الرئيس مبارك هو إتمام الانسحاب الإسرائيلي من كامل أراضي سيناء في شهر أبريل عام ١٩٨٢ والتاريخ لا يخطئ.

ثم تولى الرئيس حسني مبارك (رئيس مصر السابق) قيادة فريق العمل الدبلوماسي ويعاونه الأستاذ الدكتور مفيد شهاب الفقية القانوني والأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق أستاذ التاريخ المتميز، تحرير أرض طابا واسترجاع كامل سيناء عن طريق التحكيم الدولي بمحكمة العدل الدولية في لاهاي، وهذا هو سبب إيماني بعبقرية الرئيس محمد أنور السادات.

وهكذا كانت مناورات السادات وذكاؤه ومقدرته على إقناع الرأي العام العالمي بصواب مواقفه، جعلت أغلب زعماء العالم يعتبرونه ظاهرة فريدة في الشرق الأوسط ، وكذلك كان رأى العالم الغربي الذي لم يكن يستطيع أن يكبح جماح إسرائيل في ذلك الوقت لإجبارها على الجلاء عن الأراضي المحتلة (كما هو حادث الآن)، مع أن السادات استطاع ذلك بالمحادثات والمناورات ولأنني تركت مصر في عهد الرئيس الراحل أنور السادات وذهبت إلى إنجلترا ثم السعودية ثم إلى أمريكا في الثمانينيات، فقد سمعت بأذني ورأيت بعيني مدى التقدير والاحترام الذي كان يحظى به الرئيس أنور السادات لدى جموع الشعب الأمريكي بكل طوائفه وشعوب العالم أجمع حتى بعد وفاته عام١٩٨١ عندما اغتيل في حادث المنصة وتوفي إلى رحمة الله يوم ٦أكتوبر١٩٨١ وهو نفس اليوم الذي كتب فيه اسم مصر بحروف من ذهب في معركة العبور التي تدرس حالياً بالكليات العسكرية العالمية كثاني أعظم إنزال وعبور بحري في تاريخ الحروب بعد معركة نورماندي في الحرب العالمية الثانية.

وقد كنت أعيش خارج مصر في ذلك الوقت ، ورأيت رد الفعل العالمي إعلاميًّا على حادث الاغتيال ، وكيف أن جنازته حضرها أغلب زعماء العالم ومنهم أربعة رؤساء أمريكيين سابقين ، وذلك لأول مرة في التاريخ.

وانتهت رحلة الرجل العظيم الرئيس محمد أنور السادات الذي مهما اختلفنا في الآراء عنه وعن سيرته، سنعترف جميعاً أنه بطل الحرب والسلام وأعطى مصر كل ما يستطيع أن يعطيه ، وبدأ في إنشاء المدن الجديدة والمشاريع الكبرى في مصر وكان مواطناً مخلصاً لبلده حتى آخر قطرة من دمه الذي سال يوم استشهاده في ٦ أكتوبر عام١٩٨١ .

وأعود ثانية لكلمات المقدمة التي أذكركم بها وهي: "أن تقييم أعمال القادة والسياسيين تاريخياً يتم بالنتائج أو الأعمال التي تركها لشعبه وليس بالنوايا" والتاريخ لا يخطئ.

قالوا عن أنور السادات :

* ذكر الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس وزراء مصر أثناء التحضير لحرب أكتوبر وأثناءها ، كيف كان السادات حريصاً على الوضع الداخلي في مصر من احتياجات تموينية خلال فترة الحرب ، والانتظام في سداد أقساط القروض للبنك الدولي حتى لا يظهر أي مؤشر عالمي لاتجاه مصر إلى تكثيف جهودها الاقتصادية للعمل الحربي ، وتشغيل القطاع العام بأقصى قدراته ؛ حتى لا يظهر نقص في السلع وبناء حائط الصواريخ في ٤٠ يوماً مع فتح باب التقدم لأداء مناسك العمرة للعسكريين في الجيش المصري وتقدم الطلبات لإدارة شؤون الضباط بالقوات المسلحة ؛وذلك نوع من التمويه التكتيكي وإجراء عدة مناورات تدريبية متتالية قبل الحرب ، تتجمع فيها القوات المسلحة على الجبهة وتنتهي إلى لا شيء ، وتثبيت أوضاع المهجرين في أماكنهم في مصر ، وكأنهم لن يعودوا إلى مدن السويس والإسماعيلية وبورسعيد.

- جيمي كارتر (الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية): إنني لم أقابل أي رئيس أو مسؤول أمريكي، إلا وحدثني بصدق عن إعجابه الشديد بذكاء الرئيس السادات وتطلعاته وشجاعته ، وإنني شخصيًّا سأتعلم الكثير من الرئيس السادات ، وأتطلع مخلصا إلى أقامة صداقة شخصية وحميمية مع الرئيس السادات.
- سوهارتو (الرئيس الإندونيسي): إن وفاة الرئيس السادات خسارة فادحة ليس للشعب المصري فحسب بل للعالم بأسره.
- موبوتو سيسيكو (الرئيس الزائيري): إن اغتيال السادات أثَّر في نفوس الزعماء الأفارقة ، وكل الشعوب المحبة للسلام ، وأن الرئيس السادات لم يدخر وسعا طوال حياته في سبيل أن يضفي على المنطقة العربية والأفريقية السلام الشامل.
- نيكسون (الرئيس الأمريكي الأسبق): لقد تصدع صرح عظيم من صروح السلام ، إن السادات تجسيد للشرف والأمانة.
- جيرالد فورد (رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سابقاً): إن السادات من أعظم الزعماء الحقيقيين في العالم لا في الشرق الأوسط فقط.
- والتر شيل (الرئيس الألماني الأسبق): إن الشعب الألماني يعتبر الرئيس السادات رجل دولة يمارس سياسة تخدم السلام، كما أنه رجل لا يناضل فقط من أجل تحقيق الأهداف

- كما يفعل الزعماء السياسيون عادة، ولكنه يعلن صراحة مبدأ سياسته وهو المحافظة على السلام.

- هنري كسينجر(وزير الخارجية الأمريكي): إن السادات نموذج سياسي نادر لا يجود الزمن بمثله إلا قليلاً، لقد أدركت بعد مضى عشر دقائق فقط من مقابلتي للرئيس السادات أنني أمام رجل دولة بحق ، إنه رجل لا يمكن الاستغناء عنه في الجهود الدبلوماسية الراهنة في الشرق الأوسط.
- صحيفة النيوزويك الأمريكية: إن السادات قد حمل مصير العالم على يديه عندما قاد الحرب ضد إسرائيل، كما أن المخاطر التي تحملها من أجل إقرار السلام، فقد فاقت المخاطر التي واجهها في الحروب فهو رجل ذو شخصية قوية وبصيرة نافذة وثقة بالنفس.
- صحيفة لوكونيديان دي بارى الفرنسية: لقد نجح السادات وهو مفاوض بارع في أن يجعل من فرنسا دولة تؤيد العالم العربي ، وتتخذ موقفاً مناهضاً لإسرائيل بينما كانت فرنسا قد استطاعت حتى الآن أن تقدم نفسها في صورة دولة متمسكة في آن واحد بوجود إسرائيل وبحقوق الفلسطينيين.



مؤلف الكتاب مع تمثاله الخاص بالرئيس أنور السادات
ولاحظ به حمامتي السلام على الجاكيت وغصن الزيتون في رابطة العنق

31



نيلسون مانديلا

"السجين الذي أطلق سراح دولة وهزم سجانيه"

هذا الرجل العظيم نيلسون مانديلا يُعتبر من أعظم من أنجبت أرض أفريقيا على مر التاريخ، حيث سلك الطريق الوعر لرئاسة دولة جنوب أفريقيا، بدأ من المقاومة مروراً بالاعتقال ثم المحاكمة ثم السجن ثم الانتخابات ونهاية برئاسة الدولة، كل تلك المستحيلات التي تحققت في حياته كان لها سبب أصيل في شخصيته ، منذ بداية سن الشباب حيث كان نيلسون مانديلا يعرف ما يريد وما لا يريد ، ولمن يستمع ولمن لا يستمع، ومتى يقول نعم ومتى يقول لا ، متحملاً مخاطر قراراته متحديا المستحيل في سبيل تحقيق أحلامه، بداية من رفضه الزواج من الفتاة التي اختارها له زعيم القبيلة (والده الروحي) وهرب من قريته إلى العاصمة جوهانسبرج، ونهاية برفضه لسياسة الفصل والتمييز العنصري بين السود والبيض في جنوب أفريقيا.

ولد روليها لهالا مانديلا(نيلسون) في يوم ١٨يوليو١٩١٨ في أحد الأكواخ الطينية بمنطقة ترانسكاى في جنوب أفريقيا، حيث كان لكل مولود اسمان اسم أفريقي ، وهو المذكور أولاً واسم أوروبي وكان نيلسون، وكانت جنوب أفريقيا في ذلك الحين مستعمرة إنجليزية بعد أن نجحت الإمبراطورية البريطانية في انتزاعها من مملكة هولندا التي انتزعتها هي الأخرى سابقاً من البرتغاليين ، الذين كانوا أول من اكتشفها ووصل إليها لأول مرة في القرن الخامس عشر، وكل تلك النزاعات على تلك الأرض كانت من

أجل الذهب والألماس والمعادن النفيسة حيث تنتج جنوب أفريقيا حوالي ٤٠٪ من جملة الإنتاج العالمي منها ، فالمستعمرون مثل القطة العمياء التي تجن إن لم تصل إلى السمكة التي تشم رائحتها.

عندما بلغ مانديلا سن السابعة ألحقه والده بإحدى مدراس القرية التابعة لإحدى البعثات الكنسية، وبعد عامين من دخوله المدرسة توفي أبوه فأخذته، أمه إلى أحد أقارب الأب ويدعى جونج جينتابا وقد كان نائباً لملك شعب الثيميو وزعيم القبيلة، وتربي مانديلا في رعايته وتعلم منه الأسس والمبادئ التي سار عليها طوال عمره في مسيرته من أجل استقلال جنوب أفريقيا ، من الغريب أن مانديلا أول ما تعلم المعارضة، تعلمها في قريته ، حيث رفض الزواج من الفتاه التي اختارها له زعيم القبيلة، حيث كان رافضاً أن يملي عليه أي شخص ما لا يرضاه ، حتى ولو كان هو الرجل الذي تربي في أحضانه، ويعتبر مُعلمه الأول فهرب من القرية إلى مدينة جوهانسبرج العاصمة حيث عمل في إحدى الشركات اليهودية التي تعمل في المجالات القانونية واستطاع أن يواصل تعليمه الجامعي بالمراسلة.

لم يكن الحصول على الشهادة الجامعية هو نهاية طموحات نيلسون مانديلا، بل كان يتذكر دائماً خطبة مثيرة استمع إليها وهو في السادسة عشرة من عمره ، عندما كانوا يجمعون ذكور القبيلة لعمل حفل ختان جماعي للأولاد ويحتفلون ببلوغهم سن الرجولة ، وفقاً لطقوس وعادات القبائل الأفريقية وأثرت تلك الخطبة من زعيم القبيلة في الشاب نيلسون مانديلا حيث قال الزعيم وهو ينظر إلي صفوفهم:-

ها أنتم هؤلاء تجلسون يا أولادنا الشباب الأصحاء زهرة أمتنا وفخرها ورجالها ورجاؤها.. ورغم الآمال الكبيرة التي تشعرون بها وأنتم على أعتاب الرجولة فإنها آمال خاوية وهمية ولن تتحقق أبداً.. حيث إن شعبنا وجميع الشعوب السوداء في جنوب أفريقيا شعوب مهزومة. إننا عبيد في أرضنا وأوطاننا، ومستأجرون في أملاكنا، وليست لدينا السلطة أو القوة ولا نسيطر على أقدارنا في الأرض التي أنجبتنا.. إن أجسادنا وأرواحنا تضيع في المناجم والحقول؛ كي ينعم الرجل الأبيض بالرخاء والصحة.. ولذلك سوف

تتلاشى آمالكم وطموحاتكم حيث إننا لا نستطيع منحكم أفضل الهبات وهي الحرية والاستقلال.

ما مضي كانت قصة نشأته وإلهامه وحلمه بتحرير السود في بلاده ، والآن نأتي إلى قصة كفاحه ضد التمييز العنصري في جنوب أفريقيا بعد أن أصبح محامياً وقانونيًّا انضم نيلسون مانديلا إلى حزب المؤتمر الأفريقي بعد تخرجه في الجامعة عام١٩٤٢ ، في أغسطس عام١٩٤٣ اشترك مانديلا لأول مرة في حياته في مسيرة ضمت اثني عشر ألف أفريقيًّا نُظمت احتجاجاً على زيادة سعر تذكرة ركوب السيارات العامة المخصصة للأفريقيين في جنوب أفريقيا، وحدثت استجابة لتلك المظاهرة، بعد أن قاطعوا ركوب السيارات وتم إعادة الأسعار إلى ما كانت عليه (مخفضة)، أحس مانديلا بالنشوة والانتصار لأول مرة في حياته، ومن هنا تعلم الاحتجاج الإيجابي، وكانت لديه أيضاً معرفة بطرق الاحتجاج السلمي والسلبي من أصدقائه الهنود الذين كانوا يدرسون معه في الجامعة بجوهانسبرج، حيث إن تلك الجامعة كانت تسمح للسود والهنود والبيض بالدراسة فيها (جامعة غير عنصرية).

ازاد ارتباط مانديلا بحزب المؤتمر الأفريقي الذي يعبر عن متطلبات وحقوق الأفارقة في الدولة العنصرية ، وأصبح أحد أهم أربعة أقطاب بالحزب، وكونه محامياً ماهراً، تولى الدفاع في قضايا السود ضد البيض في المحاكم، وفي ديسمبر١٩٥٦ تم القبض على مانديلا ورفاقه، وكانت التهمة الموجهة إليهم هي التآمر لقلب نظام الحكم وتهديد السلم الاجتماعي، لم تثبت عليه التهمة واضطرت سلطات جنوب أفريقيا للإفراج عنه، بعدها تزوج من رفيقة كفاحه ويني مانديلا بعد أن وجد فيها نعم المعين بعد الله لتحقيق طموحاته ، حيث كانت من أشد المدافعين عن حقوق السود في البلد استمرت مناوشاته وخطبه الجريئة ومطالباته اللانهائية للسلطات العنصرية بإعطاء السود حقوقهم ، وأعلن استعداده للموت من أجل حقوق السود، وبدأ العمل السري من عام١٩٦٠ .

ورأت السلطات العنصرية أن مانديلا أصبح شوكة في حلق الحكومة ، فتم القبض عليه بعد مطاردات شرسة له ولرفقائه لمدة ٤سنوات، وحوكم عام١٩٦٤وقضت

المحكمة بإعدامه ولكن ذلك الحكم جعله بطلا قوميا في جنوب أفريقيا والعالم الثالث بأسره فاضطرت السلطات أن تخفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ورُحِّل إلى السجن وبدأ العمل في تكسير الصخور لمدة ١٨ سنة، ولم يُغيِّر مبادئه في الكفاح من أجل حقوق السود وحاولت السلطات إغراءه ولم يلن ، وذاعت شهرته في كل أفريقيا وشعوب العالم الثالث ، حتى إن يوم ميلاده في ١٨ يوليو كان يتم الاحتفال به في كل أفريقيا واضطرت السلطات إلى نقله لسجن آخر في جزيرة روبن في مدينة كيب تاون .

في تلك الأثناء تم مقاطعة دولة جنوب أفريقيا لانتهاجها سياسية التميز العنصري ، وتم طردها من المحافل الدولية السياسية والرياضية والاجتماعية، وعلت أسهم نيلسون مانديلا محليًّا وعالميًّا، ومن حُسن الحظ أن رئيس جنوب أفريقيا الذي تولى السلطة عام١٩٩٠ الرئيس دي كليرك وعد بإعطاء السود حق التصويت في الانتخابات ودخول البرلمان والوزارة، وفي مبادرة اضطرارية سلمية عالمية تم الإفراج عن نيلسون مانديلا عام١٩٩٠ بعد أن قضى ثمانية وعشرين عاماً خلف القضبان سجينا ومناضلا لا يعرف المستحيل، ولم يخرج من السجن وفي ذهنه المقولة المشهورة للمظلومين بعد الإفراج عنهم "سأعود لأنتقم" ولكن كانت أخلاقه الطيبة وابتسامته الراقية اللتان لم يفقدهما طوال الثمانية والعشرين عاماً، هما الزاد الذي بدأ بهما حياته الجديدة حيث لا ثأر ولا انتقام ولا كراهية وقال: حان وقت العمل والبناء لمستقبل السود ورشح نفسه في الانتخابات، وتوحدت أحزاب السود في جنوب أفريقيا ونسيت خلافاتها وتم إجراء الانتخابات في ٢٧إبريل١٩٩٤ وفاز بها منديلا فوزاً ساحقاً وأصبح أول رئيس أسود لجنوب أفريقيا ، وشكل البلاد في ثوبها الجديد (أسود ×أبيض) وسار بها إلى بر الأمان، وكان الجميع يسألونه كيف نسيت الذل والمهانة والعذاب والسجن ثمانية وعشرين عاماً ومازلت تحتفظ بابتسامتك الطفولية الرزينة ووجهك المتفائل ؟ فكان يرد على الصحافة بقوله: إن هناك كثيرين غيري لديهم من الأسباب ما يجعلهم يعانون من الأسى أكثر مني، حيث إنهم سجنوا وشردوا ولكن لم يروا ثمرة تحقيق مطالبهم لشعوبهم، ولكنني عانيت مثلهم ورأيت ثمرة كفاحي ونضالي ومن هنا أشعر أن عمري لم يضع هباءً وسنواتي في السجن

كانت ثمناً رخيصاً لما ينعم به أولاد بلدي من السود، ولهذا أنا سعيد بحياتي ، وما أنجزته فيها ولذا تجدونني دائم الإبتسامة.

وقد صدرت سيرة ذاتية عن حياته عام ١٩٩٥ في كتاب (حورات مع نفسي).

اعتزل نيلسون مانديلا (معبود الجماهير السوداء) الحياة السياسية عام١٩٩٩ واقتصرت أنشطته بعدها على الأعمال الاجتماعية ، وكان من المقرر أن يفتتح كأس العالم لكرة القدم عام ٢٠١٠ التي أقيمت في جنوب أفريقيا، لولا ظرف خاص ألَـمَّ به.

تلك هي شخصية السجين الذي حرر دولة وأنجز عملاً كان يعتبر مستحيلاً من وجهة نظر الآخرين.

32



الملك
عبد العزيز آل سعود

"صقر الجزيرة العربية الذي وحّد الفرقاء"

قليل من الرجال عبر التاريخ البشري هم الذين استطاعوا أن يُنشئوا مجتمعاً متجانساً في صورة دولة قوية وكبيرة المساحة، تنعم بالاستقرار وتجمع وتُقنع شرقها وغربها وشمالها وجنوبها بعد طول فرقة، أن يعيشوا في سلام وأمان تحت علم واحد لما يقرب من مائة عام. أحد هؤلاء الأبطال الذي تحدى المستحيل (وهو الوحدة بعد الفرقة) كان هو المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود الذي جاهد ستين عاماً مقاتلاً وحاكماً لكي تصبح السعودية من أهم عشرين دولة دينيًا واقتصاديًا وسياسيًا على مستوى العالم.

ولد الملك عبد العزيز آل سعود بمدينة الرياض في ٢ ديسمبر عام١٨٨٠ ميلادية وكان والده الأمير عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود آخر أمراء الدولة السعودية الثانية التي انتهت عام١٨٦٥، وكان طفلاً بارع الذكاء ذا بنية جسمية كبيرة متميزة، ونشأ مستوعباً لدروس التاريخ متفهماً للظروف التي أحاطت بأسرته ومرافقاً دائما لوالده وعمه، وكان دقيق الملاحظة سريع البديهة، فوعى تماماً ما كان يحيط بوالده وأسرته من أجواء مشحونة بالعداء والمطامع وتعلم الفروسية في سن مبكرة، وكذلك فنون القتال وكان يحمل في جيناته الشخصية صفات القيادة منذ سن البلوغ.

الدولة السعودية الأولى قامت منذ أكثر من مائتي عام على يد الأمير محمد بن سعود وقد استمرت تلك الدولة أكثر من سبعين عاماً، تولى الإمارة فيها أربعة من آل سعود، أولهم مؤسسها محمد بن سعود وعبد العزيز بن محمد وسعود بن عبد العزيز وعبد الله بن

سعود ، وعندما قابلت بعض الاضطرابات خلال القرن الثالث عشر الهجري، جاء الأمير فيصل بن تركي بن سعود وأحيا الدولة السعودية الثانية، ولكن لم تستمر تلك الدولة سوى سنوات قليلة بين عامي ١٨٤٣ حتى ١٨٦٥ عندما تنازع الأنجال على الحكم ، وحدثت اضطرابات ومؤمرات وتدخلت الدولة العثمانية لتدعيم ابن الرشيد أمير حائل؛ لكي تستولى من خلاله على بقية أرجاء الجزيرة العربية ، وهنا اضطر آخر أمراء الدولة السعودية الثانية الأمير عبد الرحمن بن فيصل بن تركي والد الملك عبد العزيز إلى الهجرة واللجوء إلى إمارة الكويت عام ١٨٩١ .

تسلسل الأحداث والمؤامرات التي حيكت على الدولة السعودية جعلت هذا الفتى ذا الأحد عشر عاماً ينظر للحياة نظرة جادة ومتعمقة ، وتعلم تحمل المسؤولية من الصغر وساعدته في ذلك شخصيته القوية الفريدة، فنشأ في سن المراهقة وليس لديه إلا هدف واحد ألا وهو استرداد أرض وملك أجداده ، وهذا حقه وفي نفس الوقت عزمه على ألا يظلم أحداً ، وأن يطبق مبادئ الشريعة الإسلامية في الجزيرة العربية، إذا استتب له الحكم، وتحالف في ذلك مع من بايعه من الوهابيين وآل بن جلوي وآل الثنيان.

عندما بلغ الملك عبد العزيز آل سعود العشرين من عمره، وتشكلت لديه سمات الرجولة والقيادة والفروسية اتخذ قراره الحاسم ببدء النضال؛ لاسترداد الرياض البلد الذي أُجبر على الخروج منها طفلاً هو وعائلته، وشكل فرقة من ثلاثة وأربعين رجلاً لبوا دعوته وبايعوا قيادته خرجوا معه عبر الصحراء من الكويت، وقاتلوا بإيمان وعزم وقوة حتى استعادوا نجد من ابن الرشيد وحرروا الرياض في نفس العام (عام١٣١٩هجرية).

ترك نجاحه في تحرير الرياض ونجد أثراً جيداً لدى بعض القبائل السعودية والسعوديين المهاجرين إلى الكويت، مما أعطاه العزم على أن يكمل مسيرته النضالية حتى تمكن وفي معارك بطولية مع أقرانه البواسل على مدى عشرين عاماً من تحرير القصيم عام(١٣٢٢) والأحساء(١٣٣١) ثم الطائف ، ودخول مكة ثم جدة في السنة التي تليها، وكان قبل ذلك قد سيطر على حائل وأخضع ابن الرشيد وقوض سلطته، وبذلك أصبحت أرض نجد والحجاز والمنطقة الشرقية وجدة والمنطقة الشمالية دولة واحدة بعد طول سنين من الفُرقة والقتال بين القبائل بعضها مع بعض ، وانتهت عمليات سطو القبائل في تلك المناطق على

بعضها ، وبدأ الناس يشعرون أن هناك دولة قوية قادمة سوف توفر لهم الأمان وقد كان.

في صباح يوم٣١ جمادى الأولى عام ١٣٥١ الموافق ٢٣ سبتمبر عام١٩٣٢ نودي بالملك عبد العزيز آل سعود ملكا على البلاد، بعد ذلك أعلن الملك تأسيس المملكة العربية السعودية وأصبح هذا اليوم هو اليوم الوطني للمملكة.

سعى الملك عبد العزيز بعد ذلك لتثبيت دعائم الاستقرار للشعب السعودي ، وكانت سياسته تميل إلى الحياد وعدم التدخل في شؤون البلدان المجاورة، وعقد عدة اتفاقيات عربية مع الدول المجاورة لترسيم الحدود واتفاقيات دولية للبحث عن البترول الذي اكتشف في المملكة قبل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٨ ، ولكن لم يتم استخراجه إلا عام ١٩٤٨ لظروف الحرب ، وبدأ يستغل موارد البترول في بناء المملكة العربية السعودية بأساليب القرن العشرين ، فبدأت الحكومة في إنشاء الطرق والمدارس وتوطين البدو وإنشاء مؤسسات الدولة ، والمحاكم الشرعية المتميزة وكانت الدولة السعودية أول من طبق مبادئ الشريعة الإسلامية في الحكم، وبذل الملك عبد العزيز جهوداً رائعة في تأمين طريق الحجاج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، ولزيارة مسجد رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة وعقد مؤتمراً لبحث شؤون الحج ، ودعا إليه الدول الإسلامية وتعهد فيه أن تقوم المملكة على رعايتهم على أكمل وجه ، مما شجع على زيادة أعداد الحجاج، ومنع اصطحاب الأسلحة مع المرافقين من قوات الأمن الذين يرافقون رعايا دولهم ، مما سبب بعض المواقف المحرجة مع الملك فؤاد ، ملك مصر عام ١٩٣٤ وتم حلها ، وأولى اهتماماً خاصًا بتوفير الأمن والأمان لقوافل الحجيج القادمين برًّا عام ١٩٣٤ مما وفر على مسؤولى الدولة الإسلامية إرسال قوات أمنية لمصاحبة الحجاج في الرحلة المقدسة ، وجعل الأرض المقدسة للمسلمين على الحياد أثناء الحرب العالمية الثانية، ورفض أن تكون السعودية من الدول التي تعلن الحرب على ألمانيا وتقابل مع الرئيس روزفلت على ظهر باخرة في قناة السويس بالإسماعيلية عام ١٩٤٥ ورفض طلب روزفلت بالموافقة على هجرة مائه ألف يهودي إلى فلسطين، ودعاه إلى عدم مد اليهود بالمال والسلاح.

أصدر أول ميزانية للمملكة عام١٩٥١-١٩٥٢ وتم إنشاء أول بنك بالمملكة بعدها، ثم تم إنشاء أول خط سكك حديدية بالمملكة في منطقة الخليج العربي.

على أن خوض المعارك وتوحيد البلاد لم يشغلا المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود عن تنظيم المملكة من الداخل ، وإرساء دعائم ما يلزمها من أنظمة وقوانين ، والدخول في علاقات صداقة وتعاون اقتصادي وسياسي مع الدول العربية والأجنبية، مع الحفاظ على استقلال المملكة وعدم الدخول في تحالفات سياسية مع أي قوى عالمية؛ لأن الملك عبدالعزيز خلال فترة حياته الحافلة وكفاحه لتوحيد الأراضي الشاسعة للمملكة العربية السعودية، وإرساء قواعد الاستقرار بها على مدى خمسين عاماً من عمره ، مر بظروف وأحداث عربية وعالمية خطيرة ومهمة جعلته متيقظاً من خطورة التحالفات، وتمثلت تلك الأحداث في الآتي: شهد نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ والثورة الروسية عام ١٩١٧ وموجات الانتداب الفرنسي البريطاني عام ١٩١٨ وسقوط الدولة العثمانية عام١٩٢٣ والأزمة الاقتصادية عام ١٩٢٩ والحرب العالمية الثانية عام١٩٣٩ حتى عام١٩٤٥ والقضية الفلسطينية وما آلت إليه الأمور فيها عام١٩٤٧ وعام١٩٤٨ ، والتي وقف فيها موقفاً لا تهاون فيه ولم تشبه شائبة ، ولم يتساهل أو يفاوض فيها، واستطاع أن يكون له موقف ثابت لم يتغير خلال الخمسين سنة سالفة الذكر، فاكتسب احترام الجميع ومحبتهم، سواء على المستوى العربي أو العالمي، وكان له أيضاً هيبة خاصة منحه الله إياها، حيث كان فارع الطول، مهيب الطلعة ، لطيف الطباع، كريم النفس ، تمثلت فيه الخِصال العربية الأصيلة من إكرام الضيف والوفاء للصديق، وإغاثة المستجير به ، وحماية الملتجئ إلى ساحته ، حيث رفض تسليم رشيد علي الكيلاني (الذي كاد يقوم بالثورة في العراق ضد الإنجليز) إلى إنجلترا أو الحلفاء تحت أي ظروف ورفض جميع الضغوط التي مورست عليه من الإنجليز والحلفاء والعراق، ليس تأييداً لموقف الكيلاني أو موافقة على حركته ، وإنما تبعاً لمبادئ الشهامة والأصالة العربية والبدوية من حماية من التجأ إليهم حتى ولو كان على غير هواهم، وهو نفس النهج الذي تنتهجه المملكة حتى الآن ، وقد انتهجته مصر من قبل في عهد المرحوم الرئيس جمال عبدالناصر .

هكذا بدأت المملكة تبدو وكأنها أرض ولدت من جديد. وقبل وفاته بشهور كانت قد اكتملت دعائم المؤسسات التي أنشأها ، وظهرت بعض ثمار التعليم الحديث بين أبناء المملكة فقرر الملك عبد العزيز آل سعود إنشاء مجلس للوزراء، يكون مسؤولاً مباشرة أمامه عن تسيير أمور الدولة الفتية، والإشراف على النهضة المتوقعة. ومن ثمار النهضة التعليمية

الأولى في المملكة ظهر الأدباء والمفكرون والشعراء السعوديون الأوائل الذين تعلموا في عهده مثل : الشيخ عبد العزيز التويجري ، والأستاذ غازي القصبي ، والأستاذ حمد الجاسر ، والشاعر محمد حسن فقي ، والشاعر حسن قريشي ، والدكتور سراج ملايكه ، وآل عشقي وآل العقيل ، والفنان طارق عبد الحكيم ، الدكتور غازي زين الدين عوض الله ، ومجموعة كبيرة من مثقفي الخمسينيات والستينيات والسبعينيات.

وتُوفي الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله في نوفمبر عام١٩٥٣ في مدينة الطائف ونقل جثمانه إلى مدينة الرياض حيث دفن بها، تاركاً ذكرى لمناضل مؤمن قوي تحدى كل ما قابله من مستحيلات مثل :البعد عن الوطن والحروب والمؤمرات حتى أنشأ دولة كبيرة وحديثة ومستقرة تنعم بالأمن والأمان إلى يومنا هذا. وإلى غد مشرق بعون الله تعالى .





السلطان عبد الحميد الثاني

"الرجل الذي فقد عرشه .. في سبيل مبادئه"

السلطان العظيم عبد الحميد الثاني رحمه الله يمكن لنا أن نعتبره مِسك ختام لسلسلة طويلة من الخلفاء العثمانيين، رغم أنه ظُلم كثيراً في التاريخ الحديث، حيث لا تعرف الأجيال الحديثة شيئاً عن سيرته الذاتية وبطولته وشجاعته التاريخية، لأن عناصر الظلم التي تعرض لها كانت من التاريخ والجغرافيا اللذين تحالفا عليه، وهاجماه من الداخل والخارج، وقد ظُلم السلطات عبد الحميد ثلاث مرات في حياته: الأولى من أبناء قومه الأتراك والثانية من بعض الشعوب الإسلاميّة التي كانت أراضيها تابعة للسلطة العثمانية أو ما كان يسمى بدولة الخلافة، والثالثة من بعض الدول الأوربية المجاورة لتركيا أو التي لها مصلحة ورغبة في تدمير دولة الخلافة الإسلامية للانقضاض على تركتها من الأراضي الواسعة في الشام ومصر والحجاز وشمال إفريقيا وبعض دول شرق أوروبا. واستغلت تلك الدول مشروع إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين واعتلت تلك الموجة والفكرة من أجل هدفها الخفي لاقتسام تركة مريض لم يتوفه الله (دولة الخلافة)، ولكن السلطان عبد الحميد كان ذكيًّا وقارئاً جيداً للتاريخ، وكان يعي حقيقة ما يدور حوله وما يحاك لدولة الخلافة الإسلامية وحاول بقدر استطاعته التصدي لتلك المؤامرات، وصار أشبه ما يكون بمن يصارع في ثلاث جبهات في وقت واحد، داخليًّا في الأراضي التركية وخارجيًّا في أراضي ممتلكاتها (تمرد، وصراع ديني في فلسطين وأرمينيا والبلقان واليونان والبوسنة والهرسك)، ثم أخيراً صراع عالمي مع الدول الأوربية التي كانت قد عقدت العزم على الموافقة على تهجير بعض من اليهود المقيمين

على أراضيها وتوطينهم في فلسطين ، بحيث يكونون الأغلبية العددية للمقيمين في هذه البقعة المقدسة للأديان الثلاثة الإسلام والمسيحية واليهودية ، خلافاً للتركيبة السكانية الموجودة على الأراضي في عصر الإمبراطورية العثمانية ، وهذه هي مشكلة فلسطين أو مشكلة الشرق الأوسط المستعصية حتى الآن والمعروفة "بأم المشاكل" ، حيث إنها تماثل قنبلة البارود الموضوعة أعلى برميل من البنزين وفي وسط حقل من الألغام وكل زعماء العالم وأمناء الأمم المتحدة يخافون من الاقتراب منها أو محاولة إيجاد حل لها خلال سنوات حكمهم أو توليهم مناصبهم ، ومن يتجرأ ولو بنية صادقة مثل الثلاثي التاريخي الجريء (كارتر – السادات – بيجين) ويحاول أن يضع قدمه فيها ، يفقد شيئاً لا يمكن تعويضه كما حدث بعد اتفاقية السلام عام ١٩٧٩ . وإليكم تفسير تاريخي لوجهة نظري والتاريخ لا يخطئ ، الرئيس كارتر الأمريكي المحترم العظيم سقط في انتخابات الرئاسة الأمريكية بعد اتفاقية السلام وأصبح (الرئيس الذي فقد عرشه ، وذلك أيضاً حدث مع المرحوم الرئيس أنور السادات الذي اغتيل عام ١٩٨١ بسبب توقيعه اتفاقية السلام وأصبح " الرئيس الذي فقد عمره " بسبب مواقفه السلمية . وأخيراً جاء الدور على مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل ، الذي لعب دوراً مؤثراً ومهمًّا في عقد أول اتفاقية سلام بين العرب واليهود في التاريخ الحديث ، ولم يكن يعرف أنه اقترب من حقل الألغام المليء ببراميل البنزين المرصعة بقنابل البارود . وهذا الرئيس الراحل مناحم بيجين كان أول من استطاع إقناع الشعب اليهودي بعقد مصالحة مع العرب ، وأقنع شعبه بجدوى اتفاقية السلام وحُسن الجوار مع جيرانهم العرب والفلسطينيين ، وبعد تسلمه نصف جائزة نوبل للسلام اكتشف أنه (الرئيس الذي فقد عقله) لأنه تخلى عن سيناء والبترول والأرض والحدود الآمنة وبعدها أصيب باكتئاب مرفق لازمه حتى نهاية عمره . ودفع الثمن غالياً من حياته السياسية والعائلية رغم أن نياته كانت صادقة إلى حد ما ، لحقن الدماء المسالة على مائة عام في منطقة الشرق الأوسط . ولك أن تتصور أن أول بطل حقيقي تصدى للمشكلة الفلسطينية هو السلطان عبد الحميد الثاني الذي فقد عرشه من أجل مبادئه ، وتصدى لمشكلة ورثها عن أسلافه من الخلفاء والسلاطين العثمانيين ، مشكلة لم يشارك في صنعها ولكن كان عليه محاولة حلها ، لأن فكرة إقامة دولة يهودية في فلسطين ظهرت في عصر نابليون بونابرت وأيدها قياصرة

روسيا ثم جوزيف ستالين فيما بعد ، ولكن السلطان عبد الحميد الثاني قرر أن يتحدى المستحيل ويقاتل الجميع من أجل عدم إتمام مشروع المحامي الشاب اليهودي " هرتزل " (الذي أراد أيضاً أن يتحدى المستحيل بإنشاء دولة قومية لليهود وهو ما لم يحدث على مدى التاريخ منذ خروجهم من مصر) ، لإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين ، إنه السلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض رفضاً مطلقا تلك المخططات على مدى أربعة وثلاثين عاما وهي فترة حكمه أو أن يتنازل عن رأيه ورفض أيضا أية امتيازات أو رشاوَى مالية عُرضت عليه من أجل تغيير موقفه . وقال قولته الشهيرة " لن يتم هذا المشروع إلا على جثتي " وهذا ما حدث فعلاً بعد وفاته .

الغريب أن جزءًا من تلك المشكلة ورثها السلطان عبد الحميد الثاني من داخل أراضي الدولة العثمانية ، ومن بعض الآراء التركية التي تبنت حركة " الماسونية " وهي كلمة تعني باللغة الإنجليزية والفرنسية " حركة الأحرار " ، ولم يكن للجاليات اليهودية المقيمة في البلاد العربية في أمان واطمئنان ، أي هوى أو رغبة في الهجرة إلى الأراضي الفلسطينية في ذلك الوقت ، حيث كانوا مقيمين بين إخوانهم وأولاد عمومتهم من العرب مسلمين ومسيحيين في سلام وهدوء وكان منهم الوزراء والسياسيون وأعضاء البرلمان والتجار والفنانون والصحفيون والأدباء في معظم بلدان العالم العربي ، لدرجة أن السيد "هرتزل" مؤسس فكرة إنشاء وطن قومي لليهود عندما وجد عدم الاستجابة من اليهود المقيمين في مصر لفكرته ، حضر إلى الإسكندرية عام ١٩٠٣ وعقد اجتماعاً مع الجالية اليهودية المصرية لحثهم على الموافقة على فكرته ، ولكنه لم ينجح في ذلك ، والدليل على ذلك أن الحكومة المصرية حتى عهد الملك فؤاد الأول كان بها وزير يهودي مصري وهو يوسف قطاي باشا ، الذي كان وزيراً للمالية ، أي أن السلطان عبد الحميد دفع ثمن معارضته لمشروع استيطان وتهجير الجالية اليهودية من روسيا القيصرية ودول أوربا الشرقية والغربية ، وذلك لنخوته الإسلامية الصادقة أولاً ، ولأنه لم تحدث عمليات اضطهاد واسعة لأي من الجاليات اليهودية المقيمة في أراضي الخلافة ، على عكس ما حدث لليهود في أوربا على ما أذكر ، ولكنها كانت مؤامرة استعمارية من قبل الدول الاستعمارية الأوربية للانقضاض على دولة الخلافة العثمانية ،

واقتناص ممتلكاتها ، وهو ما حدث فعليًا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وعقد اتفاقية عام ١٩١٨ اسمها " سايكس - بيكو " التي تم بمقتضاها فرض الانتداب على بعض دول الشرق الأوسط وتقسيمها بين إنجلترا وفرنسا ، وتكريس الاحتلال الأجنبي في تلك الدول بعد عزل السلطان عبد الحميد وهزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى وظهور وعد "بلفور" وزير خارجية المملكة البريطانية في عام ١٩١٧ ، وقد كان السلطان عبد الحميد رحمه الله يحاول قدر استطاعته الدفاع عن الحق ولكنه لم يكن يتصور أن دفاعه سيكون "الحق" الضائع من وجهة النظر الأوربية بكل تأكيد ، حيث بدأت المؤامرات تُحاك حوله من داخل ممتلكات السلطنة العثمانية ، وبدأت تظهر أصوات في كل من مصر وغيرها من البلدان العربية تطالب بالانفصال عن الدولة العثمانية . وفي نفس الوقت بدأت ثمار انتشار الفكر العربي في تركيا تنضج على أيادي أعضاء جمعية تركيا الفتاة ، التي كانت تستند إلى قطاع المثقفين الأتراك ، وقد كانت لهم اليد الطولى سابقاً في عزل السلطان عبد العزيز وقتله (وهو السلطان العثماني الوحيد الذي زار مصر في عهد الخديوي إسماعيل ورأى ما وصلت إليه مصر من تقدم وعمران في ذلك الوقت ، وعند زيارته لقصر عابدين ولمنطقة العتبة - الخضراء فيما بعد حيث كان اسمها العتبة الزرقاء - تم إطلاق اسمه على الشارع الموصل بينهما والمسمى الآن بشارع عبد العزيز على اسم السلطان) ، ثم تولت جمعية تركيا الفتاة تولية السلطان مراد الخامس ثم عزلته وتم تولية السلطان عبد الحميد أمور الخلافة بعد ذلك حتى سقوط الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى . وكل تلك الأحداث كانت تدار بواسطة رجل قوي في تركيا اسمه الصدر الأعظم "مدحت باشا" ابن أخي السلطان عبد العزيز ، وكانت أغراض المثقفين الأتراك ومدحت باشا أن يجعلا من السلطان عبد الحميد الثاني خليفة وسلطاناً صوريًا ورمزيًا بدون صلاحيات حقيقية للحكم ، وأرغماه على إصدار دستور للبلاد عام ١٨٧٦ بعد توليه الحكم مباشرة ، حيث تولى الحكم عام ١٨٧٦ وكان في الرابعة والثلاثين من عمره في الحكم حتى تم عزله عام ١٩٠٨ ، أي أنه قضى في السلطنة أكثر من ثلاثين عاماً ، وهي أطول مدة قضاها سلطان من سلاطين آل عثمان ، وتعرض خلال هذه الفترات إلى العديد من المؤامرات والضغوط من الوزراء من أجل تغيير دفة الحكم في السلطنة نحو الغرب والعلمانية وعانى كثيراً من الصدر الأعظم مدحت باشا

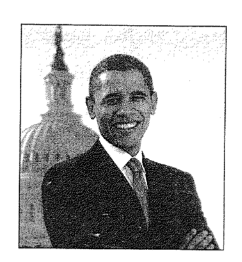
ومعاملته غير اللائقة له ، وذكر ذلك في مذكراته حيث قال " لقد وجدت مدحت باشا ينصب نفسه آمراً ووصيًّا عليَّ ، وكان في معاملته بعيداً عن الديموقراطية (المشروطية في هذا الوقت) وأقرب إلى الاستبداد " ، ولكن لسوء حظ السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله ، أنه عندما أمكن التخلص من مدحت باشا ونفوذه، كانت أفكاره ومبادؤه قد انتشرت في صفوف أبناء الجيش التركي وبعض أفراد الشعب واضطر الخليفة العثماني أن يلغي العمل بالدستور وجَمَعَ كل الصلاحيات والسلطات في يده ، وذلك في محاولة منه لإنقاذ دولة الخلافة الإسلامية من الانهيار ، وقد كان رحمه الله قارئاً جيداً للتاريخ ويعي تماماً أسباب تأييد المملكة البريطانية لدولة الخلافة العثمانية في حملتها لتحرير مصر من قبضة الاحتلال الفرنسي بعد حملة نابليون بونابرت ، لم يكن من أجل عيون السلطنة العثمانية أو مصر إنما من أجل إعادة السيطرة على طرق التجارة التي سيطر عليها الفرنسيون بين الإمبراطورية البريطانية ومستعمراتها في الهند وإفريقيا ، والدليل على ذلك هو محاولة إنجلترا عام ١٨٠٧ بقيادة قوات محمد علي باشا والي مصر في ذلك الوقت ، وعندما فطن الأوربيون إلى ذكائه ، بدأوا يضيقون عليه الخناق من عدة جهات ، وبدأوا يقلبون عليه الممالك التابعة له حتى يمكن إضعاف الإمبراطورية العثمانية ، ثم جرى استدراجها (بعد عزله عام ١٩٠٨ م) إلى الحرب العالمية الثانية عام ١٩١٤ وكانت كل من إنجلترا وفرنسا تؤلب الشعوب العربية ضده وتعزل الحكام العرب المؤيدين للأتراك (كما حدث مع الخديوي عباس حلمي الثاني حاكم مصر عام ١٩١٤ الذي تم عزله ونفيه خارج البلاد واستبدال السلطان حسين كامل به) وكذلك فعل الزعيم المصري مصطفى كامل والزعيم محمد فريد ، واستعانت القوات البريطانية الموجودة على أرض مصر ببعض من المصريين وجندتهم إجباريًّا ضد القوات التركية العثمانية التي كانت تدافع عن أرض الشام وفلسطين (ومن هنا جاءت أغنية سيد درويش الفنان السكندري عام ١٩١٦ يا عزيز عيني أنا نفسي أروح بلدي .. بلدي يا بلدي والسلطة أخذت ولدي) وكانت السلطة المقصودة هي الإنجليز وأخذوا أبناء الفلاحين المصريين إلى جبهة المعارك في الشام وطال غيابهم عن أهاليهم ، ولا تزال قبور الإخوة الأتراك الشهداء الذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى موجودة في مدينة القاهرة ، حيث لم تسمح السلطات البريطانية بإرسال جثثهم إلى ذويهم في تركيا ، فتم دفنهم في القاهرة

بمقبرة خاصة بضحايا الحرب العالمية الأولى من الأتراك الذين استشهدوا على مبادئ آخر السلاطين المحترمين في تاريخ الخلافة العثمانية السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي لم يذكر له التاريخ أي محاولات للاضطهاد الشخصي لليهود ، بل كان يحترمهم ويقدر الجالية اليهودية التركية والتي جاء معظمها من اليهود الذين تم طردهم من أوربا وإسبانيا في العصور الوسطى واستقبلتهم الدول العربية ودول شمال إفريقيا والسلطنة العثمانية بكل ترحاب ، ولكن السلطان عبد الحميد كان ضد إقامة كيان خاص محدد لديانة محددة على أرض السلطنة ، حيث كانت قوانين دولة الخلافة تسمح لأي مواطن يتبعها ، أن يقيم في أي أراضٍ تابعة للسلطنة ولم تظهر الجنسيات والتأشيرات والحدود بين الدول العربية إلا عام ١٩١٤ قرب سقوط دولة الخلافة ، وكانت أي منطقة عربية تَجِدْ بها الشامي والمغربي والمصري والسوداني والعراقي والتونسي ، أي أن السلطان عبد الحميد الثاني كان في قرارة نفسه يدافع عن السلطنة العثمانية أولاً ، وليست وجهة نظره السيطرة على الآخرين ولكن من وجهة نظر وحدة المسلمين والعرب ولكنه عانى كثيراً حتى من الأتراك أنفسهم ، كما ذكر المؤرخ الأمريكي الدكتور أرنست ا . رامزور في كتابه " تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ " وذكر فيه كيف أن الجمعية التي أُنشئت داخل تركيا " حركة جمعية الاتحاد والترقي " في مدينة " سلانيك " تآمرت على الخلافة العثمانية من داخل تركيا نفسها ، وذكر أيضاً المؤرخ سيتون واسطون في كتابه "نشأة القومية في بلاد البلقان" : أن أعضاء " تركيا الفتاة " الذين كانوا غرب البلاد كانوا على اتصال دائم بالمحفل الماسوني الفرنسي ويشجعون على إزاحة السلطان عبد الحميد من الحكم حتى تم عزله ١٩٠٨ .

هذه كانت قصة السلطان العظيم عبد الحميد الثاني الذي تولى الخلافة بعد وفاة والده السلطان محمود الثاني ثم السلطان عبد المجيد الأول ، وكان يتمتع بذكاء حاد وأدخل إصلاحات كبيرة في الجيش التركي رغم أنه تولى الحكم في سن صغيرة ، ولكنه كان شديد البأس وقوي الشخصية وحاولت حاشية والده التأثير في مجريات أمور الدولة أولا وبالأخص مصطفى رشيد باشا وغيره من الوزراء وحاول بقدر استطاعته تحدى المستحيلات والتصدي وبشجاعة وصبر لمؤامرات الداخل والخارج ، وأعتقد شخصيًّا أن

التاريخ والجغرافيا قد ظلما هذا " الرجل الذي فقد عرشه " من أجل مبادئه والتي انتهت أيضاً بسقوط دولة الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ ، ليصير السلطان عبد الحميد الثاني صاحب النيات الحسنة والخليفة الرابع والثلاثين للدولة وآخر خلفاء العثمانيين ، رحمهم الله جميعاً ، كُلّ حاول واجتهد بقدر استطاعته . هذه هي قصة السلطان عبد الحميد الثاني ، والتي قرأتها في كتاب صادر عن حياته من تأليف الأستاذ منصور عبد الحكيم عام ٢٠١٠ لدار الكتاب العربي في دمشق واسم الكتاب " السلطان عبد الحميد الثاني المُفترَى عليه وآخر السلاطين المحترمين " وقرأته لكي أستوعب ما يدور خلف الكواليس من مؤامرات للوقيعة بين المثقفين والعلمانيين وبعض الذين يحلمون ويفكرون بطريقة مختلفة عن مجتمعاتهم وبين قيادتهم داخل الأمة الواحدة ، بغرض تفتيت الدول من الداخل ، تمهيداً للانقضاض عليها من الخارج وهو ما أطلقت عليه نظرية " الرقص فوق رؤوس الذئاب " ، أي تقوية الرفقاء حتى يتصارعوا ، كل منهم بقوته داخل المجتمع الواحد ، ثم يتم الانقضاض عليهم جميعاً وتدميرهم والرقص على رؤوسهم بعد انهيار بلدانهم .

34



باراك أوباما

"الرجل الذي صَنع حظه .. بالاجتهاد والتميز والعمل"

مسيرة حياة الشاب الأمريكي (الرئيس الأمريكي حالياً) باراك أوباما هي قصة نجاح توضع أمام كل شاب، وليس قصة النجاح السياسي فحسب، بل هي قصة العلاقة بين الأمل والهدف من ناحية والعمل والاجتهاد من ناحية أخرى، وبها كيفية وآلية السعي لتحقيقهما معاً والسير في الطريق الصحيح الواضح ؛لكي يعلو البناء طوبة طوبة، وكلنا نعرف آلية اختيار الدارسين في جامعة هارفارد ، وكيفية الترشح لمجلس الشيوخ الأمريكي والمنافسة الشرسة للوصول لمقعد ممثل الولاية بالمجلس، وأخيراً سَلكَ الطريق الطويل إلى منصب رئيس أكبر وأقوى دولة في العالم : اقتصاديًا وعسكريًّا وسياسيًّا، وهي الولايات المتحدة الأمريكية وحتى لا نتهم وسائل الإعلام الأمريكية بأنها تُلَمِّع المرشحين للجماهير؛ لأنه يجب أن يكون المرشح قابلا للتلميع أولاً، حيث لا جدوى من تلميع شيء صدىء، وما دمت قد اخترت مجموعة من الرجال الذين لم يعرفوا المستحيل في حياتهم، فإنني أعتبر الرئيس باراك أوباما من أول من نستطيع أن نطلق عليهم هذه الصفة؛ لأنه حقق ما لم يكن يتخيله مخلوق على وجه الأرض منذ خمسين عاماً، حيث كان منتهى آمال الأمريكيين من أصل أفريقي هو المساواة مع البيض في الحقوق ، وقبلها كانت مطالبهم تنحصر في حق التصويت في الانتخابات ، ثم الترشح لها وتوقف الأمر عند ذلك حتى بادر الشعب الأمريكي الراقي باختيار باراك أوباما رئيساً له وبأغلبية ساحقة ، وهذه المبادرة لم يسبقه

إليها أي شعب في العالم، فلا يوجد رئيس دولة أسمر في أي منطقة في العالم عدا أفريقيا موطن الجنس الأسمر.

وحيث إن هذا الكتاب ليس له علاقة بالسياسة والسياسيين أثناء فترة حكمهم ، فسوف أتناول فقط كيف كانت نظرته البعيدة لمستقبله، وكيف أنه شخصية ترى نفسها مؤهَّلة لأن تنجح دائماً، وليس هناك سقف محدود لطموحه ، وهو يرى أن النجاح هدفه والسعي طريقه والباقي على الله، ولم يجلس يوماً منتظرا الحظ، بل هو شخصية تصنع الحظ بالعمل.

ولد باراك أوباما في هونولولو بهاواي بجنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية، في ٤أغسطس عام ١٩٦١ لأب من كينيا كان ، في بعثة دراسية في أمريكا وتقابل مع والدته السيدة الأمريكية إنجليزية الأصل في عام ١٩٦٠ وتزوجا عام١٩٦١ وأنجبا ابنهما باراك في نفس العام ثم انفصل والداه وتم الطلاق عام١٩٦٤، ثم عاد والده إلى كينيا بعد انتهاء دراسته في أمريكا ، وتزوج من سيدة أخرى، وتولى مناصب هامة في الحكومة الكينية حتى توفي في حادث سيارة عام١٩٨٢، وبعد ذلك تزوجت والدته من شاب إندونيسي يدرس في أمريكا، اضطر هو الآخر لمغادرة أمريكا بعد انتهاء حكم الرئيس أحمد سوكارنو ، حيث تم استدعاء المبعوثين للخارج، فانتقلت العائلة كلها إلى جاكرتا عاصمة أندونيسيا بما فيهم الطفل باراك حسين أوباما، ووالدته وزوجها والتحق أوباما بإحدي المدارس المحلية في سن السادسة حتى سن العاشرة، عاد إلى هونولولو في السنة الخامسة الابتدائية ، وظل في رعاية جدته لأمه السيدة مادلين دونهام حتى حصل على الثانوية العامة ، وكان لجدته دور كبير في تنشئته على الانضباط؛ لأنها من أصل إنجليزي، فصار باراك أوباما كما أطلق على نفسه يوماً ما "أمم متحدة صغرى" أم أمريكية، جدة من أصل إنجليزي أب من كينيا، زوج أم من أندونيسيا أخوات في كينيا، أخت في أندونيسيا، لونه أسمر متوسط يقف بين الأسود والأبيض، فكان دائماً يسرح ويبحث عن هويته .

وأرى أن تعدد ثقافات الطفل وتغير المجتمعات حوله قد تجعل منه شخصية بارعة في التأقلم وعالية المعرفة وذكية ولديها قبول للآخر واحترام للجميع، إذا كان هذا الشخص سويًّا في تفكيره وذكيا، وإن كان لا، انقلبت تلك الصفات رأساً على عقب وأصبح منعزلاً مكتئباً، وأعتقد أن الرئيس باراك أوباما من النوع الأول طبعاً.

انتقل باراك أوباما إلى لوس أنجلوس بولاية كاليفورنيا عام١٩٧٩ للالتحاق بكلية أوكسيدنتال، ثم أكمل دراسته في جامعة نيويورك تخصص علوم سياسية بداية من عام ١٩٨١ حتى تخرج عام ١٩٨٣ حاملاً الدرجة العلمية في العلاقات الدولية، عمل لمدة عدة سنوات في نيويورك ثم انتقل للعمل في شيكاغو حيث تولى وظيفة مدير لمشروع للمجتمعات النامية ، وحقق نجاحاً ملحوظاً في هذا العمل الذي استمر به أربع سنوات ثم التحق بكلية الحقوق جامعة هارفارد عام١٩٨٨ وكان ترشيحه للقبول بها فاتحة خير ونقطة نضوج قانوني وقيادي في حياته حيث تم اختياره في نفس عام التحاقة بالكلية رئيس تحرير مجلة القانون بالكلية ، وفي ثاني عام دراسي أصبح رئيس مجلس إدارة المجلة، وتخرج في كلية الحقوق عام١٩٩١ (ونلاحظ أنه خلال سنوات التعليم كان معتمداً على نفسه تماماً في مصاريف الدراسة ونفقات المعيشة وتدبير أموره؛ لأنه لم يرَ والده بعد انفصاله عن والدته إلا مرة واحدة في حياته ووالدته كانت مقيمة في أندونيسيا ، وتعمل باحثة علمية ولم ترجع إلى أمريكا إلا في عام ١٩٩٤ وتوفيت بعدها بسنة واحدة متأثرة بمرض السرطان).

قام أوباما بإدارة مشروع للتصويت الانتخابي الغرض منه تسجيل الناخبين غير المسجلة أسماؤهم في الدولة، ونجح جدًّا في هذا العمل لصالح ولاية أينوى، واكتسب أول خبرة له في الممارسات الانتخابية ، وكيفية إدارة هذا الأمر، ووضعته إحدى الشركات المتخصصة في الموارد البشرية عام١٩٩٣ كأحد الأشخاص المؤهلين لاعتلاء مناصب هامة وقيادية في القترة العمرية "أقل من أربعين عاماً"، أي إنهم مجتمع يتصيد الأكفأ وينمي مواهبه.

عمل باراك أوباما أستاذا للقانون الدستوري بجامعة شيكاغو من عام١٩٩٢ حتى عام٢٠٠٤ وكان يعمل أيضاً بالمحاماة متخصصاً في الحقوق المدنية وعضو مجلس إدارة لبعض الشركات.

كان لباراك أوباما نشاط اجتماعي واضح بداية من عام١٩٩٢وشهرة واسعة في عالم المحاماة ، وترشح لعضوية مجلس الشيوخ (المحلي) في ولاية ألينوى، وهذه المنطقة كانت امتداداً لشيكاغو حصل على مقعد بالمجلس (المحلي) وأبلى بلاءً حسناً وطوَّر كثيراً من التشريعات الخاصة بالولاية، ونظام الخدمات الصحية وزيادة الإعانات المقدمة لأطفال الولاية وطوّر نظام القروض العقارية للأفراد ، واللوائح التنظيمية التي تُجنبهم مخاطر رهن

عقاراتهم عند تعثر السداد لأسباب خارجة عن إرادتهم، أي أنه كان من شبابه عبقري محلي ثم عبقري دولي (رئيس أمريكا) ثم عبقري عالمي (جائزة نوبل للسلام).

قبل أن يُقدِم باراك أوباما على ترشيح نفسه لمقعد في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية إلينوى عام٢٠٠٤، قام بتنظيم استطلاع رأي عن مدى إمكانية نجاحه لو ترشح للمنصب! وتم هذا الاستطلاع عام٢٠٠٢ (أي قبل الانتخابات بعامين) ومن هنا نعرف أن باراك أوباما لا يضع قدميه في مكان، إلا بعد أن يثق في صلابة الأرض التي سوف يسير عليها، ولا يبني آمالا على الوهم والبركة، وعندما تأكد من شعبيته، تقدم للترشح وكسب الجولة واختاره أبناء الولاية ممثلاً لهم في مجلس الشيوخ عن الحزب الديمقراطي في عام٢٠٠٤ وحضر الاجتماع العام للحزب الديموقراطي في بوسطن عام٢٠٠٤ وألقى كلماته الرنانة وتحدث عن أفكاره وبرامجه في التطوير، والتحديث واستمع إلى هذا الخطاب حوالي عشرة ملايين أمريكي، رغم امتناع ثلاث قنوات تليفزيونية بث خطابه على الهواء، وكان هذا الخطاب هو المصباح الذي سَلَّط عليه الأضواء في المجتمع الأمريكي ، وأنار طريقه إلى النجاح الأكبر، الذي لم يكن يتوقعه ولكنه شخصية تبحث عن النجاح دائماً وتسعى من أجله.

تميز أداء أوباما في مجلس الشيوخ الأمريكي من ٥ يناير عام٢٠٠٥ حتى ترشحه لمنصب الرئاسة عام٢٠٠٨ بالصلابة في المواقف التي تهتم بشؤون الطبقة الوسطى من المجتمع الأمريكي ، وبالتفكير العلمي العميق عند التصويت على اتخاذ قرارات هامة وبالجنوح إلى تأييد القوانين التي تهتم بزيادة مخصصات الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية ، وأصبح شخصية معروفة لدى المجتمع الأمريكي وزار عدة بلدان في آسيا وأفريقيا وشرق أوروبا والشرق الأوسط بوصفه عضو لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، كل تلك الأمور والخطوات فتحت له طريق الترشح لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عام٢٠٠٨، حيث لم يزر بلداً أو مقاطعة إلا وترك فيها بصمته الخاصة في الحديث والحيوية والتواضع والذكاء الحاد واكتسب حب الجميع، وهو ما يطلق عليه علميًّا "صاحب كاريزما خاصة"، والمعروف كما ذكر حكماء العالم أن الناس تقابلك أولاً وتستقبلك بثيابك ولكن عندما تودعك.. تودعك بعقلك.

أعلن باراك أوباما عن نيته لترشيح نفسه للرئاسة في ١٠ فبراير عام٢٠٠٧ وذلك في حشد جماهيري ومؤتمر صحفي أمام مبنى ولاية ألينوى عن الحزب الديموقراطي، ودخل ماراثون الإختيار عن الحزب مع كثيرين ثم أخيراً تم اختياره مرشحاً عن الحزب الديمقراطي في يونيو٢٠٠٨ بعد أن أعلنت السيدة هيلارى كلينتون مساندتها له يوم ٧يونيو لدعم صفوف الحزب بعد أن لاح تفوق أوباما على مستوى مندوبي الحزب وأعضاء مجلس النواب والشيوخ الأمريكي من الحزب الديمقراطي، وأيضاً لعدم تشتيت أصوات مؤيدي الحزب في الانتخابات العامة، واستطاع أوباما أن يدير معركة الانتخابات العامة بأسلوب حديث لم يكن يتوقعه منافسه من الحزب الجمهورى، حيث اتجه إلى مجتمع الشباب ومتوسطي العمر في المجتمع وتواصل معهم عن طريق شبكات الكمبيوتر ووسائل الاتصال الحديثة ، وبهر الأمريكيين والعالم بقدرته على التواصل مع الجميع كُل بالوسيلة التي تناسبه، فضلاً عن قدرته على جمع التبرعات اللازمة لدعايته واختار نائبه السيناتور جو بايدن في ١٣أغسطس عام٢٠٠٨ وتمت الانتخابات في نوفمبر٢٠٠٨ وفاز باراك أوباما برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية كأول رئيس من أصل أفريقي، وأُعلن فوزه حتى قبل ظهور نتائج ولايات الساحل الغربي للولايات المتحدة ، وتحقق أمل وهدف شاب سعى إلى النجاح دائماً وعمل من أجله فأعطاه الله أكثر مما كان يتمناه؛ لأنه يستحق ذلك.

تولى باراك أوباما الرئاسة في يناير٢٠٠٩ وبدأ يعيد ترتيب البيت الأمريكي اقتصاديًّا بعد الركود العالمي عام٢٠٠٨ وانهيار الأسهم وأزمة الرهن العقاري، وعقد عدة لقاءات واتخذ قرارات حاسمة بتوصية من مستشاريه الاقتصاديين والعلماء الأميريكيين ، حتى تمكنوا من عبور السنة الكبيسة على الاقتصاد الأمريكي وهي سنة ٢٠٠٩ ووضع برنامجاً لإنقاذ شركات صناعة السيارات الأمريكية التي كانت على وشك التوقف والإفلاس وتم ضخ قروض فيدرالية لها مقابل الاشتراك المؤقت في رأس المال حتى تتعافى الشركات وتسدد القروض، وحدث ذلك مع البنوك والشركات العقارية وأحدثت سياسته حالة من الانتعاش للاقتصاد الأمريكي التي يُعتبر قاطرة الاقتصاد العالمي علميًّا وعمليًّا ؛لأنه إذا تهشم زجاج البورصة في أمريكا تناثرت شظاياه لتحطيم أبواب بورصات العالم وأسعار الطاقة.

حصل باراك أوباما على جائزة نوبل للسلام عام٢٠٠٩ ويُعتبر ثالث رئيس أمريكي يحصل عليها أثناء فترة رئاسته، وأول رئيس يحصل عليه في أول عام رئاسي له، وذلك تقديراً لدوره في محاولة تدعيم أسس السلام العالمي ، والذي يحاول فيه حتى الآن وبدأه بالتقريب بين العالم الإسلامي والولايات المتحدة الأمريكية ، وزار كلا من تركيا والمملكة العربية السعودية ومصر وألقى خطاباً تاريخيًّا في جامعة القاهرة أوضح فيه أفكاره عن تقريب وجهات النظر بين العرب وإسرائيل .

وأيد فيه حقوق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة إلى جوار دولة إسرائيل، وعسى الله أن يوفق خطواته في المرحلة القادمة لكي يصبح الرئيس الأمريكي الأول في عدة أشياء في التاريخ، لأنه رجل يستطيع دائماً أن يتحدى.

35



فلاديمير بوتين

"الثعلب الجميل الذي أحيا البلد الأصيل"

عندما تنظر إلى وجه الرئيس الروسي السابق فلاديمير بوتين تجد البساطة في ملامح الوجه التي تخفي وراءها الذكاء الفطري، الذي يتسع بمدى اتساع سيبريا، وعندما تنظر إلى عينيه الجميلتين، تشعر أنه هو الذي ينظر إليك ويدقق فيك، ووجهه صورة جميلة لرجل المخابرات الغامض الهادئ المطلع على أسرارك الخفية ، والذي يتطلع إلى كشف المزيد من ماضيك وحاضرك ومستقبلك بابتسامته الإجبارية السحرية؛ ذلك لأنه كشف ما وراء الستار الذي كان منصوباً للاتحاد السوفيتي في ثمانينيات القرن الماضي لإسقاطه في متاهات الفقر والضعف والديون؛ لكي لا يكون القوة الثانية في العالم؛ ويصبح عالمنا أحادى الفكر والسياسة والنظم الاقتصادية، مع أن الاتحاد السوفيتي لم يمنحه أحد تلك المكانة كقوة عظمى، بل اكتسبها بكفاح أبنائه في الحرب العالمية الثانية ، وبعلمائه الأفذاذ الذين قاموا بالنهضة الكبرى خلال النصف قرن السابق لانهيار الاتحاد السوفيتي، ومن خلال مساعدته لدول العالم الثالث بالسلاح أثناء صراعها للحصول على الاستقلال والحرية، وجد بوتين أن أوراق الشجرة التي تعدى عمرها حاجز السبعين عاماً تتساقط.. وقد أدى انهيار الاتحاد السوفيتي إلى انتحار ٥٦ ألف روسي وبلغ عدد قتلي المخدرات في عام١٩٩٣ وحده ٤٠ألف مواطن، وخرجت دول من محيط الدولة الروسية، وكانت هي المرة الأولى منذ العصور الوسطى التي تنهار فيها قوة عظمى دون أن تُهزم في حرب!

وبعد أن كانت مساحة الاتحاد السوفيتي ٢٢مليون كيلو متر، أصبحت ١٧ مليون كيلومتر

فقط واختفت الأغنية الشعبية الروسية التي كانت تقول عنواني هو "الاتحاد السوفيتي وليس بيتا أو شارعاً إنما الأرض التي تمتد من المحيط الأطلسي حتى المحيط الهادئ"، واهتزت أهمية العاصمة العريقة العملاقة "موسكو" التي أسسها الأمير يورى دولو جوركي كعاصمة للبلاد أثناء حكم القياصرة، ووجد بوتين أن الغرب وبعض الروس من أبناء الوطن يقومون بجهالة بعملية تخريبية لدولة عظيمة ، ويهدمون بتخطيط خفي دعائم نظام عالمي مستتب عن طريق استغلال عواطف العامة والدهماء، ووعدهم بفجر يوم جديد يبنى مبدئيًا ومستقبلاً بعد انهيار دولتهم أولاً وبعدها ستأتي جنة الرأسمالية والحرية.

كل الأوضاع السابقة كانت شريطاً سينمائيًا في ذهن وعقل هذا الشاب العبقري الذي ولد في ٧أكتوبر عام١٩٥٢ في مدينة لينغراد (سانت بطرسبرج حالياً) ودرس في كلية الحقوق ، وتخرج عام١٩٧٥ والتحق بالعمل في جهاز المخابرات الروسية وأجاد اللغتين الألمانية والإنجليزية، وعمل في ألمانيا الشرقية في الأعوام من ١٩٨٥ حتى١٩٩٠، حتى فقد وظيفته أثناء انهيار الاتحاد السوفيتي ، وعاش فترة بلا وظيفة مستقرة، وهو يشاهد ويعي ما يراه من تكالب الآخرين للحصول على قطعة من ميراث الدولة العظمى التي تحتضر، ولكنه لم يكن سلبيًا يرى وينقد ويَسكت، فشق طريقه وأصبح مساعدا لرئيس جامعة لينجراد الحكومية للشؤون الخارجية، ثم مستشاراً لرئيس مجلس مدينة لينجراد عام١٩٩٢ حتى وصل إلى نائب أول لرئيس حكومة سانت بطرسبرج عام١٩٩٤ ثم أصبح في أغسطس ١٩٩٦ نائباً لمدير ديوان الرئيس الروسي ، ثم شغل منصب رئيس دائرة الرقابة العامة في الديوان الرئاسي عام١٩٩٧ ثم مدير للديوان الرئاسي بالإنابة في مايو١٩٩٨ وهو العام الذي تم تعيينه مديراً لجهاز الأمن الفيدرالي الروسي في شهر يوليو١٩٩٨ وعُين أيضاً أميناً عاماً لمجلس الأمن الفيدرالي الروسي في مارس عام١٩٩٩ .

في خلال تلك التسع السنوات كان الثعلب الجميل فلاديمير بوتين الذي عشق بلاده ووضع في اعتباره أن يعيدها لشيء من مجدها العريق ، وهي المهمة التي كانت شبه مستحيلة ؛ لأن التخطيط للهدم الذي تولته الدولة الغربية والمعسكر الغربي كان تخطيطاً محكماً بحيث لا تقوم لروسيا قائمة مرة أخرى ؛لأن معظم القيادات الرئيسة والمعاونة في الدولة كانت ضعيفة وقليلة الخبرة مهترة، ولكن الرئيس الروسي الراحل بوريس يلتسين رغم مرضه وعجزه عن إدارة البلاد بكفاءة أواخر فترة رئاسته، أسدى إلى شعبه أحسن هدية قبل تركه

الحكم، بأن اختار هذا الشاب المتقد حيوية وذكاء وولاء للوطن فلاديمير بوتين ؛ليكون رئيساً للحكومة عام ١٩٩٩ في شهر أغسطس وكان بوتين يبلغ من العمر ٤٧عاماً ثم تولى اختصاصات رئيس روسيا بالوكالة في ٣١ديسمبر عام١٩٩٩ بعد استقالة بوريس يلتسين، وانتخب في ٢٦ مارس عام٢٠٠٠ رئيساً لروسيا الاتحادية وأعيد انتخابه للرئاسة في ٤مارس عام٢٠٠٤ وتبعاً للدستور لا يستطيع ترشيح نفسه مرة ثالثة، عند إنتهاء ولايته الثانية عام٢٠٠٨ شغل منصب رئيس وزراء روسيا ؛لكي يكمل رحلته العظيمة في تحدى المستحيل ، وهو إعادة بناء دولة عظمى، أو فلنقل إمبراطورية عظمى لها تاريخ مجيد وحضارة أعطت للبشرية كثيرا من المخترعات والآداب والفنون والموسيقى والثقافة ، ما لم تعطه دول أخرى أكثر منها تعداداً ونفوذاً مالياً.

بدأ فلاديمير بوتين رئاسته لروسيا وهو يدرك مدى صعوبة علاج الدب المريض روسيا الاتحادية، وأعاد بناء الترسانة العسكرية الروسية ، وبدأ سياسة الانفتاح الحذر على المجتمع الغربي في الحدود التي لا تمس الأمن القومي الروسي؛ لأنه رجل مخابرات أولاً قبل أن يصبح رئيساً لدولة عظمى، فأصبحت خطواته تتسم بالحذر والذكاء في حل المشكلات الكبيرة التي ورثها من سلفه مثل إنهاء الحرب في الشيشان ، واستعادة الاقتصاد الروسي لقوته واستعادة روسيا لمكانتها الدولية في العالم ، وقضى على الفساد المستشري في الأوساط المالية في روسيا ، وأجرى عملية تطهير حقيقية لذوى المناصب المهمة في المدن والمصانع والقوات المسلحة ، واستغل خبرته الاقتصادية - حيث إنه حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية- بأن أعاد هيكلة الاقتصاد الروسي لتعظيم الاستفادة من الموارد الطبيعية للبلاد وأولها البترول والذهب والمعادن ، واستفاد من التكنولوجيا الغربية بأن فتح المجال للاستثمارات الغربية داخل روسيا، ووطد علاقاته الدبلوماسية مع الجار الأقرب لروسيا وهي دول أوروبا الغربية، وأخذ موقفاً قويًّا من نوايا الولايات المتحدة الأمريكية ، وتعامل معهم بسياسة الند للند ، والمصالح المشتركة وليس بسلاح المقاطعة والانفعالات وكان يقول: "لقد حاولنا في السنوات الخمس عشر الأخيرة أن يكون انطباعنا عن أمريكا هو أنها لا تحتاج إلى أصدقاء وإنما إلى تابعين يتلقون الأوامر".

الميزة الكبرى في حكمة فلاديمير بوتين أنه كان يعرف ما يريد عندما تولى الحكم ، ولكن

الآخرين لم يدركوا ماذا يريد هذا الثعلب الجميل، وعندما أفاقوا وعرفوا ماذا يريد بالضبط وبدأوا في الاحتياط من خطواته، لم يهتز ولم يتغير ولم يعيرهم اهتماماً واستمر في طريقه رغم ملاحقته بالانتقادات الإعلامية، ومحاولة وضع العثرات أمام قفزات روسيا الاقتصادية والسياسية، فتعامل معهم بالصمت والهدوء والنظرات الثاقبة التي تغيظ الجميع ؛لأن في عينيه شرارات تحرق أعصاب أعدائه دون أن يتكلم وإبتسامته عليك أن تبتلعها حتى وإن كانت مُرة في حلقك فهي أولاً وأخيراً ابتسامته رغم أنفك، ولديه مقدرة كبيرة على الصبر وكان يقول إن ياسر عرفات اعتبروه إرهابيًّا أولاً ثم منحوه جائزة نوبل للسلام بعدها..

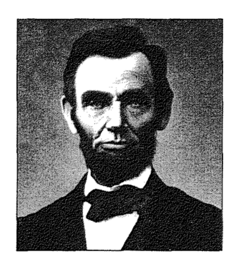
معنى ذلك أن كل شئ ممكن، وعلينا التحلي بالصبر!!

تزوج فلاديمير من السيدة لوتميلا بوتينا ، وأنجب منها ابنتين ماريا ولدت عام١٩٨٥ وكاترينا ولدت عام ١٩٨٦ ويعيش حياة مستقرة مع زوجته رفيقة أيام كفاحه، وتحديه للمستحيلات، بداية من فقد وظيفته في المخابرات وأصبح عاطلاً حتى بداية خطواته في بناء روسيا الجديدة .

ولكنني لاحظت أثناء تقدمه لانتخابات رئيس الوزراء عام٢٠٠٨، ظهرت إشاعات أنه قد طلق زوجته أو في طريقه لذلك، وتعرف على فتاة تصغره وينوى الزواج منها، ولكنني أيقنت أنها آخر عهوده بأساليب المخابرات الذكية، حيث رمى بالشائعة مستغلاً عطش الإعلام للأخبار الشخصية المثيرة (العَظْمَة) لكي يلهي بها الصحافة والإعلام العالمي في تكتيك بارع لكي يتفرغ لحملته الانتخابية ، ويترك الصحافة والإعلام يلهثون وراء تلك الشائعة البراقة، ويصبح هو بعيداً عن أضواء ونقد ومطبات الإعلام، ومن أهم صفات فلاديمير بوتين أنه دائماً ما يعود ويطرق باب الإعلام، ويقول لهم :إنني هنا القوى دائماً المتواجد بكامل لياقتي الذهنية والرياضية ، فقد اشترك في سباق سيارات وهو في منصب رئيس الوزراء وقاد سيارة السباق، وأيضاً يشترك في منازلات رياضة الجودو دائماً حيث إنه بطل قديم في تلك اللعبة .

إنه شخصية لا تملك إلا أن ترفع لها القبعة احتراماً للقوة والذكاء والدهاء وحب الوطن، هذا الثعلب الجميل الذي أحيا البلد الأصيل روسيا الاتحادية وتحدى جميع المستحيلات التي واجهته في ثلاثين عاماً.

36



إبراهام لينكولن

"الرئيس الذي حقق أحلام الفلاسفة والأنبياء بتحريره للعبيد"

الرئيس الأمريكي السادس عشر إبراهام لينكولن ولد فقيراً وعاش فقيراً ووهب حياته للدفاع عن الفقراء وقُتل من أجل الفقراء والمظلومين.

ولد إبراهام لينكولن عام١٨٠٩ في أمريكا، وكان والداه في شدة من الفقر، ولديهم عدد كبير من الأطفال ويعيشون في كوخ خشبي صغير عند طرف غابة، ولم يذهب إلى الدراسة النظامية في أول عمره لابتعاد أقرب مدرسة في ضاحيته عن منزلهم، ولكنه تولى تعليم نفسه بنفسه وكان يشترى الكتب القديمة من المارين بقريته أو يستعيرها من الأصدقاء وأصبح مثقفاً وهو في سن الشباب، وقرر أن يعمل وهو في سن التاسعة عشرة، فعمل أجيراً على سطح مركب مقابل توصيله مجاناً فيما بعد إلى ولاية نيوأورليانز، حيث وجد وظيفة سكرتير لجنة الانتخابات .

وكأن الأقدار قد وضعته على سلم المشهد السياسي والنيابي بالصدفة والاختيار، جمع إبراهام لينكولن في شخصيته بين الإنسان الودود والعطوف والمثقف والمتدين، ولذلك التف الناس حوله، أينما ولى وجهه لتعدد الصفات الحميدة التي تحلى بها وأصبح شخصية جذابة، ثم عمل في شبابه بهيئة البريد بإحدى مدن الولاية، بعدها أصبح مديراً لمكتب البريد، ومن تلك الوظيفة أمكنه التعرف على شخصيات كبيرة في المجتمع والتي حاولت أن تقدم له خدمات كثيرة؛ إعجاباً بشخصيته وأخلاقه .

ومن هذه الشخصيات الأستاذ منتور جراهام الذي أعطاه دروساً في قواعد وآداب اللغة

الإنجليزية ، وتنافس كبار رجال المدينة على خدمته وقدم له الأستاذ جون ستيورات طلباً في الجامعة؛ لكي يتمكن من تحقيق حلمه الكبير بدراسة القانون، ونجح إبراهام لينكولن في أولى خطواته العلمية في الحياة في الجامعة، وأصبح محامياً وعضواً بنقابة المحامين.

ونظراً لتعدد علاقاته وصداقاته رشح نفسه في انتخابات المجلس التشريعي ونجح بجدارة، وأصبح عضواً بالمجلس، خلال تلك الفترة في حياته لم ينسَ أنه كان فقيراً وسعيداً وطموحاً رغم فقره، ولذا وضع الفقراء نصب عينيه، وكان يستقبلهم في مكتب المحاماة ويدافع عنهم في القضايا الخاصة بهم مجاناً حتى لقبوه بـ "نصير الفقراء والمظلومين" وكان يرى في هذه المواقف إشباعاً لغريزته في حب العدالة ونصرة الحق واستعداده الفطري للعطاء بحنان، وعفوية ، ويرجع ذلك لشدة تدينه وقدرته على التعبير عن التعاليم الدينية الجميلة إلى سلوكٍ شخصي راقٍ يمتثل الآخرين له ، وكان يقول عن مهنة المحاماة: المحامى الشريف لا يجعل جمع المال نصب عينيه؛ لأن مهنة المحاماة من أشرف المهن، إذ أن أعظم أجر يتقضاه المحامي الحر هو انتصاره في قضية ترافع فيها عن متهم بريء، أو فقير مظلوم أو يتيم أو أرملة أعاد إليهم جميعهم حقوقهم المسلوبة، أما جمع المال فهو هدف التاجر، وهناك فرق بين التجارة المحاماة !!

ظل إبراهام لينكولن يدافع عن آلاف الفقراء مجاناً في قضاياهم ، حتى أوشك على الإفلاس وأصبح غارقاً في الديون؛ لأنه كان يأخذ أتعاباً بسيطة من متوسطي الحال ويدفعها رسوماً لرفع القضايا لشديدي الفقر.

ذاعت شهرة إبراهام لينكولن لحبه للخير والعطاء، ورشح نفسه عن الحزب الجمهوري وتم انتخابه ليكون الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٦١، وأثناء رئاسته للدولة لم يتخل عن بساطته المعهودة ومصافحته للناس شخصيًّا في الشوارع والاستماع إليهم ، والتزم بالوفاء والتواضع مع عائلته لدرجة أنه زار زوجة أبيه في منزلها بعد توليه الرئاسة تقديراً لها لاهتمامها به أثناء طفولته، ولم تكن هناك وسيلة مواصلات ميسرة بالخيول لسوء الأحوال الجوية مما اضطره لركوب قطار بضاعة للوصول إلى بلدتها رغم اعتراض زوجته على هذا التصرف، وطلبت منه أن تأتى هي له في البيت الأبيض معززة مكرمة، ولكنه أدرك أنها سيدة كبيرة في السن ومريضة، فقرر أن يتحمل هو المشاق

عنها وفاءً لها لتربيتها له.

بدأ هذا القلب الكبير العطوف ترتيب البيت الأمريكي من الداخل عندما تولى الرئاسة عام ١٨٦١ ومنع انفصال الولايات الجنوبية عن الشمالية، ونادى بحرية الصحافة لأنها خير ضمان لحرية الأمة، ثم اتجه لتطعيم وتفسير الدستور الأمريكي بالمبادئ الإنسانية السامية، وحمل على عاتقه مهمة تحرير العبيد السود في المجتمع الأمريكي، وحارب الرق ثم ألغاه على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي واجهته في هذا الأمر، مما أدى إلى نشوب الحرب بين شمال أمريكا التي كانت تؤيد إلغاء الرق، وبين الجنوب الأمريكي الذي دافع باستماتة للإبقاء على الرق؛ حيث كان كبار أصحاب الأراضي يسخرونهم في الزراعة والأعمال الشاقة والأعمال المنزلية، وكان العبد عندما يتزوج من أمة يصبح المولود عبداً مملوكاً لسيده يمكن أن يبيعه في السوق عندما يكبر، وهذا ما ذكرته الكاتبة الأمريكية السيدة هاريتت بيتشر ستو في كتابها المُلهم "كوخ العم توم" الذي صدر في أمريكا عام١٨٥٠ ميلادية ثم مُنع من التداول، ولكن الأمريكيين كانوا قد قرأوا أحداثه مسبقاً (وخصوصاً الشباب الأمريكي المتحمس لتحرير العبيد) في سلسلة مقالات أسبوعية بإحدى الجرائد، وكان هذا الكتاب هو القنبلة الموقوتة التي انفجرت في المجتمع الأمريكي، حيث شعر الشعب الأمريكي الكريم والعطوف بمدى العذاب والإذلال والمهانة التي يتعرض لها السود في مجتمعاتهم، والتي لا تتفق مع تعاليم الأديان السماوية التي نادت بتحرير العبيد، ولا مع المبادئ الإنسانية والعلمانية التي يسير عليها بعض من البشر، هذا العمل الأدبي (كما ذكرت في كتابي السابق الخالدات مائة أولاهن السيدة مريم) وذكرت من ضمن المائة امرأة السيدة هارييت بيتشر ستو لأهمية إنجازاتها للبشرية، ووصفتها بأنها مُفجرة الحرب الأهلية الأمريكية في القرن التاسع عشر، ومن العجيب أنها كانت سيدة صغيرة الحجم، وقصيرة وكان الرئيس إبراهام لينكولن طويل القامة، عندما قابلها في البيت الأبيض بعد انتهاء الحرب الأهلية، ونجاحه في تحرير العبيد السود في أمريكا ومنع الرق نظر إليها وقد أدهشه صغر حجمها وقال: " **أهذه السيدة الصغيرة هي التي تسببت في هذه الحرب الكبيرة** "

اعتبر إبراهام لينكولن أن إباحة الرق ينافي أبسط المبادئ الإنسانية، وهو كفر بالله؛ لأن الله خلق الإنسان ليكون عبداً لله وحده تبعاً لتعاليم الأديان السماوية، ولهذا اعتُبر إبراهام

لينكولن أول من تصدى للمستحيل ، بتطبيق مبدأ إلغاء الرق عالمياً وحقق نبوءات الأنبياء والرسل وأماني الفلاسفة عبر التاريخ لتحرير العبيد والمساواة بين البشر ، وخاض من أجل ذلك الحروب وتصدى للمعارضة ، ووحد الشمال والجنوب الأمريكي على هذا المبدأ وبدأت الدول الأخرى تسير على هدي خطواته، فمنعت تجارة العبيد في أفريقيا وآسيا وأوروبا بأوامر قاطعة امتثلت لها جميع الدول في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وتطور وضع السود في المجتمعات المختلطة حتى حصلوا على حقهم في التعليم والانتخابات وتولي المناصب العليا في أوربا وأمريكا، وكان ذلك جُهد رجل عظيم حنون يعرف الله حق معرفته ويعرف حقوق الإنسان، ليس في قلبه فقط ولكن بالسعي إلى تطبيقها ولذلك وضعته على قمة من تحدوا المستحيل من الأبطال؛ لأن الرق كان موجوداً منذ آلاف السنين، ولم يستطع أحد إلغاءه، ودفع إبراهام لينكولن ثمن مبادئه من دمه، حيث اغتاله ممثل مجنون (أثناء حضوره إحدى المسرحيات مع زوجته) ويدعى : جون بورث بأن أطلق عليه الرصاص في المسرح عام١٨٦٥ فأرداه قتيلاً بعد غيبوبة استمرت أياماً ، ومات الرئيس الفقير الذي وهب حياته للفقراء والمظلومين والضعفاء والعبيد.

37



الدكتور مهاتير محمد

"الطبيب الذي تخصص في علاج الشعوب الفقيرة"

اسم محاضر محمد أو مهاتير محمد أصبح العملة الجيدة المتداولة بين أبناء العالم الثالث في القرن العشرين، وصار نموذجاً يُحتذَى به في انتشال الدول من آبار الجهل والفقر والتخلف الاقتصادي والعلمي إلى رحاب التنمية والتطور وارتفاع مستوى المعيشة، بعض الأشخاص يكونون أقوياء ويستطيعون تغيير أنفسهم ، ولكن منهم الأقوى الذي يستطيع تغيير قريته أو مدينته، ولكن أقواهم جميعاً من يستطيع تغيير مجتمع دولة بأكملها اقتصاديًا وعلميًا، من دون أن يُدخِل دولته في صراعات داخلية وخارجية؛تعوق تطور الشعب (مثل ما ذكرت عن سيرة الوالي محمد على باشا والملك عبد العزيز آل سعود والشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمهم الله)، لأن تلك الأعمال هي المستحيل بعينه، حيث إن بناء الدول يقابل أيضاً بمعارضين لذلك البناء ولا يكون لديهم أسباب مقنعة ومحددة للمعارضة.

ولد مهاتير محمد في ٢٠ يوليو ١٩٣٢ في مدينة آلو سيتار بولاية قدح بماليزيا ، ووالده كان يعمل مدرساً ووالدته ربة بيت أرضعت ابنها القوة والصلابة وحُسن القيادة، والده من أصل هندي أما والدته فهي من أصل ماليزي (الملايو سابقاً كان اسم الدولة)، التحق بالمدرسة ، وكان متفوقاً والتحق بكلية السلطان عبد الحميد في الوستار ثم التحق بكلية الملك إدوارد السابع الطبية (جامعة سنغافورة الوطنية الآن) وتخرج طبيباً عام١٩٥٣ ورأس اتحاد الطلاب في الكلية ، وكان يصدر مجلة طلابية شهرية ، وعمل ببعض المهن أثناء دراسته؛ لكي يوفر مصاريفه الشخصية ويساعد أسرته المكونة من عشرة أفراد، فكان يبيع فطائر

الموز والوجبات الخفيفة أثناء الاحتلال الياباني لماليزيا خلال فترة الحرب العالمية الثانية، ودرس الشؤون الدولية بجامعة هارفارد الأمريكية، عمل مهاتير محمد ضابط خدمات طبية في الحكومة الماليزية من عام ١٩٥٣ حتى عام١٩٥٦ وتزوج من زميلته في الدراسة الدكتورة حازمة محمد علي عام١٩٥٦، في عام١٩٥٧ استقال من الحكومة، وتفرغ لعمله الخاص، في عام١٩٦٤ .

انتخب مهاتير محمد عضواً في البرلمان عن دائرة "كوتا ستار"وخسر مقعده في الانتخابات التالية عام١٩٦٩، حيث كان قد أقيل من البرلمان قبلها بشهور على إثر صدامه مع رئيس الوزراء تنكو عبد الرحمن لاختلافه معه على كيفية إدارة شؤون البلاد اقتصاديًّا، أصدر مهاتير محمد كتاباً عام ١٩٧٠ بعنوان "معضلة المالايو" ذكر فيه أفكاره والأسباب التي تعوق التنمية في ماليزيا ، ومُنع الكتاب من التداول، في الفترة من١٩٧٠ حتى١٩٧٤ بعد استقالته من عضوية الحزب القديم الذي كان ينتمي إليه، انضم إلى حزب المنظمة الوطنية الماليزية عام١٩٧٢ وعين سيناتوراً عام١٩٧٣ ثم استقال من أجل خوض الانتخابات العامة وأعيد انتخابه، ونجح بالتزكية وعين وزيراً للتعليم عام١٩٧٥ ونائب رئيس الحزب عام١٩٨٧ ثم أصبح وزيراً للتجارة والصناعة، خلال تلك المرحلة التمهيدية في حياة مهاتير محمد قبل أن يصبح رئيساً للوزراء، لم يكن ينظر للمناصب التي تولاها باعتبارها مكسباً شخصيًّا له، أو نهاية المطاف لطموحاته في تطوير بلده، بل كان ينظر إليها نظرة الطبيب الذي وجد أن مريضه يعاني من أمراض متعددة ، وعليه أن يكون حريصاً أثناء العلاج من أن يبدأ من العضو الأخطر في الإصابه، فتعامل بهذا المنطق عند تولى رئاسة الوزراة عام ١٩٨١، حيث شَخَّص سبب الفقر أنه ضعف إنتاجية الفرد في المجتمع الماليزي، حيث كان المجتمع مجتمعاً زراعيًّا بدائيًّا يعتمد على تصدير المواد الخام بأسعار رخيصه لدول العالم، ويستورد منها كل شئ تقريباً ، والمرض الثاني الذي شخصه هو ضعف مستوى التعليم الذي لا ينتج عمالة صناعية مميزة يمكن أن يقوم عليها مجتمع صناعي يحقق الاكتفاء الذاتي من المنتجات ، ويسد الفائض للعالم الخارجي، والمرض الثالث هو الطائفية والتنوع العرقي في المجتمع الماليزي الذي يضم الملاويين وأقلية من أصل صيني وأقلية من أصول هندية بوذية، فوضع الاختلافات العقائدية جانباً على أن تلتزم كل فئة بمبادئها الدينية التزاماً حقيقيًّا لخدمة المجتمع (**الأمانة-العمل-الإخلاص-عدم الرشوة-عدم**

التدخل في الشؤون العقائدية للآخرين وتوجيه النقد لهم-المساواة في الضرائب بين فئات المجتمع كُل حسب قدرته ودخله، وعدم تكفير أي شخص).

أي أن مهاتير محمد وضع الأساس الأصلي لبناء مجتمع جديد ونهضة شاملة (مثل محمد على باشا والي مصر في القرن التاسع عشر) ولم يعبأ بالمعارضين لخططه في البناء، فتحولت الدولة خلال الفترة التي تولى فيها رئاسة الوزراء من عام ١٩٨١ حتى عام٢٠٠٣ من دولة زراعية بحتة إلى دولة صناعية متقدمة، يساهم القطاع الصناعي والخدمات فيها بنسبه ٩٠٪ من الناتج المحلي وشجع الاستثمارات الأجنبية في بلاده عن طريق فتح المجال للشركات اليابانية والصينية ؛ لإنشاء فروع تصنيع لها في ماليزيا معتمداً على رخص الأيدي العاملة في بلده مقارنة بالدول المحيطة بها، مما جعل بعض المنتجات الأوربية تُصنع في ماليزيا ويتم تصديرها إلى دول آسيا وأفريقيا وانتقلت بعض الصناعات البسيطة إلى ماليزيا ، ثم تطور الأمر إلى الصناعات الثقيلة حتى إن ماليزيا تنتج ٨٠٪ من احتياجاتها من السيارات وارتفعت نسبة الصادرات الصناعية إلى ٨٥٪ من إجمالي الصادرات.

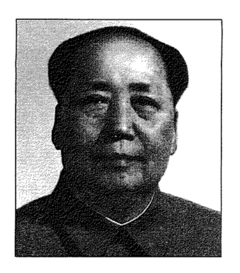
كان من آثار الثورة التكنولوجية التي قام بها مهاتير محمد في المجتمع الماليزي، أن انخفض معدل الفقر من ٥٢٪ من عدد السكان إلى٥ ٪ فقط وارتفع معدل دخل الفرد من ١٢٥٠دولاراً في السنة عام١٩٧٠ إلى٨٨٥٠دولاراً عام٢٠٠٢ وانخفضت نسبة البطالة إلى ٣٪.

هذه هي قصة البطل الماليزي مهاتير محمد الذي تحدى ثلاثة مستحيلات في بلده وهي: الفقر، والجهل ، وقلة الإنتاجية، ولكنه تحداها بأسلوب الطبيب الذي يشخص الأمراض بدقة أولاً ثم يبدأ العلاج من المكان الذي يمكن أن يعالج منه الأماكن الأخرى بالجسم، ولا يتأثر كثيراً بآراء أقارب المرضى ، ولا يأخذ رأيهم في كيفية العلاج لآن منهم من لن يوافق على الأسلوب (وهم المعارضة)، طالما كان لديه إحساس بأن خطواته تسير بطريقة علمية ومنهجية ولديه من المستشارين الأكفاء الذين يعرض عليهم المشاريع قبل البدء فيها؛لأن أخذ رأى العامة في بناء الشعوب ليس من شيم العباقرة، حيث إن العامة يفكرون دائماً في حياتهم المعيشية اليومية ، ويكتفون برزق اليوم بيوم ، كما ذكر ذلك محمد على باشا والي مصر لقنصل النمسا في مصر عندما وجه إليه الأخير انتقادات لاذعة عن طريقة حكمه

لمصر.وأظهر له الوالي أن الحاكم يجب ألا يكون منتهى أمله هو إرضاء الشعب ؛ لأن الهدف الصحيح للحاكم يجب أن يكون العمل للتخطيط لمصالح الشعب على المدى الطويل.

وهكذا أصبح الرئيس الطبيب مهاتير محمد رمزاً من رموز البناء والاستنارة والقيادة في العالم، وسيحفر اسمه بحروف من ذهب في تاريخ ماليزيا، حيث لم ينجرف بها إلى صغائر الأمور أثناء عملية إعادة البناء.

38



ماوتسي تونج

"من جمهورية بالجبل إلى جمهورية الصين الشعبية العظيمة"

إن قيمة الزعامات تقاس بما أعطته لشعوبها ، وإلى أي مدى وصل الشعب عند رحيل الزعيم، هذه الكلمات اقتبستها من الكاتب الكبير الأستاذ صلاح منتصر وقد ذكرها في كتابه العظيم "الذين غيروا القرن العشرين" إصدار مركز الأهرام للترجمة والنشر عام٢٠٠٠، ولم أجد أصدق من تلك التعبيرات لبداية الكتابة عن الزعيم ماوتسى تونج ابن الأرستقراطية الصينية الذي قدر قيمة الفلاح والعمال الزراعيين في المجتمع، مع أن والده كان من كبار ملاك الأراضي في الصين، أي أن ما دفعه لاسترداد حقوق الفلاحين والعمال لم يكن الفقر، بل هو الحق والعدل في توزيع ثمار الإنتاج والعمل والازدهار على الشعب الصيني بأكمله.

ولد ماوتسى تونج في ٢٦ديسمبر عام١٨٩٣ وهو تاريخ غير مؤكد حيث لم يكن هناك سجل رسمي للمواليد في ذلك الوقت، كان والده عسكريًّا سابقاً ومن أصحاب الأراضي الزراعية الكبار ، ورأى ماوتسى في طفولته كيف يُسخِّر والده الفلاحين في العمل حيث مارس مهنة الزراعة معهم وهو صغير، وكان يستمع إلى المشاكل والظروف الصعبة التي يعيشون فيها وكان ينوى أن يعمل بالفلاحة من شدة إعجابه بهم، ولكن بسبب ثراء الأسرة التي ينتمي إليها فقد تم إرساله إلى المدرسة.. ولعشق ماو بالعمل اليدوي فإنه جمع بين الفلاحة والمدرسة.. ففي الفترة الصباحية فلاحاً، وفي الفترة بعد الظهر تلميذاً، وعندما تعلم القراءة والكتابة جذبته الكتب فابتعد عن العمل الزراعي ولكن قلبه كان متعلقاً بحب الفلاحين ولديه إحساس داخلي بانتمائه إليهم واعتبرهم الوقود الحقيقي لرفعة ، وتقدم الأمم إذا كان عدد السكان كبيراً.

كانت الصين في نهاية القرن التاسع عشر تتكون من ١٨ مقاطعة، وكانت تحت حكم إمبراطوري يسخر البشر، ويتعامل معهم مثل العبيد، وكانت هناك صراعات داخلية ومحاولات لتوحيد المقاطعات تحت رأى واحد ضد الإمبراطور قادها صن يات سنن، ونجح في توحيد ١٣ مقاطعة بها ثوار ضد الإمبراطور وبقيت خمس مقاطعات في الجنوب فاوض فيها نائب الإمبراطور على أن يتخلى الإمبراطور عن العرش مقابل أن يتخلى صن بات سنن عن رئاسة البلاد ، وفعلاً تم الاتفاق في ١٢ فبراير عام ١٩١٢ على ذلك وأصبحت الصين جمهورية مؤقتة ، ولكن الإمبراطور انقلب على الجمهورية، وبدأ في محاربة صن يات وطارده حتى لجأ إلى اليابان، واشتعلت حرب شبه أهلية في الصين، وتوفي الإمبراطور عام١٩١٦ فعاد صن يات إلى البلاد ، وعمل على بناء قوة عسكرية في البلاد انطلقت من كانتون في الجنوب ، وشكل حكومة عسكرية هدفها إعادة توحيد البلاد .

وقد ساعدت الثورة السوفيتية التي نجحت عام١٩١٧ صن وقدمت له الدعم العسكري ، وراح الشيوعيون ينضمون إلى حزب الشعب ، وأوشك صن على تحقيق حلمه ولكنه توفي عام ١٩٢٥ وخلفه في الرئاسة تشانج كاى شيك الذي أكمل توحيد الصين ولكن برعاية أمريكية نقضاً لمبادئ سلفه صن، وهنا بدأ يظهر ماوتسي تونج الذي أحس أن هناك من يريد أن يسرق ثورة الشعب ويبعدها عن مبادئها في المساواة والحرية ، وينقل تبعيتها إلى المعسكر الغربي والرأسمالية .

وكان ماو شابًا نشيطاً ملتزما بمبادئ الحزب الشيوعي الصيني منذ عام ١٩٢١، وكانت مجموعته التي تضم ٥٧ عضواً منهم شواين لاى (الذي تولي رئاسة الصين فيما بعد) شاركوا في المحاولة الأولى لتوحيد الصين مع صن يات سن، وبعد وفاته وقفوا موقف العداء من الرئيس الموالي لأمريكا كاي شيك الذي طاردهم فاضطر ماو ورفاقه عام١٩٢٧ إلى الهرب إلى الجبال حيث بدأت المرحلة الجديدة والحقيقية لتحرير الصين وبنائها.

عاش ماوتسي تونج في الجبال مع الفلاحين وعمل معهم، فقد آمن ماو بأن الفلاح هو الركيزة الأساسية للثورة (وليس العامل كما ذكر كارل ماركس) لأن الفلاح منتج للغذاء ويمكن أن يتحول إلى مقاتل بالتدريب، وفعلاً بدأ يشكل كتائب عمل من الفلاحين للزراعة والقتال وأنشأ نقاط للمراقبة لحماية المناطق من أي هجوم محتمل، وعَلَّم الفلاحين فنون القتال وجعلهم جيشاً نظاميًا، تمكن من هزيمة قوات كاى شيك التي حاولت مهاجمتهم

وكانت تتألف من ثلث مليون جندي، وفي عام ١٩٣٩ أعلن ماو إنشاء جمهورية شيوعية في الجبال وأيد الفلاحين ، ولكن ماو انسحب من جمهوريته التي هجمت عليها جيوش الرئيس كاى شيك وبدأ ماو مسيرة امتدت إلى ستة آلاف ميل وتسمى "المسيرة الكبرى" إلى أن استقر في إقليم شانسي وأخذه قاعدة جديدة للانطلاق لتحرير الصين من حكم كاى شيك الذي كان يحكم الصينيين بالحديد والنار، ولم يتوقف عن الكفاح إلا عندما احتلت اليابان أراضي الصين في الحرب العالمية الثانية، فتحالف مع عدوه كاى شيك لتحرير بلدهم.

وعند هزيمة اليابان واستسلامها عام١٩٤٥ كان ماوتسي تونج قد أصبح معروفاً ومشهوراً بين أبناء وطنه لدوره في التحرير ، وكان رئيس الحزب الشيوعي الصيني، وكعادته عاد إلى الذاكرة القديمة وإلى قاعدته الأصلية ، وهم الفلاحون حيث كان يؤمن أن صغار الفلاحين المطحونين والشباب الاشتراكى المتعلم هم الأمل الأخير في تحقيق حلمه باستتباب الأمن والحق والعدالة، فكوَّن جيشاً منهم اكتسح جنوب الصين، وبدأ الزحف نحو الشمال وأخذت المقاطعات الأخرى ترحب به وتؤيده وفي٣٠ سبتمبر١٩٤٩ وصل الزحف إلى بكين، وسيطر عليها وأعلن في ميدان تيان أن من أكبر ميادين العاصمة قيام جمهورية الصين الشعبية، في ذلك الحين هرب كاى شيك إلى جزيرة صغيرة، وأنشأت له أمريكا دولة سميت فراموزا التي هي تايوان الآن وجعلتها ممثلة الصين في الأمم المتحدة واعترف العالم الغربي بها نكاية في ماوتسي تونج.

بدأ ماوتسي تونج في بناء الصين الحديثة ، وكان مثلاً وقدوة في الصرامة والبساطة والجدية في العمل والملبس واهتم بالزراعة أولاً وثانياً حتى يحقق الاكتفاء الذاتي من الطعام لشعب يتألف من ألف مليون من البشر ، ونجح في ذلك وقاد ثورة زراعية إصلاحية ووزع أراضي كبار الملاك (٨٠مليون فدان) على الفلاحين واشترط أن يعملوا في شكل تعاونيات مسؤولة عن كل قرية ومقاطعة؛ حتى لا تتفتت الملكية ويقل الإنتاج الزراعي، وأبعد الرفاق الثوريين عن مباهج التمتع بثمار الثورة والسلطة؛ لأن الثورات في بعض الأحيان تدمر أبناءها بالتكالب على السلطة، فتعاونوا معه وزاد الإنتاج الزراعي وازدهرت البلاد، لأن ماو كان يعرف مقولة برنارد شو "إن الشعوب تزحف على بطونها" .

ثم اتجه إلى قاعدة صناعية جديدة في البلاد لتحقيق بعض من الاكتفاء الذاتي في الصناعات

الأساسية والصناعات الصغيرة ، وجعل الصينيين يعملون حتى في بيوتهم وكان كل عدة أعوام يضع شعارات ثقافية يسير الشعب خلفها لبدء مرحلة جديدة في التشييد والبناء، ففي عام١٩٥٢ كان العنوان محاربة الأعداء الثلاثة: الفساد والإسراف والبيروقراطية وفي عام١٩٥٥ كانت مقاومة الانحراف الثقافي لإبعاد الشعب عن مغريات الانحرافات الثقافية الغربية، وفي عام١٩٥٦ كان الشعار دعوا مائة زهرة تتفتح.

واختلف ماوتسي تونج مع أغلب القوى العالمية المتواجدة على الساحة ولم يهتم إلا ببناء الصين الجديدة ، وعمل ستاراً من العزلة بين الصينيين والعالم وقاطع مبادئ كل من روسيا وأمريكا والعالم الغربي، وأسدل ستاراً على الشعب الصيني إلى أن فاجأ العالم بأن الصين أصبحت دولة نووية، وقوية عسكريًّا وصناعيًّا ولكنها متعثرة زراعيًّا بسبب اتجاه الشعب للإهتمام بالإنتاج الصناعي على حساب الإنتاج الزراعي (كما حدث في مصر خلال فترة الستينيات والسبعينيات والثمانينيات)، وعندما وجهت الانتقادات لسياسته استحضر ما سماه بالثورة الثقافية عام ١٩٦٦ واعتمد فيها على الجيل الثالث من الشباب الثوري، والطلبة الذين يمكن توجيههم بسهولة للقضاء على منتقديه من البرجوازيين الجدد والمنحرفين في الحزب الشيوعي الصيني، وأفلت مرة أخرى ماوتسي تونج بخبرته وصلابته من آخر فخ نُصب له وللصينيين للسيطرة على بلادهم .

ونجحت الثورة بالفعل في إزاحة عدد غير قليل من كبار المسؤولين ، ومنهم رئيس الدولة ليو تشاوشي وشياوبنج والذي تولى قيادة الصين بعد رحيل ماوتسي تونج، حيث أكمل المسيرة ووضع سياسة اقتصادية وسياسية وتعليمية جديدة وانفتح على العالم بأكمله ، واستغل عودة الصين لمقعدها الدائم في مجلس الأمن والأمم المتحدة في لعب دور مهم في السياسة الدولية، وتوالى الزعماء الصينيون يضع كل منهم لبنة جديدة في صرح الصين العظيم الذي وضع قواعده الرجل الذي لم يعرف المستحيل في حياته ماوتسي تونج الذي توفي عام١٩٧٦، تاركا أبناء الشعب الصيني العظيم رجالا ونساءً أشداء يعشقون العمل ويقدسون الكفاح والإنتاج حتى إن قيمة الإنتاج الصناعي الصيني عام٢٠١١ وصلت إلى أعلى قيمة عالمية للدولة، متفوقة بذلك على أمريكا واليابان وألمانيا مثلما كان الحال عام١٨٤٠ في القرن التاسع عشر.

39



ونستون تشرشل

"قائد يحمل جينات حب الوطن والقوة والصحة والمصلحة"

يمثل الزعيم الكبير ونستون تشرشل العراقة والصفات الإنجليزية الراقية أصلاً وصورة واعتداداً بالنفس ، ويمكن لمن لم يرَ صورته لأول مرة ، ولم يكن يعرفه من قبل أن تسأله عن جنسية صاحب الصورة فيجيبك بأنه إنجليزي الجنسية، وعندما كنا طلبة في كلية الطب بجامعة القاهرة كان الأستاذة الكبار الذين يدُرّسون لنا يصفون الشخص طويل القامة المتمتع بصحة جيدة وطول العمر ويدخن ويشرب الكحوليات في نفس الوقت، بأن هذا الشخص يحمل جينات "تشرشل" ولم نَعِ تلك العبارة إلا عندما قرأنا عن سيرة هذا الزعيم العظيم الذي حاز على التقدير العالمي في أمرين من الصعب أن يجتمعا في شخصية واحدة وهما :قائد عسكري وبطل في الحرب العالمية ، وأديب مُبهر حائز على جائزة نوبل في الأدب عام١٩٥٣ ، مع أنه لم يكن متفوقاً دراسيًّا في المدرسة الثانوية وأضاع أمل والده في أن يصبح ابنه محامياً ، وكان يهرب من المدرسة ويعود للمنزل ويلعب مع شقيقه لعبة الحرب والهجوم برص عدد من العساكر في صفوف يكوِّن منها جيشاً ليحارب ضد شقيقه الصغير، ولذا تنفس الصعداء عندما وافق والده على إلحاقه بكلية ساند هيرست العسكرية، وتبدلت أحواله من شاب كسول في الحياة المدنية إلى شاب متميز في دراسته العسكرية متفوقاً على أقرانه ، وكأن جيناته كانت تنتظر صوت البروجي لتشق طريقها إلى العلو والتميز .

وهكذا تحدى عقبات عدم تفوقه في دراسته الأولى، وأصقَل ثقافته بالقراءة بحيث يتفرغ للكتابة والنشر في السنوات التي لا يفوز فيها في انتخابات مجلس العموم أو عندما يكون

وزيراً ويستغنون عن خدماته فجأة، فأي شخصية تلك التي ملكت هذه القدرات على تحدى المستحيل.

وُلد ونستون تشرشل عام١٨٧٤ في قصر بلاينهام القريب من أكسفورد وكان قصراً عريقاً بناه جده السابع دوق مارلبور الأول ، ونشأ في عائلة ثرية وعريقة ووالده هو الدوق راندولف تشرشل ووالدته أمريكية الأصل اسمها جيني جيروم ووالدها كان أحد رجال الأعمال الأمريكيين الأثرياء بنيويورك، لم يظهر عليه بوادر نبوغ وتفوق في المرحلة الثانوية بل كان كسولاً ويحب الهروب من المدرسة والمذاكرة في المرحلة الثانوية عام١٨٨٨ ولم يهتم كثيراً بدراسة اللغة الإنجليزية، وآدابها وطلب من والده أن يلحقه بكلية ساند هيرست العسكرية ، ودرس وتفوق فيها وتخرج ضابطاً عام١٨٩٤.

حارب مع الجيش الأسباني في كوبا ثم انتقل إلى الهند حيث كانت مستعمرة بريطانية وقضى بها مدة طويلة من حياته كضابط وخلال تلك الفترة اهتمت والدته بتثقيفه وكانت ترسل له صناديق تحتوى على كتب متنوعة في مجالات عدة، قرأها كلها وبدأ يمارس الكتابة على سبيل الهواية ونشر أول قصة له عام١٨٩٨ لخص فيها تجربته في الهند واسمها "قصة قوات سهل مالاكاند" ثم انتقل للعمل في السودان وجنوب أفريقيا حيث استغل موهبته الأدبية، وأصبح مراسلاً لصحيفة مورننج بوست بجانب عمله العسكري، اشترك في حرب البوير في جنوب أفريقيا، وتم أسره وتمكن من الفرار من الأسر وعاد للقتال مرة أخرى، وقد سجل قصة اعتقاله وهروبه وعودته في كتاب أصدره، ثم قام بجولة في أمريكا ليروى تلك المغامرات وربح أموالاً كثيرة من هذا العمل مكنته من أن يرشح نفسه في مجلس العموم (حيث كان النائب في تلك الفترة لا يتقاضى مرتباً من الحكومة على حيثية عضويته بالبرلمان) .

ومن هنا يتضح لنا شخصية ونستون تشرشل حيث كان قادراً على الاستفادة من أي حدث يمر به ويحوله لصالحه كما حدث أثناء معركة بيرل هاربر عندما هاجمت الطائرات اليابانية السفن الحربية الأمريكية على أراضي أمريكا، ففطن ونستون تشرشل لما حدث وكيف يستفيد منه لدرجة أنه كان يستحم في منزله وأبلغته مديرة المنزل بالحدث عندما سمعته في الإذاعة، فخرج من الحمام عاريا مبتهجاً، وأيقن أن هذا الهجوم سيجعل الرئيس

الأمريكي يعلن الحرب على اليابان وألمانيا العدوين اللدودين لبريطانيا، وأيضاً كان ونستون تشرشل يستطيع أن يُلمِّع الأعمال التي يقوم بها للآخرين بحيث تبدو في أزهى صورها، عكس بعض الأشخاص الذين يعملون جيداً ولكن يعبرون عن نفسهم بصورة سيئة.

في سن السادسة والعشرين انتخب عضواً بالبرلمان البريطاني عام١٩٠٠ ممثلاً عن حزب المحافظين ثم ترك الحزب وانضم إلى حزب الأحرار عام١٩٠٤ وتقلد منصب نائب وزير المستعمرات كأول منصب سياسي له وتزوج عام١٩٠٨ من صديقة طفولته كليمانت هوزييه وقد أنجبا ولداً و٤بنات توفيت إحداهن.

ثم عين وزيراً للداخلية عام١٩١٠ وأتم عدداً من المشروعات الاجتماعية والمساعدات والشؤون الصحية أثناء وجوده بالبرلمان، وساهم مع وزير البحرية في تحديث الأسطول البحري البريطاني ، ثم عين قائداً للبحرية قبل الحرب العالمية الأولى حيث أبلت البحرية البريطانية بلاءً حسنا في ذلك الوقت ، ماعدا سوء الحظ الذي صادف تشرشل في أول الحرب عندما فشل في محاولة احتلال الدردنيل وأجبر على تحمل خطأه، وتم عزله من قيادة البحرية وكان ذلك شرطاً لتشكيل حكومة جديدة تتألف من حزب المحافظين والأحرار، وظن تشرشل أن حياته السياسية آخذة في الأفول وبدأ يتعلم الرسم عام١٩١٥ ويرسم لوحات، ولكن سرعان ما استدعوه عام١٩١٦ لإنقاذ الأوضاع في الجيش الإنجليزى أثناء الحرب، وعين وزيراً للإمدادات العسكرية، وبنهاية الحرب كان قد أصبح وزير الدولة لشؤون الحرب والقوات الجوية حيث تعلم الطيران أيضاً، وأصبح طياراً وهكذا كان تشرشل عنصراً أساسيًا من عناصر نصر بريطانيا في الحرب العالمية الأولى.

سقط تشرشل في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٢٢ وتنقل بين حزبي الأحرار والمحافظين ، ولم يرَ أن المناصب التي تعرض عليه تلبي طموحاته فقرر أن يترك العمل السياسي ويبتعد ويبدأ حياة جديدة يمارس فيها هوايته في الرسم والكتابة واستمرت تلك الفترة عشر سنوات من١٩٢٩ حتى١٩٣٩، نشر خلالها كتب "طفولتي"، "مارلبورو" (٤أجزاء١٩٣٣ -١٩٣٨) "أفكار ومغامرات" (١٩٣٢)، "معاصرون عظماء" (١٩٣٧).

بدأت الحرب العالمية الثانية عام١٩٣٩ وكان تشرشل مستمتعاً بحياته الخاصة بعيداً عن ملاعب السياسيين ، وألاعيبهم ولكنهم استدعوه عام١٩٣٩ ليكون قائداً للبحرية لما له

من خبرة سابقة ، ولكن مع توالى سقوط الدول الأوربية أمام القوات الألمانية عام١٩٤٠، قدمت الحكومة الإنجليزية بقيادة رئيس الوزراء تشمبرلين استقالتها لعدم قدرتها على مواجهة المواقف، وعلى إثر ذلك ثم استدعاء "المنقد العام" ونستون تشرشل وتكليفه بتشكيل حكومة ووزارة حرب، وقد شكل حكومة استمرت في الحكم خمسة أعوام حتى انتصرت بريطانيا في الحرب مع الحلفاء على ألمانيا وإيطاليا واليابان، ومن العجيب أن رحلة الصعود والهبوط في حياة ونستون تشرشل لم تهز شعرة من رأسه، بل كان يدخل كل تجربة جديدة عازماً على النجاح صريح العبارة والمواجهة كأنه يتعمد أن يخيفك منه أولاً ، حيث قال للشعب البريطاني عندما تولى رئاسة مجلس الوزراء أثناء الحرب العالمية الثانية: "ليس عندي لكم إلا العرق والدموع" فلم يبدأ عهده بطمأنتهم والتدليس عليهم بالأماني الوردية على غير الحقيقة التي سوف يرونها، وكان توزيع المواد التموينية على الشعب أثناء الحرب بالحصص الثابتة لكل أسرة حسب الحد الأدنى المطلوب للبقاء على قيد الحياة.

من أهم مميزات ونستون تشرشل أنه كان ماهراً في الاستفادة من أخطاء الغير، وقلب موازين الأحداث لصالح بريطانيا، حيث استغل خطأ هتلر في مهاجمته للأراضي الروسية والمشاكل التي تعرضت لها القوات الألمانية من جراء طول مسافات الإمداد والتموين لقواتها وتعثرها بسبب الجليد والبرد القارص في شتاء روسيا، وتحالف مع جوزيف ستالين رئيس روسيا ضد ألمانيا والذي كان من قبل عدوه اللدود ضد ألمانيا ورغم أنه كان يكره الشيوعية إلا أنه قال لمنتقديه: "إنني مستعد للتحالف مع الشيطان من أجل بلدي" .

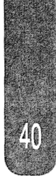
وكانت النتيجة أن دخلت روسيا الحرب بثقلها الكامل حتى إن الخسائر البشرية في صفوف الجيش الروسي كانت عشرة أضعاف الخسائر البشرية في الجيش الإنجليزي، ومع ذلك بعد انتهاء الحرب أوعز إلى الرئيس الأمريكي الجديد هاري ترومان أن يضرب موسكو بالقنبلة الذرية للتخلص من المد الشيوعي في أوروبا الشرقية التي سيطرت عليها روسيا بعد أن حررتها ، ولكن الرئيس الأمريكي لم يوافق .

وسبق أن ذكرت كيف استفاد تشرشل من معركة بيرل هاربر لجر الولايات المتحدة لإعلان الحرب على اليابان، وبالفعل دخلت أمريكا الحرب ، وبدأت في إمداد الحلفاء بالأسلحة والعتاد والمؤن وبدأت قواتها المسلحة تشارك في العمليات الحربية من أول إنزال

بحري في نورماندي لتحرير فرنسا وتلاها الدول الأوربية الأخرى.

أعتقد أنه من الصعب أن تتكرر شخصية الزعيم ونستون تشرشل في عصرنا الحالي، لما تميزت به من ذكاء ومقدرة على جعل الآخرين يعملون لصالح وطنه وقدرته على المناورة وقابليته للسقوط ثم النهوض مرة أخرى أكثر قوة، ويبدو أن ونستون تشرشل كان مستوعباً جيداً لقصة الأديب السويسري العالمي دورنيهات "سأعود لأنتقم" حيث أسقطوه في الانتخابات عام١٩٤٥ "رغبة في التغيير" ، ثم استدعوه مرة أخرى لتولي رئاسة مجلس الوزراء عام١٩٥١ حتى١٩٥٥.

وهكذا كان ونستون تشرشل، رجلاً قابلاً للثنى وليس قابلا للكسر مثل الحديد المطاوع ، واستحق أن يكون البطل القومى للمملكة المتحدة في القرن العشرين عن جدارة واستحقاق وبلا منازع ، ذلك لتفانيه في حب وطنه وخدمته طوال عمره الذي امتد لحوالي واحد وتسعين عاماً متحدياً كل المستحيلات التي صادفته، حتى توفي عام١٩٦٥ وأقيمت له جنازة شعبية وعسكرية لم تشهد مثلها إنجلترا في القرن العشرين.





ليخ فاونسا

"العامل الذي دق أول مسمار في نعش الشيوعية"

يقولون إن معظم النار من مستصغر الشرر ، ولكن أي نار تلك التي اشتعلت جذوتها في أوروبا الشرقية من جراء تجمع عمالي على غير اتفاق يوم١٤ أغسطس صباحاً في ترسانة لصناعة السفن في جدانسك ببولندا بمرفأ صن، وقبل أن ينهي العمال اعتصامهم احتجاجاً على زيادة أسعار السلع بعد أن وعدهم المسؤولون بالحزب الشيوعي البولندي بترضيتهم، ظهر من بينهم شاب اسمه ليخ فاونسا قرر أن يتحدى المستحيل ، والذي كان في ذلك الوقت الحزب الشيوعي البولندي، وكان صوته أول خازوق في تاريخ الشيوعية العالمية.

وكما ذكر الأستاذ صلاح منتصر في كتابه "الذين غيروا القرن العشرين" الصادر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر عام٢٠٠٠ صـ٨٦ أن من حق المحللين أن يكتبوا أسباباً عديدة لنهاية الإمبراطورية السوفيتية (الشيوعية) ولكن أهمها في رأيي تلك الخلية التي بدأت بقيادة ليخ فاونسا، الذي كان أول من دق مسماراً في نعش أكبر وأوسع إمبراطورية في القرن العشرين. وقد استعرت عنوان مقالي من سيادته.

ولد ليخ فاونسا في ٢٩ ديسمبر عام١٩٤٣ لعائلة بولندية فقيرة من طبقة الفلاحين، وكانت عائلة كاثولوكية متدينة وتوفي والده بعد أن اعتقله الألمان عام١٩٤٥ وتزوجت والدته من عمه وأنجبت إخوته من الأم والعم الذين هاجروا فيما بعد إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث جُند فاونسا في الجيش البولندي عام ١٩٦٣ بعد أن أنهى دراسته الإعدادية عام١٩٥٨ ثم دراسته الصناعية عام١٩٦١ في مدرسة داخلية وتخرج ميكانيكيًا

وعمل بعدها في أحد المصانع من عام١٩٦١ حتى عام١٩٦٣، وكان في ذلك الوقت من أشد المتحمسين للحزب الشيوعي البولندي، وبعد تخرجه من الجيش عام١٩٦٥ برتبة عريف التحق بالعمل في ميناء دانتزج الذي أصبح اسمه جدانسك حيث عمل كهربائيا في حوض بناء السفن، وتزوج مرتين إحداهما كانت من فتاة فقيرة مثله تبيع الزهور عام١٩٦٦ وبعدها بثلاث سنوات تزوج من زميلة دراسته التي رافقته حتى الآن وقد أنجب من زوجتيه ثمانية أبناء.

كان ليخ فاونسا يهوى قراءة التاريخ ويستوعب العبر والأحداث التي مرت بها بلده بولندا والدول المحيطة به ، ويكره الظلم والاعتقالات والجاسوسية التي حرمته من أن يرى والده، ومن هنا كانت جرأته ومقدرته الفائقة على الخطابة والجدل، ورؤية ما لا يراه الآخرون من حقوق المظلومين والبؤساء والفقراء، ولعل ذلك يفسر اقتناعه التام بالمبادئ الشيوعية في أول الأمر حتى اكتشف زيف تلك المبادئ عام١٩٧٠ عندما قررت الحكومة رفع سعر السلع الأساسية، وخاصة اللحوم على المواطنين بأوامر من الرئيس جومولكا مما أدى إلى اضطرابات كبيرة في البلاد أدت إلى خلع الرئيس جومولكا، وتولى الرئيس جيرك بدلا منه، ولكن دارت عجلة الزمن وحدثت نفس الاضطرابات عام ١٩٨٠ وازدادت الأمور الاقتصادية سوءاً واضطر الرئيس جيريك إلى سلوك نفس المنحى بزيادة أسعار السلع الأساسية على الفقراء، حدث تجمع عمالي في الوردية الصباحية لميناء جدانسك يوم ١٤ أغسطس ١٩٨٠ لمجرد التعبير عن سخط العمال على قرارات الحكومة وكان تجمعاً غير مرتب له ، وليس في صورة اعتصام أو إضراب عن العمل، ولذا سارعت الحكومة والحزب الشيوعي بإرسال مندوب لتهدئة العمال على أمل ترضيتهم فيما بعد، وقبل أن ينصرف العمال إذا بذلك الشاب ذي الشوارب الهوليودية ضخم الجسم يظهر ويعترض على الإتفاق ويشعل نيران غضب العمال من جديد ، ويتحول الرماد إلى نيران جديدة كما ذكر الأستاذ صلاح منتصر في كتابه المذكور سابقاً.

هل كان هذا الشاب البولندي الجريء والعامل البسيط يدرك ما يمكن أن يحدث له في بلد شيوعي يُحكم بالحزب والحديد والأوامر والطاعة العمياء، هل وضع في اعتباره أنه لم يأخذ رأى المثقفين والأدباء والصحفيين والعلماء في بلده، بالطبع لا ! فقد اندفع لا تلقائيا

للخطابة ولمعارضة الاتفاق متحدياً المستحيل من أجل حقوق العمال ، واستطاع أن يحصل على موافقة الحكومة على إنشاء نقابة عمال مستقلة عن الحزب الشيوعي تسمى "تضامن" نسبة إلى إنضمام العمال والمثقفين ، وعدد من رجال الكنسية الذين بدأوا يقفون مواقفه ومن حسن حظ ليخ فاونسا أنه تم إختيار بابا الفاتيكان من بولندا خلال تلك الفترة، فظهرت بولندا كدولة قائدة في الرجوع عن الإلحاد والشيوعية ، وكدولة رائدة في التخلص من الهيمنة الشيوعية وسقطت الأفكار الشيوعية والماركسية .

وكما ذكر الأستاذ صلاح منتصر في كتابه "إذا كانت المواقف والظروف الكثيرة تخلق البطل رغماً عنه فقد دفعت الظروف فاونسا كي يأخذ دور البطولة لانتفاضة عمالية آتت أُكلَها".

أُعتقل فاونسا عام ١٩٨١ ثم أفرج عنه عام ١٩٨٢، وبعد شد وجذب أصبح فاونسا أول رئيس جمهورية لبولندا بالانتخاب الحر عام١٩٩٠ وكان قد حصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٣، وهكذا كانت قصة أول مغامر تحدى الشيوعية في العالم وتحدى المستحيل معها.

41



بشارة الخورى

"كفاح وهروب واعتقال انتهي باستقلال لبنان"

يوصف بشارة الخورى بأنه أبو الاستقلال في لبنان ؛نظراً لما قدَّمه خلال حياته من تضحيات وشجاعة في مواجهة الحكم العثماني أولاً ، وفي الانتداب الفرنسي ثانياً مع رفيق دربه وكفاحه الأستاذ رياض الصلح الزعيم اللبناني الذي أسس لبنان الحديثة مع بشارة الخورى، وتم اغتياله في الأردن عام١٩٥١ .

ولد الرئيس بشارة الخورى في بيروت عام١٨٩٠ في ١٠ أغسطس، وتلقى تعليمه الأولي والثانوي في لبنان ثم سافر إلى باريس حيث حصل على ليسانس الحقوق ، ثم عاد إلى لبنان ليعمل في المحاماة في مكتب أميل إده، عندما قامت الحرب العالمية الأولى عام١٩١٤ قدم عريضة للقنصلية الفرنسية في لبنان تطالب باستقلال البلاد من الحكم العثماني ، ووقعت العريضة في يد الأتراك وبدأوا يبحثون عنه ويطاردونه مما اضطره إلى الهرب إلى مصر خوفاً من ملاحقته؛ لأنه أسس جمعية بيروت اللبنانية التي ضمت مجموعة من مثقفي وشباب لبنان الذين ينادون بالاستقلال، في القاهرة اشتغل بالمحاماة في مكتب المحامي الأستاذ خليل بولاد ثم انتقل للعمل في مدينة الإسكندرية بمكتب المحامي جون كاتسغليس وانضم إلى جمعية أسسها الشيخ أنطوان الجميل، وعاش بمصر حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عام١٩١٨ ثم عاد لبيروت ، وبدأ العمل السياسي الجدى بجانب مزاولته لمهنة المحاماة، عين عام١٩٢٢ رئيساً لمحكمة الاستئناف اللبنانية ثم عين وزيراً للداخلية عام١٩٢٧ ثم أصبح عضواً في مجلس الشيوخ اللبناني ، وأسس حزباً سياسيًا سمي "حزب التقدم" أثناء فترة الانتداب الفرنسي على

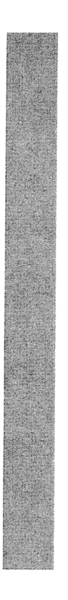
لبنان، واعتلى منصب رئيس الوزراء عام١٩٢٨ واستقال منه واعتلاه مرة ثانية وثالثة، وأصبح نقيباً للمحامين اللبنانيين عام١٩٢٠، خلال عام ١٩٣٣ شارك في تأليف "الكتلة الدستورية" التي أصبحت في صفوف المعارضة في مجلس الشيوخ اللبناني .

في ذلك الوقت طالب مع المرحوم الشيخ رياض الصلح بحتمية استقلال لبنان عن فرنسا، وتوافقت تلك النداءات مع جموع الشعب اللبناني من مسلميه ومسيحييه، وكان هو والشيخ رياض الصلح يمثلان جناحي الأمة الرئيسين إضافة إلى مناضلي جبل الدروز وعائلة جنبلاط والشيعة في الجنوب اللبناني، وقد اتفقوا جميعاً على اختياره رئيساً لجمهورية لبنان في ٢١ سبتمبر عام١٩٤٣ ولكن السلطات الفرنسية لم ترضَ باختيار ذلك المناضل الذي تحدى الإمبراطورية العثمانية من قبل، فقامت باعتقاله مع رفيقه رياض الصلح يوم ١٠ نوفمبر عام١٩٤٣ بتهمة التآمر على سلطة الانتداب، ووُضع الاثنان تحت الحراسة في قلعة راشيا .

وهنا أدرك الشعب اللبناني المؤامرة التي كانت تحاك ضده، فقامت ثورة الشعب اللبناني، مما اضطر السلطات الفرنسية للإفراج عنه وعن الشيخ رياض الصلح ورفاقهما من المعتقل وفي ٢٢نوفمبر ١٩٤٣ اعترفت فرنسا باستقلال لبنان ، وتولى الرئيس بشارة الخورى رئاسة لبنان كأول رئيس لها بعد الاستقلال، وتولى الشيخ رياض الصلح رئاسة الوزراء ووضعا سوياً الميثاق الوطني اللبناني "الذي نظم أسس الحكم في لبنان واستمر رئيساً لجمهورية لبنان حتى عام ١٩٥٢ يقدم جليل الخدمات لبلده وعاصر٩ رؤساء حكومات في عهده الذي شهد تشكيل خمس عشرة وزارة لبنانية، ولكن في نهاية مدة رئاسته شهدت البلاد مظاهرات ضخمة ضده مما اضطره للاستقالة عام١٩٥٢ وتسليم البلاد إلى حكومة عسكرية تتولى إجراء انتخابات رئاسية جديدة .

واعتزل الرئيس بشارة الخورى العمل السياسي بعد رحلة نضال تحدى فيها الاحتلالين التركي والفرنسي، فأصبح أول زعيم عربي يعاصر احتلالين ، ويثبت أمامهما ويقاومهما حتى يصل إلى أن تصبح بلاده حرة مستقلة، واحترمت هذا التفرد في النضال والثبات على المبدأ واعتبرته من الرجال الذين لم يعرفوا المستحيل.

تُوفي الرئيس بشارة الخورى في الحادي عشر من يناير عام١٩٦٤في بيروت.



الفصل الخامس

مُطارَدون لم يعرفوا المستحيلَ

42



بيرم التونسي

"البقال المطارَد الذي زادته المطاردة إبداعاً"

هذا الشاعر التونسي والكاتب العظيم وُلد ليتحدى، وعاش مطارَداً فاستهواه الصراع مع العمالقة وركوب المستحيل، فقد ولد في بلد وحمل جنسية بلد آخر لم يعش فيه ، وتتمتع قانونيًّا بحماية قضائية لبلد لم يرها ، ونفي إلى دولة أخرى لا يرغب في العيش فيها، ثم هرب إلى بلد أحبها واختبأ في شوارعها العتيقة بحي السيدة زينب، فكانت حياته قصة هروب مستمرة كضريبة لصراحته وإبداعه ، وقصة عودة لمزيد من الإبداع، في البلد الذي وُلد فيه .

ولد محمود بيرم التونسي في مدينة الإسكندرية بحي الأنفوشي في٤ مارس عام١٨٩٣ من أسرة تونسية جاء عميدها الأول مصطفي بيرم من تونس إلى الإسكندرية وأقام بها، تلقى أول تعليمه في مسجد بالإسكندرية تلك المدينة الجميلة الخلابة التي استهوته بثقافتها العالية وبرقي أهلها وباختلاط الأجناس والجنسيات واللغات والمباني والثقافات والمطاعم ، حتى المقابر تجد فيها تنوع الحضارات وتعددها (ولهذا السبب رحلت إلى مدينة الإسكندرية لكي أتفرغ لعمل هذا الكتاب تقديراً مني لتلك المدينة التي تركتها منذ خمسة وثلاثين عاما ، التي أعتبرها منذ الخمسينيات من القرن الماضي فندقا ومتحفا عالميا للحضارات الراقية المختلفة (فرعوني – بطلمي – يوناني – إسلامي – أوربي).

عمل بيرم التونسي في بداية حياته بمهنة البقالة، ولكنه كان هاوياً ومدمناً للقراءة وبدأ في نظم الشعر والزجل ، ولكن كتاباته كانت تشير إلى عبقرية توعية المجتمع وفضح

أخطاء بعينها فأصدر نشرة باسم "المسلة" فصادرتها الحكومة في عددها الثالث عشر، ونظم زجلاً عن ميلاد الملك فاروق الأول رحمه الله ، وكان ذلك الزجل يعيب في الذات الملكية وسمي "القرع الملوكي والبامية السلطاني" وحيث إنه كان يتمتع بالجنسية التونسية، ومن ثم الحماية الفرنسية مرت تلك الأزمة العاصفة بهدوء ، حتى أصدر عدداً واحداً من نشرة سماها "الخازوق"، فكانت تلك الطامة الكبرى في حياته ، ولولا تمتعه بالحماية الفرنسية لأنه تونسي لوضع وراء الشمس ولكن السفير الفرنسي، اكتفي بعد محاكمته بنفيه إلى فرنسا، ظل منفيًّا مشرداً بين باريس وتونس وليون ودمشق وبيروت والسنغال من عام١٩٢٠ حتى عام١٩٣٨ ، هرب خلالها عامين إلى مصر ، وتزوج من حبيبته المصرية ، حتى اكتشفته السلطات وأعادته إلى منفاه .

خلال أعوام المنفي تكلم وكتب وأبدع متحدياً مطارديه الذين حكموا عليه بالنوم كالمشردين في باريس ، فكانت تلك يقظته الفنية وتفرغه لكتابة أزجاله وأشعاره ضد الإنجليز فأصبح محمود بيرم التونسي يذكره التاريخ بتحديه المستحيلات، وينسي التاريخ من طاردوه. في عام١٩٣٨ كان مسافراً على سطح مركب ورسى ذلك المركب في ميناء بورسعيد فتسلل منه بيرم التونسي، وهرب إلى القاهرة واختبأ لدى أصدقاء له في السيدة زينب، وتولى أصدقاؤه مفاوضة السلطات المصرية للعفو عنه، وكان الملك فاروق قد اعتلى عرش مصر وكان ملكاً طيب القلب .

وكان رئيس الوزراء في ذلك الحين محمد محمود باشا الذي كان يُقدِّر الفن والفنانين ، ومن حُسن حظ بيرم التونسي أن وزير الداخلية في ذلك الوقت كان ابن الإسكندرية العظيم محمود فهمي النقراشي باشا أحد المعجبين ببيرم وفنه ، وأيدهم في اتخاذ قرار العفو أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي، ومن تقديرهم لبيرم التونسي اتفق الثلاثة معه على أن يكتب زجلاً في جريدة الأهرام الوقورة يستعطف فيه الملك فاروق ، ويطلب منه السماح له بالبقاء في مصر البلد التي ولد فيها وأحبها، ويسرد في ذلك مدى صعوبة الحياة التي عاشها خارج مصر طريداً مشرداً خائفاً .

وفعلاً كتب الزجل وتم نشره في جريدة الأهرام بالصفحة الأولى ، وبمشقة بالغة تم العفو عنه وبدأ حياته الفنية من جديد ، ولكن المفاجأة أنه قابل زوجته التي كان قد تزوجها

أثناء هروبه الأول إلى مصر في العشرينيات وكانت قد طُلقت منه بعد إعادته للمنفي وتزوجت من شخص آخر بعده، ولكن من حُسن حظه أن زوجها الثاني قد توفي، فعاد إليها بيرم التونسي ثانية.

عندما قامت الثورة المصرية عام١٩٥٢، انتهى عصر التحفظ والخوف عند بيرم التونسي فكتب وأبدع وكان أحد أقلام الثورة، وأهم ألسنتها وكانت كلماته صادقة ونابعة من قلبه، فمنحته الثورة الجنسية المصرية عام١٩٥٤ وقلده المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر وسام الفنون في عيد العلم، وكان ذلك الوسام هو آخر تكريم له قبل وفاته بمصر عام١٩٦١ .

وقد سمي باسمه أحد الشوارع العريقة بحي السيدة زينب بعد حياة حافلة بالمطاردات من المسؤولين والإنجليز الذين تفرغ لمهاجمتهم أثناء نفيه خارج مصر وإرسال تلك الأشعار والأزجال إلى مصر، حياة حافلة أيضاً بالإنتاج الفني الجميل مع زميل عمره الملحن زكريا أحمد وغناء السيدة أم كلثوم له أجمل الأشعار ثم أشعاره في الأغنيات الوطنية المصرية ودواوين شعره وأزجاله المميزة التي لم يرتقِ أحدٌ لمستواها حتى اليوم.





كلاشينكوف

"هرب من سيبيريا سيراً ١٠٠٠كيلو متر وصمم سلاحاً في المستشفى"

اللوم في استخدام الأسلحة لقتل البشر لا يقع على عاتق مخترع السلاح، وإنما يتحمله السياسيون الذين يتخذون قرارات استخدام الأسلحة في الصراعات والحروب، كانت تلك كلمات ميخائيل كلاشينكوف الجندي الروسي الذي صمم البندقية التي تحمل اسمه أثناء مرضه بالمستشفى العسكري بالاتحاد السوفيتي.

كان ميلاد العبقري الروسي ميخائيل كلاشينكوف عام١٩١٩ لأسرة كبيرة العدد من الفلاحين الروس ، واتهمت أسرته بمعاداة الثورة البلشفية فتم نفيهم جميعاً إلى سيبيريا، وكان كلاشينكوف آنذاك في سن الحادية عشرة ، ولكنه في صباه قرر أن يهرب من المنفى بمفرده، وقد كان حيث سار على قدميه ما يقرب من ١٠٠٠ كيلو متر إلى جنوب روسيا وغيّر اسمه لكي يستطيع التخفي عن أنظار المسؤولين وقد استهواه هذا التخفي والبعد عن الماضي والأنظار لدرجة أنه استمر فيه لما يقرب من خمسين عاماً حاملاً اسمه المستعار.

عمل كلاشينكوف متخفيًا في وظيفة سكرتير فني لمدة سنتين ثم انضم للعمل فنيًا للدبابات عام١٩٣٨ وهنا بدأت تظهر براعته الذهنية ، عندما نجح في تصميم جهاز يحسب عدد القذائف التي تطلقها الدبابات وحصل على اعتراف من العسكريين الروس بموهبته وعبقريته ، وأثناء ذلك حدثت الحرب العالمية الثانية، وشارك فيها كلاشينكوف في معركة بريانسك ضد ألمانيا ولكنه أصيب في القتال وأُدخل المستشفى للعلاج، في تلك الأثناء كانت هناك صعوبات في استعمال الرشاش الروسي الذي اخترعه "سوداييف" لثقل وزنه ، فتم عمل

مسابقة لتصميم سلاح فردى أكثر تطوراً وكفاءة، بدأ ميخائيل كلاشينكوف وهو مريض بالمستشفى يضع ويصنع الرسومات والتصاميم لسلاح آلي، واستعان بمكتبة المستشفى للاطلاع على تاريخ تطور الأسلحة الآلية وساعده في هذا العمل أحد الضباط المرضى المحجوزين معه بالمستشفى ، وكان يعمل في مركز علمي قبل إصابته.

استكمل كلاشينكوف محاولاته في التصميم أثناء مرضه، حتى جاءت فرصته وتقدم للمسابقة التي نظمها الجيش عام١٩٤٥ ، وطُلب من كل متسابق أن يحمل اسماً مستعاراً واشترك كل مصممي الأسلحة الكبار بالاتحاد السوفيتي في هذا السباق العلمي ، وظل ميخائيل كلاشينكوف يعمل ليلاً ونهاراً لتحسين نموذجه للسلاح الآلي خفيف الوزن، وتقدم بالنموذج الجديد وفاز من ضمن من تم الموافقة على نماذجهم وتم تصفيتهم إلى ثلاثة، ولحسن حظه توفي أحد المصممين "سودابيف" عام١٩٤٦ ، وأرسلت اللجنة العسكرية له خطاب الفوز بالتصميم وطلبت منه أن يصنع النسخة المعدنية الأولى للسلاح، وكانت أحد شروط المسابقة أن لا يحدث أي تعديلات جديدة أثناء تنفيذ القطعة الأولى، ولكن طرقت على مخيلته أحد التعديلات أثناء التنفيذ فأجراها خلسة، وعند مناظرة اللجنة العسكرية للنموذج بُهرت به ولكنها اكتشفت التعديل الذي يتعارض مع شروط السابقة، لكن أحد كبار القادة العسكريين وهو الجنرال ديجتياريف اعترف بأن ذلك التعديل يجعل السلاح أكثر كفاءة في دقة الرمي وسامحوه ، على تلك الزلة لما لها من دور سيجعل تلك من البندقية السلاح السحري الذي سيتفوق به الجندي الروسي على أقرانه، وبالفعل تم تجربة البندقية كلاشينكوف وتم الاحتفال بميلادها عام ١٩٤٨ وظهرت إلى النور ، وتم تكريم ميخائيل كلاشينكوف بأن رافق المارشال فورنوف قائد المدفعية الروسية حيث استعمل السلاح بنفسه ، ثم قدم العريف ميخائيل كلاشينكوف للجنود على أنه عبقري ومخترع ؛لأنه صمم سلاحاً مميزاً يستجيب لجميع متطالبات الأعمال العسكرية في مختلف الظروف الصعبة مثل الأمطار والعواصف والأمطار وخفة الوزن ودقة التصويب، ولا نحتاج للتدريب على استعماله أكثر من عشر دقائق.

لم يتلق المخترع أية أموال مقابل إنتاج الاتحاد السوفيتي لأي عدد من القطع سواء للاستعمال المحلي أو للعالم الخارجي، وقد كان هذا السلاح أحد أهم القطع التي استفاد

منها الثوار ضد المستعمرين والاستعمار في جميع الأنحاء عندما ساعدهم الاتحاد السوفيتي مشكوراً بإمدادهم بالأسلحة والعتاد اللازمين لتحرير بلادهم، حيث إن أحدث نماذج هذا السلاح كان وزنه ثلاثة كيلو جرامات ، ويمكن حمله لمسافات طويلة في الأحراش والأدغال والغابات ويتحمل البرودة لدرجة الثلوج ، وكذلك الأجواء الحارة وقليل الأعطال وتم إنتاج حوالي ١٥٠ مليون قطعة منه على مدى ستين عاماً لدرجة أن الجيش الروسي منذ عهد ستالين وحَّدَ الرشاشات الآلية ، وجعلها ماركة كلاشينكوف فقط .

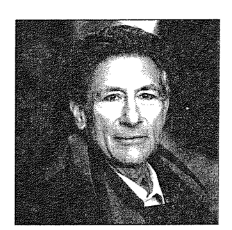
وقد استمر هذا المخترع العظيم على تواضعه وراتبه المحدود، وكل ما حصل عليه هو ترقيته إلى رتبه الرقيب .

ثم جاء عصر الرئيس جورباتشوف الذي كرمه وكشف عن شخصيته الحقيقية، وكيف أنه كان هارباً من سيبريا باسم مستعار حتى أثناء عضويته في مجلس السوفيت الأعلى ثم كرمه الرئيس الراحل يلتسين بأن أعطاه رتبه الكولونيل ثم رتبه الجنرال، ونيشان الدولة الروسية وأخذت الأضواء تُسلط عليه إعلاميًّا ، وتم عمل متحف باسمه في مدينته "جيفسك" يحوى نماذج من اختراعاته وتطورها في كل مرحلة من عمره ، وعاش فخوراً بأنه خدم وطنه وقدم السلاح مجاناً لدولته من دون الحصول على براءة اختراع وبهذا السلاح تحررت دول من الاستعمار وكان أسفه الوحيد وهو في سن الثامنة والثمانين أن بعض قطع من هذا السلاح قد استعملت في العمليات الإرهابية ورجال العصابات وقال: "السلاح والسكين ليسا مسؤولية من صنعهما ولكن مسؤولية من استعملهما".

وتوجد صورة كبيرة لميخائيل كلاشينكوف في مدخل مدينته "جيفسك" كتب عليها: "لقد بذلت كل جهدي وقدرتي في الدفاع عن وطني وحتى تكون حياتكم صافية ومزدهرة لا تعكرها الحروب".

وتلك كانت قصة الفتى الهارب من سيبيريا والجندي المحارب والمريض المخترع في المستشفى والعريف الجنرال المتواضع حامل الأوسمة قاهر مستحيلات حياته ميخائيل كلاشينكوف.

44



أنطونيو جرامشي

"يؤلف ٣٠ كتاباً وهو داخل السجن"

المساجين عادة ثلاثة طوائف:طائفة جنائية ، وطائفة مظلومة، وطائفة أخرى سجناء رأى ضد المجتمع أو المبادئ، والنوع الأخير هو أصلب السجناء وأنجحهم في استغلال فترة قضاء العقوبة فيما يفيدهم شخصيًّا أو يفيد ويؤثر في مجتمعهم فيما بعد، وهذا كان حال شخصية السجين الإيطالي أنطونيو جرامشي.

ولد أنطونيو جرامشي في إيطاليا عام ١٨٩١ وتلقى تعليمه في إيطاليا ، وكان حاد الذكاء ويعتنق أفكاراً تنويرية تقاوم سيطرة الفكر الواحد والثقافة الموحدة والإعلام الموجه رغم أنه كان في شبابه منتسباً للحزب الشيوعي الإيطالي قبل تولى موسوليني للسلطة، وعندما بدأت أفكاره تتعارض مع حكم موسوليني الفاشي في إيطاليا الذي أسكر الشعب بآلاته الإعلامية، تم اعتقال أنطونيو جرامشي وحوكم وزُج به في السجن عام١٩٢٦ .

لم يكن أنطونيو جرامشي شيوعيًّا ماركسيًّا بالمعني المطلق، ولكن كانت له أفكار تفسر حقوق الجماهير وحقوق الطبقة العاملة بناءً على مدى القوة الإنتاجية للمجتمع، وتتركز أهم أفكار جرامشي في نقده الجذري لأفكار ماركس المادية الإلحادية، وكان يعتقد أن الأفكار من ناحية – كقوة مجردة – والتصرفات الإنسانية التلقائية – الفردية أو الجماعية من ناحية أخرى، تؤثر في سير التاريخ وحركته – تقدماً وتراجعاً بقوة لا تقل – إن لم تتفوق في ظروف معينة – عن تأثير قوة الإنتاج وأدواته وجودته وعلاقاته، وكان جرامشي أول من تطرق لفكرة "الهيمنة" في المجتمعات، حيث حذر من أن تستطيع الطبقة المسيطرة اجتماعيًّا

وماليًّا من أن تفرض ثقافتها وفكرها على المجتمع كله ، سواء كانت تلك الطبقة عمالية أو اشتراكية أو رأسمالية؛ لأن أي طبقة مهيمنة سوف تستغل وسائل الإعلام لصالحها.

عكف أنطونيو جرامشي أثناء وجوده في السجن منذ عام١٩٢٦ حتى وفاته في السجن أيضاً عام١٩٣٧ على إصدار المجلدات التي تشرح تلك الأفكار وكيفية تطبيقها حتى وصل عدد تلك المجلدات إلى ٣٠ مجلداً تحتوى على٢٣٥٠ صفحة، أظهر فيها كيفية المزج بين تطبيق الأفكار الاشتراكية في مجتمع رأسمالي منتج، وليس مجتمعا اشتراكيا متكاسلا يعتمد على أن الدولة تدير عجلة الإنتاج، والفرد ترس في تلك العجلة يتقاضي مرتبه صاغراً حتى بلوغه سن المعاش، حيث إن الفرد في تلك الحالة سيكون مثل الآلة ليس له وجود إنساني أو اجتماعي حقيقي.

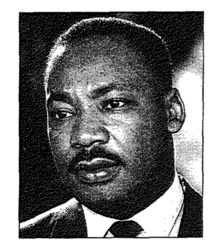
هاجم أنطونيو جرامشي بعض المثقفين الذين يلعبون دوراً في صنع ثقافة الأمة الواحدة وشبههم بكهنة المعابد في المجتمعات البدائية القديمة الذين كانوا يسيطرون على أفكار الناس ويساعدون على تأكيد هيمنة الثقافة الموحدة أو في الدفع بالمجتمع للتغير الثقافي – ومن ثم التغير الاجتماعي الذي يحتاج أولاً إلى تغيير اقتصادي سابق لكي يحدث، وهنا كانت معارضته لأفكار كارل ماركس في المادية التاريخية، ورفض جرامشي هيمنة حزب واحد على المجتمع ، وأكد ضرورة اشتراك الناس فرادي وجماعات في رسم سياسات المجتمع حتى لا يتحول الشعب إلى موظفين لدى السلطة المهيمنة .

ومن أفكار هذا الرجل السجين في سجون إيطاليا ظهرت نظريات ومبادئ الاشتراكيين الأوربيين، وظهرت الأحزاب الاشتراكية الأوربية التي تولت الحكم في معظم البلدان الأوربية في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، ونجحت في تمكين الشعوب والأفراد في أوروبا الغربية أن يكونوا مشاركين في الإنتاج ومساهمين في رأس المال، وحريصين على الجودة.

ويُعتبر أنطونيو جرامشي في القارة الأوربية المفسر الحقيقي للفكر الاشتراكي الأصيل؛ لأنه سمح بانفتاح الفكر الاشتراكي المتجمد في ظل التفسير الماركسي واللينيني له على فلسفات جديدة كانت تعتبر مضادة له في الأساس.

تلك كانت قصة الرجل الذي تحدى المستحيل داخل السجن ومن وراء القضبان ووضع الأسس التي قامت عليها الاشتراكية الأوربية، حتى توفي في السجن عام١٩٣٧ تاركاً ثلاثين مؤلفاً انتفعت بها البشرية، وقد ألفها داخل السجون.

45



مارتن لوثر كنج

"لن أعرف الرضا.. إلا بعد أن يموت التمييز العنصري في أمريكا"

مارتن لوثر كنج الحائز على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤ هو شهيد الفكر والمبدأ، الذي قاد ثورة سلمية واتبع سياسة اللاعنف واحترام القانون خلال مسيرته النضالية في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل حصول السود على حقوقهم المدنية في المجتمع الأمريكي ، ومساواتهم بالبيض في كافة الحقوق والواجبات، ولو لم يكن هناك مارتن لوثر كنج في التاريخ، فربما لم نكن لنرى وزيرة خارجية أمريكا من ذوات البشرة السمراء السيدة كونداليزا رايس ، ورئيس أركان القوات المسلحة الأمريكية ثم وزير الدفاع ، وأخيراً الرئيس الأمريكي الشاب باراك أوباما من ذوي البشرة السمراء.

ولد مارتن لوثر كنج عام١٩٢٩ في أمريكا بمدينة أطلانتا في ولاية جورجيا، بدأ يشعر بمغبة التمييز العنصري عام١٩٤٤ وهو طالب بالمدرسة الثانوية عندما أمره مشرف سيارة المدرسة بالجلوس في المقاعد الخلفية بأتوبيس المدرسة، وترك المقاعد الأمامية لزملائه التلاميذ البيض، رفض الانصياع للأمر ، وفضَّل الوقوف على الجلوس في المقاعد الخلفية .

انتقل بعد ذلك إلى مرحلة الدراسة الجامعية، ووهب فكره وحياته لمناهضة التمييز العنصري وبدأ من عام١٩٥٥ ، نال شهادة الدكتوراه بامتياز في الفلسفة من جامعة بوسطن، ثم سافر إلى الولايات الجنوبية في أمريكا لكي يبدأ رحلة العمل والكفاح من أجل قضية السود في أمريكا، معاهداً نفسه بألا يدعو إلى العنف أو الثورة أو تدمير المنشآت أو تعطيل المرافق الحيوية في البلاد ؛حتى لا تنقلب دعوته إلى ثورة مضادة من المجتمع الأمريكي

الأبيض ضد أهدافه السامية .

هذه النقطة في التفكير العقلاني لمارتن لوثر كنج دارس علم الفلسفة (ذلك العلم الذي يجعل العقل يسبق العاطفة والتصرفات والتفكير) أكسبته تأييد وتعاطف شريحة كبيرة من المجتمع الأمريكي خلال عشر سنوات، رغم ما تعرض له من سجن عدة مرات ومطاردات من المتعصبين والمتهورين، ومحاولة خلق تجمعات فوضوية أثناء إلقاء محاضراته وهجوم الإعلام المتعصب في أول الأمر وموجات من السخرية اللاذعة من المناوئين لأفكاره ومحاولات لاصطياد أخطاء المجتمع الزنجي في أمريكا ، وكانت أغلبها أخطاء فردية نتيجة الجهل الذي كان يعاني منه السود خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات وتضخيم هذه الحوادث والأخطاء إعلاميًّا في الصحف والتلفزيون، حتى يقل تعاطف الشعب الأمريكي مع نداءات مارتن لوثر كنج، ولكن ذكاء هذا الفيلسوف الأمريكي كان أقوى من بعض أبواق الإعلام القادرة على قلب الحقائق، وتلوين الأخبار وإلقاء صبغة سوداء على الثوب الأبيض، فبدأ في تطبيق مبادئ الزعيم الهندي العظيم المهاتما غاندي في المقاطعة السلبية لوسائل النقل ودعا خمسين ألف زنجي لعدم ركوب الأتوبيسات قائلاً: " إننا نؤمن بالقانون والنظام " حتى أطلقت عليه مجلة "تايم" الأمريكية لقب "رجل العام" سنة١٩٦٣ وأصبح أول زنجي يفوز بهذا اللقب على مر التاريخ في أمريكا وفي العام التالي١٩٦٤ منحته الأكاديمية السويدية جائزة "نوبل" للسلام لانتهاجه مبدأ "اللاعنف" للحصول على حقوق السود ولشجاعته النادرة في الكفاح السلمي ، رغم ما تعرض له من سجن ومطاردات ومحاولة اغتيال عام١٩٥٦ عن طريق إلقاء قنابل ومتفجرات على منزله ولكنه نجا منها بفضل الله.

عندما حصل مارتن لوثر كنج على جائزة نوبل للسلام كان يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً فقط، وهو بذلك يُعتبر أصغر من نال هذه الجائزة سنًّا ، ومن الأمور التي شجعته على الاستمرار في هذا النضال السلمي للحصول على حقوق السود، هي تعاطف الرئيس الأمريكي الراحل ليندون جونسون مع مطالب السود مما يحسب لهذا الرئيس من حسنات أثناء توليه رئاسة أمريكا، وكان هناك أيضاً أصوات في الكونجرس الأمريكي وجمعيات حقوق الإنسان ومجلس الشيوخ تميل إلى تأييد تلك المطالبات وخصوصاً أن مجتمع السود

في أمريكا يقوم بالأعمال الشاقة ويؤدى الخدمة العسكرية بالجيش الأمريكي بكفاءة وصبر يفوقان مجتمع البيض والملونين الآخرين، وأيضاً مجتمع السود الأمريكيين يحصد البطولات الرياضية العالمية في الدورات الأولمبية ودورات القارات في أغلب الألعاب؛ لما يتمتعون به من لياقة بدنية عالية حتى إن ٤٠٪ من البطولات والميداليات التي تحصل عليها أمريكا تجيء عبر أجساد المجتمع الزنجي ، رغم أنهم يمثلون أقل من ٢٠٪ من تعداد الشعب، وأيضاً المجتمع الفني والغنائي يحتوى على شريحة كبيرة من الفنانين السود، كل تلك العوامل وضعها مارتن لوثر كنج في اعتباره عندما دعا إلى مسيرة كبرى في شهر مارس عام١٩٦٥ تجوب شوارع أمريكا وردد قائلاً : " لن أعرف الرضا إلا بعد أن يموت التمييز العنصري في أمريكا"، " وإن نبتة الحرية قد نمت وأصبحت برعماً فحسب ولكنها لم تزهر"، "وصلنا إلى اليوم الذي لم يعد يكفينا فيه كبشر جزء من الحرية لأننا سئمنا من العيش في خطر الفقر والجهل"

كانت تلك كلمات مارتن لوثر كنج التي انطلقت كطلقات المطاط المغلف بالملبن لكي لا يصيب إلا العقول النيرة التي تسمع وتعي إصابة عقلانية ، توقظ الضمائر النائمة وتضع الحقائق والبديهيات في غرفة المرايا بالنسبة للمجتمع، حتى يستطيع أن يراها من جميع الاتجاهات، وعندما بدأت الصورة تكتمل في مسيرة نضال مارتن لوثر كنج، اغتالته رصاصات العنصرية والغدر في ٤أبريل عام١٩٦٨ في مدينة ممفيس، بولاية تينيسي بالولايات المتحدة الأمريكية، مطمئناً أنه بدأ الطريق الطويل لحصول الزنوج على حقوقهم المدنية، متحدياً جميع المستحيلات التي صادفته ثلاثة عشر عاماً حاملاً مشعل الحرية للسود التي اكتملت في القرن الحادي والعشرين.

46



ياسر عرفات

"أبو عمار.. عاش سبعة أعمار وشُيع في ثلاث جنازات"

قليلون هُم من عاشوا حياتهم مطارَدين من حكومات وأفراد وجيوش وأصدقاء، مثل ما تعرض له ياسر عرفات من محاولات اغتيال ومحاصرات وسقوط طائرات ومواجهات عسكرية، فهل عاش عرفات (أبو عمار) عمرا واحدا أم سبعة أعمار؟

لقد عاش عمرا واحدا ولكن رعاية الله وتوفيقه له حفظته ورعته، لأنه كان أعظم مناضل عربي في العصر الحديث، ولم يُكتب له الموت إلا بإذن الله على سرير المرض بفرنسا معززاً مكرماً، ولم ينل منه أحد من أعدائه الكثيرين ويتشفى فيه.

كم من مستحيلات واجهها القائد ياسر عرفات في حياته وخرج منها أكثر قوة وعناداً وبطولة؟!

ولد ياسر عرفات في فلسطين عام١٩٢٩ واسمه الأصلي محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة، ولكنه اشتهر باسم ياسر عرفات وكنيته "أبو عمار" توفيت والدته عام ١٩٣٣ فانتقل للعيش في بيت خاله بالقدس الشرقية مع أخيه فتحي ، وعاشا مع خالهم سليم أبو السعود كما ذكرت الكاتبة الدكتورة رشيدة مهران في كتابها عنه "ياسر عرفات الرقم الصعب" .

كانت حياته في القدس ومعاصرته فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، وتشجيع الهجرة اليهودية خلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين هي بداية تأجج مشاعر الغضب والثورة داخل الطفل ، الذي رأى بأم عينيه ما حدث لأهله وعشيرته من أبناء الوطن ،

وكيف تحالفت الدول الكبرى على الشعب الفلسطيني لاقتطاع جزء من أراضيه، وسهلت تدفق يهود العالم إلى الأراضي الفلسطينية، رغم أنه كان يوجد يهود قليلون يعيشون بين إخوانهم الفلسطينيين والعرب بأمان ؛ إن المسلمين والمسيحيين واليهود أولاد أب واحد وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام .

قبل وصول هؤلاء اليهود الغرباء من أوروبا وروسيا، هذه الأوضاع جعلت ياسر عرفات جنديًا بالفطرة حتى وهو طفل للدفاع عن أرض وطنه، حتى إنه كان يجمع زملاءه في المدرسة ، ويكوِّن منهم ما يشبه الجنود ، ويعلمهم الخطوة العسكرية، ومن شبَّ على شئ شاب عليه، فلم يرتد الزى المدني مطلقاً في حياته من أول ما اختار النضال طريقاً له ، وعزف عن الزواج حتى سن ٦١ عاماً، عندما تزوج الآنسة سهى الطويل عام١٩٩٠ ورزق منها بابنته الوحيدة "زهوة" عام١٩٩٥ أولى خطواته في نضاله الطويل كانت عندما انضم إلى الجيش الفلسطيني الذي تكوَّن بإشراف الهيئة العربية الفلسطينية العليا بقيادة عبد القادر الحسيني ، وكان أمله أن يصبح مقاتلاً ولكن في سن السابعة عشرة انتقل والده للعيش في القاهرة نتيجة للظروف السياسية والمالية الصعبة التي كان يواجهها من السلطات الإنجليزية التي كانت تتولي الانتداب على الأراضي الفلسطينية، ودخل عرفات كلية الهندسة جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) ولكن في عام١٩٤٨ جاء قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما فلسطينية والأخرى إسرائيلية، وحدثت مذابح كثيرة واشتباكات عديدة بالقرى الفلسطينية بين اليهود والعرب وتولى عبد القادر الحسيني كتائب المقاومة الفلسطينية بالداخل.

هذه الأحداث حركت ثورية ياسر عرفات الفطرية في القاهرة وهو طالب جامعي، فجمع زملاءه من الطلبة الفلسطينيين في الجامعات المصرية، وقرروا إحراق كتبهم والعودة إلى فلسطين لمشاركة زملائهم المقاتلين في فلسطين وكونوا ما سمي بـ "جيش الجهاد المقدس".

انتهت الحرب العربية الإسرائيلية على غير ما كان يأمل ياسر عرفات ، ونُصح بالذهاب إلى أمريكا لاستكمال دراسته وبناء مستقبله الخاص، وبعد أن وافق وجد أن مشاعره تجاه وطنه لا تتفق مع هذه الخطوة البعيدة عن الأرض، فقرر استكمال تعليمه في القاهرة في

كلية الهندسة وتخرج فيها والتحق بعدها بالكلية الحربية في مصر، وتخرج ضابطاً مهندساً عام١٩٥٧.

وفي أثناء دراسته الجامعية أنشأ رابطة الطلاب الفلسطينيين في القاهرة وتم اختياره رئيساً لها (قائد من يومه) وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو في مصر ، قدَّم وثيقة مكتوبة بالدم للرئيس محمد نجيب قائد الثورة يستحلفه فيها ألا ينسَ القضية الفلسطينية، ذهب للعمل في دول الكويت فترة من حياته ، ولكن قضية وطنه لم تكن غائبة عن فكره وحياته أبداً، حيث بدأ في التفكير في إنشاء حركة فتح مع رفاقه والتي كانت موجودة بالفعل ، ولكن بطريقة سرية واسمها مشتق من كلمة "حتف" مقلوبة وهي الحرف الأولي من كلمات "حركة التحرير الوطني الفلسطيني" وأعلنت عن نفسها مطلع عام١٩٦٥ وقام جناحها العسكري واسمه "العاصفة" بإصدار أول بيان عن الكفاح المسلح.

كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أنشأت وعقدت أول اجتماع لها في القدس في ٢٨مايو١٩٦٤ بتوصية من الزعماء العرب في قمتهم الأولى عام١٩٦٤ بالإسكندرية، لكي يتواجد كيان فلسطيني موحد يمكن أن يخاطب العالم بلسان أهل القضية الفلسطينية ، وتولى قيادتها الأستاذ أحمد الشقيري.

في عام١٩٦٨ بدأ نجم ياسر عرفات يتلألأ في سماء النضال الفلسطيني عندما قامت حركة فتح بالتصدي للجيش الإسرائيلي بمدرعاته في محاولة لاجتياح نهر الأردن للقضاء على الفدائيين ، وانتهت المعركة بانسحاب الجيش الإسرائيلي من دون تحقيق أغراضه، بعدها عُـيِّن ياسر عرفات متحدثاً رسميًا باسم منظمة التحرير الفلسطينية، وذاعت شهرته في الوطن العربي، مما سهل له رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية عام١٩٦٩ عندما قدم الأستاذ أحمد الشقيري استقالته ، وبدأ عرفات يرتدي الزى العسكري والكوفية الفلسطينية التي طاف العالم بها وأصبحت رمزاً عالميًا للقضية الفلسطينية حتى عند أبناء القارة الأوربية والشعب الأمريكي ولم يرتدِ غيرها حتى وفاته.

شهد عام١٩٦٩ في حياة ياسر عرفات نقطة الانطلاق الحقيقية والعلنية في حياته؛فقد دقت ساعة العمل الوطني ودقت ساعات المطاردات ومحاولات الاغتيال ، ففي عام١٩٧٠ وقعت مصادمات بين الفلسطينيين والأردنيين في شهر سبتمبر وهو ما سمى في التاريخ بأيلول الأسود ، وصار ما يشبه الكر والفر بين عرفات والجيش الأردني، وقام الرئيس

جمال عبدالناصر رحمه الله تعالى بإنقاذ ياسر عرفات وتهريبه من الأردن عن طريق الحيلة التي قام بها الدبلوماسي الشاب محمد عبد السلام المحجوب (محافظ الإسكندرية فيما بعد) ، حيث قام بإرفاقه متخفياً مع أحد الوفود الخليجية العائدة من الأردن، والتي كانت في مهمة مصالحة بين السلطات الأردنية والفلسطينيين بعد عمل عملية تجميل سريعة لملامح وجهه ، وكان ذلك آخر عمل بطولي للرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله، حيث تمكن من عقد قمة المصالحة العربية في نهاية شهر سبتمبر وتوفي بعدها يوم ٢٨ من الشهر نفسه، بعد توديعه لأمير الكويت في مطار القاهرة الدولي.

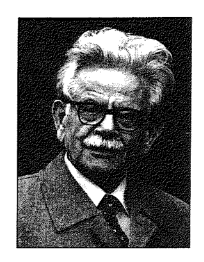
انتقلت نشاطات منظمة فتح وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى لبنان بعدها، ولكن حدثت مصادمات بين اللبنانيين والفلسطينيين، وتعرض عرفات ورفاقه للحصار مرة أخرى عام١٩٨٢ عندما قام آرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل باجتياح جنوب لبنان حتى حاصر العاصمة، وبالمحادثات والمفاوضات المصرية والعربية والأمريكية والأوربية، تم فك الحصار عن عرفات ورفاقه وانتقل إلى تونس مع رفاقه، وهنا حدثت عده محاولات لاغتياله وفشلت حتى الضربات التي قامت بها إسرائيل على منزله وغرفه نومه، خلال تلك الرحلة الطويلة والصدامات كان ياسر عرفات قد اشتهر عالمياً كممثل للشعب الفلسطيني المقهور ومتحدثاً باسمه عندما اعتلى منبر الأمم المتحدة لأول مرة وحدث أن انتقلت اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى سويسرا للاستماع إليه وعرف العالم أن هناك مظالم وحقوقا مسلوبة لهذا الشعب، ولكن بعض العمليات العسكرية الفلسطينية التي تمت في أوروبا وأمريكا ضد المدنيين الأبرياء وخطف الطائرات والسفن، أخذت من رصيد الفلسطينيين أكثر مما أضافت لهم ، حتى قامت انتفاضة الحجارة عام١٩٨٦ التي غيَّرت مفاهيم العالم عن القضية الفلسطينية حيث إن الصور البطولية للأطفال الفلسطينيين، وهم يواجهون الدبابات والمدرعات بالحجارة كان لها تأثيرها على الرأي العام العالمي والشعوب الأوروبية أكثر وأهم من العمليات المسلحة، حيث ذكر شيمون بيريز في كتابه "الشرق الأوسط الجديد" أنه من العبث إضاعة الوقت دون الاعتراف بالأمر الواقع ، ويقصد أن هناك شعب فلسطيني وقضية فلسطينية شك البعض أنها قد دفنت، ولكن جاء أطفال الحجارة وأثبتوا أنها ما زالت حية على يد الأجيال الجديدة الذين تزعمهم أيضاً ياسر عرفات الذي اعترفت الانتفاضة أنه رئيس لها بوصفه رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

عقد مؤتمر مدريد وتم استبعاد ياسر عرفات منه، فلم ييأس ولم ينظر خلفه بل أدار مفاوضات سرية انتهت باتفاق أوسلو وباعتراف إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية وبياسر عرفات ممثلاً عن الشعب الفلسطيني، ودخل عرفات إلى البيت الأبيض مصافحاً الرئيس بيل كلينتون ورئيس وزراء إسرائيل إسحاق رابين، ووضع العلم الفلسطيني بجانب العلم الإسرائيلي في البيت الأبيض بعد رحلة كفاح لعرفات استمرت أربعين سنة، سقطت فيها طائرته وتحطمت في الصحراء الليبية في ٨ إبريل عام١٩٩٢ ولكن الصخرة القوية داخل الطائرة (ياسر عرفات) لم يتحطم ولم ينكسر ، ولم يهدأ وعاش يجوب العالم بكوفيته الفلسطينية واعتلى منبر الأمم المتحدة عدة مرات ونجا من عدة محاولات اغتيال مثل التي أفقدته أعز معاونيه (أبو جهاد)، ونجا من عدة مؤامرات من أصدقاء ورفقاء الأمس الذين انشقوا عنه ، ولم يفقد حلمه بالعودة إلى أرض فلسطين حتى عاد فعلاً إلى غزة ورام الله، ووضع أولى لبنات الدولة الفلسطينية ، وتم تأسيس المجلس التشريعي الفلسطيني وشكلت أول وزارة فلسطينية في عهده لتسيير أمور الشعب الفلسطيني في غزة (بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي منها) والضفة الغربية ، وحصل على اعتراف أغلب دول العالم بحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره .

ونكاية في ياسر عرفات وخوفاً منه تمت محاصرته في آواخر سنوات عمره في رام الله بواسطة القوات الإسرائيلية أثناء رئاسة آرييل شارون لإسرائيل لكسر معنوياته وقتل صموده البطولي التي امتدت لما يقرب من نصف قرن من الزمان كأطول المناضلين والمطاردين زمناً حتى دخل في غيبوبة مرضية ، نقل على إثرها للعلاج في فرنسا وتوفي في باريس، وصُليَ على جثمانه في فرنسا، ثم أقيمت له جنازة أخرى مهيبة في القاهرة تقديراً لكفاحه ودوره المتميز عبر نصف قرن من التحديات ثم نُقل جثمانه إلى رام الله حيث شيعه أبناء وطنه مرة ثالثة في جنازة شبه مليونية ودُفن في رام الله.

هذا الرجل الذي عاش عمرا واحدا يساوى سبعة أعمار، وأول شخصية في التاريخ يشيع جثمانها في ثلاث دول بمنتهى التقدير والاحترام الذي كان يستحقه ، وستظل ذكراه حاضرة في قلوب وعيون الملايين كأحد أصلب المطارَدين والمناضَلين العرب الذين تحدوا المستحيل.

47



إلياس كانيتي

"المنفي الذي بهر العالم بضمير الكلمات"

هذا الكاتب الكبير الذي حصل على جائزة نوبل في الأدب عام١٩٨١ طاردته ظروف نشأته وديانته اليهودية ؛فقد ولد في بلغاريا عام١٩٠٥ في مدينة روتشوك ، وانتُزِعَتْ تلك البلد من الإمبراطورية العثمانية ، وتم ضمها لإمبراطورية النمسا والمجر التي فرضت على رعاياها التعليم والحديث باللغة الألمانية ثم اضطر لحمل الجنسية الإنجليزية فيما بعد، وحيث أنه كان يهوديًّا فقد أحس بالاضطهاد مرات عديدة وفي أماكن عدة في أوروبا، فاختار منفاه الاختياري والاضطراري في سويسرا ثم بريطانيا، هذه الرحلة الشاقة من شخص واحد خلال عمره أكسبته مزيداً من الصلابة والثقافات المتعددة؛ حيث استغل الظروف والبلدان التي عاش بها لدراسة سلوكيات المجتمعات والعرقيات المختلفة ، وعبَّر في أبحاثه عن استحالة الاندماج الثقافي بين أبناء الأعراق والجنسيات واللغات المختلفة، مهما كان من قوة التأثير السياسي للحكومات والإمبراطوريات الحاكمة التي تشملهم، (كما جاء في نظريات الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري بأن المصالح هي التي تتلاقى وتوحِّد وتُفرِّق وليست الثقافة ولا الجغرافيا ولا الأديان).

استفاد إلياس كانيتي من هجراته المتعددة بأن أصبح يتقن أربع لغات هي :الألمانية والإنجليزية والفرنسية ولغة يهود وسط أوروبا (اليديشية) ، ومن هنا نرى كيف يتكيف الفرد مع المصاعب التي تواجهه، بل ويستفيد منها.

كتب العديد من المقالات والدراسات الفكرية عن دور المثقفين الذين يدعون إلى

المدينة الفاضلة، التي لم ولن تحدث وقدَّم صورة المثقف في النمسا خلال فترة الثلاثينيات وشرح كيف أن العزلة الاجتماعية التي يحاول أن يعيشها المثقفون وعجزهم عن التأثير في مجتمعاتهم ومحاصرتهم بالتهديد والغواية، تؤدي إلى تدهور وعي الجماهير ، وأصدر ذلك في سلسلة دراساته السياسية التي نشرها بعنوان "الحشود والسلطة" وذكر فيها أن مثالية المثقف المنعزل وضعف وعي الجماهير يؤديان إلى انفراد السلطات المتوحشة بكل منهما على حدة، مما يدفع الحشود إلى التفتت والفردية، والمثقفين إلى مزيد من العزلة والفردية. ودعا أيضاً إلى الاهتمام بدراسة الأخلاق وتدريسها للأطفال وللعامة ، وأصدر عملاً مميزاً عنوانه "ضمير الكلمات" شرح فيه أيضاً العلاقة بين الأخلاق وبين التعبير اللغوي والسلوكي والعلاقات .

وهذا العمل كان ركيزة أساسية من ركائز بيان اللجنة التي منحته جائزة نوبل للأدب عام١٩٨١؛ لأنه وضع كل خبرته وثقافته في علم النفس وعلم الاجتماع ورؤيته التاريخية والسياسية في خدمة البشرية، وكان كثيراً ما يسخر من تعالي الأجناس على بعضها البعض ويسخر من الصهيونية والشيوعية والفاشية والرأسمالية، أي عاش مثل الطائر الحر الذي يدعو للمودة والسلام والتجانس من دون أن تطغى ثقافة أو حضارة على أخرى .

تُوفي إلياس كانيتي عام ١٩٩٤ بعد أن أرسى مبدأ "تنوع الثقافات يثرى عقل منْ يتبنى ذلك، هذا المبدأ ويسهل عليه حب الآخرين وفهمهم".

48

الكسندر جروثندايك

"من براثن الاضطهاد النازي إلى موسوعة أسس الرياضيات"

الاضطهاد قد ينتهي بالفرد إلى العزلة أو الجنون والأمراض النفسية ، ولكنه مع الأقوياء والمتميزين قد يؤدي إلى الإصرار والتحدي وعبور منحنى المستحيلات والنجاح والعبقرية ، وهذا ما حدث مع عالم الرياضيات الألماني الكسندر جروثندايك المولود في ألمانيا عام١٩١٨ لأب روسي قُتل على يد النازيين في أربعينيات القرن الماضي.

تلقى الكسندر جروثندايك تعليمه في جامعتي توبينجين وميونخ بألمانيا، وأصبح أستاذاً في الهندسة الوصفية في جامعة إيستين، هاجر إلى فرنسا بعد مقتل والده وسكن باريس وعند اجتياح القوات الألمانية لفرنسا ودخولهم باريس، خشى أن يتتبعوا خطاه، حيث كان يهوديا فاضطر إلى أن يلجأ إلى جنوب فرنسا ، حيث عاش فترة الحرب العالمية الثانية، مع فصيل من فصائل المقاومة الفرنسية وناضل معهم رغم أنه لم يكن في نيته الحصول على الجنسية الفرنسية ، وبعد الحرب عمل في جامعة مونبيليه بفرنسا أستاذاً ورئيساً لقسم الرياضيات لمدة خمسة وثلاثين عاماً، خلال فترة الثلاثينيات كان هناك مجموعة من العلماء الفرنسيين يخططون لإصدار موسوعة متكاملة للرياضيات تحت اسم رمزي هو نيكولاس بورباكي، يجمعون فيها أعمال أساتذتهم الكبار الذين ماتوا أثناء الحرب العالمية الأولى، حتى لا تضيع آثار إنجازاتهم مع الزمن، ولكنهم لم يفكروا أن يضيفوا شيئاً لتلك الإنجازات واكتفوا بتسجيلها ، حتى جاء الوقت الذي تعرفوا فيه على البروفسير الكسندر جروثندايك عام١٩٤٦ فنصحهم بإضافة منجزات الحاضر إلى الماضي، فاتفقوا على أن يرأسهم ويعملوا

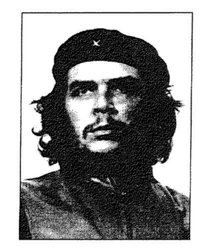
كفريق فرنسي متكامل بروفسير هنري كارتان وبروفسير ديو ونسيه وبروفسير أندريا ويل، وأطلعهم على إنجازه الأول الذي حققه والمتمثل في توحيد جوانب من علم الهندسة الوصفية، ونظرية الأرقام والتحليل المركب والهندسة العامة، مما أدى إلى تحديد المفهوم الأساسي للرياضيات الحديثة وهو مفهوم "الكلية" ومعناها أنه ينبغي النظر إلى الأجزاء باعتبارها مكونات لكيان كلي تتفاعل لكي توجده ككل، وليست هناك دلالة خاصة لأي منها من دون تكامل دلالة الكيان نفسه، ومن أسس تلك المفهوم أضاف جروثندايك إلى الرياضيات علم الكوهمولوجى وهو علم التنسيق ، وحدد منهجه وأضاف عالم يهودي فرنسي آخر اسمه ليفي شيتراوس أبحاثه في المنهج التكاملي .

وتعاون العالمان مع مساعديهما في تطبيق النظريات الصعبة السابقة ، مما أدى إلى التوصل إلى نظريات التناسق والأسس الرياضية لعلوم الاتصالات التي نستعملها الآن، وتمكن أحد تلامذة الكسندر جروثندايك واسمه بيير دي ليني من حل أهم وأعقد الفرضيات عام١٩٧٢.

وحدث تطور مذهل في المنطق الوصفي التكاملي والمنطق الاحتمالي والوصف الجبري لمجموعات المنحنيات المتداخلة، وكلها كانت تمثل عقبات في وجه تطوير علوم التصميم الهندسي ، والتحليل الهندسي المركب ومن عِظم إنجازاته في الهندسة الوصفية وأسس الرياضة الحديثة وإنجازاته أيضاً في ميدان العلوم الرياضية التطبيقية ونجاحه في مجال علم الجبر الهندسي الذي أحدث ثورة علمية في مجال التصميمات، منحه اتحاد جمعيات علوم الرياضيات الأوربية ميداليته الذهبية عام١٩٦٦ تقديراً لأبحاثه.

ومن هنا نرى كيف أن المطارَد والمضطهد يمكن أن يتحدى المستحيل لو كان عبقريًّا وصبوراً ومخلصاً ، كما في حالة الكسندر جروثندايك البروفسير العبقري الذي كانت له مواقف سياسية إنسانية أيضاً في أوائل الستينيات، حيث وقف مسانداً جلاء القوات الفرنسية عن الجزائر ومنحها استقلالها وناضل ضد الفكر الشيوعي واليساري.

49



أرنستو جيفارا

"شبح الموت يطارد طبيباً ، وهو بدوره يتوقعه بشجاعة"

قيمة الإنسان هي ما يضيفه إلى الحياة بين لحظتي ميلاده وموته .. كلمات قالها الراحل المرحوم الدكتور مصطفي محمود طبيب الأمراض الصدرية والكاتب والمفكر المصري المعروف، تذكرت تلك الكلمات وأنا أبدأ كتابة سيرة الثائر والمناضل الدكتور أرنستو جيفارا ، الذي ترك الطب وعاش مناضلاً في أدغال وأحراش أمريكا اللاتينية، وكان على يقين بأنه المطارد رقم واحد من قِبَل أعدائه، ومن القوى الاستعمارية الجديدة، وأكثر تيقناً بأنه سوف يُقتل، ولكنه قرر أن لا يُقتل مجاناً، بل بعد أن يصبح بطلاً يحتذي به المناضلون ويسيرون على دربه.

إنه أرنستو جيفارا الذي تحدى تغيير مهنته ، وتحدى أعدائه ورفض أن يكون طبيباً مشهوراً ، ورفض أن يكون وزيراً في كوبا عندما اختاره كاسترو لذلك وقرر أن يكون مناضلاً يكتب التاريخ اسمه في سجل الخالدين.

ولد شي أرنستو جيفارا في عام ١٩٢٨ بالأرجنتين ، وعاش حياة عائلية ميسرة إلى حد ما ، والتحق بكلية الطب في مسقط رأسه بالأرجنتين وتخرج منها طبيباً، ولكنه كان يهوى المغامرات في شبابه ، وكان يجول كامل أرجاء الأرجنتين بالدراجة بين أعوام١٩٤٦ حتى١٩٥١، ثم فكر في الطواف حول أرجاء قارة أمريكا الجنوبية بالدراجة النارية (الموتوسيكل) مع رفيق دربه "فرانادوس" أي إنه كان يمتلك شخصية المغامر التي وظفها

خلال فترة حياته القصيرة ليصبح المغامر المناضل، بعد أن رأى أحوال فنزويلا وبوليفيا وكوبا والأرجنتين والأكوادور خلال تجواله بتلك البلاد .

قرر أن يترك البالطو الأبيض والسماعة ، لم يرد حياة مرفهة ، ويكدس الأموال ويعتلي المناصب ويصبح من وجهاء المجتمع عندما رأى الظلم والدكتاتورية والاستعمار يملأ أرجاء قارة أمريكا اللاتينية، وأن يعيش زاهداً متقشفاً يؤثر الكفاح، وقطعة السلاح يمسح دموع البؤساء، ويدافع عن الضعفاء والمستضعفين، ويفتح صدره لطلقات الرصاص بلا خوف ؛ فالرصاص لا يخترق القلوب المحبة مثل قلبه الذي يمتلئ بحب المساكين والمستضعفين الذين يحتاجون إلى بطل يقودهم إلى رحلة التحرر، فشعر بمسؤوليته تجاه هذه الشعوب ، رغم أنه كان مريضاً بداء الربو الشعبي والأزمة الصدرية، فنسى وتناسى نفسه من أجل الآخرين.

اختار أرنستو جيفارا التعب وغبار الطريق وتوجه إلى جواتيمالا على أمل أن يوقظ النائمين بثورة شعبية، ولكن أجهضتها القوى الاستعمارية، ثم اتجه إلى المكسيك وحاول مرة أخرى ، إلى أن التقى بالثائر المناضل فيدل كاسترو وخططا سويًّا لثورة كوبا التي نجحت ومنحه كاسترو الجنسية الكوبية عام١٩٥٩ ، وعرض عليه أن يكون وزيراً في الحكومة الكوبية التي تشكلت ، ولكنه أحس أنه لم يُخلق لكي يجلس في مقعد الوزارة الوثير، ورحل إلى الجبال ليكون جنديًّا بسيطاً يحارب الظلم في كل مكان، حيث وجد نفسه وسط الثوار والمناضلين ثم طاف قارات العالم مسانداً ، وعنواناً للحركات التحررية وأصبح اسمه على كل لسان خلال فترة الستينيات من القرن العشرين، وكانت مخابرات خمس دول تتعقب خطواته وتحاول اصطياد هذا الجرس الذي يقرع ويوقظ النائمين في العالم الثالث ، وكانوا يشمون أثره ويستدرجونه إلى مصادمات ومعارك في جبال أمريكا اللاتينية ، ويحاولون شراء ذمم المقربين منه ، وكانوا مثل مجموعة من الصيادين يتعقبون أثر فريسة واحدة، حتى جاء شهر أكتوبر عام ١٩٦٧، حيث رصدوا مكان تواجده مع رفاقه العشرين في أحراش بوليفيا، وحاصروه وجماعته المؤلفة من عشرين مجاهدا، وكانت القوات المحاصرة لهم تتكون من ١٥٠٠فرد مسلح، ورغم الأزمة الربوية التي

تعاوده وقلة عدد الأفراد معه، فقد استمروا في القتال والمواجهة لمده ٦ ساعات حتى أُسر أرنستو جيفارا، وقتل جميع رفاقه في تلك المعركة الليلية غير المتكافئة بعد أن نفد رصيد المناضلين من الذخيرة، وكانت كلمته الأخيرة عندما صوبوا النار تجاهه " إنني أعرف أن الموت يطاردني ولكنني لن أموت بلا ثمن، إنكم تطلقون النيران على رجل، ولكن لن تستطيعوا إطلاق النيران على وطن" .

ومات جيفارا ومات من أطلقوا النار عليه، ودائماً ما ننسى أسماء القتلة ولكننا لا ننسى اسم القتيل ، إذا كان قد قُتل من أجل هدف نبيل وقد زارت ابنته جمهورية مصر العربية عام٢٠٠٩ واستقبلت بترحاب من منظمة التضامن الأفريقي الآسيوي.



الفصل السادس

محاربون لم يعرفوا المستحيل







نابليون بونابرت

"انظر إلى الأهرامات .. ستعرف أن لا شيء مستحيل"

نابليون بونابرت هو الشخصية المحورية في البطولات التي قرأنا عنها منذ الطفولة حتى الآن، والولع بنابليون وحياته وبطولاته ليس ولعاً فرنسيًّا فحسب، بل هو إعجاب عالمي تعدى حدود فرنسا والدول الأوربية والشرق حتى وصل إلى أمريكا اللاتينية .

ففي جمهورية كوبا التي لم يطأها نابليون، أقام أحد رجال الأعمال الكوبيين متحفاً خاصًّا على نفقته يحتوى على محتويات شخصية وصوراً للقائد نابليون بونابرت ، واعتبر هذا المتحف التي تم افتتاحه في شهر مارس عام ٢٠١١ أكبر متحف يحتوى على آثار نابليون خارج فرنسا .

وقد يكون الإعجاب العالمي بنابليون هو امتداد للإعجاب بكل ما هو فرنسي من ثقافة وطعام وحرية ولغة وأزياء وغيرها من الملامح التي لا تجدها في بلد آخر، والدليل على ذلك أن أى زائر لباريس، يغادرها وهو ينوى العودة إليها مرة أخرى .

ويُعْتبر نابليون بونابرت أشهر فرنسي في التاريخ حيث إن ما لا يقل عن سبعة أو ثمانية أفراد يعرفونه من بين كل عشرة متعلمين على مستوى العالم، ولذلك فإننا لا نعتبره تراثاً فرنسيًّا خاصًّا، ولكنه تراث عالمي يمتلكه العالم كله، ويقتدي به في الفكر والبطولة والحروب والإرادة وتحدي المستحيل، حيث استطاع أن ينتصر على أعدائه في أربعين معركة حربية متتالية ، إلى أن اتفقوا جميعاً عليه وهزموه ثم تمّ نفيه.

وفي هذا العمل لن أتناول سيرة نابليون بونابرت من زاوية النقد بصفته محتلاً ، ولكن

سأتناوله بصفته بطلاً تحدى المستحيلات، وهناك حكمة فرنسية تقول "لاشيء اسمه المستحيل"؛ لأن زاوية أنه مُحتل قد درسناها في المدارس سابقاً ، ولأن الحملة الفرنسية على مصر كانت قوة احتلال أولاً لفترة ثلاث سنوات ، ولكنها عندما انتهت عسكرياً، صارت شعلة تنوير وتحديث ومعرفة بالعلوم الحديثة في الجغرافيا وتخطيط المدن والتسليح واكتشاف الآثار والعلوم الطبية والكيميائية، وفك شفرة اللغة الهيروغليفية بواسطة العلامة الفرنسي شامبليون ، مما مكننا من التعرف على تاريخنا الفرعوني قراءة وكتابة، وأثبت العالم الفرنسي هندريك فان لون أن الحضارة الفرعونية المصرية هي أول حضارة مرسومة بالكتابة في التاريخ كما جاء في كتاب "قصة الجنس البشرى"، وأصبح هناك علم خاص بمصر يُدَرَّس في جميع أنحاء العالم يسمى (علم المصريات) أو الإجيبتولوجي، ونجح الوالي محمد على باشا في طرد الحملة الفرنسية من مصر تحت قيادة القائد حسين باشا الذي أرسلته الدولة العثمانية ، ولكن لم يكن محمد على باشا متهوراً بحيث يرفض كل ما هو فرنسي ؛لأنهم كانوا سابقاً قوة احتلال، فأدرك أنه يستطيع أن يستفيد من العدو علميًّا حتى يصبح قويًّا ويستطيع أن يواجه الجميع، وتلك كانت فلسفة الاستفادة من علماء الحملة الفرنسية ، بعد أن وضعوا كتاب عظيم اسمه "وصف مصر" ورسموا خرائط المدن والمديريات، فأرسل محمد على مندوبين إلى فرنسا لاستحضار بعض من هؤلاء العلماء لإتمام عملية بناء مصر الحديثة، ثم استعان الخديوي سعيد والخديوي إسماعيل بالخبرات الفرنسية لتخطيط مدينتي الإسكندرية والقاهرة وحفر قناة السويس ، وإنشاء مصانع الأسلحة والذخيرة وإنشاء المطابع والمصانع؛لأن فلسفة العلاقات الخارجية تقول إنه لا يوجد عدو دائم ولا صديق دائم، ولكن توجد مصلحة وطنك أولاً ودائماً، لأن قريبك أو ابن بلدك أو البلد التي تجاورك قد يتآمر عليك ويصبح أخطر من عدوك المعروف.

وإنني أسأل نفسي دائماً: هل من يهاجمون الثقافة الأوربية والمجتمع الأوروبي والغربي إذا لاحت لهم فرصة الابتعاث أو الحصول على منحة دراسية لهم أو لأولادهم، هل سيرفضون هذا العرض أو المنحة الدراسية؟؟

ولد البطل الأسطوري نابليون بونابرت عام ١٧٦٩ في جزيرة كورسيكا في إيطاليا قبل انضمامها إلى الجمهورية الفرنسية بعام واحد ، وكانت عائلته من النبلاء وكان يهوى

العسكرية والانضباط من صغره، وكان يرتدى الزى العسكري وهو طفل ويقف أمام المرآة ويؤدى التحية العسكرية لنفسه، وكان يجمع الأطفال حوله ويعلمهم الخطوة العسكرية ويقودهم في الطابور، التحق بمدرسة عسكرية فرنسية وتخرج فيها عام١٧٨٤ ثم التحق بالكلية الحربية الملكية في باريس، واستطاع أن يتخرج فيها خلال عام واحد بدلاً من عامين نظراً لنبوغه وذكائه ، وبدأ حياته العسكرية الحقيقية وهو في سن السابعة عشرة وخاض الكثير من المعارك ، وكانت له نظرات ثاقبة في التخطيط العسكري رغم صغر سنه، مما أدى إلى محاولات عديدة لاستبعاده من قبل مرؤوسيه من كبار الضباط، ولكنه كان يصمم على آرائه التي كانت دائماً تبدو صحيحة وخصوصاً في المعارك والحصار والسيطرة على المواقع الهامة في الحروب التي كانت تدور رحاها بين إسبانيا وفرنسا.

جاء إلى مصر عام١٧٩٨ على رأس حملة عسكرية ضخمة للسيطرة على الأراضي المصرية نكاية في الإنجليز ، ولكي يقطع عليهم طرق الإمدادات بين بريطانيا وشبه الجزيرة الهندية والمستعمرات الإنجليزية في إفريقيا، ولكنه كان داهيةً في التخطيط العسكري وأيضاً داهيةً في التخطيط والسيطرة على الشعوب، فأحضر معه على السفن مجموعة كبيرة من العلماء والباحثين والآلات الحديثة حتى تظهر القوات الفرنسية في ثوب الفضيلة ، وزاد على ذلك أن أحضر معه علماء يعرفون الدين الإسلامي جيداً ويجيدون كيفية دخول قلوب المصريين واكتساب محبتهم من خلال الدين!!

وكان قد قرأ عن كيفية دخول الإسكندر الأكبر إلى مصر قبل الميلاد، فبدلا من أن يحارب المصريين ليستولى على الأرض، ذهب إلى واحة سيوة وأدى الطقوس والصلوات الفرعونية ، وعاد للمصريين وقال لهم إنه مبعوث من الإله آمون وهو ابنه الذي سيتولى حكم مصر ، فاستسلم المصريون لمقولته وسلَّموه الأرض والزرع والضرع، كذلك فعل نابليون وادعى أنه جاء ليعتنق الإسلام وأنه يعرف ويقدر نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأحضر معه نسخا من المصحف الشريف وخلال فترة احتلاله لمصر ، كان يُشارك في المناسبات الدينية هو ورجاله ويذكر المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي الذي عاصر الحملة الفرنسية أن نابليون بونابرت اهتم بإقامة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف سنة١٢١٣ هجرية الموافق١٧٩٨ ميلادية من خلال إرسال نفقات الاحتفال وقدرها٣٠٠ريال فرنسي إلى منزل الشيخ البكري رحمه

الله (نقيب الأشراف في مصر) وأرسلت الطبول الضخمة والقناديل، وفي الليل أقيمت الألعاب النارية التي رآها المصريون لأول مرة ليتقرب من قلوب المصريين ويبدو أمامهم أنه يحترم دينهم .

وفي العام التالي نقل الاحتفال من ساحة القلعة إلى ساحة الأزبكية والتي سميت "بالساحة الرحبة" ونصب السرادقات للدراويش ، وحلقات الذكر للمنشدين طوال الليل واجتمع أهل القاهرة حتى الصباح ومعهم الوافدون من القرى والمديريات المجاورة ، كما ذكر ذلك المؤرخ الفرنسي "إدوارد ليم لين" .

وهنا أقول لكم "**إياكم ونعومة الأعداء**" .

عاد نابليون بونابرت إلى فرنسا لوجود اضطرابات في شؤون الحكم ونصّب نفسه إمبراطوراً على فرنسا رغم أنه بدأ حياته مدافعاً عن الحرية وعن الثورة الفرنسية، حتى إن الموسيقار الألماني لود فيج بيتهوفن أُعجب بثورية نابليون أولاً وألف سيمفونيته الثالثة يحيي فيها نابليون وأهداها لاسمه ، ولكنه انقلب عليه عندما أصبح إمبراطوراً، أثبت نابليون مقدرة عسكرية فائقة في الحروب التي خاضها ضد النمسا وروسيا وبريطانيا وألمانيا، وحقق انتصارات باهرة في ٤٠معركة خاضها، ولكن خطأه الكبير كان توغله داخل الأراضي الروسية لمسافات أطول من أن تصل إليها الإمدادات للقوات الفرنسية ، وهنا تم اصطياد قواته في شتاء روسيا ولقي هزيمة منكرة، وفقدت القوات الفرنسية ٢٥ألف مقاتل وكان لتلك المعركة أثر سلبي على الجيش والشعب الفرنسي، فتمت إقالته عن العرش بعد أن دخلت قوات الأعداء باريس عام ١٨١٤ ، ونُفِي نابليون بونابرت إلى جزيرة ألبا.

استطاع نابليون القائد العنيد أن يهرب من المنفى ويعود إلى فرنسا عام١٨١٥وتولى الحكم مرة ثانية، وبدأ مرحلة أخرى من الحروب الأوربية وكأنه "خُلق ليحارب" إلى أن هُزم في معركة "واترلو" الشهيرة على أيدي القوات الإنجليزية بقيادة البريطاني "نيلسون" وسُمِّي ميدان الطرف الأغر في إنجلترا ، تخليداً لتلك المعركة ووضع فيه تمثال للقائد الإنجليزي تذكاراً للمعركة التي دارت رحاها يوم ١٨يونيو عام١٨١٥ .

انتهت حياة نابليون العسكرية والمدنية بهزيمته في معركة الطرف الأغر ، وتم نفيه إلى جزيرة سانت هيلانة حيث عاش بها لمدة ست سنوات إلى أن تُوفي في الخامس من مايو

عام١٨٢١، تاركاً خلفه ذكرى لبطل تحدى أوروبا كلها فيما يشبه المستحيل في حياة أي قائد في العصر الحديث، ولكن أسقطه طموحه بالسيطرة على الأراضي الروسية التي تعتبر تاريخيًّا مقبرة الغزاة دائماً، ثم أسقطته أخيراً هزيمته الثقيلة في معركة "واترلو" التي اعتبرت فصل الختام لتاريخه العسكري الحافل بالانتصارات.

ودائماً ما يقولون "غلطة الشاطر بعشرة" وهذا ما انطبق تماماً عليه؛لأن الناس لا يغفرون خطأ من كان قدوة لهم كما سمعت ذلك من رجال الدين الأجلاء في قناة "الرحمة" بالتلفزيون.

وهنا انتهت قصة نابليون بونابرت البطل الأسطوري الذي وقف يوماً ما أمام الأهرامات وقال: "مادام المصريون قد استطاعوا أن يبنوا الأهرامات إذن فلا شئ اسمه المستحيل".

51



عبد الكريم الخطابي

"قائد أول جيش تحرير من الفلاحين في العالم العربي"

ابن الريف المغربي عبد الكريم الخطابي حمل على عاتقه مهمة تنوء بها الجبال ، وهي أن يتحدى الاحتلال الأسباني والاحتلال الفرنسي لبلاده من دون أن يكون لديه عسكريون محترفون أو معدات حديثة ، يواجه بها جيوش منظمة وآلات عسكرية متطورة في أوائل القرن العشرين، بل اعتمد على إيمانه بالله وبوطنه وشكّل مجموعات مقاتلة من الفلاحين القرويين الفقراء ، وقاد بهم معارك ضارية ضد الاحتلال الأسباني وكما رأينا كيف أن مدرس الفلسفة الجنرال جياب الفيتنامي ترك السبورة والطباشير ليصبح قائداً لتحرير بلاده، وكيف تحول دارس الفلسفة سيمون دي بوليفار إلى قائد عسكري لتحرير أمريكا الجنوبية، إنني أضع البطل عبد الكريم الخطابي في مستوى هؤلاء في المحيط العربي؛ لأنه لم يكن ثائراً طالباً لسلطة أو مال وقد عُرضا عليه ورفضهما، قد كوَّن جيشه من الفلاحين الفقراء البسطاء مثله، ولكنه كان مناضلاً ضد المستعمرين راصداً أمامه المقولة الشهيرة:

إما العيش فـوق الأرض كرماء

وإما العيش تحت الأرض شهداء

قال أحد المؤرخين الأجانب عن عبد الكريم الخطابي "إن الانتصار على المحارب الريفي، قد اقتضى عمل ثلاثة مارشالات، وأربعين جنرالا، ونصف مليون من الجنود الفرنسيين والأسبان، فمن هو ذلك المحارب الذي تحدي المستحيل بالفلاحين ؟

ولد عبد الكريم الخطابي عام١٨٨٢ في مدينة أغادير بالمغرب لعائلة ريفية ، ودرس

في مدرسة القرية وتعلم علوم الدين الإسلامي الحنيف ثم التحق بجامعة القرويين في فاس، عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره قرأ ما آلت إليه اتفاقية ومؤتمر الجزيرة الخضراء عام١٩٠٦ بوضع المغرب تحت الحماية الأجنبية، فاستولت إسبانيا على شماله وجنوبه بينما سيطرت فرنسا على وسطه، وبقيت طنجة منطقة دولية، وبدأت إسبانيا تتغلغل في عمق الريف المغربي، وقد واجهت مقاومة شرسة في الفترة من١٩٠٦ حتى١٩١٢ بقيادة محمد الشريف أمزيان ، مما كبَّد الأسبان خسائر كبيرة ومنعهم من الامتداد لاستغلال مناجم الفحم والحديد في مناطق أفرا وجبل إكسان، إلا بعد جهد شاق .

ولكن توفي محمد الشريف في مايو١٩١٢، فبدأت أسرة الخطابي تتسلم راية النضال والكفاح ضد الأسبان، والطبقة المغربية المستفيدة من التعامل معهم، حاولت إسبانيا السيطرة على منطقة الحسيمة الريفية للحصول على خيرات المزارع ، واستخراج المعادن بعد أن نجحت في الاستيلاء على منطقتي الناظور وتطوان، بدأ الشاب عبد الكريم الخطابي يشعر أن عليه مسؤولية أولى تجاه مجتمعه ، وهي أن يوحِّد هذا المجتمع الريفي الذي يتسم بالقبلية ويجعله أولاً صفًّا واحدا لكي يستطيع أن يتصدى جَمَاعةً لأهداف الأسبان، فبدأ في توحيد قبائل الريف كزناتة وبني ورياغل وتمسهان وبني توزين ، وصالح بين المتنازعين منهم، ومنع الأخذ بالثأر وإثارة الفوضى، ونظّم لهم أحكاماً تعتمد على الشريعة الإسلامية بصورة مبسطة وغير متشددة، فانتهت النعرات العشائرية والقبلية في المجتمع (وهذا ذكاء قائد) يعد خطة طويلة المدى للقتال بإصلاح ما بين النفوس بالداخل أولاً، ثم بدأ عبد الكريم في إنشاء جيش من الفلاحين القرويين ، ونظمهم وعلمهم فنون القتال على قدر المستطاع ، وعلى قدر المعدات البسيطة المتوفرة لديه واتخذه الريفيون بطلاً شعبيًّا يقود الجماهير (تبعاً لبساطتهم) فاتصل بالحكومة المركزية يطمئنها ويعطيها أتم الولاء والاحترام ، وسمح للحاميات الحكومية بالتمركز بالبلاد لمباشرة سلطاتها ولم يتواجد مغربي يرفع سلاحه على مغربي، بل كانت أغراض عبد الكريم والذين معه الدفاع وتحرير أرض المغرب كله من الجهل والتخلف والاستعمار.

كانت أسبانيا تهدف إلى احتلال خليج الحسيمة، وعقد الحاكم العام الأسباني صلحاً مع بعض قبائل الريف وبعض الأعيان ، واطمئنت أسبانيا وقائد جيوشها الجنرال سلبسترى

للأمر، ونُظم لهم استقبال حافل واطمئن وزير الدفاع الأسباني ، ولكن هذا الاتفاق كان فيه ظلم وإجحاف بأهل الريف والقبائل الذين كانوا قد استعدوا للقتال من أجل إخراج المستعمرين وليس للتفاوض معهم، واتصل الأسبان بقائد الفلاحين عبد الكريم الخطابي، ووعدوه بمبلغ ٧ملايين دولار له ولأهل الريف، وبعض من العتاد والأسلحة لكي يقاوم بها الاحتلال الفرنسي، رفض عبد الكريم الخطابي العرض الأسباني والمساومة، وفرض غرامة مالية على أي مغربي يتفاوض مع الأسبان على خليج الحسيمة، وهدد الأسبان بأن لا تجتاز قواتهم المنطقة ، سخر القائد الأسباني سلبسترى من تهديدات جيش الريفيين وقرر مغروراً غزو المنطقة مستهزءاً من القوة والعتاد العسكري للفلاحين، بدأ القائد الأسباني يؤمن المنطقة المستهدَفة بالإمدادات العسكرية اللازمة للهجوم ، ويحدد مناطق التمركز في المناطق الإستراتيجية واقترب من المكان لمحاصرة الموقع في شهر مايو عام ١٩٢١ فتصدى لها الريفيون وألحقوا هزيمة كبيرة بالأسبان ثم اتجهوا بأعداد متوسطة إلى أحد مراكز القيادة في مدينة أبران ، واقتحموه، وقتلوا جميع من كان فيه من ضباط وجنود وصدرت الأوامر للقائد الأسباني سبلسترى بعدم التقدم ، ولكنه لم يرضخ للأوامر العليا وتقدم لمنطقة "أنوال" وهناك وقعت المعركة الشهيرة بمعركة "أنوال" عام ١٩٢١ التي دامت خمسة أيام وتوالى حضور قوات الريفيين من جهات مختلفة ، ورغم قلة عددهم عن القوات الأسبانية(٢٥ألفاً) تمكن عبدالكريم الخطابي من تدمير الأسبان وحاصرهم في منطقة ، ومنع عنهم إمدادات الماء بأن حاصر نبع المياه القريب منهم ، وكادوا يموتون من العطش مع صيف الصحراء الحار في شهر يوليو .

وانتهت معركة أنوال بأن انتحر القائد الأسباني سلبستري ومات مساعده الكولونيل موراليس، وتتابعت هجمات قوات عبد الكريم الخطابي حتى عام ١٩٢٢ من خلال موجات من المقاومة والتصدي، حيث وصل عدد قواته إلى مائة ألف ريفي ، وأنشأ جمهورية الريف وسيطر على مناطق جبل العروى وسلوان حتى وصلوا إلى مدينة مليلة ، التي لم يطاردهم إلى داخلها ولم يدخلها وقد ندم على ذلك كما كتب في مذكراته، ولكنه وضع الاعتبارات الدولية والسياسية في حساباته، حيث لم يكن لديه جيش نظامي يمكن أن يواجه به تدخلاً عسكريًا دوليًا!! واكتفى بما حصل عليه من الأراضي والغنائم من الجيش الإسباني المتمثلة في المدافع والبنادق والقذائف و٧٠٠أسير، وكان هناك صدى عالمي لحرب الفلاحين

المغاربة ضد أسبانيا ، حتى إن سيمون دي بوليفار علم بها ، وكان ينظر إلى عبد الكريم الخطابي كنموذج للبطولة الريفية كما حدث في أمريكا اللاتينية.

بدأت فرنسا تقلق مما حدث لأسبانيا من ثورة الريفيين، واتفقت مع إسبانيا على شن هجوم كاسح برى وبحري مستعملتان أبشع الأسلحة للسيطرة على معاقل المقاومة الريفية وتم القبض على المجاهد عبد الكريم الخطابي، بعد أن استسلم في ٢٥مايو عام ١٩٢٦ مضطراً حقناً لدماء المغاربة ؛حتى لا يسقط مزيد من القتلى من أهل بلده لعدم تكافؤ القوة بينه وبين القوات الفرنسية والأسبانية، وقد وعدته الحكومة الفرنسية بالإفراج عنه كما ذكرت صحيفة لوموند الفرنسية ، ولكنهم نكثوا بوعدهم ونفوه مع أخ له وبعض أقربائهما إلى جزيرة "رينيون" الواقعة في شرق إفريقيا (إحدى المستعمرات الفرنسية)، ومكث في الأسر عشرين عاماً ، وعندما أرادوا نقله إلى فرنسا عام١٩٤٧ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وأبحرت السفينة من جزيرة "رينيون" وأثناء مرورها في قناة السويس دبر المغاربة المقيمون في مصر خديعة لطاقم السفينة وهيئوا له سبباً للنزول بميناء السويس، ونزل من السفينة ومنها سافر للقاهرة واستقر بها حتى توفي بها ٧ فبراير عام١٩٦٩ وانتهت رحلة نضال بطل الريف المغربي ، وبطل معركة "أنوال" المناضل عبد الكريم الخطابي، الذي ترك لنا مثلاً للعزيمة والإصرار وتحدى المستحيل بأبسط وأقوى خلق الله في الأرض، وهم الفلاحون الذين يوصفون "بملح الأرض".





المارشال جوكوف

"بطل معركة ستالينجراد .. والتاريخ لا يخطئ"

إذا أردنا أن نؤرخ للانتصارات الدولية في الحروب فلا يجب أن ننسى القادة العسكريين في تلك الحروب ، الذين غالباً ما تسلَّط عليهم الأضواء أثناء المعارك، ثم يتلقف رؤساء الدول المنتصرة ثمار النصر إعلاميًّا وتاريخيًّا ، ويسدل ستار النسيان على العسكريين والشهداء والمعاقين من ضحايا الحرب، إلا قليلاً منهم تُطلق أسماؤهم على الشوارع من دون أن نعرف المزيد عن بطولاتهم .

ومعنا في هذا المقال العمود الفقري للعسكرية الروسية الذي تُنسب إليه أغلب الانتصارات التي حققتها روسيا في الحرب العالمية الثانية ، والذي لم يدخل معركة عسكرية خلال الحرب إلا وكسبها، حتى إنه حصَّل وسام بطل الاتحاد السوفيتي أربع مرات ووسام لينين ست مرات، ورتبه المارشال وشقة من غرفتين وصالة في حي راق من أحياء موسكو!!

إنه المارشال جورجي جوكوف بطل الاتحاد السوفيتي الذي لم يرَ أن هناك شيئاً اسمه المستحيل في طريقه لتحرير أرض بلاده من الاحتلال النازي، حتى إن يوم العيد القومي لروسيا في التاسع من مايو كل عام قد سمى بيوم "جوكوف" تقديرا له.

التحق جورجي جوكوف بالجيش الروسي عام ١٩١٥ كجندي في سلاح الفرسان، واشترك في القتال أثناء الحرب العالمية الأولي ، وأظهر شجاعة وبسالة متميزة، مما حدا برؤسائه إلى أن يرفعوا تقريراً ممتازاً عن أدائه ، رقى على أثره إلى رتبة العريف ومُنح وسام

سان جورج من روسيا القيصرية، عندما قامت الثورة الروسية في أكتوبر عام ١٩١٧ شارك جوكوف في كبح جماح المتمردين على الثورة، وأخضع أشدهم معارضة للثورة وكان اسمه "تومبوف" ونال وساماً على ذلك عام١٩٢١، خلال عامي١٩٣٨، ١٩٣٩ حدثت مناوشات حدودية بين اليابان وروسيا ، قامت على إثرها اليابان بإعداد حملة عسكرية تتألف من ٤٠٠ طائرة و١٨٠ دبابة و٨٠ألف جندي للدخول في معركة حاسمة مع الاتحاد السوفيتي للسيطرة على الجزر الشمالية، فتصدى لهم الجيش الروسي بقيادة جورجي جوكوف، وأمكنه تطويق القوات اليابانية من جميع النواحي ، وهزمهم وحصل بهذا على وسام بطل الاتحاد السوفيتي ورتبة "جنرال" وكانت عبقريته العسكرية تلاحقه بالترقيات حتى إن رئيس الدولة جوزيف ستالين والمارشال بوريس شاباسينكوف رئيس أركان القوات المسلحة الروسية اتفقا على تعيينه نائباً لرئيس الأركان عند نشوب الحرب العالمية الثانية، وتعرض الأراضي الروسية لهجمات قوات النازي عام١٩٤١ وتم تكليف جورجي جوكوف بالقتال على جبهة ستالينجراد عام١٩٤٢ وتمكن من تحقيق النصر على القوات الألمانية ، وحصل على وسام الاتحاد السوفيتي للمرة الثانية، وكان ستالين يُكِنُّ له عظيم الاحترام بعد أن رأى أنه لم يستمع لنصيحة جوكوف الأولى عام١٩٤١ ببدأ الهجوم على القوات الألمانية ، ولكن ستالين لم يوافقه مما جعل الألمان يبدأون الهجوم ويسيطرون على المدينة أولاً، الأمر الذي كبّدَ الاتحاد السوفيتي كثيراً من الخسائر العسكرية والبشرية لاستعادة المدينة، وفك الحصار عنها عام١٩٤٢، وحدث أيضاً أن طلب جوكوف من ستالين إخلاء مدينة كييف لتقليل ضغط القوات الألمانية عليها ، ولكن ستالين العنيد رفض نصائح القائد الذهبي مما أدى إلى وقوع ٤٠٠ألف روسي في الأسر، وعندما أزفت الآزفة ، وبدأت قوات هتلر تستعد لحصار موسكو، عاد ستالين واستدعى البطل الحقيقي لانتصار روسيا في الحرب العالمية الثانية الجنرال جورجي جوكوف وعينه قائداً للجيوش المدافعة عن موسكو!! ولكن يُذكر لستالين أنه استطاع تجنيد وإعداد سبعة ملايين روسي للدفاع عن موسكو.

نجح جوكوف في إبعاد القوات الألمانية عن موسكو، وأجبرهم على التقهقر إلى مناطق الصقيع والبرد القارص في الشمال، وبعد ذلك الانتصار المدوي رقى إلى رتبة المشير.

عام١٩٤٢ نجح الألمان في الاستيلاء على مدينة ستالينجراد، وتم حصارها من جميع

الاتجاهات وكان سقوط تلك المدينة من أبرز أحداث الحرب العالمية الثانية .

مرة رابعة وخامسة تم الاستعانة بالقائد الذهبي جوكوف ليضع الخطة المناسبة لاختراق الحصار وكأنه في ذلك الوقت كان يفكر في نصيحة نابليون بونابرت التي تقول: "**إذا كان عدوك يسير في الطريق الخطأ فلا تهاجمه**"، فمن المعروف أن أكبر أخطاء هتلر في الحرب العالمية الثانية كان هجومه على روسيا أولاً، ثم التوسع داخل الأراضي الروسية ثم محاصرة مدينة ستالينجراد لمدة طويلة، حتى دخل الشتاء الروسي القارص على القوات الألمانية التي ابتعدت عنها طرق الإمداد من برلين ، وبدأ الجنود الألمان الذين يحاصرون المدن الروسية يتجمدون من الصقيع واليأس، فتركهم جورجي جوكوف يتصورون أنهم اكتسبوا أرضاً ثمينة لن يتنازلوا عنها وقام عام١٩٤٢ بتنظيم الاختراق الأول للحصار الألماني من الجهة الجنوبية وأمكنه إمداد الأهالي المحاصَرين ببعض المؤن والعتاد، ثم قام بهجوم كاسح مضاد من عدة جهات، وقام بتطويق الجيش السادس الألماني حول المدينة ، مما أدي إلى استسلام الألمان في هذا المكان ، وكان ذلك يُعتبر بوادر أول نصر عسكري كبير لروسيا، وغير مسار الحرب العالمية، وأيضاً بفضل نقل مصانع الدبابات والأسلحة خلال ٦ شهور بعيداً عن مرمى نيران العدو.

بدأ جورجي جوكوف عام١٩٤٣ الإعداد لاختراق الحشود الألمانية التي تحاصر مدينة لينتجيراد ، واشترك مع المارشال روكو سفسكى ضد القوات الألمانية في معركة نتوكورسيك وقام باختراق الحصار الألماني للمدينة من الشمال والجنوب في معركة شاملة، تعتبر من أكبر معارك الدبابات في الحرب العالمية الثانية، ونجح في الوصول إلى قلب المدينة من اتجاهين ، وحاصر مركزها حتى استولى عليه ، وسقطت المدينة وتحررت على أيدي الجنود الروس وتم تدمير الآلات العسكرية الألمانية بالكامل ، وأسر الجنود الألمان، وكانت تلك المعركة أهم بوادر سقوط النازي عالمياً عام١٩٤٤ وعلى جميع الجبهات فيما بعد، توالت الأعمال البطولية والتخطيطات للمارشال جورجي جوكوف، بعد أن أصبح جوزيف ستالين يعتبره أهم مفاتيح النصر للقوات الروسية في الحرب العالمية الثانية ، وكان شديد الاحترام له ولا يناقشه كثيراً في خططه العسكرية ، ولكن يكلفه ويأخذ منه النتائج المبهرة.

وأخيراً تم تكليفه بقيادة الهجوم النهائي على ألمانيا وعلى قلب برلين أوائل عام١٩٤٥

ونجحت القوات الروسية في الاستيلاء على برلين، قبل قوات الحلفاء وهي نقطة مهمة جدًّا سياسيًّا فيما بعد استغلها جوزيف ستالين إعلاميًّا بأنه الذي سيطر على العاصمة الألمانية بتضحيات أبناء روسيا ، وعلى رأسهم المارشال جوكوف .

وتم الاحتفال بالنصر النهائي على ألمانيا في الساحة الحمراء في موسكو قرب الكريملين ، وسار المارشال جوكوف إلى جانب الجنرال قائد قوات الحلفاء دوايت إيزنهاور (الرئيس الأمريكي فيما بعد) في شهر مايو عام ١٩٤٥ .

وكان جوكوف وسط تلك الاحتفالات يزين صدره ستة أوسمة استحقها عن جدارة؛ لأنه لم يعرف المستحيل في أي معركة دخلها، لك أن تتصور لو لم يكن هناك رجل مثل جوكوف القائد العسكري، كم كان سيكون عدد الضحايا المحاصرين الذين تمكن من فك حصارهم أثناء الحرب؟ وتوفي جورجي جوكوف عام١٩٧٥ وأقيمت له جنازة شعبية مهيبة تليق ببطولاته.



ماك آرثر

"محارب يبدأ حرباً وهو في سن السبعين"

الطبيعي أن أي رجل عسكري في العالم يفكر في اعتزال العمل العسكري في سن الستين وأقصاها سن السبعين؛ لأن الحياة العسكرية بها الكثير من المشقات والتنقلات والطوارئ، مما يُجهد الفرد العسكري ناهيك عن المسؤوليات الكبيرة التي يتحملها بثبات وصبر طوال فترة خدمته العسكرية أو الأمنية، ويكفيه فخراً أنه ارتدى زيه الميري حوالي أربعين عاماً من عمره في خدمة وطنه، ولكن دوجلاس ماك آرثر الجنرال الأمريكي والبطل الوطني ومهندس استسلام اليابان في الحرب العالمية الثانية، عاد وارتدى زيه العسكري في سن السبعين، وبدأ حرباً جديدة في كوريا كقائد للقوات الأمريكية في كوريا، بعد أن كان قد أمضى خمسين عاماً في الخدمة العسكرية الأمريكية سابقاً في ظاهرة مستحيلة بالنسبة لنا لأننا لم نعاند على تحدى المستحيل!!

ماك آرثر هو ابن لوالدين في منتهى الجدية والصرامة، حيث كان جده ووالده عسكريين مقاتلين في الحرب الأهلية الأمريكية، ووالدته كانت سيدة في منتهى الشدة والانضباط وكانت تراقب كل تصرفاته وكأنها تتجسس عليه، حتى إنها استأجرت حجرة بفندق مواجه لمكان عمله الأول لمدة ٤ سنوات وعاشت بها حتى يمكنها أن تراقبه من النافذة وتتأكد من انتظامه في الصحو مبكراً، والعودة منضبطاً والنوم مبكراً.

بدأت الحرب الكورية يوم ٢٥يونيو من عام١٩٥٠ حيث هرب جنود كوريا الجنوبية حفاظاً على حياتهم من تقدم الوحدات الشيوعية الزاحفة عبر خط الثامن والثلاثين، الذي

يفصل بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية (تبعاً للتقسيم الذي حدث لكوريا بعد هزيمة اليابان التي كانت تحتلها وتقسيم الأرض بين المعسكرين :الغربي والشرقي المنتصرين في الحرب العالمية الثانية)، وكانت الأوضاع قد استقرت ورضي الكوريون بهذا التقسيم إلى دولتين وكان في نظرهم أرحم من الاحتلال الياباني الذي جثم على صدورهم خمسة وثلاثين عاماً، وانسحبت القوات الأمريكية أولاً من كوريا الجنوبية بعد أن أسست دولة رأسمالية ديمقراطية واكتفت بقواعدها العسكرية المتمركزة في اليابان للحفاظ على مصالحها في جنوب شرق آسيا.

بعد ذلك عززت روسيا مواقعها في كوريا الشمالية وأنشأت حكومة شيوعية وسلحتها جيداً .

حدث تطور خطير في يونيو ١٩٥٠، حيث اجتاحت كوريا الشمالية بقواتها العسكرية أراضي كوريا الجنوبية ، وأحس الرئيس الأمريكي ترومان أن ذلك قد يكون بداية لحرب عالمية ثالثة لا يريدها لأمريكا ولا للعالم بعد أن استسلمت اليابان عام ١٩٤٥ عندما قُصفت الأراضي اليابانية بالقنبلتين الذريتين في هيرو شيما ونجازاكى، وتولى ماك آرثر إجراءات إتمام الاستسلام ، حيث كان يتولى القائد الأعلى لقوات الحلفاء في المحيط الهادي، وكان أصغر الجنرالات سنًّا في الجيش عبر ترقياته المتلاحقة في الرتب العسكرية تبعاً لإنجازاته وكفاءته خلال الحرب العالمية الثانية؛ لأن دماءه وجيناته مُطعمة بالعسكرية التي ورثها أباً عن جد من سنوات الحرب الأهلية الأمريكية.

بقي ماك آرثر في اليابان بعد اتفاقية الاستسلام ؛ليكون قائداً للقوات الأمريكية باليابان عسكرياً ومشرفاً أيضاً على إعادة بنائها اقتصاديا، خلال تلك الفترة اكتسب كثيراً من الصلاحيات التي جعلته يدير البلاد ، وكأنه يحكمها وأحاط نفسه بحرس الشرف والشرطة العسكرية التي كانت تدفع الناس بعيداً عند وصوله ، واكتسب نوعا من النرجسية المبنية على الإنجازات والواقع ، ولم يكن الرئيس الأمريكي ترومان موافقاً أو معترضاً على هذا الوضع حيث كان آرثر قد بلغ السبعين من عمره!!

جاءت أوامر لآرثر من الحكومة الأمريكية في واشنطون بالاستعداد لوقف تقدم الشيوعيين إلى كوريا الجنوبية، ولكنه قال إنه يستطيع أيضاً أن يطردهم من الجنوب ويستمر

في ملاحقتهم داخل أراضي كوريا الشمالية لإسقاط النظام الشيوعي بها، وكانت تلك الآراء الجريئة للجنرال العجوز النرجسي تعتبر خطيرة، ولكنها كانت في محلها (رغم أن الرئيس الأمريكي ترومان لم يكن موافقاً عليها خوفاً من الدخول في صراعات كبرى مع روسيا والصين)؛ لأن التهاون جعل كوريا الشمالية تهاجم مزيداً من الأراضي في كوريا الجنوبية وتستولي عليها، وهنا أعد آرثر خطة محكمة لمعركة تسمى "أنشون" حيث تم إنزال قوات أمريكية مؤلفة من ٧٠ ألف مقاتل من القوات المتمركزة في اليابان في منطقة استراتيجية وعرة مستغلاً ظاهرة المد والجزر في عملية حربية سميت "كرومايت" دون أية إصابات بالجنود، وبدت تلك المنطقة لمساعديه مستحيل الإنزال بها والقتال منها، ولكنه كسب الرهان وبدأ في مطاردة قوات كوريا الشمالية حتى آخر أراضي كوريا الجنوبية، وكان ينوى استكمال الحرب لتحرير كوريا الشمالية والوصول إلى حدود الصين، رغم أن الرئيس الأمريكي حذره من أن لا يقترب إلا في حدود ٢٠كيلومتر عن الصين، وكان آرثر يقول لأصدقائه: "لا أعرف إن كان الصينيون سيتورطون في الحرب الكورية أم لا ، ولكنني أدعو الله كل ليلة أن يدخلوها لأتمكن من تحقيق النصر الذي تحتاج إليه أمريكا"

تحسب الرئيس ترومان للمأزق القادم ودعا ماك آرثر للعودة إلى أمريكا ، لكي يفسر له تصريحه ونواياه، ولكن ماك آرثر الذي شعر أنه تُوج بطلاً مرتين في حياته بعد نجاحه في تحرير كوريا الجنوبية ، رفض العودة ولم يستجب لدعوة الرئيس ترومان مما حدا بالرئيس أن يذهب إليه في شرق آسيا لكي يقابل هذا القائد العسكري الجريء والعنيد.

تقابل الرجلان في آسيا وكان لقاءً بارداً لم تخرج منه إلا التصريحات الودية، ولكن وراء الستار كان هناك قائد عسكري لم يؤدِّ التحية لرئيس الدولة أثناء نزوله من الطائرة في زيارته لكوريا ، وسلم عليه يداً بيد ووصفه بالجهل وعدم الكفاءة في الأحاديث الجانبية، وقابله بثياب رثة وبنطلون جينز، ورئيس دولة اعتبر هذا القائد منتصراً عسكريًّا ولكن متمرداً ومتعجرفاً ويمكن أن يورط أمريكا في حرب مع الصين والاتحاد السوفيتي ، حيث إن الصين هددت بتوجيه مائتي ألف مقاتل صيني إلى حدود كوريا الشمالية.

لم يستجب آرثر لتعليمات الرئيس ترومان ، وعاند وجهزت الصين جيشاً من٤٠٠ ألف مقاتل هاجموا من وراء التلال ، وتعرض الجيش الأمريكي لأحد عشر ألف إصابة

في الأيام الأولى للمعارك واضطر للانسحاب ثلاثمائة ميل إلى الخلف تاركاً أراضي كوريا الشمالية وهذا يُعتبر أكبر انسحاب في تاريخ القوات الأمريكية ، وصارت متمركزة في حدود كوريا الجنوبية وكأنها حرب تحدى بين القائد العسكري ورئيس البلاد، طلب ماك آرثر من الرئيس الأمريكي ترومان أن يقصف مدن الصين وموانئها بالقنابل الذرية، ولكن حكمة رئيس الدولة تغلبت لأنه لم يكن يريد دخول حروب جديدة في أوقات وأماكن غير مناسبة للشعب الأمريكي ولماذا!!

قرر الرئيس الأمريكي ترومان أن الوقت قد حان لنقل الجنرال ماك آرثر من آسيا، بعد أن صرح الأخير في مؤتمر صحفي قبل يومين أعلن فيه أن الجيش الصيني عبارة عن وحوش من الدرجة الثالثة ، وعليه الاستسلام وإلا سيضطر إلى إرسال الطائرات والبوارج البحرية الأمريكية لقصف المدن الصينية، حيث تمت إقالة الجنرال ماك آرثر من قِبل الرئيس ترومان وعاد الجنرال المعاند إلى أمريكا بعد عزله .

رغم أنه انتصر في الحرب الكورية واعُتبرَ بطلاً قوميًّا أمريكيًّا ، وتم إعداد استقبال أسطوري حافل له في الشوارع ، واصطفت الجماهير التي فاق عددها السبعة ملايين نسمة على جانبي الطرق وفي الشرفات، حتى تكاد تتصور أنه لا يوجد أحد داخل منزله في ذلك اليوم، فالشعوب عامة والعامة خاصة يقدرون شجاعة العسكريين الأبطال أولاً ، ولكنهم يتململون إذا جاءت شجاعتهم ضد مصلحة الجماهير في النهاية كما حدث في ألمانيا عام١٩٤٥ وفي باكستان عام١٩٧١ وفي مصر عام١٩٦٧ لأن حرية التعبير تقتضي في المقام الأول أن تتحمل نتيجة أرائك، أما رؤساء الدول والحكومات المسؤولون عن مصلحة شعوبهم يقدرون الحكمة، وعدم التهور لأن هناك خيطاً رفيعاً بين الشجاعة والتهور اسمه "المصلحة العامة والنتيجة النهائية" تبعاً للحكمة التي قالها جوزيف ستالين "الحرب ليست لعبة أطفال".

وهكذا انتهت قصة البطل الأمريكي الأسطوري ماك آرثر الذي لو عاش في بلد آخر وهو في سن السبعين، ربما كانوا ينصحونه بأن يجلس على أقرب مقهى لمنزله حتى لا يعبر الشارع ، ثم يعود إلى المنزل لينتظر الأحفاد فيلعب معهم ، ولكنه تحدى المستحيل وحارب وانتصر.





شارل ديجول

"عملاق فرنسا في الحرب والسلام والكبرياء"

فرنسا الجديدة لها شعور خاص بالعظمة وإحساس بقدرتها الثقافية والعلمية، تلك هي فرنسا ديجول.تلك كانت كلمات المؤرخين غير الفرنسيين عن فرنسا القرن العشرين .

شارل أندريه ماري جوزيف ديجول أعاد إلى ذاكرتنا تاريخ فرنسا العظيم منذ حقبة نابليون، فلم تعرف فرنسا خلال القرن العشرين قائداً وزعيماً تحدى المستحيل مثل هذا الرجل العملاق شكلاً وتاريخاً، فارضاً نفسه بقدرة واقتدار على الأحداث التي مرت بها فرنسا والعالم طوال خمسين سنة؛لكي يكتب تاريخاً جديداً لفرنسا في القرن العشرين ، وليكون بطل تحرير فرنسا، ومؤيداً لتحرير بعض الدول التي كانت فرنسا تحتلها مثل الجزائر، وقد كتب عنه دونالد روبنسون أحد المؤرخين الأمريكيين يقول: "إن أحببت أو لم تحب فإن خريطة فرنسا تُسمى ديجول"، وكتب ديجول عن نفسه عام١٩٤١ عندما تولى زعامة المقاومة ضد الألمان لتحرير فرنسا واصفاً المسؤولية التي على عاتقه بأمانة "إنك تنسى أنى أقبض بيدي على أقدار فرنسا"

وعندما انتهت الحرب وتولى رئاسة فرنسا وبدأ في إعادة البناء، لكي يعيد كل فرنسا وباريس إلى رونقها المعهود في الأدب والفكر والحرية والعلم قال عام١٩٥٢ :"لقد تزوج شارل أندريه جوزيف ماري ديجول بفرنسا لمدة أحد عشر عاماً، إنه زواجه الثاني بفرنسا الجميلة (١٩٤١ - ١٩٥٢)".

ولد ديجول في مدينة "ليل" في ٢٢ نوفمبر عام ١٨٩٠ من سلالة لأسرة ملكية فرنسية

وتلقى تعليمه في سانت سيرا ، مع أن والده فقد وظيفته كأستاذ للتاريخ ، وأصبح عاطلاً عن العمل إلا أنه أصر على تعليم ابنه تعليماً خاصًّا فيما بعد، فأرسله إلى بلجيكا حيث ظهرت لديه الميول العسكرية للالتحاق بالجيش، وفعلاً أنهى تعليمه العسكري بمدرسة "سان سير" العسكرية عام ١٩١٣ واشترك في العمليات العسكرية في الحرب العالمية الأولى عام١٩١٤ وجُرح ثلاث مرات أعوام ١٩١٤، ١٩١٥ وأبيدت الفصيلة التي كان بها ديجول عام١٩١٦ وأسره الألمان، ولم يكن قائد الفصيلة يعرف أن أحد أفراد الفصيلة قد نجا من الموت ووضع في الأسر، فأبلغ قائد الفصيلة أسرة ديجول خبر وفاته، وأقيمت الصلوات على روحه، وبعد عامين من الغياب والأحزان، فوجئت به الأسرة يعود إلى المنزل بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وعاد ثانية للخدمة في الجيش الفرنسي، دون أن تبدو عليه أيه ملامح تميز.

عندما قامت الحرب العالمية الثانية واستولى هتلر على بولندا، أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا، وكانت فرنسا تعتمد على ما يسمى خط ماجينو الدفاعي والذي سمى بهذا الاسم نسبة إلى رئيس أركان الجيش الفرنسي عام١٩٢٩-١٩٣١ أندريه ماجينو الذي أقامه على الحدود الشرقية لفرنسا ، وحصَّنه بدفاعات قوية محصنة على الحدود بين فرنسا وألمانيا، ولكن هذا الخط الحصين للدفاع الأرضي عن فرنسا وبلجيكا وسويسرا كان قد فقد بعض قيمته بعد تطور سلاح الطيران الحديث ، الذي استعمله هتلر، فسقط شرق فرنسا أولاً ثم سقطت فرنسا في أيدي الألمان ، وأعلن رئيس وزراء فرنسا بول رينو استقالته معلنا استسلامه للألمان في١٧ يونيو ١٩٤٠.

قد يبدو ما سبق سيناريو طبيعيا لجيش انهرم ، وبلد اُحتلت وطلب العسكريون فيها التفاوض مع المحتل لكي يرحل، ولكن للأبطال الذين يهوون تحدى المستحيل رأى آخر ومنهم شارل ديجول فماذا حدث؟؟

هنا بدأت رحلة كفاح الأسير الحي العظيم شارل ديجول، الذي كان قد عُيِّن وكيلاً لوزارة الدفاع الفرنسية في ٥ يوينو عام١٩٤٠، وفي يوم١٧ يونيو صباحاً توجه ديجول إلى مكتبه في مقر الحكومة خارج باريس ، ووضع جدول مواعيده حتى نهاية اليوم، وكان من بينها موعد مع جنرال بريطاني اسمه مستر سيبزر وقد كان في زيارة لفرنسا، وقرر ديجول

أن يرافقه حتى المطار بعد انتهاء زيارته ، كي يودعه وعلى باب الطائرة وقف ينتظر إدارة محركاتها حتى بدأت فعلاً تستعد للتحرك، وهنا قفز ديجول فجأة صاعداً سلم الطائرة، واندفع داخل الطائرة وأغلق بابها خلفه، وطلب من قائدها أن يطير إلى لندن، مما سبَّب مفاجأة ودهشة لرجال الأمن والمرافقين في المطار، ولم يستطع أحد أن يضع تفسيراً لما حدث، وكانت تلك أولى خطوات "فرنسا المقاومة" وليست فرنسا الاستسلام لألمانيا ولا فرنسا حكومة "فيشي" نسبة إلى البلدة التي اختارتها الحكومة العميلة التي رضيت بالاستسلام لألمانيا بقيادة المارشال بيتان.

استمع الفرنسيون صباح اليوم التالي لصوت شارل ديجول من إذاعة لندن ، وهو يعلن أن الهزيمة شيء والاستسلام شيء آخر، وأوضح لهم أنه سوف يتعاون مع بريطانيا والدول الأخرى لتحرير فرنسا، وسيستفيد من رعايا المستعمرات الفرنسية في أفريقيا، ودعا الجنود والضباط الفرنسيين في المملكة المتحدة والدول الأخرى للانضمام إلى كتائب التحرير، ووجه هذا النداء إلى كل الفرنسيين الموجودين خارج بلادهم من مهندسين وأطباء وعمال وفنيين بالعودة إلى فرنسا ، والقادرين على حمل السلاح إلى الاتصال به (وكان أحد هؤلاء والد زميلي الأستاذ الدكتور أسامة صادق استشاري التخدير) وكان والده قد تخرج لتوه طبيباً من إحدى الجامعات الفرنسية عام١٩٤١وكان يقضي فترة الامتياز، وقد انضم بعد ذلك إلى كتائب المقاومة بفرنسا تحت قيادة شارل ديجول ورفاقه، فيما عُرف بفرق المقاومة السرية.

بعد أن ألهب ديجول حماس الفرنسيين، كان الرئيس بيتان قد وقَّع هدنة مع الألمان وطلب من ديجول العودة إلى فرنسا ، وإلا يصبح متهرباً من الخدمة العسكرية وعُرضة للمحاكمة، وقد كان، رفض ديجول العودة وتم عقد محكمة عسكرية له بتهمة الهروب من الخدمة وفي٢٤يوليو عام١٩٤١ صدر ضده حكم غيابي بالإعدام، ومصادرة أملاكه وتجريده من الجنسية الفرنسية، ولكن العملاق لا يستكين ولا يلين ولا يسقط بسهولة، فبدأ يكتب خطبه بنفسه ، ويذيعيها للشعب الفرنسي مما ألهب حماس الفرنسيين للمقاومة وتكونت فرق للمقاومة الشعبية داخل فرنسا ، وأشرف ديجول على تسليحها ورعايتها وجنَّد كتائب من أبناء المستعمرات الفرنسية في أفريقيا بالأخص من الجزائر التي لعب أبناؤها دوراً عظيماً

في تحرير فرنسا واستشهد بعضهم أثناء الدفاع عن الأراضي الفرنسية، حتى إنه بعد تحرير شمال إفريقيا من القوات الألمانية، تم تكوين حكومة فرنسية مؤقتة في الجزائر بقيادة شارل ديجول عام١٩٤٣ بعد أن أكمل ديجول ترتيب إعداد العدة للتحرير ، ويُقال إنه قد جاء سرا إلى مصر زائراً عادياً بصورة مستترة للاجتماع ببعض أفراد الجالية الفرنسية في مصر لترتيب أوضاع المقاومة الفرنسية، ونزل ضيفاً في منزل السفير الفرنسي بالزمالك في المبنى رقم١٤ شارع سراي الجزيرة ، حيث العمارة كائنة حتى الآن، وقد وصف ونستون تشرشل بداية تحرير فرنسا على يد رجل واحد هرب على طائرة صغيرة من دون مساعدة من أحد لكي يبنى جيشاً يبدأ به تحرير فرنسا قائلاً : "إن شارل ديجول قد غادر فرنسا في طائرة صغيرة حاملاً معه في هذه الطائرة شرف فرنسا".

نجح ديجول في جمع شمل القوات الفرنسية التي كوَّنها ، ووضعها على أهبة الاستعداد مع مجندي المستعمرات، وتمكن في صباح يوم ٦ يونيو عام١٩٤٣ من عبور بحر المانش (الذي يفصل بين إنجلترا وفرنسا) بالاشتراك مع القوات والسفن الأمريكية بقيادة المارشال دافيد أيزينهاور فيما يعرف بمعركة نورماندى، وكان هناك ترتيب داخل فرنسا لما يسمى بفرق المقاومة السرية، التي عملت من داخل البلاد لتقويض الاحتلال النازي، ثم تابع ديجول وكتائبه تحرير بقية أجزاء فرنسا حتى وصل إلى باريس يوم٢٦أغسطس عام١٩٤٤ واستقبله الفرنسيون بحفاوة عندما زار قبر الجندي المجهول بعد تحرير باريس، وعرف الفرنسيون قدره ، ومن يومها ظهرت بوادر نوايا الفرنسيين لاختياره رئيساً لفرنسا، وقد كان حيث اختير شارك ديجول رئيساً مؤقتاً لجمهورية فرنسا الحرة (الجمهورية الرابعة)، ولكن كما يحدث دائماً، الانتصارات لها مائة وريث والهزائم تلصق بشخص أو اثنين.

بدأت بوادر صدام بين ديجول والأحزاب الاشتراكية والشيوعية، وجاءت لحظات كبرياء العقلاء في حياة ديجول، وقرر أن يترك رئاسة الحكومة المؤقتة واعتبر أن مهمته قد انتهت باجتماع الجمعية العمومية، واختار أن ينسحب من موقعه الرئاسي الذي حصل عليه بالانتخاب الشعبي، وقرر اعتزال الحياه السياسية، بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً تدهورت الأحوال في فرنسا، وطلبت الجماهير من ديجول بطل التحرير أن يعود رئيساً منتخباً لفرنسا عام١٩٥٨ وخلال رئاسته للجمهورية الخامسة أيَّد استقلال الجزائر ، وتمَّ في عهده

عام١٩٦٢ وكانت له مواقف مشرفة من القضايا العربية، لم أجد مثلها حتى الآن من زعيم آخر في أوروبا الغربية.

حافظ ديجول على استقلالية القرار الأوروبي، وشهدت فرنسا في رئاسته الأخيرة تقدماً ملحوظاً في العلاقات الدولية ولكن جاء عام١٩٦٨ حيث ثار عليه الطلبة الفرنسيون لعدم نجاح سياسته الاجتماعية، ولكن حُسم الأمر لصالحه أولاً وفي عام١٩٦٩ كان لديه مشروع اجتماعي وسياسي في فرنسا، وحدث جدل كبير حول هذا المشروع فقرر أن يعرض مشروعه للاستفتاء الشعبي واشترط لبقائه في الحكم أن تجيء نتيجة الاستفتاء بأغلبية مريحة، وليست أغلبية مهزوزة، وفعلاً حصل مشروع شارل ديجول على الموافقة في الاستفتاء ولكن بأغلبية ضئيلة (١٢مليون صوت موافقون مقابل٥ , ١٠مليون صوت معارضون لرؤيته ومشروعه) ، اعتبر ديجول أن تلك النتيجة تعتبر موافقة لديجول التاريخ والعطاء والعظمة ، ولكنها رفض لديجول السياسي وخططه في حكم البلاد، وبالفعل في نفس ليلة ظهور نتيجة الاستفتاء (٢٧مايو١٩٦٩) أصدر ديجول بياناً جاء فيه : إنني أتوقف عن ممارسة مهامي كرئيس للجمهورية، وإن هذا التوقف يصبح نافذاً ابتداء من اليوم بعد الظهر"، وغادر ديجول قصر الإليزيه (مقر الحكم)إلى مسكنه ثم غادر إلى منزله الريفي ، ووضع وصيته أن لا تقام له جنازة شعبية ولا مراسم رسمية، واضعاً كبرياءه الذي يستحقه أهم من المظاهر الكاذبة في الجنازات بعد أن رأى موقف الشعب من الاستفتاء، وعاش في عزلة برغبته الشخصية حتى توفي في هدوء عام١٩٧٠ وأصبح أهم شخصية فرنسية حديثة من حيث العطاء والمقاومة والكبرياء والتحدي.

55



جوزيف ستالين

"الرجل الحديدى المغلف بالقسوة والإنجازات"

الرئيس الروسي جوزيف ستالين هو الشخصية المحيِّرة بالنسبة لي في هذا العمل الأول عن الرجال الذين لا يعرفون المستحيل؛لأنى عند الرجوع للمراجع التي تحدثت عن سيرته وجدت الكتابات التي تشيد به قريبة العدد إلى حد ما من الكتابات التي تهاجمه، وتنتقد سنوات حكمه للاتحاد السوفيتي والستار الحديدي الذي أسدله على الشعب، وعدد الروس من ضحايا فترة رئاسته للدولة، ولكن كلا الطرفين أشاد ببطولته وعبقريته في بناء الاتحاد السوفيتي الجديد وجعله دولة عظمى تمكنت من دحر الغزو النازى والانتصار على ألمانيا وتحرير نصف أوروبا في الحرب العالمية الثانية، وقد اتفقنا مسبقاً على أن تقييم الزعماء المناضلين يتم بمجمل أعمالهم ومحصلة المكاسب والإنجازات التي استفادت منها شعوبهم بعد رحيل الزعيم، كما علمني أستاذي الصحفي الكبير أ.صلاح منتصر، وأردت أن أكتب عن جوزيف ستالين من وجهة نظر محايدة تعبر عن الصعوبات والمستحيلات التي تصدى لها في البناء والحرب والمؤامرات.

جوزيف ستالين اسمه الأصلي يوسيف فيساريو نوفيتش ولد عام١٨٧٩ في ولاية جورجيا بمدينة جورى ، ولغته الأصلية جورجية ولقب باسم جوزيف ستالين عندما تولى السلطة عام١٩٢٤، ومعنى الاسم "الرجل الحديدي" أو "جوزيف الصلب" وكان في الحقيقة اسماً على مسمى، حيث كان صلباً في اتخاذ القرارات والآراء والمواقف التي يراها هو صحيحة لدرجة أنهم وصفوه بأنه بلا قلب وإنسان قاسٍ حتى على نفسه؛ لأنه أثناء الحرب

العالمية الثانية تم أسر أحد الجنرالات الألمان بواسطة القوات الروسية، وكان ابنه مجند (عسكري) (جاكوب) في الجيش الروسي على الجبهة، وتم أسره بواسطة القوات الألمانية، وحاولت قوات هتلر تبادل الأسرى بحيث يتم الإفراج عن ابن ستالين مقابل الإفراج عن الجنرال الألماني (لواء)، فرفض ستالين رفضاً مطلقاً وقال للألمان: "كيف أبادل جندي بجنرال" ومات ابنه جاكوب في أحد سجون ألمانيا ، ولم يغير ستالين مبادئه وتحمل على نفسه ونسى أن الجندي هو ابنه وفضَّل مصلحة الوطن على مصلحته الشخصية.

نشأ ستالين في أسرة فقيرة وكان والده عامل أحذية يتعاطى الخمور دائماً، ويعود للمنزل مترنحاً وتتشاجر معه زوجته فيشفى غليله في ابنه جوزيف ويضربه كثيراً ، وأنقذه الله من هذا الأب فتوفى فجأة وكان جوزيف قد بلغ أحد عشر عاماً ، فتولت أمه تربيته والإنفاق على المنزل بأن عملت شغالة في البيوت، وكانت الأم متدينة جدًّا ودائمة الذهاب إلى الكنيسة وتمنت من الله أن يصبح ابنها قسيساً في الكنيسة، وألحقته بمعهد ديني ولكنه لم يطق الدراسات الكهنوتية، وانضم إلى حركات الشباب السرية التي تبنت الأفكار الشيوعية حتى إنه نفى إلى سيبريا خمس مرات في الفترة من١٩٠٣ إلى١٩١٣ ولكن النفي زاد الحديد صلابة، حيث عاد من سيبريا ، وأنشأ جريدة البرافدا التي أصبحت لسان الحزب الشيوعي السوفيتي فيما بعد.

اتجهت أنظار الزعيم لينين إلى ذلك ا شاب الجسور المغامر وضمه إلى الحزب الشيوعي الروسي، فاعتقلته سلطات القيصر ونفى إلى سيبريا مرة سادسة ، وظل منفيًّا حتى قيام الثورة الروسية عام١٩١٧ وسقوط نظام القياصرة.

لم يشترك ستالين اشتراكاً فعليًّا في الثورة حيث كان بالمنفى ، ولكن شهرته فاقت من شاركوا ما عدا فلاديمير لينين الذي اختاره بعد عودته من المنفى عضواً بالمكتب السياسي للحزب ، ثم وزيراً للقوميات ثم بحسن تنظيمه وعلاقاته وقدرته على التغلغل في الحياة الداخلية للجمهوريات التي تكون منها الاتحاد السوفيتي وصل إلى منصب الأمين العام للجنة المركزية للحزب، أى بمثابة الشخصية الثالثة في الحكم.

كان فلاديمير لينين رغم عنفه وقسوته أيضاً، رأى أن جوزيف ستالين أكثر منه ع فاً وقسوة واحتار في أمره بعد أن وجده ازداد قوة بالمنصب الجديد، لدرجة أن لينين وهو على

فراش المرض ترك وصية أوصى فيها أن يتم استبعاد ستالين من السلطة والحزب والحكم بعد وفاته؛ لأنه رأى فيه القوة التي تغلفها القسوة ولا تكسيها الحكمة.

تولى جوزيف ستالين الحكم عام١٩٢٤ بعد وفاة لينين، وبدأ على الفور التخلص من منافسيه بطريقة درامية عنيفة حتى الذين شاركوا سلفه في إنجاح الثورة من عسكريين كبار كان لهم دور كبير في السلطة، مثل وزير الحربية في الحكومة الأولى؛ لأن وجهة نظر ستالين كانت العمل على بناء الدولة من الداخل وتقويتها صناعيًّا وعسكريًّا (وهي وجهة نظر تماثل وجهة نظر السلطان قلاوون الذي قال : لا تترك كبشاً كبيراً في مملكتك) أما وجهة نظر معارضيه فكانت البدء بنشر الشيوعية في أوروبا الغربية أولاً، فتم بسهولة وبعنف أحياناً التخلص من كل القيادات السابقة، وتركيز كل السلطات في يديه لأن وجهة نظره كانت سليمة وفي مصلحة الشعب الروسي ، فمن لديه القدرة على البناء، فليبن بيته أولاً ، ثم إذا تبقى له وقت وأموال فليذهب ليبني بيوت الآخرين وتوالت نزاعات ومطاردات الأصدقاء القدامى بعضهم لبعض حتى ظفر ستالين بلقب الحاكم والزعيم الأوحد للاتحاد السوفيتي ممسكاً بكل السلطات عام١٩٣٠ ، بعد إعدام معارضيه.

عندما أصبح حاكماً مطلقاً للاتحاد السوفيتي ظهرت بوادر الديكتاتورية في شخصيته بصورتها الحقيقية فبدأ في تصفية خصومه السابقين وأتباعهم جسديًّا أو بالنفي إلى سيبريا أو تتبعهم إلى البلدان التي هربوا إليها ، وراح ضحية تلك العمليات ملايين الروس المعارضين أو الذين يشتبه في أنهم يمكن أن يكونوا أو يصبحوا معارضين، ولكنه من وجهة النظر الأخرى كان يريد بناء دولة روسية قوية تعتمد على نفسها ، وتستطيع أن تدافع عن أراضيها الشاسعة ضد الطامعين ، ولم يكن في نيته التدخل في الشؤون الأوروبية، بل اهتم بالفرد الروسي وبالتعليم والخدمات الصحية وبإنشاء الطرق والمطارات، أى نعم كان قاسياً في قراراته ولكنه كان عظيماً في إنجازاته، حتى أصبحت روسيا قوة نووية عام١٩٤٩، وفي إحدى المشروعات اللازمة لمد موسكو بالمياه العذبة، وكان على الروس أن يشقوا مجرى نهر من الشمال للجنوب طوله ١٣٨ كيلومتر وإلا مات سكان العاصمة من العطش، فتفتق ذهن ستالين إلى أن يستعمل المساجين والمعارضين السياسيين في شق هذا النهر ، وكان يقيم لهم زنازين متحركة يمكن فكها ونقلها، طولها خمسة كيلومترات يعملون وينامون ويأكلون

بداخلها ويحفرون الأرض ، وعندما تنتهي المنطقة يُنقل الجميع بالزنزانة للمنطقة التي تليها حتى تم شق النهر بأكمله بطريقة شبه مجانية وعاش النهر ومات ستالين ومات الجميع بعده كما سنموت نحن أيضاً بإذن الله!! وهذه القصة سمعتها في تليفزيون روسيا بأذني.

كانت فلسفة جوزيف ستالين هي الإنجاز من خلال هدف محدد، ومن يقف في وجهه كان كمن يقف أمام بلدوزر عليه أن يتحمل نتيجة وعواقب وقفته، وأتم بناء الاتحاد السوفيتي الجديد وأصبحت روسيا قوة أنقذت العالم الغربي في الحرب العالمية الثانية بعد أن دفعت الثمن غالياً من دماء شبابها والذي تمثل في ٢٢مليون قتيل وجريح حتى عام١٩٤٥ ولولا تصدى ستالين لمعارضيه في الداخل (كما فعل محمد على باشا في مذبحة المماليك بالقلعة) لما تمكن من بناء دولته القوية وتحقيق حلمه؛ لأنه من المعروف أن للبناء ضحايا أيضاً، ولكن ضحايا البناء نترحم عليهم ونتذكرهم بالخير (مثل العمال المصريين الذين ماتوا في حفر قناة السويس) أما ضحايا الهدم والفتن وسقوط الدول من المستعمرين الغزاة، فلا نتذكرهم ألا باللعنات!!

أما الأخطاء الفادحة في حياة ستالين خارجيًّا ، فقد بدأت بعد الحرب العالمية الثانية عندما بدأ يصدر الأفكار الشيوعية إلى دول أوروبا الشرقية التي سيطر عليها بعد الحرب وسلبها حريتها، وأقام بها نظاماً ديكتاتوريًّا ليس من أجل البناء كما فعل في روسيا، ولكن من أجل السيطرة في حد ذاتها، حيث بدأت بوادر الحرب الباردة مع أمريكا وأوروبا، وأغلب تلك الدول تأخرت علميًّا واقتصاديًّا وهرب مفكروها من طغيانه، فلم يحب تلك الدول قدر حبه وتقديره لبلاده، فكانت روسيا تتقدم ودول أوروبا الشرقية تتأخر وتعتمد على روسيا في كل شيء حيوي مثل: الطاقة والصناعات الدقيقة والتسليح حتى جاء عهد الرئيس خوربتشوف وانفتحت روسيا على دول العالم الثالث وساعدتها بالسلاح للحصول على استقلالها وساعدت الحركات التحررية في آسيا وأفريقيا ، وعمقت مبادئ الحرب الباردة التي نشأت في عهد ستالين لتقسيم العالم شرقي وغربي بعد الحرب العالمية الثانية، والتي كان قطباها العدوين اللدودين تشرشل وستالين (الأصدقاء إجبارياً أثناء الحرب العالمية الثانية).

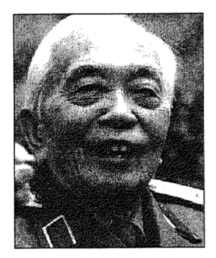
عاشت أم ستالين فترة طويلة من العمر ورأت ابنها التي كانت تتمني أن يصبح رجل

دين قد أصبح من الذين يحاربون الأديان، وأسفت لما صارت إليه أمور ابنها دينيًّا حتى ولو كان رئيساً للدولة كما حدث ، وظلت على تدينها وتمسكها بالمبادئ الأخلاقية التي أرسل الله بها كل أنبيائه ورسله، فهل أدركت مقولة المصريين "اللي تحسبه موسى يطلع فرعون".

تُوفِّي ستالين فجأة في ٥ مارس عام١٩٥٣ ولم يصدق الروس في بادئ الأمر خبر وفاته من كثرة ما سمعوه ورأوه وعانوه من قسوته وجبروته، أنه سيموت بهذه السهولة على فراشه وأقيمت له جنازة مهيبة وضخمة ، وألقى السوفييت نظرتهم الأخيرة على جثمان الرجل القوى الجبار الذي تولى الحكم ما يقارب من ثلاثين عاماً ، وضحى بالآلاف من المعارضين الروس لكي يتمتع الملايين من الروس بعد نصف قرن بروسيا قوية وعظيمة ساعدت دولاً كثيرة ضعيفة في نيل استقلالها وحقوقها .

وتلك قصة الرجل الذي بدأ حياته متحدياً المستحيل، عندما نُفي إلى سيبريا ست مرات، وهو شاب وأنهاها متحدياً مستحيلات المعارضة والحرب والبناء، وعليكم أن تضعوا أعماله الجيدة وأعماله السيئة على كفتيْ الميزان وتنظروا أيهما الأثقل، وقد كان جوزيف ستالين يتوقع هذا الموقف المُحير الذي سيقع فيه الناس بعد وفاته حين قال: "أخاف أن يهيل ويضع القوم التراب على قبري بدلاً من الزهور".

56



الجنرال الفيتنامي جياب فوتغوين

"ليس ثمة هزيمة أكبر من أن تعلن يأسك من نفسك"

الكلمات السابقة قالها الجنرال الفيتنامي **البطل جياب، ردًّا** على سؤال وجهه له الكاتب الفرنسي أندريه مالرو عام ١٩٥١ والذي لخص فيه عبقرية الفكر الإنساني عندما ينوى أن يتحدى المستحيل معتمداً على الله ، وعلى سواعده، بعد رحلة كفاح استمرت خمسين عاماً لمدرس تاريخ قرر أن يحرر بلده فيتنام تحت قيادة رئيسه ومعلمه "هو شي منه" مواجهاً القوات الفرنسية المتحالفة مع الولايات المتحدة الأمريكية بجيش بسيط العدة والعتاد من الفلاحين أبناء البلد، حتى أصبحت حرب فيتنام الأعجوبة العسكرية في القرن العشرين، لأنها الدولة التي حاربت قوتين عظميين هما فرنسا وأمريكا.

ولد الجنرال فو تغوين جياب في فيتنام الجنوبية أثناء الاحتلال الفرنسي لبلاده عام١٩١٢ في مقاطعة كوانج بينج، التحق بجامعة هانوى وتخرج منها مدرساً للتاريخ، وتزوج من ابنة مدرس فيتنامي تحمل نفس أفكاره التحررية.

في بداية الحرب العالمية الثانية عمدت فرنسا إلى إقصاء الحزب الشيوعي في الهند الصينية التي كانت تحتلها ، وكان قد تكوَّن بقيادة "هو شي منه" وكان جياب يميل لهذا الحزب وحدثت اعتقالات جماعية لآلاف منهم، وخطط جياب للهرب إلى الصين ونجح في الإقامة هناك لمدة عام درس فيها الخطط العسكرية، وقابل "هو شى منه" لأول مرة عام١٩٤١في شهر مايو واتفقا على تكوين خلية عسكرية تتولى مسؤلية تحرير فيتنام، وعُيِّن جياب قائداً لها، في أثناء وجوده في الصين، تم القبض على زوجته وأختها وتمت محاكمتهما عسكريًّا

بتهمة التآمر ضد القوات الفرنسية وحُكم على أختها بالإعدام ، وعلى زوجته بالسجن المؤبد وتوفيت بالسجن عام ١٩٤٣.

عاد إلى فيتنام بعد أن تمكن من تكوين ما يسمى جيش التحرير الفيتنامي ، وكانت أهم عملياته في ديسمبر عام ١٩٤٤ حيث هاجم مركزين للقوات الفرنسية المتمركزة في الأطراف وبعد هزيمة اليابان عام ١٩٤٥ اندفع الفيتناميون من كل الاتجاهات السياسية تجاه سايجون العاصمة؛ لكي يتمكنوا من السيطرة عليها أولاً وأعلنت جمهورية فيتنام المستقلة في ٢ديسمبر عام١٩٤٥ وأُختير جياب وزيراً للداخلية، ولكنه استغل منصبه وبدأ في تصفية جميع المعارضين لأفكاره الشيوعية، وأعدم كثيراً من الفيتناميين .

عند ذلك المنحنى أحس الفرنسيون أنهم قد تعجلوا في الاستقلال الصوري لفيتنام ، وكانت هناك قوات فرنسية ما زالت قريبة من المنطقة، ففكرت فرنسا في إعادة سلطاتها على فيتنام وهنا كلف رئيس الدولة "هاو" الجنرال جياب بقيادة المقاومة الشعبية، وحرب العصابات ضد القوات الفرنسية والتي كلفت تلك القوات١٧٠,٠٠٠ قتيل وجريح خلال ثماني سنوات في معارك دموية، قتل فيها أيضاً عدد كبير من قوات جياب ؛ لأن أعداد ومعدات القوات الفرنسية كانت أقوى، ولكن حرب العصابات والجبال مع سياسة النفس الطويل لإنهاك القوات الفرنسية، كانت لها اليد العليا حتى جاءت معركة هامة جدًّا في التاريخ، ولازالت تُدرَّس بالمعاهد العسكرية وتُسمى معركة "ديان بيان فو" الذي يعتبر الجنرال جياب بطلها الحقيقي في السابع عشر من إبريل عام١٩٥٤، حيث حوصرت القوات الفرنسية لمدة ٥٥ يوماً في قلعة فرنسية بالمدينة التي تبعد عن هانوي ١٨٠ كيلومتر غرباً ، وارتكب الفرنسيون خطأً فادحاً قبل المعركة حيث قدروا قيمة الأرض والمكان أكثر من قيمة الجنود الذين سوف يدافعون عنها بأن جلبوا ١٢,٠٠٠ مقاتل للقلعة فكانوا صيداً ثميناً للقادمين من الجبال ، ومن كل الاتجاهات بقيادة الجنرال جياب الذي حاصر القلعة لمدة ٥٥يوما مكبداً القوات الفرنسية ٤٠٠٠ قتيل، مما اضطر فرنسا وفيتنام لقبول عقد مؤتمر صلح في سويسرا عام١٩٥٥، واتفاقية اعترفت فيها فرنسا بحكومة شيوعية في الشمال وحكومة غير شيوعية في الجنوب، ولكن أمريكا لم توقع على الاتفاقية.

ذاعت شهرة معركة قلعة "ديان بيان فو" حول العالم، وأصبح بطلها الجنرال جياب

ملهماً للقوى التحررية في آسيا وأفريقيا التي تبغي التحرر من الاستعمار خلال النصف الأول من خمسينيات القرن العشرين.

الجولة الثانية من جولات تحدى المستحيل في حياة الجنرال جياب بدأت عام١٩٦١ عندما أرسل الرئيس الأمريكي الراحل جون كينيدي سراً ١٦٠٠ فرد من القوات المسلحة الأمريكية لمساعدة الفيتناميين الجنوبيين، لكنهم لم تكن لديهم خبرة القتال التي اعتمد عليها الشيوعيون المناؤون للسلطة الذين كانوا يعتمدون على خطة "اضرب واجري" ففشلت المهمة ، وأصبح الشيوعيون على وشك السيطرة على فيتنام الجنوبية حتى جاء الرئيس ليندون جونسون وقرر دخول معارك فيتنام عام ١٩٦٤ بحشود ضخمة وصلت إلى نصف مليون مقاتل أمريكي في أوج الحرب، وبدأت الطائرات الأمريكية تدك فيتنام الشمالية التي وقف بجانبها كل من الصين والاتحاد السوفيتي في أيام الحرب الباردة بين القطبين الشرقي والغربي **وأصبحت فيتنام ساحة لصراع الأفيال في غابة لا يدفع ثمنها إلا عشب وغابات الأرض!!**

وبدأ الجنرال جياب في إرسال أعداد إضافية من فيتنام الشمالية ليقاتلوا بجانب عصابات الفيتكونج التي تكونت في الجنوب من مقاتلي الجبال، وتولى جياب قيادة الفريقين بعد اغتيال قائد الجنوب " شي تانه " عام١٩٦٧ واستفاد من خبرته في دراسة التاريخ عندما قرأ مذكرات القائد العسكري الأمريكي في الحرب العالمية الثانية عندما ذكر "**أن النظم الديمقراطية في العالم لا تستطيع أن تحارب لمدة طويلة تزيد عن سبع سنوات**" وفكرته في ذلك أن الشعوب سوف تمل من الضرائب والتكاليف والتجنيد الإجباري، وقد تنقلب على حكوماتهم أو أحزابهم، ويعطون الحكم لمن يبشر بإنهاء الحرب ولو بالهزيمة المشرفة، فلعب الجنرال جياب على هذا المنطق وأطال أمد الحرب الفيتنامية، وبدأت حرب العصابات من جبل لجبل ومن وادٍ إلى وادٍ وهي حروب، لا تجدى فيها الطائرات والمدفعية الثقيلة بل تعتمد على الشجاعة والمباغتة والهجوم على المواقع بأقل عدد من الأفراد، والهروب للجبال سريعاً أو الاختفاء وسط الأحراش .

واستطاع الجنرال جياب خداع وزير الدفاع الأمريكي روبرت ماكنمارا الذي ظل يرسل مزيداً من القوات ويتلقي مزيداً من الخسائر حتى عام١٩٦٩ حين وصل إجمالي خسائر

القوات الأمريكية إلى أربعين ألف قتيل .

وكما توقع الجنرال جياب الذي كان يلعب على الزمن بدأت الأصوات المحتجة على الحرب في فيتنام تعلو في أمريكا نفسها ، وبدأ الأمريكيون يرفضون الخدمة العسكرية في فيتنام ومن أشهر الرافضين كان الملاكم محمد على كلاى بطل العالم لعدة سنوات في الوزن الثقيل ، وأيضاً الرئيس بيل كلينتون عندما كان شابًا وبدأت بوادر الهزيمة تلوح للجيش الأمريكي في مستنقع فيتنام نتيجة لتلاحم الشعب مع قياداته، وظهور قيادات الجيل الثاني من محاربي فيتنام وأصبح الجنرال جياب من أبرز الاستراتيجيين العسكريين في العالم في القرن العشرين؛ لأنه أثناء رحلته الطويلة مع المعارك منذ ثلاثينيات القرن العشرين، أنشأ وربى جيلاً جديداً من القادة أنجزوا معه مهمة التحرير الثانية في الستينيات والسبعينيات ، وزحفوا حتى استولوا على سايجون عاصمة فيتنام الجنوبية في إبريل عام ١٩٧٥ وتم توحيد الشمال والجنوب في دولة واحدة وانتهت حرب التحرير وأصبحت فيتنام صديقة للولايات المتحدة الأمريكية .

وتذكر البطل العجوز لقائه مع المفكر الفرنسي الكبير "أندريه مالرو" عام ١٩٥١ عندما رآه يرتدى لباساً من الكتان وحذاءً مطاطاً بسيطاً ويحمل عتاده على ظهره مثل أي جندي بسيط وسط الفلاحين المقاتلين وسأله: هل تعتقد أن "عصابات من الفلاحين الجهلاء يمكن أن تهزم فرنسا" فرد عليه الشاب جياب بأنه لا يخاف من الهزيمة قائلاً: "ليس ثمة هزيمة أكبر من أن تعلن يأسك من نفسك، بينما عدوك خائف منك حتى الموت". وظل أندريه مالرو الذي تولى وزير الثقافة الفرنسية بعد أربعين عام من هذا اللقاء يحترم هذا المحارب الفذ الذي نسى آلام فقدانه لزوجته ، وتزوج حبه لوطنه متحدياً كل المستحيلات التي واجهته حتى بلغ التسعين من عمره نحيل الجسد وهش العظام ، ولكنه عملاق يتذكره التاريخ.





القائد البحري نيلسون

"بطل أنقذ إمبراطورية وأشهر قائد عاشق"

القائد الإنجليزي الأدميرال نيلسون بطل معركة النيل البحرية (أبو قير البحرية) وبطل معركة الطرف الأغر في أسبانيا (معركة قادش)، كان بطلاً يطير بذراع واحدة وجناحين أحدهما جناح حب الوطن الإنجليزي والإخلاص له، والآخر جناح حب الليدي هاملتون أجمل وجه وأشهر امرأة وزوجة وعاشقة في القرن التاسع عشر، والتى لعبت دوراً هامًّا لدى سلطات ومملكة نابولي عام ١٧٩٨ لكي تساعد القوات البحرية الإنجليزية وقائد الأسطول الإنجليزي نيلسون في تعقبه لمراقبة أسطول نابليون بونابرت، حتى وصوله لمنطقة أبي قير بالإسكندرية، حيث دارت المعركة البحرية الشهيرة المسماة في المراجع الإنجليزية "بمعركة النيل" وفي المراجع المصرية والفرنسية بمعركة أبي قير البحرية عام ١٧٩٨، حيث كانت سفينة القيادة الإنجليزية أجا ممنون بقيادة نيلسون قد تعطلت وأرسل إلى ملك نابولي رسالة للسماح لها بالرسو على الشواطئ الإيطالية في ميناء نابولي، وميناء صقلية للتزود بالماء والمؤن والوقود، وعقد الملك فرديناند ملك نابولي اجتماعاً لمجلس البلاط لأخذ رأيهم، فلم يوافقوا بالإجماع ؛لأن مملكة نابولي كانت قد التزمت بعدم دخول أكثر من سفينتين إنجليزيتين للمواني الإيطالية أثناء الحروب الدائرة بين فرنسا وإنجلترا في القرن التاسع عشر، فتقدمت السيدة الجميلة الليدي هاملتون زوجة السفير البريطاني لدى إيطاليا برجاء خاص لزوجة الملك (الملكة) تطلب منها التدخل لدى الملك للسماح بدخول قطع الأسطول الإنجليزي لسواحل نابولي مع سفينة عشيقها قائد البحرية الإنجليزية إلى المواني الإيطالية .

وهذه السيدة الجميلة (التي تعرف عليها ويلسون عام١٧٩٣ في بيت السفير) كانت تحظى بتقدير خاص لدى الملكة التي كانت تعتبرها شقيقتها ووصيفتها، فتم السماح لسفن الأسطول الإنجليزي بدخول موانئ نابولي القريبة من شواطئ الإسكندرية جغرافيًا ، واستعد نيلسون لمعركته الشهيرة في منطقة أبي قير وأبحر من نابولي بكامل قواته إلى الإسكندرية ، وتقابل الأسطولان ودارت المعركة وانهزم الأسطول الفرنسي ، وتم تدميره وتحولت سيادة القوات البحرية في البحر المتوسط لصالح الإنجليز، وعندما عاد نيلسون منتصراً على قوات نابليون لم يعود مباشرة إلى الموانئ الإنجليزية بل عاد إلى ميناء نابولي الإيطالي، وأجريت احتفالات النصر على ظهر سفينة القيادة الإنجليزية، وصعد السفير البريطاني وزوجته الليدي هاملتون لاستقبال وتحية القائد العظيم نيلسون الذي استطاع أن يكسر شوكة نابليون ، ويحمى الشواطئ الإنجليزية من هجوم البحرية الفرنسية التي كانت في أوج عظمتها وتطورها .

ولكن بطولة القائد نيلسون وتصديه لقوات نابليون البحرية خارج حدود إنجلترا وفرت على الإنجليز سقوط مزيد من الضحايا على سواحلهم، ومنعت تدمير المدن في حالة القصف البحري على الشواطئ، كل ذلك بسبب بطولة وشجاعة نيلسون وتدبير عشيقته الجميلة زوجة السفير البريطاني التي صعدت من أول درجة في السلم الاجتماعي البريطاني بعد أن كانت ابنه عامل في المناجم وفقيرة ومعدمة ، إلى أن أصبحت أشهر موديل للرسم في القرن الثامن عشر حتى إن الفنان الشهير "رومنى" رسم لها ٢٧ لوحة عالمية في مختلف الأوضاع وقال عنها:"لو أنني أمضيت عمري كله في رسم صورة هذه الآنسة الإنجليزية الجميلة "إيما"، لما ندمت ولما ضاع العمر هباءً ، وقد تزوجها السير هاملتون إعجاباً بجمالها ورقتها واحتفظ بها كتحفة فنية في قصره العامر ، رغم أنه كان يعرف إنها صديقة ابن أخته الشاب "جريفيل" الذي تكاثرت عليه الديون ، واقترب من أبواب المحاكم والسجون، فعرض عليه خاله السير هاملتون أن يسدد ديونه مقابل أن يترك الجميلة "إيما" التي تسببت له في كل هذه الديون فوافق "جريفيل" على مضض ثم التف الخال العجوز ذو الستة والخمسين عاماً، وأخذ إيما وتزوجها ووطد من خلال علاقتها بملكة نابولي أواصر الصداقة بين إيطاليا وإنجلترا .

وعندما ثارت الجماهير الإيطالية على الملك ، والملكة وقفت الليدي هاملتون (إيما) وزوجها السفير والبطل نيلسون بجانب ملك نابولي ، وزوجته وحاصروا الثائرين وردوا الجميل للملك وزوجته ونقلوهم إلى منطقة باليرمو في إيطاليا حتى هدأت الأمور عام١٧٩٩ وتم اعتقال الثائرين والمتمردين، وكانت تلك الأيام من أسعد أيام نيلسون؛ لأن السفير وزوجته كانوا قريبين من نيلسون دائماً مما سبب حرجاً كبيراً للدوائر الدبلوماسية في لندن ، وتم تهديد نيلسون إن لم يبتعد عن مرافقة السفير وزوجته ، وفعلاً عاد البطل نيلسون إلى إنجلترا وظل بعيداً عن القيادة عقاباً له، وتم تعيين اللورد كييث قائداً للبحرية الإنجليزية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وحصل نيلسون على إجازة، ولكن في بعض الأحيان تحتاج بريطانيا من الأبطال بطولاتهم ، وكذلك دائماً ما تنظر العقلية الإنجليزية إلى المصلحة البعيدة قبل أن تعاتب أو تجنى ثمار الحصاد القريب؛ لأن العقلية السياسية الإنجليزية هي أم العقليات السياسية على مستوى العالم بلا منافس .

ففي عام ١٨٠٥ كانت فرنسا في أوج نموها العسكري على مستوى الأراضي في القارة الأوربية ، وكانت البحرية الإنجليزية أقوى أسطول في أوروبا، ثم حدث أن حاصرت القوات البحرية الإنجليزية الشواطئ الفرنسية وأصبحت فرنسا تعانى تجاريًا وعسكريًا من ذلك الحصار رغم أنها كانت مسيطرة على معظم الموانئ الأوروبية ، وحاول نابليون استدراج الأسطول البريطاني إلى منطقة جزر الهند الغربية لكي يتمكن جيشه من غزو الأراضي الإنجليزية ، واتفق الأسطولان الأسباني والفرنسي على مهاجمة الأسطول الإنجليزي، ولكن كانت قيادة الأسطول الفرنسي قليلة الخبرة بسبب تسريح معظم القادة الكبار بعد الثورة الفرنسية، وتم إعادة نيلسون ليتولى قيادة البحرية الإنجليزية، وأدرك قائد الأسطول الإنجليزي الأدميرال نيلسون نقطة الضعف في الأسطولين الفرنسي والأسباني وهاجمهم من المنتصف في معركة بحرية كبرى في منطقة قادش، والتي عرفت في التاريخ بمعركة الطرف الأغر وتمكنت البارجات والسفن الإنجليزية من هزيمة الأسطولين الفرنسي والأسباني والاستيلاء على معظم قطع الأسطول الفرنسي ، وانتهى عصر بطولات نابليون الذي تم عزله ثم نفيه فيما بعد ، وكل ذلك بسبب بطولة القائد الإنجليزي العظيم نيلسون التي لقي حتفه في أرض المعركة بعد أن أصيب في عموده الفقري إصابة مباشرة، وظل يتألم وقبل أن يفارق الحياة دعا الله أن ينصر بلده بريطانيا ، وأوصى مساعده الكابتن

"هاري" أن يرعى ليدي هاملتون التي أصبحت أرملة بعد وفاة زوجها السفير السير هاملتون وقال له : " إنني أحتضر وأترك "إيما" أمانة في عنق بلدي، تلك المرأة الجميلة التي أحبها خمسة عشر عاماً وتزوجها عامين فقط ، وتركها ملبياً نداء الوطن عندما استدعوه ، وكلفوه بقيادة الأسطول البحري الإنجليزي في معركة الطرف الأغر التي أعادت لبريطانيا سيطرتها على البحار وأنهت أسطورة نابليون بونابرت ، وظل اسم ويلسون وتمثاله الشهير في ميدان الطرف الأغر في لندن شاهدين على بطل أسطوري إنجليزي بعين واحدة وذراع واحدة أيضًا، لكنه كان يحمل فكراً حربيًّا استراتجيًّا عظيماً، شرَّف بلاده في معركتين حربيتين ومات من أجل شرف وكرامة المملكة البريطانية التي أنقذها من الغزو، فهل تغفر له بريطانيا غزواته العاطفية مقابل بطولاته الخارقة.

58



سيمون بوليفار

"الفيلسوف الذي تحدى إمبراطورية وحرر قارة"

مشهور عن الفلاسفة أنهم أرباب علم وفكر وهدوء، وليسوا محاربين أو طالبي سلطة، وعندما يتوفاهم الله تعالى نرث عنهم كتباً ومكتبات وأفكارا عقلانية، تحثُّ على التفكير واستعمال العقل ولكن المحارب المتمرس الذي أُطلق اسمه على دولة بوليفيا والذي اشترك وقاد حروب تحرير سبع من دول أمريكا اللاتينية وتولى الحكم في إحداها ، وواجه المستحيل في تحديه للإمبراطورية الإسبانية في القرن التاسع عشر كان فيلسوفاً دارساً لعلوم الفلسفة في باريس متأثراً بشخصيتيْ جان جاك رُوُسو ونابليون واستطاع أن يمزج بينهما في الفكر والحرب ليصير أول فيلسوف محارب ويتولي الحكم في العصر الحديث.

ولد سيمون أنطونيو دى لاسانتيسيما بوليفار في مدينة كاراكاس في ٢٤ يوليو عام ١٧٨٣ بأمريكا الجنوبية ، وهو مؤسس دولة كولومبيا ، وأول رئيس لها بعد تحريرها من الاحتلال الأسباني، زار في شبابه أوروبا وتأثر بالثقافة الأوروبية، وبغزوات نابليون على أسبانيا عندما أطاح نابليون بالحكومة الأسبانية، فأحس بضعف الإمبراطورية الأسبانية التي تحتل أمريكا الجنوبية مما شجعه على التفكير في تحريرها، عاد إلى فنزويلا عام١٨٠٧ بعد دراسته في فرنسا للفلسفة والعلوم الأخرى، وأصبح ضابطاً بجيش الثورة، وبعد سلسلة حروب متفرقة انتصر بوليفار على الأسبان، ونالت بعض من تلك الدول استقلالها بعد أن نجح أولاً في الإطاحة بالحاكم الأسباني لفنزويلا فنسينت دي أمبران، وأقام حكماً عسكريًّا بالبلاد، في

عام١٨١١ أعلن المجلس الوطني استقلال فنزويلا ، ولم تعترف أسبانيا بذلك الإعلان وقامت بحملة عسكرية مضادة، واضطر قائد الثوار فرانسيسكو ميراندا إلى توقيع هدنة مع القوات الأسبانية، لم يرض عنها سيمون بوليفار وغادر إلى منطقة تسمى كارتاجينا وهي الأرض التي قامت عليها دولة كولومبيا فيما بعد، من هذا المكان الذي كان يُطلق عليه إجمالا منطقة غرناطة، بدأ في تكوين جيش جديد وتولى قيادة حملة عسكرية عام١٨١٣ واشتبك مع القوات الأسبانية المتواجدة في فنزويلا في ست معارك، واستطاع أن ينتصر عليهم ودخل العاصمة كاراكاس بطلاً ومنقذاً للبلاد ، وحَصُل على لقب "المحرر" وأسس حكماً قويًّا ولكنه كان حكماً ديكتاتوريًّا ، وعاقب معارضيه بأحكام قاسية فاندلعت حرب أهلية في البلاد ، مما أعطى الفرصة للقوات الأسبانية أن تستعيد العاصمة .

وغادر بوليفار مرة أخرى إلى سهول وجبال كارتاجينا، وبدأ في تدريب رجال الجبال ليبدأ الجولة الثالثة من المعارك مع القوات الأسبانية التي لم تكن متمرسة على الحرب في الأماكن الوعرة والجبال والوديان والسهول مثل أبناء الأرض ، حيث كان المرور مستحيلاً ومتعذراً في تلك المناطق مما أعطى الأسبان انطباعاً بالأمان تجاه جيش الثوار، الذي لم يكن يتعدى أفراده ٢٥٠٠ مقاتل، انتصر جيش سيمون بوليفار ، وتم إعلان جمهورية كولومبيا بعد استسلام القوات الملكية الأسبانية، تولى رئاسة الدولة الجديدة وأصبح ثانياً دكتاتوراً جديداً وعاد لمجابهة القوات الأسبانية في المناطق المحيطة بكراكاس في يونيو١٨٢١ والأكوادور في مايو عام١٨٢٢ وتمكن من تحرير بيرو عام١٨٢٤ ولم يتبق إلا الجزء الشمالي من الأراضي التي حررها عام١٨٢٥ واتخذت هذه المنطقة اسم بوليفيا المشتق من اسمه بوليفار ؛تقديراً لدوره في تحرير معظم أراضي أمريكا الجنوبية من الاحتلال الأسباني.

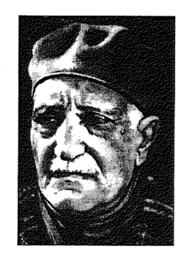
حاول سيمون بوليفار إقامة دولة واحدة من الدول الأربع التي ساعد في تحريرها مضافاً إليها المكسيك وأمريكا الوسطى، وإنشاء جيش وأسطول فيدرالي على غرار الولايات المتحدة الأمريكية في الشمال مع التعهد باللجوء للتحكيم، إذا حدثت منازعات بينهم وهو ما حدث فعلاً عام١٨٢٧ وتمكن بوليفار أن يصلح بين فنزويلا وغرناطة الجديدة، إلا أن كولومبيا قررت الانفصال عام١٨٢٩ وعلى إثر ذلك انهار سيمون بوليفار ؛لأنه رأى أن

حلمه بالاستقلال قد تحقق بعد مشقة وكفاح ، ولكن الرغبة في انفصال ذلك الاتحاد كان أقوى من قدرته على تحمله فقرر ترك أمريكا الجنوبية كلها، وغادر البلاد ملبيًّا دعوة أحد الأسبان المعجبين به ، وعاش لمدة عام على الأرض الأسبانية التي حاربها سابقاً ، وتوفي في أسبانيا عام ١٨٣٠ مخلفاً وراءه ذكرى عظيمة لبطل تحدى مملكة، وحرر قارة في صراعه ضد المستحيل وفقد حلمه بانهيار الوحدة اللاتينية، وهكذا غالباً ما يتفق الثوار على الثورة قبل الثورة ويختلفون بعد الثورة على الثروة التي لم يكتسب لنفسه منها شيئاً بطل أبطال الثوار سيمون دي بوليفار. وصدقت رؤيتي أن ورثة الثورات قد يكونون أكثر عددا واستفادة من الذين قاموا بها.

الفصل السابع

بلا جامعات ولم يعرفوا المستحيل

59



عباس محمود العقاد

"المدرسة الفكرية القائمة على أسس عقلية وأستاذ كتابة العبقريات"

المفكر والكاتب والفيلسوف والشاعر العربي المصري الأستاذ عباس محمود العقاد .

هو المثال الدائم لمن أراد أن يحطم المستحيلات التي تعوق أي إنسان من أن يصير عالما ومثقفا بصرف النظر عن شهاداته العلمية ومثال أيضا لتحدي الجهل الذي كان متفشياً في المجتمع خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حيث أصبح عبقري عصره بالمقارنة بمن درسوا في الجامعات المصرية والأوربية وكان له من المؤلفات مراجع تُدرَّس حتى الآن في سلسلة سُميت بالعبقريات ، مازلنا نعتبرها من أحسن ما كُتب عن سير صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم (عبقرية الصديق - عبقرية عمر - وغيرهما من العبقريات التي تعدت ١٤ عبقرية في التاريخ الإسلامي) .

وقد ذكر لي الأستاذ عادل عبد الصمد رئيس تحرير مجلة الهلال المصرية أن عبقرية الأستاذ العقاد في مؤلفاته في العبقريات ونجاحه في ذلك يعود على فهمه ودراسته لمفتاح الشخصية وأهم صفاتها ومميزاتها المتفردة بها عن الآخرين.

كان عباس محمود العقاد أول مجدد في التحليل التأملي للثقافة الإسلامية، وحدثنا في كتبه عن معنى الإعجاب بالبطولة وتعلمنا من تلك الكتب، كيف يمكن للإنسان أن يعجب بنجاح وببطولة شخص ما ، ثم يبدأ في التمثل بخطواته في العمل ويعتبره قدوةً له ، ويتمنى أن يصير مثله وذلك ما تعلمته من الأستاذ عباس محمود العقاد، منذ خمسين عاماً مضت ، ثم نشأنا على مبدأ الإعجاب بالبطولة ، وليس كما هو حادث الآن من الحقد

والحسد على من ينجح أو يحاول النجاح ، وذلك في صورة الانتقاص من قدراته ومحاولة تكسيره أو تقليب ماضيه والبحث عن نقاط ضعف في هذا الماضي .

هذا العملاق في الأدب العربي الذي علَّم نفسه بنفسه وأول من قرأ دائرة المعارف البريطانية عدة مرات بأجزائها الاثنين والثلاثين ، وكان يستطيع الإجابة عن أي سؤال فيها ، وكان أيضاً فيلسوفاً وله صالونه الأدبي الذي تربت فيه أجيال من كبار الأدباء ومحبي الفلسفة وكبار الصحفيين في مصر والعالم العربي وعلى رأسهم أستاذنا الكبير أنيس منصور الفيلسوف الذي جعل الفلسفة سهلة الهضم لكل من يستطيع القراءة ، كل تلك المنجزات والمعارف استطاع الأستاذ عباس محمود العقاد بالعزيمة والإصرار والتحدي أن يجعل لحياته وزنا ومعنى وذكرى لرجل استطاع أن يتحدى المستحيل.

ولد عباس محمود العقاد في محافظة أسوان بجمهورية مصر العربية (وهي محافظة تقع أقصى جنوب مصر) في عام ١٨٨٩م وتلقى تعليمه الأولي في كُتّاب القرية ، ثم دخل المدرسة الابتدائية وحصل على شهادتها عام ١٩٠٢م وكانت تلك الشهادة تؤهل من يحصل عليها للعمل في الوظائف الحكومية ، ولم يستطع استكمال دراسته الثانوية للحصول على شهادة البكالوريا لأن أقرب مدرسة ثانوية في ذلك الوقت كانت تبعد عن قريته ٣٥٠ كيلو متر (في محافظة قنا) ومن هنا قرر عباس محمود العقاد أن يُعلِّم نفسه بنفسه وأن يكون أستاذا لنفسه حتى أصبح أحد ثلاثة مفكرين عصاميين أثروا في التاريخ الإسلامي لمصر في العصر الحديث وهم : جمال الدين الأفغاني ، والشيخ الإمام محمد عبده وعباس محمود العقاد ، قادوا حركة التحليل التأملي في الفلسفة الإسلامية وحركة التجديد والتنوير والتثقيف لعامة الشعب وليس لفئة معينة من المثقفين والخاصة ، وكان عباس محمود العقاد يعارض إنشاء وزارات للإعلام والثقافة لأن ذلك في رأيه يمكن أن يقود المجتمع ويوجهه إلى حيث ما تريد الإدارات ووقف موقفاً رافضاً من إنشاء وزارة الثقافة في مصر عام ١٩٣٦م عندما كان عضوا بمجلس النواب المصري وتقدم زميله العضو الأستاذ أحمد حسين بهذا الاقتراح للمجلس فكان رد الأستاذ العقاد :" إن الثقافة هي الاطلاع والتفكير، والتفكير لا يمكن أن تكون له وزارة ، وأن المثقفين يجب ألا يتحولوا إلى موظفين ، يتنافسون على المناصب ويهدرون طاقاتهم في الصراعات الصغيرة ، أي أن المثقف والفنان والمبدع يجب أن يكون بعيداً عن دائرة صراعات العامة من الشعب .

ولذلك عمل عباس العقاد موظفاً لمدة أربع سنوات فقط، ثم تفرغ للكتابة سواء للصحف أو في الأدب وكان متمكناً من اللغة العربية وهو ما أتاح له قراءة كل ما كان متاحاً في عصره من عيون التراث الإسلامي سواء الفلسفي أو الأدبي أو اللغوي أو القصصي ومزج تلك المعارف الإسلامية وأخرج من خلالها تراثه ورؤيته الإسلامية الأدبية مطعمة بروح العقلانية ومدعمة بثقافته العالمية من خلال اطلاعه على دائرة المعارف البريطانية ، حيث كان متمكناً من اللغة الإنجليزية ، ومطلعاً على الفلسفة المثالية الألمانية ونظريات المعرفة الوضعية الفرنسية ، وقارئا جيدا لعلم الاجتماع وهذه المعارف الواسعة في شتى العلوم جعلت إنتاج عباس محمود العقاد الأدبي متنوعاً وفي أغلب أنواع الثقافة وكان حريصاً على نقل معارفه وثقافته للآخرين عن طريق صالونه الأدبي في القاهرة الذي كان يحضره شباب المثقفين وكان يناقشهم ويتداول معهم المعلومات ويعطيهم ما يسمى بمفتاح القدرة على التفكير فيما وراء ما هو معتاد على التفكير فيه فيصبح لديهم القدرة على البحث والنظر فيما وراء الحقائق الماثلة رأي العين للآخرين، وهذا فيما نطلق عليه " المعلم الفيلسوف" الذي كان يجمع تلاميذه حوله ويعلمهم التفكير ثم ينطلقون هم بأنفسهم إلى مزيد من المعرفة كما كان يحدث في عصر الفلاسفة الأوائل سقراط وأرسطو وأفلاطون الذين وضعوا أسس استعمال العقل والتأمل .

وأضاف العقاد بمعارفه الدينية الواسعة للمكتبة الإسلامية إصدارات هامة مثل "الإنسان والقرآن الكريم" ، " الفلسفة القرآنية" ، : عقائد المفكرين في القرن العشرين" ، "التفكير فريضة إسلامية" ، " الله" ، " ابن رشد" ، الشيخ الرئيس ابن سينا" ، " الأبطال" ، وكتب العبقريات من زاويتي المنظور النفسي والمنظور الاجتماعي والتاريخي لكل شخصية من الشخصيات على حدة، وعرَّف معنى كلمة " بطل" في جماعة ما ، وهو الفرد الذي يظهر في الجماعة ويستطيع تغيير مسارهم إلى الأحسن ولكن بوضوح وإقناع ويسيرون خلفه ومن يقرأ تلك الكتب في الأدب العربي التي أنتجها عباس العقاد تستنير بصيرته ولا ينقاد بسهولة مغمض العينين وراء كل من هبّ ودبّ ؛ لأن القارئ يجب أن يضع فلتر ترشيح في أذنيه لما يسمعه وفلتر ترشيح في عينيه لما يقرأه ، وهذان الفلتران يصبحان صمام الأمان يمنعان وصول المعلومات الخاطئة إلى العقل ويمثلان حائط الصد ضد الإشاعات والخرافات والإلحاد والغيبة والنميمة . **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ**

تُصيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات/ ٦) وأرجو أن نعلق هذه الآية في شوارعنا وبيوتنا ومكاتبنا.

وقد كان للأستاذ العقاد فضل كبير عليَّ، حيث كان أول من قرأت له واستمعت إليه من المفكرين المصريين منذ خمسين عاماً.وبهرتُ بعقليته ثم بعد وفاته تعلقت بالدكتور حسين فوزي سندباد مصر.

كان عباس محمود العقاد شاعرا أيضاً، ولكن أشعاره لم تكن لها نفس نسبة الشهرة والنجاح بالمقارنة بأعماله الأدبية والفلسفية وكان الشعراء المعاصرون له يعيبون عليه تقليديته الشديدة في كتاباته الشعرية متأثراً في ذلك بالشعراء الإنجليز رغم أنه كان يكتب قصائده بالصورة التقليدية من حيث البناء الشعري، وكان مقرر لجنة الشعر بمجمع اللغة العربية وحصل على جائزة الدولة التقديرية في الأدب في فترة الستينيات وكان من الكُتَّاب الذين يحترمون قلمهم ويعرفون مسئولية الكلمة المكتوبة سواء في الصحف أو الكتب حتى إن عباس محمود العقاد سُجن لمدة ٩ أشهر بسبب مقالة كتبها في إحدى الجرائد اليومية، وعندما خرج من السجن كتب بيتاً من الشعر وألقاه أمام قبر الزعيم سعد زغلول:

ظللت جنين السجن تسعة أشهر وها أنذا في ساحة الخلد أُولد

وصار مثالاً رائعاً للكتاب الذين لا يكتبون من أجل الخبز، مثلما قال الكاتب السويسري الكبير دورنمات :"**إنني أتألم كثيرا عندما أرى أن هناك كاتباً مضطرا أن يكتب من أجل الخبز**"

هكذا كانت أفكار وكتابات عباس محمود العقاد، تجمع بين الأصالة والمعاصرة وكانت دراسته للأديان والعقائد تتميز بالموضوعية والموسوعية والحيدة ورغم أنه أنتج خلال حياته ٩٢ كتاباً أو ما يزيد قليلا عن ذلك إذا أضفنا إليها مقالاته بداية من جريدة الدستور التي عمل بها أولاً عندما تفرغ للأدب والصحافة ونهاية بجريدة الأخبار التي كان أحد أشهر كتابها، مع عدة مجلات مصرية وعربية، إلا أنه كان أكثر المفكرين تأثيرا على الشباب العربي في الفترة من عام ١٩٤٠ حتى الآن؛ لأنه استطاع أن يمزج بين الثقافتين : الإسلامية والغربية، من دون أن تجور إحداهما على الأخرى في كتاباته وآرائه وأفكاره، فلم يكن أبدا كاتباً متفرنجاً ولا كاتباً متشددا متطرفاً يدعو إلى نبذ الثقافات الغربية بأكملها كما يحدث الآن، ولكنه تمكن من أن ينتقي منها السمين ويترك الغث، من دون أن يهاجم أو يوجه

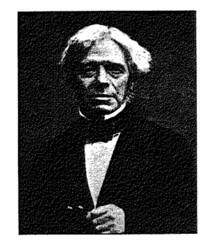
النقد اللاذع للآخرين ، وبذلك كان للعقاد فضل كبير في ظهور أجيال مثقفة ومعتدلة وغير متعصبة من أمثال الأستاذ أنيس منصور ؛ لأن هناك فارقا كبيرا بين كتابات كل من الصحفي والمثقف والمفكر، فإن استطاع الكاتب أن يضع ثلث طاقته في كل واحدة منها ويمزج بينها بأمانة ، لأصبح مثل عباس العقاد ، وكما قال عنه تلميذه النجيب الصحفي الكبير الأستاذ أنيس منصور في جريدة الأهرام الغراء حيث كان ينصحهم بالتالي:" يجب أن تكون جادا صبورا لكي تكون محترفاً ، ويجب أن تكون متواضعاً لأن العلم بحر واسع لا أول له ولا آخر ويجب أن تقرأ المجلات العلمية حتى وإن كنت تشتغل بالآداب وأن تقرأ في الآداب بصفة عامة حتى لو كنت تعمل بمهن أخرى وأن تستمر في القراءة في شتى المجالات في العلم والأدب والفن والموسيقى والفلسفة".

وإنني أقول لكم اليوم إنه قد ثبت علميًّا أن القراءة تؤخر سن شيخوخة العقل وتنشط خلايا الذاكرة في المخ وتؤخر ظهور مرض الزهايمر وقد لاحظنا أن أغلب المفكرين والفلاسفة والعلماء يتعدون سن الثمانين محتفظين بكامل قواهم العقلية من كثرة القراءة والاطلاع والله أعلم.

قد توفي الأستاذ عباس محمود العقاد إلى رحمة الله تعالى عام ١٩٦٤م تاركاً لنا ذكرى نموذج فكري فذ وقامة علمية رفيعة معتدلة ، اتفق مع من اتفق واختلف مع من اختلف خلال حياته ، بالفكر وبالقلم وبالموضوعية وبالعقلانية ، وليس بإشهار السلاح والكراهية ولا بالتنابذ العقيم المبني على التشهير من أجل الشهرة أو المال، حيث دعا إلى استعمال العقل ، والمعروف (**أن الفكر لا يُواجَه إلا بالفكر**).

عباس محمود العقاد عاش فقيراً ومات فقيراً في شقته المتواضعة القديمة في حي مصر الجديدة ولم يمتلك عقاراً ولا فدان أرض ، ولكنه أصبح كما قال المتنبي ذكرى المرء عمره الثاني ، وأصبح أحد عمالقة الفكر الذي لم يدخل الجامعات وتحدى المستحيل في حياته حتى صار عباس محمود العقاد وهذا يكفيه وقد كرَّمته الدولة بإطلاق اسمه على أحد أهم شوارع مدينة القاهرة بحي مدينة نصر ، وسيرفع الستار قريبا عن تمثال سيادته في محافظة أسوان هذا العام ٢٠١١ إن شاء الله تعالى.

60



ميشيل فاراداي

"من عامل توصيل الكتب إلى أكبر علماء الكيمياء والكهرباء"

يمكنك بسهولة التعرف على ميشيل فاراداي إذا ذهبت إلى أحد البنوك وطلبت ورقة عملة إنجليزية من فئة العشرين جنيها إسترلينيًّا، ونظرت إلى الصورة التي عليها، ستجد صورة عالم الكيمياء الإنجليزي ميشيل فاراداي ، الذي بدأ حياته عاملاً بسيطاً بإحدى المكتبات لتوصيل الكتب إلى زبائن المكتبة التي يعمل بها إلى منازلهم وكان في ذلك الوقت صبيًّا لم يتجاوز عمره الثلاثة عشر عاماً ، وحُرِم من استكمال تعليمه لوجود عيب لديه في نطق حرف " الراء" .

كان ميشيل فاراداي يحاول قراءة الكتب قبل التغليف في المكتبة أو أثناء توصيلها إن لم تكن مغلفة وعلَّم نفسه بهذه الطريقة حتى إنه كان عندما يجد موضوعاً مبهراً وجديداً في الكتب يركن الدراجة الخاصة بتوصيل الكتب على الرصيف ويبدأ في قراءة جزء من الكتاب قبل توصيله للزبون وعندما يقع في يديه نفس الكتاب مرة أخرى يبدأ في قراءة الجزء الثاني وهكذا..

كان ميشيل فاراداي مثالا لمن أراد أن يعلِّم نفسه ويتحدى كل المستحيلات التي يمكن أن تعوقه في سبيل ذلك مثل الفقر وعدم الدراسة النظامية وتصدى لمن حاولوا تدميره حتى لو كانوا زملاءه أو أحد أساتذته وصمد وأصبح أحد أبطال التاريخ العلميين في الكهرباء والكيمياء.

ولد ميشيل فاراداي في المملكة المتحدة بمدينة قرب لندن عام ١٧٩١م ووالده كان يعمل حدادا بسيطاً، أي أنه نشأ في عائلة فقيرة والتحق بالمدرسة الابتدائية وتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب فقط، واضطر أن يترك المدرسة لأن مدرسته كانت تضربه كثيرا ، حيث إنه لم يستطع نطق حرف الراء (ألثغ) وكانت تعتبر أن الضرب سيجبره على النطق الصحيح .

واشتكى مرارا لوالدته من طرق التدريس وكانوا في المدرسة يعتبرونه تلميذا عادياً لا تظهر عليه علامات النبوغ (مثلما حدث مع ونستون تشرشل وإسحاق نيوتن) ، قررت والدته ألا يكمل الدراسة في المدرسة ، حيث إن والده كان فقيرا ، فقرر الانتقال إلى لندن للبحث عن عمل آخر، وقرر أن يعمل ابنه فاراداي ؛لكي يساعده في المعيشة ، فطلب من بائع كتب اسمه جورج ريبو أن يعمل ابنه لديه ، وكان هذا العمل فاتحة خير على حياة ميشيل فاراداي ، فبدأ يقرأ الكتب قبل تغليفها أو عند توصيلها للزبائن على الدراجة وثقف نفسه، وبدأ يجري بعض التجارب الكيميائية البسيطة التي لا تتكلف كثيرا من النقود في منزله، إلى أن قرأ إعلانا في أحد الشوارع عن سلسلة من المحاضرات في الطبيعة والكيمياء فحضر تلك المحاضرات وبدأ يتذوق العلم من منابعه الأصلية لأول مرة وترك العمل عند ورشة تغليف وبيع الكتب ، والتحق بعمل آخر وبدأ يدون المحاضرات العلمية للعالم الكبير (همفري دافي) وأعاد كتابتها بخط جميل وبتنسيق مع التبويب وأهداها للدكتور همفري الذي أُعجب بهذا الفتى وطلب منه أن يعمل معه في المعمل مساعداً غير فني، وافق ميشيل فاراداي على هذا العمل لكي يكون قريباً من العلم والعلماء ولكنه وجد أن هذا العمل عبارة عن غسيل الأنابيب وتنظيفها ، وغسيل الزجاجات وتنظيف الأدراج والمكاتب وكنس الأرض ، ومع ذلك صبر وبدأ يلاحظ دكتور همفري أثناء إجراء التجارب ويحاول وضع الملاحظات على التجارب ، فأعجب به الدكتور همفري ، وكلفه برصد وتدوين نتائج التجارب ، ثم أشركه في بعض التجارب معه، ثم بدأ يجري بحثاً بمفرده عن كيميائية التربة ونُشرت نتائج هذا البحث في مجلة المعهد الملكي سنة ١٨١٦م ، ظل ميشيل فاراداي يجري أبحاثه العلمية الكيميائية إلى أن تمكن عام ١٨١٩م من تحقيق أول نجاح كبير في حياته

عندما كلفه رجل صناعة الحديد الإنجليزي جيمس ستودرت بعمل نوع من الحديد مقاوم للصدأ ، فأضاف ميشيل فاراداي مادتي الكروم والنيكل إلى الحديد بنسب معينة أخرجت نوعاً من الصلب مقاوماً للصدأ ، وكانت مكافأته عن مجمل أبحاثه التي تمت حتى عام ١٨٢١م أن تم تعيينه مسئولاً رئيساً عن مختبرات المعهد الملكي في نفس العام ١٨٢١م ، وهو أيضا العام الذي تزوج فيه من "سارة برنارد".

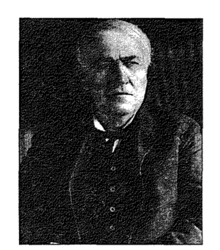
بدأ ميشيل فاراداي يبحث في العلاقة بين التيار الكهربي والمعادن عندما لاحظ أن إبرة البوصلة تتأثر بالتيار الكهربائي المار فوقها ، وتوصل عام ١٨٢٤م إلى نتيجة مذهلة وجديدة في علم الكيمياء وعلم الكهرباء عندما درس مرور الكهرباء عبر المعادن وإمكانية نقل جزئيات من تلك المعادن عن طريق فارق الجهد الكهربي بين قطبين ، ومن هنا استحدثت عملية الطلاء بالكهرباء عن طريق مرور تيار كهربائي في محلول معين ثم نقل المادة من قطب إلى قطب فيما سُمي بعد ذلك " بقفص فاراداي " وظهرت تسميات القطب السالب والقطب الموجب والعازل الكهربائي وقانون فاراداي ونظمت له الجمعية الملكية عدة محاضرات يلقيها على الطلبة والعلماء قبل أن يحصل على درجة الأستاذية بالجمعية عام ١٨٢٧م

اكتشف ميشيل فاراداي بعد ذلك المحول الكهربائي (الترانسفورمر) بعد ذلك وضع النظريات عن علاقة المجال المغناطيسي بالكهرباء ، مما مهد الطريق للعلماء القادمين بعدُ لاكتشاف وتصميم المولد الكهربائي (الدينامو)

النجاحات المتتالية لميشيل فاراداي أدخلت الغيرة في قلب أستاذه السيد همفري وبالذات عندما عارض فاراداي إحدى نظرياته واكتشافاته في الكيمياء الكهربائية عن كشاف كيميائي كهربائي لقياس نسبة الغازات السامة في المناجم ، ثم ثبت علميًّا صحة معارضة ميشيل فاراداي لأستاذه ، فبدأ هذا الأستاذ يرصده ويطعن في قدراته العلمية وعندما عُرض موضوع انضمام ميشيل فاراداي لعضوية الجمعية الملكية البريطانية والتي كان يرأسها السيد همفري ، وافق جميع أعضاء الجمعية ماعدا السيد همفري ، ولكن اثنين لا كبير فيهما : العلم والموت ، وظل ميشيل فاراداي يكتسب مزيدا من النجاح وأطلق

اسمه على المصطلحات الكهربية والكيميائية ووحدات قياس الجهد ، وطبعت صورته على ورقة الجنيه الإسترليني فئة عشرين جنيها ، ولم يتبق من ذكرى معارضيه ومنافسيه إلا أسماؤهم الشخصية على قبورهم ؛ لأنه كان أكثر منهم صبرا وعزما واجتهادا وتحديا للمستحيلات السابق ذكرها ، ولم يقعده ضعف البصر الذي أصيب به في منتصف عمره عن أن يعطي للبشرية المزيد من العلم والاكتشافات بتوفيق الله عز وجل له، حتى توفي عام ١٨٦٧م وترك لنا ذكرى مجاهدٍ علمي من أجل البشر وتعلمنا من ميشيل فاراداي وغيره أن " الصبر هو الفريضة الغائبة في حياة البشر".وهذا ما سوف نجده في معظم شخصيات هذا الكتاب.

61



توماس أديسون

"أعظم المخترعين .. أنار الدنيا وجعلنا نستمع إلى أصوات الراحلين"

المخترع الأمريكي العظيم توماس أديسون ، خلقه الله تعالى لخدمة البشرية جمعاء ، ووضع في عقله موهبة التصور والتخيل والصبر على تجربة وتنفيذ ما يتصوره حتى إن إحدى تجاربه المعملية أجراها عشرة آلاف مرة ولم ينجح وعندما عاتبه بعض الأصدقاء على بذل ذلك المجهود الذي أدى إلى فشل التجربة مرارا وتكرارا قال لهم: إنني لم أفشل في التجربة المعملية ، بل يكفي أنني اكتشفت عشرة آلاف طريقة لإجراء التجربة .

كان توماس أديسون قاطرة الاختراعات وقاطرة تقدم البشرية ، سجل باسمه ما يزيد على ألف اختراع ؛لأن تاريخ التقدم كله كان تاريخ تقديم الجديد إلى جماعة لم تتعود عليه كما ذكر ذلك الأستاذ الدكتور عبد المنعم سعيد، الكاتب الكبير بجريدة الأهرام .(ورئيس مجلس إدارة سابقاً).

توماس أديسون لم يتلق تعليماً نظاميًا إلا ثلاثة أشهر في المدرسة فقط، غير أن والدته العظيمة هي التي تولت تعليمه بنفسها في المنزل وأصقلت موهبته في البحث عن الجديد وعلَّمته الجدية والصبر وكانت والدته تطبق الحكمة الروسية التي تقول:" الأم تصنع الأمة" وصدق أمير الشعراء أحمد بك شوقي عندما قال :

الأم مدرسة إن أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق

وثاني عوامل نجاح أديسون بالإضافة إلى موهبته، أنه ولد وعاش في المجتمع الأمريكي ، ذلك المجتمع الذي يحترم الموهبة ويرعاها ويقدر العلم والعلماء وهو مجتمع

منتج ليس به صراعات دينية ولا عرقية تعوق المتفوقين وغالبية الذين لم يعيشوا في أمريكا لا يعرفون عنها إلا المواقف السياسية والعسكرية التي لا تروق للبعض منا والتي دائما ما تسلط وسائل الإعلام الضوء عليها ، وتتجاهل الدور العلمي والأبحاث والمساعدات التي يقدمها المجتمع الأمريكي للعالم بأسره في حالات الكوارث والزلازل والمجاعات فلولا جيش وأبناء الاتحاد السوفيتي والمساعدات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية مع الأسطول الأمريكي لما انتهت إراقة الدماء وانتهت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م بشباب البلدين.

ولد توماس أديسون في الحادي عشر من شهر فبراير عام ١٨٤٧ في مدينة ميلان بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية ، والتحق بالمدرسة لمدة ثلاثة أشهر فقط، وترك المدرسة وتولت والدته تربيته وتعليمه .

عمل في بداية حياته بائعا للجرائد في إحدى محطات السكك الحديدية، فلاحظ تهافت الناس على شراء الجرائد لمعرفة الأخبار ، فقرر أن يصدر جريدة بنفسه ، واتخذ من إحدى العربات المهملة في المحطة مقراً لكتابة وطباعة الجريدة التي أصدرها في صفحتين ، وكان يبيعها بنفسه للركاب ، وعندما وجد متسعا في عربة القطار المهملة في المحطة أنشأ بها معملا صغيرا لإجراء بعض التجارب البسيطة ، وعند إجراء إحدى التجارب الكيميائية انسكب سائل على الأرض واشتعل حريق في القاطرة المتوقفة وحضر ناظر المحطة ومعه مجموعة من الرجال لإطفاء الحريق ، وعندما تم إطفاء الحريق أوسعوه ضرباً في جميع أنحاء جسده وعلى وجهه مما سبب له ضعف سمع عاش به طوال حياته وتم فصله من العمل ، ولكن تلك الأمور وضعها جانبا وقرر أن يتحدى المستحيل والتحق بعمل آخر في إدارة التلغرافات والبرق وخلال تلك الفترة أدخل نظام التشغيل الكهربائي لأجهزة إرسال البرقيات وحظي بتشجيع مرؤوسيه ، ثم اخترع آلة لتسجيل الأصوات في الانتخابات تعمل أوتوماتيكيا ، ثم اخترع آلة وجهازا لتأشير أسعار البورصة بالتيار الكهربائي وتم تطبيقها فورا في أمريكا وحصل على مكافأة قدرها أربعون ألف دولار أمريكي وكان ذلك أثناء فترة شبابه وإقامته في ولاية بوسطن ثم ولاية ماسوشوستس .

أسس توماس أديسون معملا كبيرا للتجارب بهذا المبلغ الكبير في ذلك الوقت عام ١٨٧٦م ، وبدأ في إجراء تجارب مرور التيار الكهربي داخل سلك يتحمل درجة حرارة عالية

ولا ينصهر بسهولة ويكون رفيعا بحيث يمكن أن يشع نورا أثناء مرور التيار الكهربائي ، وأجرى تجاربه على عدة معادن إلى أن وصل إلى توليفة كيميائية معدنية أثبتت نجاحها ومن هنا كان اختراعه العظيم الذي أنار العالم وهو المصباح الكهربائي الذي غيَّر وجه الكرة الأرضية أثناء حلول الليل ، ثم أجرى أبحاثاً على كيفية تسجيل الترددات الصوتية على أسطوانة تستقبل موجات الصوت وتحفر الاهتزازات على قرص معدني مدمج مغطى بمواد شبه شمعية وصلبة ، ومن هنا اخترع جهاز التسجيل الصوتي " الجرامفون" وحتى يمكن أن يكون في متناول الجميع أسس أول محطة كهربائية عامة للمدن وهكذا أصبح لدينا القدرة على تسجيل وسماع أصوات الموسيقى في المنزل وأصوات الراحلين عن دنيانا من المطربين والمنشدين والقارئين والأهل .

انتقل توماس أديسون إلى ولاية نيوجرسي وأنشأ معملا كبيرا واخترع أول جهاز لعمل الأفلام وأنتج أول فيلم سينمائي ناطق ثم قام باكتشافه المذهل الذي أرهقه بحثا وهو البطارية الجافة التي يمكن من خلالها تشغيل الأجهزة الكهربائية في الصحراء والمزرعة والأماكن النائية ووسائل السفر مثل الطائرات والسيارات والسفن وأدخل تعديلات على المولدات الكهربائية (الدينامو) .

وفي الخمسينيات من عمره وأثناء الحرب العالمية الأولى وظهور أزمة الوقود، تمكن توماس أديسون من استخراج الطاقة من النباتات كبديل للبترول والسولار وهو ما يعرف بالوقود الحيوي ، وكان هذا الاختراع ذا قيمة كبيرة للولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت، مما حدا بالرئيس الأمريكي أن يعين توماس أديسون مستشارا علميا له ، اخترع أديسون أيضا المطاط الصناعي من النباتات ، ساهم توماس أديسون في تطوير عمل الهاتف ، والراديو والآلة الكاتبة والقطار الكهربائي وعدة اختراعات وكان يهوى العمل لمدد طويلة يوميا وكان يقول لو أن الأسبوع تسعة أيام لعملت فيها جميعا ، وحقق ثروة هائلة من حقوق استعمال اختراعاته ، وقال: إن العبقرية ١٪ إلهام ، و٩٩ ٪ جهد وعرق وصبر ولم يعترف برأي مدير مدرسته أثناء الطفولة والذي وصف توماس أديسون بأنه طفل خامل وبليد ومتخلف ، ذلك لأن من يستمع كثيرا لآراء الآخرين فيه إما أن يُصاب بالإحباط أو بالغرور، ولكن على المرء أن يثبت نفسه بعمله وجهده ثم بعد ذلك ينتظر حكم الآخرين عليه ، وكما قال الشاعر الإنجليزي الكبير وليم شكسبير" تأتي كل

العظمة بالجرأة على الإقدام" .

وهذا ما ذكره توماس أديسون نفسه حيث قال:" إن معظم اختراعاتي وأفكاري ربما صادفت آخرين ولكنهم لم يحاولوا تطويرها أو لم تك لديهم الجرأة والصبر على تجربتها.

تزوج توماس أديسون مرتين حيث توفيت زوجته الأولى وتركت له ثلاثة أبناء ، وأنجب ثلاثة أبناء من زوجته الثانية ، وتولى تشارلز أديسون أحد أبنائه عمادة مدينة نيوجرسي فيما بعد .

نال توماس أديسون العديد من الأوسمة والجوائز من كل من بريطانيا وأمريكا وفرنسا ومعظم الدول الأوربية، واُعتبر أعظم المخترعين على مدى التاريخ الإنساني لأنه لم يعترف بشيءٍ اسمه المستحيل ، يمكن أن يوقف مسيرة أحلامه العلمية التي تحولت إلى حقائق رغم أنه لم يدخل الجامعة ولم يحصل على شهادة علمية ولكنها عطاءات الله سبحانه وتعالى والموهبة والجدية حتى توفي عام ١٩٣١م في مدينة نيوجرسي عن عمر يناهز ٨٤ عاما ، بعد أن سجل باسمه ما يزيد عن ألف براءة اختراع.

ألبرت مانسبريدج

"حُرم من التعليم العالي ... فأسس لتعليم الكبار"

هذا الرجل الإنجليزي ألبرت مانسبريدج حُرِم من التعليم في صغره واضطر للعمل موظفاً بسيطاً فأخذ على نفسه عهدا بأن يستكمل تعليمه ثم يبدأ في عمل مشروع صغير تطوعي لتعليم الكبار ومحو أمية العاملين والعمال بافتتاح مراكز دراسية في مدينته لهذا الغرض ، ومن هنا بدأت مشروعات محو الأمية في كل أنحاء أوربا وبريطانيا فيما سُمي بعد ذلك بالتعليم المستمر للعمال ولمن فاتتهم فرصة التعليم في الصغر، واعتبرت هذه الخطوات من المستحيلات في ذلك الوقت من عام ١٩٠٣م حيث كانت خطوات التعليم الأساسي والتعليم الجامعي لكل فئات المجتمع لا تزال في مهدها .

ولد ألبرت مانسبريدج عام ١٨٨٧م في بريطانيا واجتاز مرحلة بسيطة من التعليم ثم انقطع عن الدراسة واضطر للعمل في أحد المصانع ، وكان عمره ١٤ سنة ، ثم حاول أن يحضر الفصول الدراسية التي تتم في المدارس الليلية بعد انتهاء عمله في المصنع واعتمد في تثقيف نفسه على زيارة المكتبات العامة وقراءة ما بها من المراجع وطرق التدريس للآخرين، وفي عام ١٩٠٣ بدأ تجربته الفريدة في تعليم الكبار بأن أسس مع زوجته أول جمعية لترقية تعليم العاملين ، ثم انتشرت تجربة ألبرت وزوجته في أوساط العمال، فتم إنشاء جمعيات مماثلة لها في عدة مناطق وفكر ألبرت مانسبريدج في عمل رابطة تربط تلك الجمعيات بعضها ببعض وأنشأ منظمة تعليم الكبار والعمال والتعليم المستمر وتولى منصب سكرتيرها العام "متطوعاً" عام١٩٠٥م وأطلق عليها اسم " اتحاد تعليم العمال" والتي أصبحت أشهر من الجامعات العمالية لأنها كانت وثيقة الصلة بالبيئة المحيطة بها، ثم بدأ عام ١٩٠٨م في إنشاء فرع لاتحاد تعليم العمال يتولى رفع المستوى العلمي والدراسي للعمال للدرجات التي تتوازَى

مع التعليم الجامعي العام في ذلك الوقت وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات وأطلق عليها " فصول التعليم الجامعي" وأنشأ صندوق تبرعات يضع فيه المتبرعون الأموال ثم يتولى أعضاء مجلس الإدارة الإنفاق منه على الأنشطة التعليمية للعمال ولكبار السن القادرين على العمل والذين نجحوا في التخرج من المدارس الخاصة بتعليم الكبار التي أنشأها في أول الأمر .

ما أن جاء عام ١٩١٣ حتى انتشرت تلك التجربة على المستوى العالمي وبدأت بعض دول العالم في عمل برامج محو أمية للكبار وللنساء خاصة .

تعرض ألبرت مانسبريدج لمرض عضال عام ١٩١٦ أقعده عن العمل في هذا المشروع، فقدم استقالته من المشروع وتفرغ لإبداء النصائح والمشورة فقط للعاملين على إدارته ، واستمر في الكتابة داعيا إلى تطوير التعليم الأولي (الابتدائي - الإعدادي) حتى يمكن تقليل أعداد المتسربين من التعليم وكانت له آراء هامة استفاد منها المجتمع العالمي أكثر من المجتمع البريطاني الذي لم تكن به نسبة الأمية عالية ، ولكن دول الكمنولث البريطاني سارت على منهج ونظم ألبرت مانسبريدج التي وضعها لتعليم الكبار ، وتسهيل الالتحاق بالمعاهد العليا والجامعات لخريجي المدارس وتغيير نظام التعليم بها في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وتفهمت تلك الدول معنى التعليم من أجل تطوير المجتمع بأكمله وليس إنتاج فئات المثقفين والعلماء والموظفين فقط وأن تضع حوافز شخصية للمتعلمين حتى يستمروا في التعليم بناءً على رغبتهم وليس بفرض من الدولة .

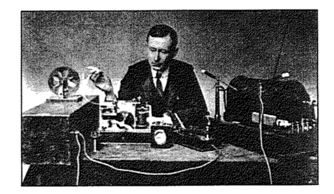
حيث حدد مانسبريدج أن واجب الدولة هو التعليم الأساسي فقط، أما التعليم العالي فيجب أن يكون برغبة الفرد وبتمويل من المجتمع ورجال الأعمال مع دعم بسيط من الدولة للمتفوقين فقط ووضع أيضاً أسس عدم الفصل بين تعليم المهارات والحرف والمواد العلمية وبين التعليم الثقافي الذي يجعل المتعلم على علاقة وثيقة ومباشرة بعالمه ومجتمعه ويتفاعل تلقائيًا مع المتغيرات الاقتصادية والفنية والأدبية التي تستحدث في المجتمع .

وقد أعجبتني كلمات صادقة ونابعة من القلب للصحفي الكبير عبد المقصود سلامة

في جريدة الأهرام في شهر مايو عام ٢٠١١ عندما وصف الأمية والجهل وعدم الثقافة في المجتمع بأنها : " رصاصة في العقل " وكنت أتمنى أن يصدر هذا الكاتب الموهوب كتاباً كاملاً عن هذا الموضوع وليس مقالاً فقط.

توفي ألبرت مانسبريدج عام ١٩٥٢ بعد أن أدى دورا خالدا في تاريخ العلم بإرساء مبدأ تعليم الكبار ومحو الأمية ، ومبدأ التعليم المستمر ومبادئ علاقة التعليم بالوعي وحُسن الاختيار وتحمل المسؤولية.

63



جوليانو ماركوني

"رفضته بلده إيطاليا ... فاكتشف اللاسلكي والراديو خارجها"

العمل صحة ونشاط وسعادة حتى لو كان الإنسان ثريًّا ويمتلك من المال والأراضي ما يكفيه ويؤمن حياته .

كانت تلك المبادئ التي نشأ عليها جوليانو ماركوني الإيطالي النابغة مكتشف الإرسال اللاسلكي ومطور البث الإذاعي بموجات الراديو والذي أدت اكتشافاته إلى إمكانية إنقاذ الملايين من البشر في أعالي البحار على أسطح البواخر عن طريق طلب النجدة بأجهزة اللاسلكي ، ولم يكن ماركوني فقيراً يحتاج إلى العمل من أجل الخبز ، بل كان من عائلة ثرية تمتلك مساحات من الأراضي الزراعية وكان باستطاعته أن يرتكن إلى ميراثه من عائلته بعد أن رفضت السلطات العلمية الإيطالية الاعتراف باكتشافه العلمي الجديد وهو إرسال البرقيات عن طريق إشارات لا تعتمد على وجود السلك الكهربي وهو ما عُرف لاحقاً "بالبرق اللاسلكي" وتذكر ماركوني ما حدث له منذ أعوام من السلطات التعليمية الإيطالية حيث حصل على درجات لم تؤهله لدخول جامعة بولونيا واعتمد على الله ثم على نفسه في دراسة الفيزياء ، وقرر ماركوني حمل أجهزته واختراعه والرحيل من إيطاليا ، حيث لا كرامة لنبي في وطنه وتحدى الصعاب والمستحيلات ، وسافر إلى بريطانيا ليبدأ حياة جديدة .

ولد جوليانو ماركوني عام ١٨٧٤ في مدينة بولونيا بإيطاليا لعائلة غنية من ملاك الأراضي وتلقى تعليمه في المدارس أولا ، ولم يُقبل للدراسة بجامعة بولونيا وبدأ يُعلِّم نفسه

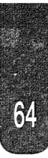
بنفسه بالقراءة في مجال الفيزياء والموجات الكهرومغناطيسية للعالم الألماني هينربيتش هرتز وبدأ إجراء تجارب نقل البرقيات من فوق سطح حجرته في المنزل إلى عدة أماكن في مزرعة والده وبدأ يصنع بنفسه أعمدة عالية يثبت فيها جهازي الإرسال والاستقبال ، فاكتشف أنه كلما ارتفع عمودا الإرسال والاستقبال تزداد كفاءة نقل الرسالة ومن هنا ظهرت قيمة الإريال في الإرسال لمكان أبعد، تقدم ماركوني باكتشافه إلى السلطات العلمية الإيطالية ولكنها لم تهتم باختراعه لأنه غير متعلم وغير حاصل على شهادات علمية (دائما زامر الحي لا تشجي مزاميره).

. قرر ماركوني الرحيل إلى لندن عام ١٨٩٦م وعرض اختراعه على الجهات العلمية التي اهتمت بأفكاره عندما طبقها أمامهم ، أعطيت له براءة اختراع وحصل على دعم مالي ليتمكن من تنفيذ فكرته وتكوين شركة لاسلكي باسمه عام ١٨٩٧ وتم اختبار التصميمات الأولى على ثلاث سفن حربية بريطانية تسير في بحر المانش عبر الشاطئين الإنجليزي والفرنسي في كلا الدولتين ونجحت السفن في إرسال البرقيات بين بعضها البعض وكان ذلك عام ١٨٩٩ وسُمي جهاز الإرسال " جهاز ماركوني" في عام ١٩٠١ أدخل مار كوني مزيدا من التحسينات والتعديلات على الجهاز وأمكن إرسال برقيات لاسلكية عبر شاطئ المحيط الأطلنطي بين ساحلي إنجلترا وكندا ، وكان لهذا النجاح شهرة عالمية لماركوني وأجهزته ، وأصدرت إدارات الملاحة البحرية أوامر لجميع السفن العابرة للبحار والمحيطات بتركيب أجهزة اللاسلكي بها وسرعان ما ظهرت قيمة اختراع مار كوني عندما تم إنقاذ سفينة كبرى اسمها الجمهورية (ريبابليك) عام ١٩٠٩ عندما أرسلت استغاثة لاسلكية لإنقاذها من الغرق ، وتم أيضاً إنقاذ بعض من ركاب السفينة " تيتانيك" عام ١٩١٢ في أول رحلة إبحار لها وكانت سفينة ركاب ، حينئذ عرف العالم كله قيمة اختراع مار كوني الذي رفضته بلاده أولا والذي رحل عنها وشعاره هو كما قال العالم الفيلسوف ديل كارنيجي " كل دقيقة لا تضيف إلى وجودك ، فإنها تحط من قدرك"

تطورت أبحاث ماركوني واتجه إلى دراسة الموجات الطويلة والموجات القصيرة في الإرسال وتمكن من عمل موجات إذاعية للراديو عن طريق بناء محطات إرسال قوية تبث برامجها عبر الأثير في أوائل القرن العشرين فيما سُمي بـ" راديو مار كوني"

وهذا النظام مكن المقاطعات والشعوب من إنشاء ما كان يُسمى بالإذاعة المحلية أو الإذاعة الأهلية قبل إنشاء محطات الإذاعة الحكومية في بعض الدول في منطقة الشرق الأوسط والعالم الثالث وظهر الراديو ذو الموجات القصيرة في العشرينيات وظهر التليفون اللاسلكي عام ١٩٣٢ بتصميم من ماركوني ، حصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٩ في تخصص الفيزياء ، ووهب نفسه للعمل بجدية لمدة خمسة وعشرين عاما من أجل البشرية، وفتح الطريق لثورة الاتصالات التي بدأت في القرن العشرين على أيدي علماء أمريكا وأوربا وكان التكريم الأول حصوله على جائزة نوبل في الطبيعة عام ١٩٠٩ .

وتم تكريم ماركوني في إيطاليا بأن وضعوا صورته على ورقة العملة الإيطالية فئة (٢٠٠٠ ليرة) وتم صك طابع بريد عليه صورته وحصل من إنجلترا على الوسام الملكي الفيكتوري ودرجة فارس من الملك جورج الخامس وجائزة جون فرتز الأمريكية في الهندسة وشهادات الجدارة والتقدير من الجامعات الإيطالية التي رفضت قبوله بها يوما من الأيام، ثم عاد إليها ممتطيا ظهر جواد العلم والتفوق والتميز ؛لأنه كان إنسانا لديه مناعة ضد الفشل فاستطاع أن يتحدى مستحيلات عدم تقدير المجتمع له ، فانتقل إلى مجتمع آخر يعرف قدره.





العصامي سيد جلال

"فقير أصبح مليونيرا بحب الناس والفقراء له"

الحاج سيد جلال رحمه الله تعالى ابن بلدة بني عديات التابعة لمحافظة أسيوط بصعيد مصر يُعتبر القدوة والمثال الحسن لكل الشباب على مر الأجيال ، فقد بدأ حياته طفلا يتيم الأم ، حيث توفيت والدته عقب ولادته بعدة أشهر ، ثم توفي والده عندما بلغ الطفل خمس سنوات وكفله خاله الشيخ " محمد عبد الحافظ" وأدخله كُتَّاب القرية حيث حفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة على يد الشيخ علي السمان ، وهكذا نشأ يتيماً ولكنه كان يحمل مبادئ القيم الفاضلة والتدين الحقيقي والقناعة وحب الخير وحب العطاء واحترام الآخرين وتقديس حقوقهم .

وكانت نشأته الصعيدية حيث الصلابة والاعتماد على النفس وقلة وسائل الرفاهية والترف وصعوبة العيش خلال أوائل القرن العشرين جنوب مصر، لها دور كبير في صهر الرجال والمفكرين الذين برزوا خلال هذا القرن مثل عبد اللطيف أبو رجيلة وعباس محمود العقاد وطه حسين وقليني باشا ومصطفى لطفي المنفلوطي وعبود باشا وآل ساويرس وسنيوت حنا باشا والرئيس المرحوم جمال عبدالناصر وغيرهم وعدد لا يحصى من أبناء أسيوط والمنيا وقنا وسوهاج وأسوان ؛لأن الصعيد لا يعرف الترهل والاسترخاء.

ولد الحاج سيد جلال عام ١٩٠١ في أول يناير في هذا المجتمع وفي تلك الظروف ولم يشأ أن يصبح عالة على خاله الحاج محمد عبد الحافظ الذي كان لديه عشرة أطفال فقرر

أن يبدأ حياته في القاهرة بمفرده واعتمد على الله وعلى ساعديه قرر التحدي ومواجهة المستحيلات التي تقابل صعيدي متعلم القراءة والكتابة فقط ، ونزل عند أحد أقاربه في حي بولاق أبو العلا وعمل صبيًّا في فرن أمام نار المخبز الذي يملكه الحاج حسنين أبوعليوة وكان عندما ينتهي العمل في المخبز يذهب لتوزيع الخبز على زبائن الفرن في المحلات والبيوت على الدراجة ، ثم عمل شيالا بمحطة سكك حديد مصر القريبة من حي بولاق أبو العلا ثم عمل على عربة كارو بحصان لنقل البضائع وكل ذلك ولم يكن قد بلغ الثانية عشرة من عمره .

ثم انتقل إلى محافظة بورسعيد وعمل ساعيا في مكتب للنقل البحري في شركة يمتلكها يوناني مقيم في مصر اسمه " كوتشي سيدس" ومن خلال تعاملاته مع العملاء استطاع أن يتقن عدة لغات أجنبية مثل اليونانية والفرنسية والإيطالية كتابة وتحدثا وتعلم أيضاً بعض المعاملات التجارية في التصدير والاستيراد ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره أي أن الله قد وهبه ذكاءً فطريا وروح الإصرار والتحدي .

وأحسن الحاج سيد جلال استغلال منحة الله له ثم شكر هذه النعمة بأن وهب معظمها إلى فقراء مصر عندما أنشأ مستشفى خيري لعلاج الفقراء بحي باب الشعرية والذي أطلق عليه "مستشفى سيد جلال" وأصبح الآن مستشفى تعليميًّا جامعيًّا تديره كلية الطب جامعة الأزهر بالقاهرة ، وكأن الحاج سيد جلال تنطبق عليه مقولة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه :" غني شاكر ، خير من فقير صابر"ومعناها أن الفقير الصابر لم يُختبر بعد إذا أعطاه الله المال بعد صبره ، هل ينفقه فيما يرضي الله والعباد أم يتنكر لعطاء الله .

بعد الحرب العالمية الأولى تعلم الحاج سيد جلال اللغة الرومانية والأرمينية وساعده في ذلك رجل يوناني اسمه فانجرك ورجل شامي اسمه سامي خوري وبدأ في التفكير في إدخال نشاط جديد بمكتب الاستيراد والتصدير الذي يعمل به والذي انتقل إلى القاهرة وحسنت الفكرة لصاحب المنشأة اليوناني .

وعندما اكتسب الحاج سيد جلال مزيدا من الخبرة استأذن صاحب العمل أن يستقل بنفسه في التجارة على أن يورد له المكتب شحنات الدقيق والقمح فوافق الرجل اليوناني لما رأي فيه من أمانة وصدق وذكاء وإصرار على النجاح ، بدأت تجارته في الغلال تتوسع حتى

أصبح أحد أكبر تجار الغلال في منطقة سوق روض الفرج (شمال القاهرة – حي شبرا) .

وبدأ يتعامل مع تجار الصعيد أبناء بلده ومع الشركات التجارية الكبرى في القاهرة والإسكندرية حيث امتلك أكبر شونة غلال في منطقة الساحل على كورنيش النيل رقم ١٠٣ وأقبل الناس على الشراء منه لأنه كان يكتفي بمكسب قليل لا يزيد على مليمات معدودة حتى لا يرهق كاهل الفقراء كما ذكر ابنه المهندس سعد الدين سيد جلال في كتاب عن والده الرجل العصامي الذي لم يعرف الأنانية أو الفشل ، أصدرته مكتبة مدبولي للطبع والنشر عام ١٩٩٧ ، تلك المكتبة التي أسسها الحاج مدبولي رحمه الله الذي احتضنت داره إصدارات شباب المثقفين المصريين على مدى نصف قرن وكان أيضا غير متعلم تعليماً عالياً ولكنه أفاد العرب والمصريين بإصداراته أكثر مما أفادتهم جامعة بأكملها .

وكأن الحاج سيد جلال قد استفاد من مقولة أحمد عبود باشا الذي كان صديقا له يُكِن له جليل الاحترام حيث قال عبود باشا : "لا تأنف من القيام بأي عمل شريف مهما كان صغيراً ، وبإصرارك وعزيمتك يمكن أن تجعل هذا العمل عظيماً ، ولا تنتظر الربح السريع فالربح البطيء دليل النجاح، ولا تستسهل عملا لأن السهل ينافسك فيه كل الناس، وعندما تنجح في أول الأمر لا تترك أعمالك لمعاونيك وتنصرف إلى حياة الترف والكسل ولا تجعل الربح يأخذك إلى الإسراف بل احتفظ بروح حب الادخار ونمها في أولادك واجعل علاقتك بالعاملين لديك علاقة محبة ممزوجة بالقيادة الحكيمة.

كان الحاج سيد جلال يعرف حق الله في أمواله وحق الفقراء وربى أولاده على هذا المنهج وكان وفياً للأحياء التي نشأ بها ولم يغير من صفاته حتى عندما أصبح مليونيرا لأن مدرسته كانت التدين الحقيقي ومدرسة الحياة وإيمانه بأن ضريبة نجاح الفرد في المجتمع أن يمنح هذا المجتمع جزءا من فكره وأمواله .

فقد ترشح عضوا بمجلس الشعب عن دائرة باب الشعرية التي عاش بها وتزوج فيها وأنجب أولاده بها ، وظل يعاد انتخابه لمدة خمسين عاما وأصبح أكبر النواب سنا وأكثره قدرة على تمثيل أماني وتطلعات أبناء الشعب المصري المكافحين من الطبقات الوسطى والفقيرة وكان معبرا عنهم في جلسات المجلس وكان رجل أعمال ومليونيرا ظاهره رأسمالي وباطنه

اشتراكي وكان يشتري الشركات المتعثرة التي يملكها الأجانب ويعيد تشغيلها ويدفع الضرائب المستحقة عليها سابقا ، حتى لا يفقد العمال وظائفهم وكان يشتري الشركات التي تحتكر السلع ويوسع نشاطها ويزيد الإنتاج حتى يكسر احتكار التجار للأسواق وكان يسافر إلى ألمانيا وأمريكا ليتعاقد على أحدث الآلات لمصانعه ، وكان أول من قرر صرف أرباح للعاملين بشركاته قبل صدور قوانين تحتم ذلك في الستينيات .

وعندما احترق أحد مصانعه بالكامل وسوي بالأرض في منطقة شبرا الخيمة ، بشره مدير أعماله بأن هذا الحريق سيمنع تأميم شركته عام ١٩٦٨، ولم يصغ الحاج سيد جلال إلى قول مدير أعماله بل كتب خطابا للصحفي الكبير مصطفى أمين وطلب منه أن ينشر في الصحف أن الحاج سيد جلال سيعيد بناء المصنع على نفقته الخاصة حتى لا يضار العاملون من توقف العمل ولا يهمه بعد ذلك أن يؤمم المصنع أو لا يؤمم ، وكتب الأستاذ مصطفى أمين مقالا عنوانه: " أعمال سيد جلال لا تحرقها النار" .

قام أيضا المرحوم سيد جلال بدفع مبالغ سنوية ثابتة للمجهود الحربي للقوات المسلحة بعد حرب يونيو أثناء إعادة البناء، وقام أيضاً الحاج سيد جلال بشراء أرض بور وقام على استصلاحها وزراعتها بالفواكه ولم يكن يرغب في شراء أراضٍ زراعية منتجة لأنه كان يعتبر استصلاح الأراضي إضافة إلى الناتج القومي للبلاد الذي يرتفع بكمية وقيمة الإنتاج الزراعي أما شراء الأراضي المنتجة فهو عبارة عن اقتناء عزبة للترفيه .

وكان الحاج سيد جلال وابنه أستاذ الزراعة سيد سيد جلال يحرصان على عرض منتجات أراضيهما للبيع بالأحياء الشعبية وبأسعار معتدلة .

وأقام مشروعا لدعم غذاء الفقير بحيث تقوم الحكومة بشراء السلع بسعر السوق وتبيعها للناس بسعر أقل على أن يتكفل الأغنياء بدفع فارق السعر في صورة تبرعات تدفع للمشروع وتتسلمها الحكومة ، وكان ذلك أثناء الأزمات ، وخلال فترة الحرب العالمية الثانية وقبل الثورة ولاقى هذا المشرع والمشروعات الاجتماعية الأخرى التي قام بها سيد جلال صدى واسعا في المنطقة العربية وأوربا وأمريكا حتى إن الكاتب السياسي جورج لينشوفسكي أستاذ العلوم السياسية في جامعة كاليفورنيا اختار الحاج سيد جلال مثالا

ونموذجا في كتابه " النخبة السياسية في الشرق الأوسط" وقال عنه :" هذا الرجل مثال لنموذج الإنسان المصري عندما يعمل لصالح بلده ؛ لأن إمبراطوريته المالية أشبه بشبكة واسعة تمتد إلى الفقراء في ضاحية باب الشعرية والميدان البلدي القديم المجاور للأزهر والمصريون ينظرون إليه على أنه إنسان " الخير" الذي يقف بجانبهم دائما.

كانت للحاج سيد جلال مواقف اجتماعية وسياسية شهيرة في البرلمان المصري، حيث بذل مجهودا ضخما في استصدار قانون منع البغاء عام ١٩٤٨ وكذلك قانون من أين لك هذا واستمر عضوا بالبرلمان من عام ١٩٣٤ حتى عام ١٩٨٤ وكان صديقا شخصيا لأغلب الأدباء والصحفيين في مصر وصديقا للمرحوم الشيخ محمد متولي الشعراوي وصديقا للمرحوم الرئيس محمد أنور السادات قبل أن يرحلوا جميعا إلى رحمة الله تعالى .

توفي الحاج سيد جلال في ٤ يناير عام ١٩٨٧ عن عمر يناهز ٨٧ عاما ليلاقي وجه ربه مؤمناً صابرا ، ويترك أعماله الخيِّرة وأبناءه يتحدثون عن رجل محصن ضد الفشل وتحدى المستحيلات التي صادفته في حياته وصار نموذجا يُحتذَى به في الإيمان والعمل والجد والاجتهاد والعطاء وحب الوطن والفقراء.





لارس أريكسون

"بدأ مزارعا وانتهى مزارعا وبينهما رجل الاتصالات الأول"

السويدي لارس أريكسون مؤسس شركة أريكسون للاتصالات جاء لنا من الحقل مزارعا بسيطا واجتهد وعلَّم نفسه بنفسه وكافح واخترع أجهزة الاتصالات الحديثة والتليفونات والسنترالات الحديثة وأسس الشركات في السويد وروسيا وشرق أوربا ، وبنى صروحا عظيمة في هذا المجال لازالت قائمة حتى الآن ، ثم عاد إلى القرية ثانية واشترى مزرعة وعمل فلاحاً مرة أخرى ، وكأنه كان في مهمة معينة لإرساء إنجاز علمي محدد ، ثم العودة ثانية إلى ربوع الريف الجميل والعزيز على قلوبنا جميعاً .

ولد لارس أريكسون عام ١٨٤٦ في منطقة ريفية تدعى فاومسكوج في السويد وتقع جنوب منطقة فارم لاند وتعلم القراءة والكتابة في مدرسة القرية وعمل مع عائلته في الزراعة حتى سن الخامسة عشرة من عمره ، ثم قرر أن يترك القرية ويبحث في المدينة عن عمل آخر وتنقل بين مهن كثيرة لأنه لم يكن متعلماً تعليما نظاميا ولا حاصلا على شهادة ، وأخيرا عمل حدادا (ولا أعرف سر تلك المهنة التي بدأ معظم العباقرة الصناعيين حياتهم بها، هل هي قسوة المهنة أم أنها تتسم بالقدرة على تحدي الحديد والنار وتطويعهما لإرادة الإنسان أم إنها مهنة القوة والإبداع ، كما كانت مهنة رعي الأغنام هي المهنة التي اشترك فيها الأنبياء والرسل الكرام صلى الله عليهم وسلم جميعاً ، لأن رعي الأغنام بها مبادئ الصبر والرحمة والمسئولية والعطاء والحذر والقيادة والتأمل) وهي المؤهلات الأساسية التي

مكنت الأنبياء والرسل من الصمود أمام عبدة الأوثان والملحدين.

بعد عدة سنوات وجد أريكسون عملا في شركة لإصلاح أجهزة التلغرافات في العاصمة ستوكهولم اسمها أولر وشركاه ، ونجح نجاحا بارعا في إصلاح الآلات واكتسب خبرة عملية وطوَّر بعض الأجهزة بالشركة مما لفت أنظار أصحاب الشركة إلى قدراته الخارقة على الابتكار والتجديد فرشحوه لدورات تدريبية في ألمانيا وسويسرا في شركة سمنز الهندسية العملاقة وكان يعود إلى السويد في فترات متقطعة لتدريب زملائه الفنيين على ما اكتسبه من خبرات لمدة عامين ونصف خارج السويد ، استمر لارس أريكسون يعمل في الشركة لمدة خمسة عشر عاما ، ثم فكر في أن يستقل بنفسه ، ويؤسس شركة مع أصدقائه لتصنيع التلغرافات عام ١٨٧٦ عندما سمع أخبار اختراع الهواتف في أمريكا على يد العالم الأمريكي " ألكسندر جراهام بيل" ووضع تصميما خاصا ومتطورا لأجهزة التليفون بحيث يكون له سماعتان إحداهما للمتكلم والأخرى للمستمع وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عاماً، وخلال عام واحد انهالت الطلبات في السويد على شركته لإنتاج المزيد من عدد التليفونات وتعاقدت معه هيئة الاتصالات السويدية لاستلام كل إنتاج الشركة بعد أن أدخل تجهيزات جديدة وتصميمات حديثة عام ١٨٧٨ بعد عمل هندسي مضنٍ وشاق.

تلقى أول صدمة تجارية في حياته عندما دخلت شركة أبل الأمريكية للسوق السويدية ، وأصبحت منافساً قوياً لشركته أو ما يُعتبر في لغة الاقتصاد طوفان اقتصادي جارف عليه إما أن يصمد أمامه ويتحداه أو أن تضيع كل أحلامه ، فبدأ لارس أريكسون يصب جل اهتمامه على النوعية والجودة والأشكال الجميلة في منتج شركته بالإضافة إلى اختراعه لأول لوحة تليفونات ذات مفاتيح للتحكم في الاتصالات وتلقي عدة مكالمات في نفس الوقت وتوزيعها على التليفونات الأخرى للعملاء ، وهو ما عُرف في ذلك الوقت " بالسنترال" وبدأ استعمال هذا الجهاز في الاتصالات العامة والشركات والبنوك بدءا من عام ١٨٨٣ وأصبحت شركة أريسكون الرائدة في هذا المجال ، وبدأت منتجاتها تباع في أوربا وروسيا وافتتح فروعا لشركته خارج السويد .

تلقى أريكسون صدمة أخرى عندما اشتدت المنافسة بين شركته والشركات الأوربية والأمريكية الأخرى عندما بدأت الأسواق تتسع لمزيد من الأجهزة وقررت شركات الاتصالات السويدية أن توقف التعامل مع شركته فجأة وتتجه للاعتماد على عدة مصادر

أخرى لتوريد الأجهزة منعا للاحتكار .

وكان على لارس أريسكون أن يتخذ قرارات مصيرية ، إما أن يتحدى الجميع وهذا غير ممكن من وجهة النظر العقلانية والاقتصادية أو أن يغلق شركته وتنتهي أحلامه ، ولكن كان لأريكسون الفلاح الأصيل الذي ترك القرية لمهمة محددة وطموح كبير رأي آخر، فقرر الانتقال بشركته في سوق جديدة وبكر وهي السوق الروسية الواعدة وأسس مصنعا في مدينة سان بطرسبرج وجعل الإدارة المركزية للشركة في السويد ، ولكن العمل والتصنيع والبيع في الأسواق الروسية ازداد فانتقل بالعاملين إلى روسيا بحيث يكون الإنتاج قريبا من المستهلكين ، وتم توفير مصاريف الشحن والمتابعة وتوفير أرضية علمية لتدريب العمال الروس مع العمال السويديين للمشاركة في خطوط الإنتاج مما أدى إلى خفض التكاليف وإعادة شركة أريسكون للمنافسة العالمية مرة أخرى في الأسواق الأوربية والعالمية ، طاردته الشركات العالمية مرة أخرى وجاءت إلى الأسواق الروسية أيضا وحصلت على بعض العقود في المدن الروسية ، فما كان من شركة أريكسون إلا أن تتحالف مع إحدى أكبر الشركات المنافسة وتدمجها بها بعد مفاوضات صعبة وقاسية خرجت منها شركة أريكسون منتصرة ببقائها سويدية المنشأ والهوية والجنسية والاستمرارية حتى يومنا هذا ، ومع مزيد من التطوير والتحديث أصبحت من أكبر شركات الاتصالات في عام ١٩٠١ حتى الآن.

عندما اطمأن لارس أريكسون على اكتمال بناء الأساس العلمي والهندسي والتسويقي لشركته بعد صراعات استمرت خمسة وعشرين عاما ، نجح في تحديها وافتتح فروعا لشركته في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، قرر أن يتقاعد ويعطي الفرصة لشباب العاملين لاستكمال مسيرة الشركة وعاد إلى قريته التي تركها خمسين عاما واشترى مزرعة وبدأ في مزاولة مهنته السابقة وهي الزراعة وتربية المواشي والعناية بالحقول وابتعد عن صخب المدينة والأسواق وعاش حياة هادئة جميلة حتى توفي عام ١٩٢٦ كصاحب مزرعة ومزارع ، جاء إلى المدينة في مهمة محددة وهي تطوير عالم الاتصالات الذي جعل العالم كأنه مدينة واحدة يمكن لأفرادها التواصل مع بعضهم البعض وكأنهم يسكنون بجوارك، ثم عاد من المهمة مطمئناً مزارعا أصيلاً.

66



حمد بن محمد الجاسر

"علاَّمة الجزيرة العربية ورائد التنوير والصحافة"

بداية الإنسان ليست هي الشيء المهم في حياته ، ولكن ماذا فعل خلال تلك الحياة وماذا ترك للآخرين قبل رحيله من علم نافع ، تلك هي قيمة حياة أي إنسان .

كان ذلك هو شعار العلاَّمة حمد بن محمد الجاسر رائد التعليم والصحافة والتثقيف بالجزيرة العربية والذي علَّم نفسه بنفسه أولا مثل أستاذنا الجليل عباس محمود العقاد ، ثم بدأ ينشر العلم والثقافة في كافة ربوع الجزيرة عامة والدولة السعودية خاصة وتحدى المستحيلات التي صادفته منذ الطفولة حيث كان عليل الصحة لا يستطيع أن يجاري أقرانه الأطفال في نشاطهم لدرجة أن أهله توقعوا وفاته مبكرا وحفروا له القبر أربع مرات ، ونشأ ضعيف البنية لا يستطيع الترحال والعمل في الصحراء أو الزراعة مثل عشيرته ، فقرر التغلب على ذلك بأن يتعلم ويثقف نفسه بنفسه ، ثم يهب حياته من أجل تعليم وتثقيف أبناء الجزيرة العربية ، ولم ييأس من الصدمة التي تلقاها بسبب عودته الاضطرارية إلى السعودية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتوقفت دراسته في كلية الآداب جامعة القاهرة اللازمة لها في المملكة العربية السعودية منذ خمسين عاما ، ولم يهب الخسارة ولا المشكلات ولا الرقابة والتي ألغاها فيما بعد جلالة الملك المغفور له فيصل بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عام ١٣٧٩هجرية عندما كان وليا للعهد ، فمن هو هذا الرجل العظيم الذي ظهر كتاب كامل عن حياته بعنوان " حمد الجاسر في عيون الآخرين"؟

ولد حمد بن محمد بن جاسر بن علي عام ١٩١٠ في إقليم السو بالسعودية وهي مدينة

تبتعد عن العاصمة الرياض حوالي ٣٠٠ كيلو متر ، وكان طفلاً هادئاً ضعيف الصحة والبنية وكثير المرض ، تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن كاملاً، ولم تساعده صحته على العمل في الرعي والزراعة مثل أهله ، فأرسله أبوه إلى الرياض لاستكمال تعليمه عام ١٩٢٣ ، ثم التحق بالمعهد الإسلامي العالمي في مكة (وهو أول مدرسة نظامية أنشئت في المملكة) عام ١٩٢٩ .

ظهرت عليه بوادر النبوغ خلال دراسته بالمعهد وأصدر مجلة بخط يده مع زميله عبدالغفور عطا أسمياها " الشباب الناهض" ولكنها أوقفت بعد أول عدد ، بعد تخرجه من المعهد ، درس في مدينة ينبع لمدة ٤ سنوات ، ثم عمل في قضاء مدينة " ضباء" (شمال غرب السعودية ومطلة على البحر الأحمر) لمدة سنة ، أراد استكمال دراسته في مصر ، فتقدم بطلب التحاق بكلية الآداب (جامعة فؤاد الأول) القاهرة حاليا ، إلى الدكتور شفيق غربال عميد الكلية والأستاذ الدكتور طه حسين الأستاذ بالكلية الذي اختبره وأوصى بقبوله عام ١٩٣٨ ، وبعد سنة من الدراسة والاطلاع وبعد أن بهرته مصر بثقافاتها وتمدنها والمتاحف والصحف والعلماء والمساجد والمكتبات وحيوية النشاط الأدبي بها ، نشبت الحرب العالمية الثانية ، فتلقى الأستاذ حمد الجاسر أكبر صدمة في حياته ؛ حيث اضطر للرجوع إلى المملكة السعودية بعد عام دراسي واحد ، غير أنه اختزن في الذاكرة المظاهر الأدبية والفكرية التي رآها خلال تلك الفترة القصيرة ، وعاد للعمل مدرسا في منطقة الإحساء (غرب السعودية) ثم تولى منصب مراقب التعليم في الظهران ، ثم مديراً للتعليم في نجد عام ١٩٥٩ ثم مديراً لكلية الشريعة واللغة العربية في الرياض وأستاذاً غير متفرغ في جامعة الملك سعود ، كانت تلك الفترة وهو في الأربعينيات والخمسينيات من عمره ، حافلة بالعطاء ، والنشاط الأدبي، حيث أنشأ أول مكتبة لبيع الكتب المتنوعة وهي مكتبة العرب في الرياض وكانت تعرض المؤلفات الحديثة في شتى المجالات واستقال من منصبه الوظيفي واختار طريق الصحافة وأسس صحيفة اليمامة ورأس تحرير جريدة الرياض عند تأسيسها التي صدرت شهرية ثم أسبوعية وكانت تطبع في القاهرة أولا وتغير اسمها إلى اليمامة ثم طبعت في الحجاز ثم طبعت لاحقا في الرياض بعد تحمس الشيخ حمد بن الجاسر وأنشأ أول دار خاصة للطباعة سميت " مطابع اليمامة" والتي كان لها أبلغ الأثر في نشر الثقافة الحديثة في المملكة العربية السعودية بداية من عام

١٩٥٤ حتى الآن وتولت تلك المطابع إصدار الصحف الأخرى والمجلات الشهرية والأسبوعية واهتمت بشؤون السياسة والتاريخ والجغرافيا وهو التخصص الذي ركز عليه الشيخ حمد الجاسر لأنه كان يريد تثبيت دعائم الثقافة المعرفية في الشباب السعودي وطاف أرجاء المملكة ليكتب عن الجغرافيا والتاريخ وكان يتحقق من كل سيرة وخبر ومعلومة في هذين المجالين حتى لو اضطر أن يسافر إلى تلك الأماكن بوسائل الانتقال البدائية مثل الجمال والحمير والبغال أو السير على الأقدام.

أصدر الشيخ حمد الجاسر مؤلفات عالمية عن شبه الجزيرة العربية اعتبرها الباحثون من أصدق المراجع وأوثقها عن هذه المنطقة ونشرت أبحاثه خارج المملكة واختير عضوا بالمجمع اللغوي بسوريا والمجمع اللغوي في العراق وأخيرا عضوا في المجمع اللغوي في القاهرة ، وهو ما يسمى بمجمع الخالدين، عام ١٩٥٨ في شهر نوفمبر ، واستمر في الكتابة لعدة مجلات عربية في القاهرة ودمشق ولبنان ونشر أبحاثه في الجغرافيا والتاريخ في مجلة "العرب" والتي تعدت ١٢٠٠ مقالة علمية خلال تاريخه وكان أهم ما يميز تلك المقالات دقة المعلومات الواردة بها ، حيث اعتبر الشيخ حمد الجاسر نفسه مسئولا عن التأريخ للجزيرة العربية وذلك من دون أن يكلفه أحد بذلك ، وهذا هو وجه العظمة والتفرد في شخصية هذا الرجل التي جعلتني أضع اسمه في هذا العمل الموسوعي عن الرجال الذين لم يعرفوا المستحيل ؛ لأنه لم يتحطم من آثار مرض ولا من انقطاع دراسته الجامعية ، إنه كان يصنع من المواجهة التي يتعرض لها مزيدا من النجاح والعطاء .

من أهم مؤلفات الأستاذ حمد الجاسر الكتب الآتية: الفتح العثماني ، آداب الخواص ، معجم قبائل العرب ، القطائع النبوية ، المعجم الجغرافي للمكلة العربية السعودية، المغانم المستطابة في معالم طابا (المدينة المنورة) ، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، تاريخ اليمن ، وغيرها من الكتب والمقالات التي نشرتها مطابع اليمامة التي أنشأها بعزيمته وجهوده المخلصة لوطنه.

حاز الأستاذ حمد الجاسر الكثير من الأوسمة والجوائز خلال فترة حياته التي تجاوزت التسعين عاما ، ومنها : جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٨٤ ، جائزة سلطان بن عويس الثقافية من دولة الإمارات العربية المتحدة ، جائزة الملك فيصل العالمية للأدب عام ١٩٩٦ ، وسام الملك عبد العزيز من الدرجة الثالثة في مؤتمر الأدباء السعوديين بجامعة

الملك عبد العزيز ، وسام مجلس التعاون الخليجي في مؤتمر القمة الذي عقد في سلطنة عمان ، درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة الملك سعود بالرياض.

عندما نسترجع سيرة هذا الرجل المفكر الكبير ، نرى أنه وهب نفسه للثقافة والفكر المستنير ونهل من عطائه ملايين العرب والمسلمين والسعوديين وظل يعمل ويعطي ويفكر حتى وافته المنية وتوفي إلى رحمة الله عام ٢٠٠٠ ميلادية ، وترك لنا مثلاً صادقاً لمفكر لم يعرف المستحيل.

67

لورد طومسون

"الكندي الذي جعل من أوراق الصحف أوراقا نقدية"

حياة عملاق الصحافة العالمية لورد طومسون الذي أصبح يمتلك إمبراطورية اتصالات أرضية و١٨٠ صحيفة ومطبوعة ومجلة ما بين يومية وأسبوعية وشهرية ، لهي جديرة بالمعرفة ، كيف بدأ هذا الفتي الذي لم يستطع أن يكمل تعليمه الثانوي في كندا وأصبح مصدرا للثقافة والمعرفة والأخبار على مستوى العالم في القرن العشرين ويصل إلى مرتبة أقوى ناشر في الوجود ، وصاحب شركة خطوط جوية ووكالة سفر حتى إن عدد ممتلكاته وصل إلى ٤٧٠ شركة خلال فترة حياته؟

ولد طومسون في ٥ يونيو عام ١٨٩٤ في مدينة تورنتو بكندا لأب من أصل اسكتلندي كان يعمل حلاقاً ، التحق بالتعليم الأولي والإعدادي واضطر أن يترك المدرسة في سن ١٤ عاما لظروفه العائلية ، وعمل بعدها بائعا وفلاحا ثم كاتب بأجر قدره ٥ دولارات في الأسبوع وفي عام ١٩١٠ بدأ يشتري ويبيع قطع السيارات ، وكان يهوى القراءة واقتناء ما يقع بين يديه من الكتب عندما كان بائعاً، تزوج عام ١٩١٦ من أدنا أنيس ايرفين التي كانت مؤجرة لإحدى الأماكن ببيت والدته وأنجب منها ابنا وبنتين، مالك الإمبراطورية التاريخية في الصحافة والاتصالات (طومسون) كان يحيا حياة بدائية في مساحة منعزلة في انتاريو خلال سنوات الكساد القارصة من القرن العشرين .

تفاوض طومسون من أجل قرض بـ٦٠٠ دولار ليحصل على شهادة في النشر والإذاعة ، اشترى جهاز إرسال راديو وأول محطة راديو بشمال أونتاريو، أرسلت في الهواء عام ١٩٣١، اشترى جريدته الأولى تايمز انتاريو عام ١٩٣٤ وكانت أسبوعية بمبلغ ٦٠٠٠ دولار (٢٠٠٠ مقدم) والباقي على أقساط ، خلال ثلاثة سنوات غيَّر شكل المطبوعة ، وأدخل برامج جديدة على إذاعته التي لاقت نجاحاً حتى وصل عدد المحطات الإذاعية

التي يملكها إلى ٤ محطات ، أطلق عليه منافسوه الشائعات بأنه رجل أُمي غير متعلم ولا يعرف شيئا عن محتوى النشر ، وأنه يهتم فقط بحشو جيوبه بالنقود ، ولو أن هذا الشيء لم يكن بعيدا عن الحقيقة ، كان رده عليهم : إنه يهتم مبدئيا بنهاية الأعمال ، وكان يشتري الجرائد التي تتعثر ماليا أو تكون على وشك الإفلاس وتكون في ذات الوقت من الجرائد والمطبوعات ذات القيمة التاريخية والثقافية العالية ويبدأ في تطوير إخراجها ووسائل الطباعة الحديثة ولا يتدخل في عمل المحررين ويعتبرهم مسئولين أمامه وأمام جمهور القراء عن نسب التوزيع وعن النجاح أو الفشل الذي تصادفه المطبوعة وكان يستعين بخبراء الإدارة والتسويق والتوزيع وكان يعتبر أن أوراق الجرائد عندما تباع الصحف ، تتحول إلى أوراق نقدية في جيبه ، وبهذه النقود يشتري أوراق جرائد أكثر ليربح نقودا أكثر، كان طومسون يحبذ أن تكون لكل مطبوعة وجهة نظر مستقلة يحددها المحررون أنفسهم من دون تدخل منه ، وكان يقول:" من الأفضل أن أحاول أن أربح نقودا بدلا من أن أفرض وجهات نظري على الشعب؛ لأن وجهات نظري قد تكون خاطئة أحياناً"

ترك طومسون أمريكا الشمالية وكندا وتحرك عبر المحيط الأطلنطي عام ١٩٥٣ ليغزو الصحافة الأوربية ، بدأ بجريدة ايدنبرج سكوتشمان التي كانت تهتم بأحوال اسكتلندا (لأن أصله اسكتلندي) ونجح في إزالة عثراتها وأدخل فنون الإدارة الحديثة بها ، واختار لها مجموعة من المحررين المتازين فنهض بها وحقق أرباحا اشترى بها جريدة " كمسلي" عام ١٩٥٩ ، وصادف نجاحا بها أيضا ، ترك طومسون إدارة إمبراطوريته الصغيرة في كندا لابنه وتفرغ للصحافة الإنجليزية فامتلك جريدة " لندن تايمز" وبدأ في تغطية الأخبار بعدة لغات أجنبية ، وتوسعت شبكته الإعلامية لأنه اهتم بتنويع شبكة المراسلين والنقاد عبر العالم فأصبحت الكتابة مليئة بالحياة والحيوية ، استحدث طومسون نظاما فريدا للكتاب الجدد الذين لاقوا الشهرة في مطبوعاته ، فبدلا من أن يذهبوا إلى الجرائد والمجلات المنافسة بدأ يحاسبهم بالسطر وليس بالمقالة ، خلال خمسة عشر عاما من استقراره في لندن، أصبح طومسون شخصية عالمية في عالم النشر والتوزيع وارتبط اسمه بالنجاح الدائم مع أنه كان يوصف بأنه خشن الطباع ولا يشرب الخمور ولا يدخن ولا يرقص ولكن شهرته الإعلامية ومحطات التليفزيون التي يملكها فرضت احترامه وتقديره على الجميع ، إلا أن طومسون كان يهفو إلى شيء آخر بعد الثراء والشهرة والنفوذ ، كان يتمنى

أن يحمل لقب لورد من شغفه وسعيه لذلك، طلب الحصول على الجنسية البريطانية مبكرا عندما استقر في لندن ثم حصل عليها بالفعل ، وفي أول يوم من سنة ١٩٦٤ حصل على أمنيته ، لقب لورد ، وهو من أعلى الألقاب بالمملكة المتحدة ، وسمي "اللورد طومسون أف فاليت" بعد ذلك بدأ يشتري بعضا من الصحف التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية بملايين الدولارات ، وأصبح إمبراطور الصحافة في القرن العشرين .

تلك هي قصة الفتي ذي الأربعة عشر عاما الذي تنقل في عدة أشغال ولم يكمل تعليمه ولكنه تولى بعد ذلك تعليم الآخرين ، من خلال الصحف والمجلات التي جددها أو التي أنشأها في القرن العشرين ، متحديا مستحيلات الفقر وعدم استكمال التعليم ، ولكنها الرغبة في النجاح وإثبات الذات التي هي الدافع الأساسي للنجاح.



الفصل الثامن

مَرْضَى لم يعرفوا المستحيل



68



الشاعر
أبو القاسم الشابّى

"مريض قلب أهدانا أجمل كلمات الحب والحرية"

هل يتصور أحد منا أن هذا الشاعر التونسي العظيم عاش خمسة وعشرين عاماً فقط حيث كان مريضاً بالقلب، ومع ذلك كُتب له الخلود الأدبي مثل كبار شعراء العربية، واعتُبر شاعر الفجر المتوهج والبعث الجديد، وقد سما بشعره إلى عالم الحب والجمال والنور المشرق الجميل، وكان رغم مرضه بالقلب متفائلاً مقبلاً على الحياة معبراً عن المطالب السامية للنفس الإنسانية، لا يرى للاكتئاب مكانا في حياته، وذلك هو المستحيل في حياة المرضى من خلال تجربتي كطبيب لمدة سبعة وثلاثين عاماً.

وُلد أبو القاسم الشابى عام١٩٠٩ بدولة تونس الشقيقة بمدينة الشابِّية (إحدى ضواحي توزو) وتلقي تعليمه في إحدى المدارس القرآنية (الكتاتيب) وعلَّمه والده أصول اللغة العربية وبعض مبادئ العلوم، ثم سافر إلى تونس العاصمة عام١٩٢١ والتحق بكلية الحقوق، وفي أثناء دراسته ظهرت موهبته الأدبية والفكرية وشارك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين والنادي الأدبي في تونس .

كان أبو القاسم الشابى يعتبر والده هو المثل الأعلى له في الحياة والعلم والأخلاق فأصبح شديد التعلق بوالده ، ولكن في عام١٩٢٩ توفي والده فجأة مما سبب له صدمة عنيفة في نفسيته قلبت حياته وأشعاره وأسلوبه وأدخلته في موجة من الحزن النبيل انعكست في كتاباته الرومانسية الرقيقة في قصيدة "نشيد الأمس"

ما للحيـــاة نقية حولـــي وينبوعـــي مشوب؟

ما للصباح يعــود للدنيا وصبحي لا يـؤوب؟

مالي يضيق بي الوجود وكل ما حولي رحيب؟

أصغي لأوجـــاع الكآبة والكآبة لا تجيـــب؟

إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب..

تلك الكلمات الرقيقة للشاعر الجميل في ريعان شبابه تعطيك إحساسا بأن هذا الشخص الملائكي كان مثل النيزك أو الشهاب الذي مرق في سماء تونس كالحلم مخلفاً وراءه أخدوداً وهَّاجاً من الأثر الساطع والذكرى العطرة، لذلك النجم الذي هوى واحترق في ريعان شبابه، ومن الغريب أنه كان ثائراً متميزاً رغم مرضه بالقلب، فكتب أخلد قصائد الحرية في العالم العربي وهي قصيدة "إرادة الحياة" التي تغنى بها الثوار من المشرق للمغرب ثمانين عاماً متواصلة ، وقد نظمها ضد الاحتلال الفرنسي لبلاده، ولكن صياغتها تليق بأي شعب وأي زمن وأي ظلم وتعطى الأمل في الحياة والحرية والمستقبل، ويقول في منتصف القصيدة:

إذا ما طمحـــت إلى غايـــة	**ركبت المنى ونسيت الحذر**
ومن لا يحب صعــود الجبال	**يعشْ أبد الدهر بين الحفـرْ**
أبارك في الناس أهل الطموح	**ومن يستلذ ركوب الخطـر**
وألعن من لا يماشـي الزمـــان	**ويقنع بالعيش عيش الحجر**
فلا الأفق يحضن مَيْتَ الطيور	**ولا النحل يلثم ميت الزهر**

تلك هي أشعار مريض القلب الذي أعطى الأمل للشباب العربي بقصيدته "إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر"، حياته كانت مزيجاً من الألم واليأس من الشفاء ولكن لم يكونا ليطغيا عليه كل الوقت، بل كان يتذبذب بينهما وبين الأمل، والحث على الاندفاع نحو الحياة.

امتاز الشابى بنزعته إلى التجديد في الأدب والفن والحياة ، حتى في كتاباته النثرية، ومن مقولاته المشهورة نثريا "من يتطلب الحياة القوية المشرفة فليعبد غده الذي هو في قلب

الحياة، أما من يعبد أمسه وينسى غده، فإنه من أبناء الموت والقبور الساخرة"، تلك هي فلسفة العمل والتقدم والاعتماد على الله وعلى النفس ، التي أرساها ابن تونس الشاب منذ ثمانين عاماً وأظن أنها صالحة للعمل بها حتى الآن؛ حيث إنها عبارة عن يقظة إحساس نادى بها العالم العربي .

الالتقاء كان موجوداً بين الشابى وجبران خليل جبران ورواد مدرستي "الديوان" و"أبوللو" الشعريتين ، وقد راسل جمعية أبوللو الشعرية ونشرت له قصائد على صفحات مجلتها في الثلاثينيات ، وأعجب كبار الشعراء بميل الشابي إلى التجديد والتحرر وفلسفته في حب الحياة والشباب ، عندما نظم قصيدته "صلوات في هيكل الحب" وفي مطلعها يقول:

في فؤادي الغريب تخلق أكوان　　　من السحر ذات حسن فريد

وشمـوس وضـاءة ونجـوم　　　تنثـر النور في فضاء مديـد

وربيـع كأنـه حلم الشاعـر　　　فـي سكرة الشباب السعيد

وغيـوم رقيقـة تتهـادى　　　كأباديـد من نثـار الـورود

وهكذا ظلت الطبيعة والحرية والرومانسية والحب والجمال، كل منها محراباً يتعبد فيه الشاعر المريض أبو القاسم الشابى الذي يمكن أن تقرأ قصة حياته، فتنسى مرضه وتتذكر قوته في تحدى المستحيلات التي واجهها في حياته حتى رحل عن الدنيا في ٩أكتوبر عام١٩٣٤ في بلده تونس، تاركاً لنا نموذجاً يُحتذَى به في عدم التململ من الأمراض، فهي قدرنا، قدّره الله علينا، بل ننظر إلى المواهب الأخرى التي أعطانا الله إياها ونستثمرها.



69



أنطوان تشيكوف

"الطبيب مريض الصدر والأمراض النفسية والكاتب الشهير"

إذا تذكرنا مسرحيات "إيفانوف، الخال فانيا، الأخوات الثلاثة، الحرائق، الدب، الطائر البحرى وروح الغابة.. سنجد أننا أمام طبيب باطني وأديب روسي عالمي ، اسمه أنطوان تشيكوف ذاعت شهرته في أرجاء المعمورة بمسرحياته العملاقة ، التي تعتبر من دُرة تراث الأدب المسرحي الروسي والعالمي، ورغم مزاولته لمهنة الطب بعد تخرجه من كلية طب موسكو عام١٨٨٥ إلا أن ميل تشيكوف إلى الأدب واهتمامه بالطب لم يتعارضا قط، بل أكمل أحدهما الآخر وخصوصاً عندما تعرض لمحنة إصابته بالمرض الصدري ، وتلاها إصابته بالمرض النفسي، فكان الأدب والكتابة هما سلواه؛ حيث عرضت على المسرح أول مسرحية له، ولم يكن يبلغ من العمر ٢٧عاماً عام١٨٨٧ ، وقد كتب خلال حياته أكثر من ألف قصة كما قال رغم آلامه ومرضه ، وحصل على جائزة شاعر روسيا العظيم بوشكين ، وهي من أرفع الجوائز الأدبية في روسيا وتمنحها الأكاديمية الروسية.

ولد أنطوان تشيكوف في روسيا عام١٨٦٠ وأنهى دراسته الثانوية في التاسعة عشرة من عمره، والتحق بكلية الطب في موسكو وتخرج طبيباً بعد ٥ سنوات ، وعشق مهنة الطب ولكنه كان يزاولها ببعد إنساني أكثر منه بعد مادي، فكان كثيراً ما يعالج الفقراء والمحتاجين مجاناً وأحياناً يساعد بعض المرضى من المعدمين بنقود من جيبه؛ ليشتروا العلاج والطعام.

كانت له ميول أدبية سارت بالتوازي مع ممارسته مهنة الطب، وكان قد تخصص في الأمراض الباطنية مما أتاح له الفرصة للاستماع إلى المرضى طويلاً بعكس مهنة الجراح

الذي يسيطر عليه عنصر الوقت ، ودائماً ما يفكر الجراح في المشرط والمقص قبل الحديث مع المريض أحياناً، كان أنطوان تشيكوف يهوى التأمل ، وعمق التفكير ويكره الصخب والحفلات والمجون ويتميز بالصبر والصلابة ، ولا يخشى الموت رغم ما عاناه من أمراض ورأى ما يعانيه مرضاه وكان يقول: "مريع هو الموت، ولكن الأشد ترويعاً منه هو شعورك بأنك قد تحيا إلى الأبد ولن تموت أبداً" أى تصل إلى سن العجز ويعولك الآخرون.

كان أنطوان تشيكوف دائم التفكير ومتقد الذهن لدرجة أوصلته في نهاية عمره إلى مس من الجنون، رغم أنه أنتج أكثر من ١٠٠٠ قصة روائية ومسرحية عالمية ، وقد تمنى من الله في بعض مراحل عمره أن يُنعَم عليه ببعض من الهدوء العقلي ، ويقول: لماذا يا ربي وهبتني هذا العقل الجائح المؤرق المثقل بالتأملات، ويا ليتني كنت حجراً لم ينعم الله عليه بالعيون والأفكار وإنهاك الجسد ليلاً ونهاراً "حيث كان يعمل أكثر من عشر ساعات يومياً بصفة دائمة ، رغم إصابته بمرض السل الرئوي وارتشاح بالغشاء البلوري للرئة ، وكثيراً ما كان ينزف دماً مع السعال وينتقل للمستشفى، وعندما يعود إلى منزله، يعاود الكرة مرة أخرى في القراءة والكتابة ويداوم على الذهاب إلى عيادته لاستقبال المرضى.

كان أنطوان تشيكوف ينظر إلى البشر على أنهم يفضلون القتال والحروب على الهدوء والسكينة، وكان يقول "إن الإنسانية تعي التاريخ بوصفه سلسلة من المعارك، ولهذا اعتبرت القتال جوهر الحياة"؛ لأن هدوء أعصابه وطبيعته الرقيقة جعلته ساخطاً على المنحطين أخلاقيًّا والمتلونين مع كل تيار، الذين كان يصفهم بالمتطفلين على المجتمع بارتدائهم الزى الرسمي لما يُستجد من متغيرات وكان أيضاً يصفهم بأن الحياة غريبة عنهم ، وعاجزين عن العيش بأفكارهم الخاصة وسيكتشفون في نهاية العمر أنهم كانوا يمثلون طوال الوقت ويستحمقون أنفسهم، وكان يكره ثرثرة المثقفين الذين لا يعرفون إلا النقد من دون النزول إلى قاع المدينة ، ووضع حلول للمشاكل الحياتية للجماهير وكان يقول: "لا يصلح المثقفون لأي شيء ؛ لأنهم يحتسون الكثير من الشاي ويثرثرون طويلاً في غرف سيئة التهوية أمام زجاجات خمر فارغة".

وكان أنطوان تشيكوف شديد الحياء ويقول "الرجل اللطيف يخجل حتى من كلبه"،

وعلى رغم مرضه العضال ومعاناته طوال عمره القصير، كان يعشق العمل ويكره البطالة والكسل ويعتبرهما أحد أهم أسباب الفراغ الفكري في المجتمعات، ومرضا اجتماعيا يؤدى إلى إعلاء قيمة الثرثرة ومناقشة توافه الأمور، فكان يقول "تتيح البطالة القسرية الاستماع إلى ما يُقال والنظر إلى ما يجرى، أما من يعمل وينقطع إلى عمله فلن يسمع ولن يرَ إلا القليل" وما أحوجنا أن نقرأ ونعى تلك الكلمات بعد مائة سنة من وفاة هذا الطبيب الكاتب العبقري ، ونلاحظ أحوالنا على المقاهي وفي المصالح الحكومية وعلى نواصي الشوارع.. كثير من الدردشة والنميمة والثرثرة والإفتاء فيما نجهله!!

بدأ أنطوان تشيكوف حياته الأدبية بكتابة مقالات تنشر في المجلات، وقصص قصيرة ينحو فيها نحو الهزل والسخرية الاجتماعية؛ لأنه من شبابه كان لديه إحساس بأنه منفصل عن المجتمع أخلاقيًا ، ويميل إلى التمسك بالمثل العليا وصار يكتب ذلك في قصصه القصيرة ثم الطويلة فيما بعد مثل قصة "صلاة الموتى" التى تحدث فيها عن العزلة الجوهرية لدى الإنسان ومعاناته وعجزه في بعض الأحيان، وتعمق أنطوان تشيكوف في تشريح النفس البشرية في أغلب مسرحياته، وكان يميل إلى العطف على شخصيات الروايات ولكنه يصفها وصفاً واقعيًا بحيث يبقي على الخيط الرفيع في الكتابة بين النقد الاجتماعى الهدام وضوء الأمل، الذي يظهر في نهاية النفق المظلم، حيث أُعتبر أحسن من صوَّر ما في الحياة بروسيا من خمول وكسل في نهاية القرن التاسع عشر، وفي نفس الوقت اتسمت كتاباته بالمحافظة على المبادئ الأخلاقية وكان يقول :لا أجد نفعاً في فن مُتقَن يصاحبه انحدار أخلاقي.

لم تتحمل أعصاب أنطوان تشيكوف وصحته هذا الصراع الداخلي بينه وبين نفسه، فيما يرى وما يريد أن يرى فتعرض لأزمات نفسية حادة، أُدخل على إثرها مستشفى الأمراض النفسية، وظل مريضاً نفسيًا عشر سنوات من عمره، لم يتوقف فيها عن الكتابة والإبداع وأنهكه أيضاً إصابته بمرض السل الرئوي ومضاعفاته، وطال صبره ومعاناته وإنتاجه الأدبي، وتحدى موجات الألم النفسي وما أدراك ما الألم النفسي، والعضوي حتى توفي عام ١٩٠٤ وكان يبلغ من العمر أربعة وأربعين عاماً .

وسيذكره التاريخ عامة وتتذكره بلده روسيا خاصة كأحد المرضى الذين فاقت أعمالهم وإنجازاتهم الملايين من الأصحاء؛ لأنه اعتبر الكسل مثل الورم السرطاني يستنزف ويأكل مَنْ حوله مِنْ : أسرة وقرية ومجتمع ودولة حسب أقواله، وكانت له قصة حب وحيدة في حياته ، ولكنها لم تكلل بالنجاح ، ومع ذلك اعتبر هذه الآنسة ملهمته في الكتابة والفن والأدب.

70



جون بيردون هالدين

"من مصاب حرب إلى عالم متطوع بالهند في الهندسة الوراثية"

عالم الوراثة الإنجليزي جون بيردون هالدين كان مثالاً لاستنشاق الأمل بعد أكوام الإصابات التي حلت بجسده من جراء اشتراكه في الحرب العالمية الأولى كمتطوع بالجيش البريطاني، وكان والده عالماً بعلم وظائف الأعضاء واسمه بيردون هالدين، عمل مع والده مساعد باحث قبل أن يتطوع بالجيش عام١٩١٦ ويصاب في العمليات العسكرية.

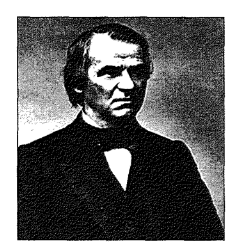
وحصل أثناء تطوعه على عدد من الأوسمة وعند انتهاء الحرب عاد إلى معمل والده وتحامل على إصاباته المتعددة ، وبدأ يجرى أبحاثاً على النتائج التي توصل إليها العالم مندل الذي وضع قوانين وأسس علم الوراثة في الكائنات الحية، وقارن تلك النتائج بما تصوره العالم داروين في نظرية النشوء والارتقاء، وأجرى جون أبحاثه على الثدييات وأثبت أن قوانين الوراثة لمندل لا تتعارض مع نظرية النشوء والارتقاء لداروين ، وأن هناك تكاملاً علميًّا بين النظريتين وأصبح هذا الجهد العلمي ، ونتائجه التي توصل إليها جون بيردون في مطلع القرن العشرين أساس تطوير علم الوراثة، وارتباطه بعلم التاريخ البيولوجي للكائنات ولكي يوثق نتائج تجاربه بدأ دراسة علم الكيمياء الحيوية، وركز على فرع الأنزيمات مع صعوبة ذلك لباحث مريض في عمره ، حيث إنه من مواليد١٨٨٢، ونجح في إثبات العلاقة بين الإنزيمات والتطور الوراثي وصدرت أول أبحاثه في كتاب اسمه "أسباب التطور" عام١٩٣٢، وثاني أبحاثه عن العلاقة بين الإنزيمات والوراثة في كتاب "سبل جديدة لعلم الوراثة" عام١٩٤١ وهذا الكتاب أصبح مفتاح فهم وتشخيص

الأمراض الوراثية التي تنشأ عن ضعف أو اختفاء أحد الأنزيمات عند بعض الأشخاص، مثل مرض أنيميا الفول الناتج عن نقص إنزيم جلوكوز - ٦- فوسفات والذي يتعرض فيه المريض لتحلل جزئ في كرات الدم الحمراء ، بمجرد تناوله الفول بأنواعه، وكان في أغلب الأحيان لا يتم تشخيصه إلا بعد أن يتعرض الطفل للحالة في الصغر ، ولكن الآن بفضل تلك الأبحاث يمكن عمل تحليل للإنزيم المسؤول عن تلك الحالة مبكراً بعد الولادة وبالذات عندما يكون أحد أفراد العائلة يحمل الجينات الوراثية لنقص هذا الإنزيم.

خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ركز جون على أبحاثه التطبيقية والتجريبية ؛ لاستنباط قاعدة التحكم في المنظومة التي تحدد مسار العلاقة بين فسيولوجيا الأعضاء وعلم الخلايا وعلم التشريح ، وتأثير ذلك على كيمياء الجسم العضوية ، والتي تحولت بعد ذلك إلى علم الهندسة الوراثية عند تطبيق نتائجها، وبدأ في الخمسينيات يكتب مقالات بالصحف لتوعية المواطنين وتبسيط العلوم الحديثة للقراء، وتعريفهم بالأمراض الوراثية وخطورة زواج الأقارب.

حدثت تطورات جديدة وجميلة في حياة هذا العالم المريض، فعندما بدأت الهند تشق طريقها في التقدم والازدهار العلمي على يد الرئيس جواهر لال نهرو، قرر هذا العالم المريض أن ينقل علمه وأبحاثه إلى الهند؛ ليعمل متطوعاً هناك عام١٩٥٧ ويساعد الدولة الهندية الناشئة على تأسيس أبحاثها في مجال الهندسة الوراثية في المحاصيل وحيوانات اللحوم والألبان، وكانت تلك من أوائل مبادرات علماء الغرب لمساعدة الدول النامية حديثة الاستقلال، حيث تمكن من إنشاء مراكز علمية تطبيقية لما يحتاجه المجتمع الهندي من تدريب علماء وباحثين هنود؛ للنهوض بالبلاد اقتصاديًّا وعلميًّا ، ولم يغيِّر مبادئه من أنه أتى إلى الهند للعمل متطوعاً من دون أجر، تاركاً المجتمع الإنجليزي الحديث بتطوره ووسائل الإتصال الحديثة، متنازلاً عن دفء العلاقات العائلية، والأهل والأقارب والأصدقاء، وقد اعتبرت هذه النقلة النوعية والكبيرة في حياة عالم وراثة مصاب العمليات الحربية سابقاً ومشهور في بلاده وبالعالم، نوعا من تحدى المستحيل وقد توافقونني أو لا في سيرة جون بيردون هالدين الذي توفى عام١٩٦٢ .

71



دينيس ديدور

"مصاب الهستيريا وصاحب أول دائرة معارف"

قصة هذا العلاَّمة الفرنسي جديرة بالمعرفة ؛لما له من دور مهم في الثقافة الفرنسية والعالمية، فهو ملهم دائرة المعارف الفرنسية ، وأول من صمم هذا النوع من المعرفة والتي تعتبر أعرف أنواع الثقافات ، وأكثرها مشقة في التنفيذ؛ لأن الكاتب الذي يتصدى لتلك الأعمال يجب أن يكون موسوعي المعرفة ولديه الحماس والحرارة ويتمتع بالمثابرة بلا أدنى توقف أو فتور مهما كانت ظروفه الصحية أو البدنية؛ لأنه يتعامل مع العلم والمعلومات كصاحب رسالة يجب أن يؤديها بكمال، وليس كصاحب مهنة يعود إلى حياته الطبيعية بمجرد الانتهاء منها، وكان ديدور يقول "إذا ظل الرأي حبيساً في عقل صاحبه وفي نفس الوقت يمكن أن يفيد به المجتمع ، فأظن أن صاحبه مسؤول أمام الله عن هذا الرأي".

كان والد ديدور معلمه الأول في الإتقان والأمانة والتدين وكان يقول له: يا بني إن العقل وسادة ممتازة وثيرة ، ولكني أجد وسادة وراحة أكثر حين أسند رأسي إلى وسادة الدين والقوانين.وكما قال الشاعر العربي

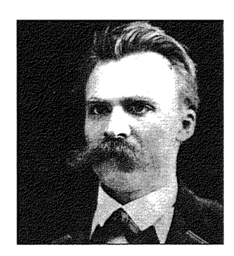
شيم الشجاعة عند الرجال جليلة　　　وأجلهن شجاعة الآراء

ولد ديدور في أكتوبر عام١٧١٣ في مدينة لانجرز بفرنسا ، ولم يتلق في طفولته سوى التعليم الأولي والثانوي في مدرسة دينية في قريته، ثم أرسله والده إلى باريس لاستكمال تعليمه الجامعي، ولكن والده غيَّر رأيه وطلب منه إما العودة لبلدته للعمل أو الاعتماد على نفسه في توفير المصاريف الدراسية اللازمة لاستكمال التعليم في باريس، وكانت تلك أول

نقطة تحد في حياته ، فبدأ يعمل بأعمال بسيطة تعينه على الدراسة وشراء المراجع، ولكن ذلك الموقف من أبيه ترك في شخصيته حزناً كبيراً، وصدمة ، غير أنه أكسبه قدرة كبيرة على التحدي ومجابهة المستحيلات فاندفع مجتهداً في دراسته وزاد على ذلك أن قرر تعلم اللغات فدرس الإنجليزية والإيطالية والإغريقية واللاتينية وأتقنها ثم درس الرياضيات.

وهكذا بدلا من أن تصيبه صدمة علاقته بأبيه بالضياع، أعطته حافزاً على التقدم والتعلم ، ولكنها جلبت له حالات من التوتر النفسي وبعضاً من أنواع الهستيريا، وكانت تنتابه فترات من الجنون بين حين وآخر، لا يعرف خلالها أحداً من أقاربه وأصدقائه ، ولكنه أكمل العمل الذي نذر نفسه لإتمامه وهو إعداد دائرة معارف كبرى تكون فخراً لفرنسا، واستمر يعمل على رأس فريق من المعاونين له، ولم يلتفت إلى الذين وصفوه بالجنون أو إلى الذين اتهموه بالإلحاد حتى أُدخل السجن وخرج منه لاستكمال مسيرته العلمية ورسالته العالمية فأصبح صاحب أول دائرة معارف منظمة، وسطع كوكبه في سماء فرنسا وتطلع الجميع إلى رؤيته وأصبحت المنتديات العلمية تدعوه لإلقاء المحاضرات عن تجربته العلمية والشخصية في تحدى الظروف والمرض والسجن، حتى أنجز ما كان يصبو إليه وكانوا يضعونه في مرتبة فولتير وجان جاك رُوسُّو في الحياة الأدبية والثقافية الفرنسية.

72



فردرش نيتشه

"عاشق القوة ومتعدد الأمراض ومتعدد المواهب وفيلسوف"

فردرش نيتشه الفيلسوف الألماني الكبير الذي عانى من أمراض متعددة، وكان ضعيف البنية وضعيف البصر ، وأصيب بمرض أثناء طفولته وتصور والداه أن حياته معرضة للخطر ، ورضيا بأمر الله ؛ حيث كانا عميقا التدين ، ولكن شاءت إرادة الله أن يعيش حتى بلغ الرابعة والثمانين عاماً، وكان يعتبر نفسه قزماً بديناً وسط الرجال ، ولكنه قامة علمية وفكرية لا يضاهيه أحد، وكان يقول عن نفسه: "لا أحسب أن في مقدور أحد التعلق بي؛ لأن ذلك يفترض أني لقيت إنساناً في مرتبتي" وقال أيضاً "ليس في وسع أحد أن يحبني؛ لأن ذلك يوجب عليه أن يعرف مَنْ أنا".

ومن فرط احتياجه للقوة حاول أن يتطوع بالجيش الألماني(مساعد ممرض) حتى يضفى على نفسه بعضا من مظاهر الهيبة، لأنه كان يكره الضعف والضعفاء جدًّا حتى إنه لقِّبَ "بفيلسوف القوة" من كثرة ما مَجَّدَ في القوة والعظمة وأصبح جباراً فكريًّا ، وكان يهاب النساء ويكرههم حتى إنه لُقِّب بعدو النساء، (وأعتقد أن خوفه من النساء هو الذي دفعه للابتعاد عنهن ومهاجمتهن دائماً وذلك قبل أن تبدأ النساء بالسخرية منه ورفضه، ومحاولة التغلب عليه نفسيًّا وهن قادرات على ذلك والله أعلم) .

ويعتبر فردرش نيتشه بطلاً في تحديه للصعوبات التي مرت بحياته مثل: المرض والعزوبية وموقف رجال الدين منه والاضطرابات النفسية التي عانى منها في أواخر عمره، رغم أنه من أوائل فلاسفة العصر الحديث وأعظمهم في التنبؤ بالمخاطر العميقة لعلاقتنا بالحقيقة

وبالعلم والأخلاق، تلك المبادئ التي نحن في أشد الحاجة إليها الآن حيث تصلنا الأخبار والأرقام والأحداث من مصادر متنوعة غير الكتب والدوريات كما كان سابقاً، حيث تجدها تدق بابك من التليفزيون والإذاعة والنت وأجهزة الكومبيوتر والصحافة، فأصبح عليك مسؤولية كبيرة في تنقية الصالح من الطالح والطيب من الخبيث، حتى لا تجلس أمام تلك المصادر مثل الكوب الفارغ يستطيع أي عابر سبيل أن يملأه بما يشاء.

ولد فردريش نيتشه في ١٥ أكتوبر عام ١٨٤٤ في مدينة روكن بولاية سكسونيا بألمانيا وكانت أسرته أرستقراطية، ولكن والده توفي إثر حادث سقوط من ارتفاع، وكان نيتشه يبلغ من العُمر خمس سنوات، وكان يهوى الشعر والموسيقي والتأمل صامتاً لفترة طويلة (وهي بعض صفات العبقرية المبكرة)، تلقى تعليمه الأولي في مدينة "نورمبرج" بعد أن انتقلت إليه الأسرة المكونة من :نيتشه وشقيقته وأمه وجدته وعمتيه (أي أنه نشأ في محيط أسرى أنثوي فقط) فاز عام ١٨٥٨ بمنحة دراسية مجانية للدراسة بإحدى المدارس الداخلية الراقية في مدينة "نورمبرج" وكانت تلك المدرسة من أهم العوامل التي أثرت في فكره العلمي والأكاديمي ، وأصبح مديناً لها وشاكراً لفضل معلميه حيث تعلم اليونانية واللاتينية والفلسفة ونظم بعض القصائد الشعرية وتعلم الموسيقي، وغادر تلك المدرسة وهو في سن العشرين والتحق بجامعة "بون" ليدرس علم اللاهوت والتحليل الأدبي، ولكنه ترك تلك الجامعة ، وعلم اللاهوت وغادر إلى مدينة "ليبزج" حيث بدأ الدراسة في جامعتها ، وبدأ التعمق في دراسة علم اللغة، وفي قراءة كتب الفلسفة للعالم "شوبنهور" وأعجب بكتاب "العالم بوصفه إرادة وفكرة".

أدى الخدمة العسكرية في الجيش الألماني، وأصيب بمرض في الصدر أثناء ذلك فازدادت صحته اعتلالاً، وبدلاً من أن يرتكن على إصابته ويلجأ للكسل، بدأ في الكتابة الأكاديمية ، وكانت كل كتاباته تدعو للعمل والنشاط وكان يقول: "**كل كتابة لا تحوى إثارة على نشاط، فهي عبث لا طائل وراءه**"، واشتهرت مقالاته الثقافية وجذب انتباه أساتذة جامعة بازل وطلب من جامعة ليبنرج أن تسمح له بالتدريس في جامعة بازل عام ١٨٦٨ ولم يُعقد له اختبار لقبوله مدرساً بالجامعة من فرط ذكائه وتفوقه الأكاديمي، رغم اعتلال صحته ، وكان يبلغ من العمر ٢٤ عاماً واستمر في العمل الشاق والجاد والأبحاث

والتدريس مما أدى إلى تدهور صحته وتقاعده عام ١٨٧٩، فترك المجال الأكاديمي.

بدأ الاتجاه إلى التأليف وصدر أول كتاب فلسفي له عام ١٨٧٢ وعنوانه "مولد المأساة" وناقش فيه **لماذا الشكل الجمالي للحياة أساسيًّا، بينما الشكل العقلي ثانويًّا.**

وأثنى في هذا العمل على الموسيقى وكيف أنها إحدى وسائل الإدراك والوعي الجمالي وتبعدك عن النظرة المأساوية للحياة التي تعوق التفكير، وكانت آراء نيتشه في التربية والأخلاق والثقافة تبدو مبهرة وجديدة في نهاية القرن التاسع عشر ومنها: "أن الثقافة والمعتقدات والقيم التي تسمى باسمها أي مجموعة أو طبقة لا يمكن أن تنتجها التربية وحدها، فالشعوب العظيمة تنتج أحياناً عبقريًّا، غير أن ذلك نادراً ما يحدث، ولكنه يحدث أكثر في الثقافات والدول التي لا تتورط كثيراً في تربية رعاياها".

وقد كتب مقالاً جاء فيه "الواقع أن جميع الفترات العظيمة في الثقافة، كانت فترات انهيار سياسي" فالطاقة المطلوبة للسياسة بدرجة كبيرة أو للاقتصاد أو التجارة أو للنشاط البرلماني أو الأنشطة العسكرية، تؤثر في العادة على مستوى ثقافة الشعب.

اهتم نيتشه بالمبادئ الأخلاقية اهتماماً خاصًّا في معظم كتاباته، وكان يكره التعصب الأخلاقي وكان يقول "**افعل طبقاً لمبدأ للفعل الذي تريد له أن يكون قانوناً عاماً**، وأن نور العقل هو حُسن الأخلاق، وأن الفضائل يجب أن تكون من ابتكارنا نحن، وأن تكون دافعنا وضرورتنا الشخصية، لا أن يَكون لكل شخص فضيلته الخاصة التي يريدها، والشعب الذي لا يعرف واجبه الخاص، سوف يفنى.

وكان يبحث في شكل الأخلاق والمعرفة العامة ويقول "**ينبغي علينا أن لا نفصل بين الأخلاق والمعرفة، ومن ثم فإننا لا نسأل ما الذي يمكن أن نعرفه؟ بل :ما هو الأفضل لنا أن نعرفه؟**" كان نيتشه يدفع ثمن آرائه مزيدا من العزلة وكان يقول: "لقد اشتهيت البشر، فلم أجد سوى ذاتي"

ألَف نيتشه كتاباً عن أصل نشأة الأخلاق عام١٨٨٧، وله كتابات متعددة عن النساء رغم أنه كثيراً ما يهاجمهن، ولكن كان يحترم عقليتهن ودورهن في الحياة وكان يقول "هل هناك حالة مقدسة أكثر من الحمل".

ولم يتزوج رغم أنه أحبَّ مرتين في عمره، وكان يقول "النساء يفهمن الأطفال أفضل من

الرجال، لكن الرجل أشد طفولة من المرأة" .

وعن رأيه في السياسة والسياسيين يقول نيتشه "ربما نجد يوماً ما أن السياسة تبلغ من الابتذال حدًّا يجعلها توضع جنبا إلى جنب مع جميع الأحزاب والصحف اليومية تحت عنوان: "دعارة العقل"، آراء جريئة وحديثة في عهدها خرجت من عقلية هذا الرجل الذي عانى كثيراً من الأمراض ، وأشدها العزلة رغم أنه طاف نصف أرجاء الكره الأرضية فيلسوفاً ومحاضراً ومعلماً وباحثاً عن المرأة التي أحبها، وحاول أن يتزوجها ولم يستطع وهي روسية اسمها "ماريا سالومي"، كان نيتشه جريء الآراء ويكره الخوف ، وتكلم كثيراً عن إرادة القوة ووصفها بأنها تحتاج إلى موقف ذهني قوي وكان يقول "الخوف الدائم من الألم والعذاب لا يظهرنا إلا على أننا نتعذب بما فيه الكفاية، فكل معرفة تتطلب ثمناً" وكان يقول: إن "**قوة الإرادة تستطيع أن تتغلب على قوة الأذرع (القوة البدنية)؛** لأنه رغم أمراضه الكثيرة عمل بالعقل والفكر وترك علماً للأجيال القادمة.

كان نيتشه قاسياً على نفسه ولكن كانت لديه رقة فطرية على البشر والحيوانات الذين لا حول لهم ولا قوة، فقد رأى في إيطاليا في مدينة تورنتو سائق حنطور يضرب الحصان العجوز الضعيف بالسياط ، فاحتضن الحصان العجوز ، وظل يبكي عليه حتى فقد عقله عام ١٨٨٩ في ٣ يناير ثم أدخل مستشفى الأمراض العقلية التي ظل بها عشر سنوات، حتى توفي عام١٩٠٠ في ٢٥أغسطس مصاباً بمرض بالرئة بعد أن تحدى جميع المستحيلات التي صادفته إلا الأمراض فليس لها كبير.

73

كارل لويللين

"من مصاب عمليات حربية إلى أكبر أستاذ قانون"

عالم القانون وأستاذ المدرسة الواقعية في التشريع كارل لويللين يعتبر نموذجاً للإنسان الذي إذا أصابته مصيبة قال :حسبي الله ونعم الوكيل، ولم يرتكن للبكاء والحزن على ما أصابه ولكنه أدار رأسه للأحزان وبدأ حياة جديدة في بلد آخر أصبح فيها عالماً.

ولد كارل لويللين في ألمانيا عام١٨٩٣ وعندما بلغ الثامنة عشرة جُنِّد في الجيش الألماني وشارك في الحرب العالمية الأولى ، وأصيب إصابه بالغة أقعدته عن العمل في الجيش الألماني فأُنهيت خدمته العسكرية عام١٩١٥، فكر بعدها أن يلملم جراحه ويهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي اكتسب جنسيتها فيما بعد ، وبدأ دراسة القانون في جامعة ييل ثم جامعة هارفارد ، وتخرج فيها ومارس مهنة المحاماة في نيويورك، ثم عاد للعمل مرة أخرى في جامعة ليبزيج في ألمانيا مدرساً للقانون لمدة عامين.

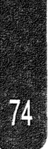
كانت له رؤية خاصة في نظرية "واقعية القوانين" أي ضرورة أن يُعبر القانون في مجتمع ما عن الحالة الفعلية للواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع الذي سيطبق فيه هذا القانون.

عاد كارل لويللين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل أستاذاً للقانون العام ولفلسفة القانون في جامعات ييل وكولومبيا وشيكاغو وهارفارد، وبدأ في إصدار سلسلة كتب قصيرة عن فلسفة القانون عام١٩٢٩، أسس فيها مبادئ الواقعية القانونية والتي اشتُهر بالتعمق في دراستها ، وبدأ يحلل وينقي مجموعة من القوانين المدنية والتجارية التي كانت سائدة في المجتمع القانوني الأمريكي ، والتي كانت متضاربة ويعوق بعضها بعضاً وتعوق تطور المجتمع مدنيًا واجتماعيًا واقتصاديًا ، حتى إن الرئيس الأمريكي الراحل تيودر روزفلت استعان بأفكاره القانونية في علاج الأزمة الاقتصادية العالمية الأولى في الثلاثينيات من القرن

الماضي وتأثيراتها على أمريكا.

قام أستاذ القانون بجامعة هارفارد كارل لويللين عام١٩٤١ بدراسة الأصول العقائدية والثقافية للقوانين الأمريكية ، وأصدر تلك الدراسة في كتاب، وخلص إلى أن هناك تأثيراً متبادلاً بين عقائد المجتمع ورؤيته التشريعية وقوانينه الفعلية (التي يمكن تطبيقها) وطبيعة مؤسساته وخصائص أفراده، وأن أي قانون لا يتفاعل مع تلك المؤثرات الأربعة ، ويتفاعل مع متغيراتها يصبح من الصعب على المجتمع تقبله، وكان كارل لويللين يردد دائماً إن الفقه التشريعي يحتاج إلى دقة متناهية ؛حتى يمكننا الوصول إلى تفسير هادف للقوانين بسهولة ومرونة مع توسيع أفق النص القانوني المحدد، ويوضع في الاعتبار عند صياغة كل نص: "الروح الواحدة الحاكمة للبناء التشريعي كله للمجتمع الواحد". وذلك حتى يمكن تطبيق النص على الجميع وليس تفصيله لمصلحة جماعة ما!!.

تلك هي حياة المصاب كارل لويللين الذي خذلته الدنيا يوماً ما في الحرب العالمية الأولى فاستنهض نفسه مرة أخرى وأصبح أستاذاً عالميًا في القانون تاركاً للبشرية أحد أهم المراجع القانونية الحالية وتوفي بعدها عام١٩٦٢.





فيدور ديستوفسكي

"الشهرة تبحث عن محكوم عليه بالإعدام"

هل كان في مخيلة أي فرد في العالم أن يكون مريض الصرع(التشنجات) فيدور ديستوفسكي أحد أعمدة الرواية الأربعة في العصر الحديث، إن نشوة الفكر الراقي أنست فيدور ديستوفسكي آلامه وفقره ومرضه ، وبدأ في الكتابة عن حياة المهمشين والمساكين والمهانين في المجتمع أي أن مرضه زاده حساسية وشعورا بالضعفاء والمحقرين.

ولد ديستوفسكي في روسيا القيصرية ، وكان والده جراحاً وتعلم وأصبح مهندساً، ولكن غالبه حبه للأدب وكتب أول قصة له واسمها "الفقراء" وسلمها لأحد المسؤولين بمجلة الأدباء لتقييمها ، ولكنه وجد في عينيه عدم الاكتراث فتركها له وانسحب خائفاً من أن يلومه على هذا العبث، وفر مسرعاً كمن ارتكب جرماً، ثم قرأ الأديب القصة وبُهر بها وشجعه على الكتابة ، ولكن خلال إنتاجه الغزير لم يدقق كثيراً في أنه كان يخاطب المظلومين والبؤساء والمهمشين في ذلك المجتمع القيصري الظالم آنذاك، فاتُّهم مع جماعة من زملائه بأنه يشجع على الثورة ضد نظام الحكم القيصري، وزُج به إلى السجن ثمانية أشهر ثم حُكم عليه بالإعدام وأعدت العدة لإعدامه في ميدان عام هو وأصدقائه ، وقد ارتدوا بدلة الإعدام وحضر رجل الدين الذي يتولى سؤالهم أن يبوحوا له بما يريدون من رغبات واعترافات وفجأة جاءتهم رسالة أن يوقفوا حكم الإعدام على الجميع بأوامر من القيصر ، واستبدال ذلك الحكم بالسجن مع العمل الشاق، وقد كتب فيدور ديستوفسكي عن ذكريات تلك الوقائع في عملين أدبيين هما قصة "المستذل والجريح" ، و"ذكريات دار الموتى" وقد عبَّر

فيهما ببساطة وسلاسة أدبية عن شجون وأحاسيس المسجون قبل إعدامه، مع صدق تصوير الأديب المرهف المعذب، واستغل أيضاً فترة سجنه في تحليل شخصيات المجرمين المرافقين له في السجن المحكوم عليهم بقضايا غير سياسية، وكان عطوفاً عليهم ويستمع جيداً إلى ظروفهم الاجتماعية التي دفعتهم إلى الإجرام وهذا أعطاه زاداً أدبيًّا وقصصيًّا ، ولا ننسى أنه صاحب رائعة "الجريمة والعقاب" .

وأصبحت رواياته تعبر عن ربط عناصر متباعدة بعنصر رئيس يأتي في النهاية تاركاً للقارئ مساحة من تفكير الكاتب طوال الرواية ، فإن لم يصل القارئ إلى النهاية بعقله وتفكيره وجدها بعقل وتفكير الكاتب وتلك الحرفية القصصية هي التي جعلته أحد أهم الكتاب الروس على مدى التاريخ الأدبي الروسي والعالمي.

تزوج ديستوفسكي مرتين، فعندما توفيت زوجته الأولى تزوج سكرتيرته التي كانت تقوم بنسخ أعماله على الآلة الكاتبة، ومن أجمل أعماله قصص "الأبله" و"الفكرة المتسلطة" و"الإخوة الأعداء" أو الإخوة كرمازوف كما في النص الروسي، وهي قصة اجتماعية تعبر عن أن البناء الواهي لأسرة كبيرة وتبدو عظيمة أمام الآخرين، قد يجعلها تسقط وتزول بسهولة، لكن رؤيته لم تكن بتلك البساطة التي خرجت بها في قصة واحدة، بل كانت رواية طويلة من خمسة أجزاء وكل شخصية تمثل شريحة من المجتمع الروسي حاضراً ومستقبلاً.

كان ديستوفسكي قليل الشكوى من مرضه، فمنذ طفولته وهو مريض بالتشنجات وفي السجن ظهرت عليه بوادر ونوبات الصرع ، أي أن المرض رافقه طوال أيام عمره، وكانت حالات الصرع تنتابه في الشارع وفي العمل وفي المنتديات، ولكنه لم يستلين ولم يَشْكُ واعتبر أن الحرمان من الصحة مرض والحرمان من المال فقر والحرمان من العدالة ظلم والحرمان من الفكر جنون ، فعقد العزم أن يكون نصير المحرومين مثله في العالم عن طريق تصويرهم بدقة وأمانة وصدق في رواياته، وأعطى بُعداً أدبيًّا جديداً لمعنى كلمة "الحرمان".

وقد قال في آخر كلماته : "نحن في هرولة الحياة الاجتماعية نتعب ونجرى لأجل الثراء أو الوجاهة ، وقد ننساق في أنانية بشعة، لا نبالي بمصالح الغير ولا بحقوقهم ولا نرحم من يقع تحت أرجلنا في سبيل الاقتناء أو الفوز".

75



ألبير كامو

"كل شيء يبدأ بالوعي، ولا قيمة لشيء من دونه"

الأديب الكبير ألبير كامو الذي جرت في دمائه جينات الأدب الجزائرية والفرنسية والأسبانية والحائز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٧ ، وكان مريضاً بالسل الرئوي منذ شبابه واكتشفه أثناء عرض أطروحته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الجزائر، كان مثالاً للجد والمثابرة والصبر بعد أن طلبت زوجته الطلاق منه ولبي طلبها ، وعاش لإنتاج الثقافة وتنمية الوعي لدي البشر، ولا عجب لذلك فهو ابن لثلاث ثقافات مختلفة وعظيمة ، وكلل تلك المعارف بإيمانه بالحب للجميع وقال: **"أنا لا أؤمن بالحب كعاطفة أو فكرة، بل أؤمن بالحب المحسوس، الحب الذي يتوجه إلى الناس، والأشياء، ككائنات من لحم ودم ويختار أكثر الوقائع التحاماً وقرباً بالحواس، ويجعلنا على اتصال مباشر مع المخلوقات في بساطتها، إنه حب الحاضر، أن نساعد الآخرين اليوم لا غداً ، أن نوزع كل شئ بكرم وسخاء للحياة الحاضرة، وللبشر الأحياء والأرض، وقبل كل ذلك نمنح نفوسنا الحب والقدرة على الحب من غير تأخير، لرفع الظلم والاضطهاد وإنقاذ المعذبين".**

وتذكرني تلك الكلمات الجميلة اليسيرة وغير المنفرة بكلمة للأستاذ صلاح منتصر الصحفي الكبير بجريدة الأهرام في إبريل٢٠١١ ، حيث قال: إن أساس نجاح أي إنسان في عمل ما هو درجة حبه واقتناعه بهذا العمل، لدرجة أن الاعتياد على عمل روتيني ليس به إبداع أو تغيير يزاوله الفرد من دون حب يؤدى إلى تدهور إنتاج هذا الفرد وإحساسه بالكآبة" ويضيف على ذلك ألبير كامو بأنه من أجل الخروج من تلك الدائرة المفرغة من

كلاسيكية حياتنا اليومية من استيقاظ من النوم ثم الإفطار، ثم ركوب المواصلات للذهاب للعمل، ثم العمل لمدة أربع أو ست ساعات ثم المواصلات، ثم العودة للمنزل وتناول الطعام ثم الجلوس على المقهى أو أمام وسائل الإعلام ثم النوم والاستيقاظ ثاني يوم، لا سبيل إلى كسر هذه الدائرة المغلقة التي تؤدى إلي الكآبة إلا بعودة الوعي الشخصي للإنسان أولاً، وذلك بالتمرد الإيجابي ضد الجدران الصماء في حياتنا حتى لا نعيش في الدنيا ، ونحن منتظرين ساعة الموت!!

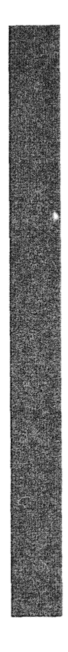
وهذا التمرد الإيجابي يكون بمزاولة أنشطة تطوعية تفيد الآخرين، وباللجوء إلى التعمق في الإحساس بالجماليات التي تحيط بنا ، وقد خلقها الله لنتمتع بها في الحلال، أو بالقراءات المتعمقة في فلسفة الحب والمعارف الجديدة، وقد يبدو ذلك نوعا من العبث والخروج عن المألوف من سلوك يومي لنمط آلي متكرر، ولكنه في حقيقة الأمر هو بداية استعادة الوعي لدى الفرد، حتى لا يصبح مثل "أسطورة سيزيف" في الأدب الإغريقي الذي حكمت عليه الآلهة أن يرفع ثقلاً إلى أعلى الجبل، ثم يدحرجه إلى أسفل الجبل ثم يعيد رفعه مرة أخرى، إلى أعلى ويدحرجه إلى أسفل ، وذلك كنوع من العقاب له على خطيئته، ومن فرط ما اعتاد وزهق من هذا العمل، اعتبر أن الموت أرحم من رتابة وكآبة هذا العمل الشاق، وقد ألف الكاتب قصة "أسطوره سيزيف" وكانت من أجمل أعماله الأدبية الفلسفية وقال فيها: "إن الضجر والإعياء هما شيء حسن؛ لأن فيهما ما يبعث على الغثيان والضيق ثم يسعي الوعي بصورة عفوية إلى التحرر؛ لأنه يشعر بالاشمئزاز، فيبدأ المرء في سلوك طرق جديدة بعد استعادة وعيه" .

وقال أيضاً بناءً على ذلك: "كل شئ يبدأ بالوعي ولا قيمة لشئ من دونه"، حيث إن الإنسان عندما يكتسب العادات من المجتمع، يقضى حياته في سهولة ويسر ويعتاد على ما شبَّ عليه ولكن عند شعوره باستيقاظ وعيه، قد يبدأ في تغيير نفسه ومجتمعه إلى الأحسن، ولكن يرى ألبير كامو أن شعور الفرد باستيقاظ وعيه منفرداً عن الجماعة المحيطة به قد يؤدى إلى ثورة داخلية لديه فقط، وهذه تجره إلى الشعور بالأنانية ومحاولة تحقيق مطالبه الشخصية والفئوية، مما يؤدى أخيراً إلى اصطدامه مع المجتمع، وبذلك أعطى ألبير كامو التحرر معنى مفهوماً في قصته "الغريب" فالذي يختار الموت على الحياة (بالانتحار مثلاً)، فهو إنسان مخطئ؛ لأنه لم يستطع أن يحرر نفسه ويتجه إلى مشاق العمل والكفاح والتعمير

في الدنيا كما خلقنا الله لعبادته وحده عز وجل، ثم تعمير الأرض، فالتمرد الفردي ليس غاية لذاته؛ لأن هناك سبلاً جديدة في الحياة على المرء أن يكتشفها، والوعي الجماعي هو الأساس في تقدم البشرية وكان يقول: عندما يستيقظ الوعي في الأفراد، فإنهم يلتقون جميعاً في شيء مشترك أو وسط مشترك، (الطبيعة الإنسانية) ، ومن هذا الوسط يندفع التغيير في المجتمع" .

ولهذا كتب ألبير كامو مقالات تهاجم الماركسية والوجودية ؛لأنها توجه البشر بالقيم التي تبثها بناءً على مبادئها وليس بناءً على فرضية توعية المجتمع، وقد كان صادقاً في ذلك الهجوم، فبعد أربعين عاماً من وفاته عام١٩٥٧ ، سقطت حصون الماركسية الواهية، وسقطت دعوات الإلحاد وعادت البشرية إلى ما خلقها الله من أجله من إيمان بالله وتوحيده وعبادته، حيث عاد لأوروبا الشرقية حريتها ، وعادت روسيا تسعى لترتيب البيت من الداخل والعودة بقوة: اقتصادية وعلمية ودينية وعسكرية إلى المجتمع الدولي، مع احتفاظها بعلاقات وروابط وثيقة بدول اتحاد الكومنولث الجديد ، وهي الدول التي كان يتألف منها الاتحاد السوفيتي القديم ، وكل ذلك تم في عهد فلاديمير بوتين، ولكن الأساس كان استعادة الوعي الجماعي لتلك الشعوب الذي تم بناء عليه حرية الاختيار في الدين والثقافة والوحدة.

كانت تلك هي حياة الأديب ألبير كامو المولود في عام ١٩١٣ من أم إسبانية وأب فرنسي من الجزائر، وقد مات والده في معركة المارن، وتركه صغيراً قبل إتمام تعليمه، فاضطر للعمل في عدة مهن، عمل ميكانيكيًّا ثم بائعاً لكي يدبر احتياجاته لاستكمال دراسته، ومن آثار الجهد الشاق الذي كان يبذله في العلم والعمل، أصيب بداء السل الرئوي وهو يُقدِّم رسالته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الجزائر ، وانفصل عن زوجته، ورغم تلك الصعاب والتحديات استطاع ألبير كامو أن يتعداها ؛لأنه لم يعرف المستحيل في حياته حتى توج الله عطاءه لهذا القلب المحب وفاز بجائزة نوبل في الأدب عام١٩٥٧، وتوفي عام١٩٦٠م، وكان خلال حياته من أشد المؤيدين لاستقلال الجزائر عن فرنسا ، وكان مؤيداً لثورة الشعب الجزائري العظيم.



الفصل التاسع

رجال لم يعرفوا المستحيل في البناء



76

المهندس الأمريكي
العميد جوتلز.. وحفر قناة بنما

"إذا كنت لا تريد المخاطرة.. أرجوك ألا تبقي هنا"

العزيمة قد تتفوق على القدرة ولكن إذا اجتمعا سويًّا ، تصبح النتيجة إنجاز عملٍ كان يعتبر مستحيلاً سابقاً في عُرف من تعود على عدم تحدى المستحيلات، تلك هي قصةً بناء قناة بنما الشهيرة التي تربط بين شرق وغرب الولايات المتحدة الأمريكية وشرق وغرب قارة أمريكا اللاتينية ، ومن يتابع محاولات البناء والانكسار خلال خمسة وعشرين عاماً، يؤمن أن العزيمة والحماس والقدرة على التنفيذ يصنعان المستحيل إذا اجتمعا.

قصة حفر وإنشاء قناة بنما بدأت عام١٨٨٠ بعد نجاح المهندس الفرنسي فرديناند ديليسبس في إتمام حفر وتشغيل قناة السويس عام١٨٦٩ تحت رعاية المغفور له الخديو إسماعيل رحمه الله، وذاعت شهرة تلك القناة التي سهَّلت نقل البضائع والركاب بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، استغل المهندس الفرنسي هذا النجاح على أرض مصر وأنشأ الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ومقرها فرنسا، في الترويج لعمل هندسي عملاق آخر في أمريكا، وهو إنشاء قناة بنما في المنطقة الصخرية التي تفصل بين قارة أمريكا الشمالية، وقارة أمريكا الجنوبية (اللاتينية) وأسس شركة مساهمة في فرنسا وأوروبا تتولى الإنفاق على تنفيذ هذا العمل ماليًّا ، وتولى هو ومعاونه الجانب الهندسي في المشروع، وعندما اعترض بعض كبار المهندسين في فرنسا وإنجلترا على المشروع لصعوبة تنفيذه كان رده عليهم كالآتي: "لابد أنه أثناء بناء الأهرامات في مصر، ظهر ذلك المشروع أنه شبه مستحيل.. ولكنه تم !!"

وتعلل المعارضون لمشروع قناة بنما بأن وجود الجبال العالية ، والضخمة بين المحيطين الهادي والأطلسي، يحول دون إمكانية تكسيرها.

مع كل تلك الأصوات المعارضة تمكن ديليسبس من إنشاء الشركة واتفق المساهمون على

بدء الأعمال الهندسية والحفر عام١٨٨٢، بدأ العمال يأخذون مواقعهم في منطقة صخرية تسمى كوليبرا ، وتم تعيين مهندس فرنسي عمره ٢٦سنة مشرفاً عليهم، ولكن ما أن تأتي الأمطار الموسمية الشديدة حتى تغمر ما يتم حفره وتجتاح الفيضانات الرجال والآلات في طريقها، واستمر الحال على ذلك المنوال سنتين، مع الظروف المناخية والصحية القاسية في تلك المنطقة والمناخ الاستوائي، بدأ ظهور مرض الحمى الصفراء بين العاملين وتوفي ما يزيد على ستة آلاف عامل في سنة واحدة ، وظن الأطباء أن سبب الوفاة هو الهواء الفاسد، وكان فرديناند ديليسبس يظن أنه يستطيع التغلب على الأعاصير والفيضانات بالدفع بالمزيد من العمال والمهندسين ليلقوا حتفهم وكان يقول: "الرجل الضعيف يهرب من الصعاب ولكنني رجل قوى ولن أترك العمل"، حتى جاء عام١٨٨٥ ولم يكن قد حُفر من القناة إلا ١٠٪ من حجمها وصارت الوفيات بين العاملين بمعدل ٣٥٠حالة شهريًّا ، وزادت التكاليف إلى أربعة أضعاف المقدر لها، واضطر المهندس الفرنسي أن يصدر (يناصيب) ماليًّا لتمويل الجزء الباقي من القناة ، ولكن لم يستجب له أحد وتعرضت الشركة إلى ضائقة مالية كبيرة وضاعت سمعة ديليسبس في فرنسا، وواجه المشروع شبه إفلاس ثم أفلست عام١٨٨٨ وحدث انهيار مالي، وفضيحية كبرى أسقطت الحكومة واتهم هو برشوة وسائل الإعلام والصحافة ، لكي تعتم على الوضع المالي للمشروع واعتزل ديليسبس الأعمال الهندسية حتى توفي.

فكرت الولايات المتحدة الأمريكية في تنفيذ المشروع عدة أعوام من توقفه وتصدى لهذا العمل مهندس أمريكي اسمه جون ستيفنز، وخطط لتنفيذه عن طريق الأعمال الميكانيكية والسكك الحديدية أكثر من الاعتماد على القوى البشرية، فأحضر حفارات عملاقة لتكسير الصخور ورافعات ميكانيكية يديرها العمال والمهندسون، بحيث يتم مباشرة تحميل الصخور على خط السكك الحديدية الذي أنشأه لهذا الغرض خصيصاً ، وكان يسابق الزمن كل عام قبل مجيء موسم الأمطار بحيث يتم التحميل والنقل سريعاً، ولكن جاءت الحمى الصفراء لتداهم العاملين ثانية ، وبعد أن كانوا يظنون أنها من تلوث الهواء اكتشفوا أن المسبب الحقيقي لها وهو نوع من البعوض المتوطن بالمنطقة، وبدأت أكبر حملة ضد البعوض في التاريخ وأطلقوا الدخان على المدينة، ورشوا الماء الراكد، ورغم الجهود الضخمة في عمليات الحفر والنقل حيث كانوا يستعملون حوالي ١٨٠ألف كيلو جرام من المفرقعات

شهريًا كي يحطموا الجبال، جاءت أمطار هادرة عام١٩٠٦ وجرفت أمامها عربات القطار والحفارات والآلات، وتُرك المشروع الصعب عام١٩٠٧ لمصيره المجهول لتعدد مهاجميه ومنتقديه.

عقد الرئيس الأمريكي اجتماعاً مع الهيئة الهندسية للجيش الأمريكي، وناقش معهم ما يمكن عمله حيال إتمام إنشاء قناة بنما، وهنا ظهر العميد مهندس "جوتلز" الذي عرض على الرئيس الأمريكي فكرته الرائدة، والتي تتمثل في تنفيذ المشروع بطريقة هندسية جديدة ، وهي الحوائط الصلبة الساقطة التي يمكن إنزالها عن طريق الرافعات العملاقة في الأماكن التي تم فيها الإنجاز، وتم عمل بوابات فولاذية ضخمة فيما يشبه السد وخلفها بحيرة لمنع النهر من إلقاء الماء في المحيط وكي تحبس المياه المندفعة عن المكان الذي تم الانتهاء منه، وعارضه علماء الزلازل وعلماء صناعة الأسمنت، ولكن الرئيس الأمريكي وقف بجانبه، وتكلف شق القناة ثلاثمائة مليون دولار وتم تجنيد ٢٨ألف رجل عسكري ومدني للعمل بالقناة واستعمل ٢,٧٠٠,٠٠٠مليون كجم ديناميت، وكان المهندس العبقري "جوتلز" الذي تحدى المستحيل مقيماً مع العاملين بالمشروع ، أن يعمل معه أي مجند أو مهندس أو عامل خائف من الإقامة بالمنطقة أو غير مقتنع بالعمل بعيداً عن أهله في أمريكا، وكان يقول مقولته الشهيرة: "إذا كنت لا تريد المخاطرة، فأرجوك لا تكن هنا"، واكتمل بناء قناة بنما عام١٩١٣ بعد أن حطم الجيش الأمريكي ٨٠مليون طن من الصخور، مستعيناً بالله وبفكرة مهندسه العبقري "جوتلز" وسواعد الثمانية والعشرين ألفاً من جنوده ، وتم عمل أول اختبار ملاحة في القناة عام١٩١٣ بحضور الرئيس الأمريكي ، وكان ذلك المشروع أول اتصال ملاحي مباشر في التاريخ بين المحيط الأطلنطي والمحيط الهادئ، وكان أكبر مشروع هندسي مائي في القرن العشرين بفضل فكرة مهندس أمريكي تحدى المستحيل.

77



الملك فيصل
ابن عبدالعزيز آل سعود

"ابن الصحراء الوفي .. والحكيم عندما يتولى مسؤولية البناء"

أولى خطوات البناء الحضاري والتقدم في المملكة العربية السعودية في النصف الثاني من القرن العشرين ، كانت على يد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله، الذي كان علامة بارزة ومميزة في تاريخ المملكة العربية السعودية وفي تاريخ العرب وفي تاريخ المسلمين، فلا يوجد ابن من أبناء المملكة إلا ويدينُ له بالفضل بعد الله في النهضة الشاملة التي قام بها في كافة مناحي الحياة في الجزيرة العربية عامة وفي السعودية خاصة، وشملت: التطور العلمي ، والاقتصادي ، والبِنَى التحتية ، والثقل السياسي ، والخدمات الصحية ، وتوطين البدو، وإنشاء الجامعات ، وتعليم البنات ، وتدعيم علاقات التعاون بين الدول العربية، والدول الإسلامية ، وعقد أول مؤتمر رابطة إسلامية ، وظهور أجيال جديدة من المتعلمين السعوديين، حتى إن سيرة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله ينطبق عليها قول الشاعر المصري حافظ إبراهيم:

خُلقت في الدنيا بياناً خالداً
وتركت أجيالاً من الأبناء
وغداً سيذكرك الزمان ولم يزل
للدهر إنصاف وحسن جزاء
انظر..فأنت كأمس شأنك باذخ
في الشرق واسمك أرفع الأسماء

وكان للملك فيصل ثمانية من الأبناء الذكور تولى تعليمهم لأرقى الدرجات العلمية، وكان أكبرهم الأمير عبد الله الفيصل، وتولى الأمير سعود الفيصل وزارة الخارجية وتولى الأمير تركي الفيصل رئاسة المخابرات ، وأسس الأمير محمد الفيصل بنك فيصل الإسلامي وتولى الأمير خالد الفيصل إمارة مكة المكرمة بعد إمارة أبها ، ومؤسسة الفكر العربي ، وله نشاط ثقافي مميز واهتم أيضاً الملك فيصل بتعليم بناته ، وأنشأت إحداهن مؤسسات تربوية ومدارس وجمعيات خيرية لخدمة أبناء وبنات وطنها.

صورة تحدى المستحيل في البناء التي اضطلع بها الملك فيصل تتمثل في أنه علَّم نفسه بنفسه وتولى مسؤولية العلاقات الخارجية للمملكة العربية السعودية، وهو لم يتجاوز العشرين عاماً وبرع فيما كُلِّفَ به من قِبل المغفور له والده الملك عبد العزيز آل سعود ، وكان على قدر المسؤولية لمدة ثلاثين عاماً، وعندما تولى حكم المملكة العربية السعودية انتقل بها إلى مصاف الدول المؤثرة عالميًا والقوية اقتصاديًا وسياسيًا ، وعبر بالمملكة وشعبها خلال أقل من عشر سنوات، ما يوازى مسيرة قرن من التمدن والإنجاز والتنوير والتحديث والبناء الحضاري ، وأيضاً كان لحرمه الملكة عفت رحمها الله دوراً أساسيًا في بداية تعليم البنات في المملكة، كما ذكرت في كتابي السابق (الخالدات مائة أولهن السيدة مريم) وسردت فيه أن الملكة عفت هي إحدى الشخصيات النسائية الرائدة في العالم العربي عامة، وفي الجزيرة العربية خاصة في الرقي بالمرأة العربية وتوجد جامعة باسمها في المملكة.وقد ذكرت لي السيدة محاسن مصطفى لطفى المنفلوطي رحمها الله (ابنة العلامة الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي) حجم الإنجاز الذي تم من أجل دعم وتدعيم مشروعات تعليم البنات في المملكة العربية السعودية.

وُلِد الملك فيصل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود في مدينة الرياض في ٩إبريل عام١٩٠٦ الموافق ١٤صفر عام١٣٢٤ ووالدته هي الأميرة طرفة ابنة الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف آل الشيخ، والتي تُوفيت خلال شهور عمره الأولى، فتربى في بيت جده لأمه إلى أن يفع.

تعلم الفروسية وفنون القتال من بيئته الصحراوية، وتلقى ثقافته الدينية من عائلة والدته

التي تعتبر من كبار عائلات الجزيرة العربية المهتمة بشؤون الدين الإسلامي والفقه ، وهي عائلة آل الشيخ، أما ثقافته الأدبية فقد اكتسبها من حبه للقراءة والاطلاع منذ صغره، ومن كثرة سفرياته حول العالم والتي كان يكلفه بها والده لكي ينوب عنه في المحافل الدولية، حيث كان يجيد اللغة الإنجليزية وقليلاً من الفرنسية وطاف أرجاء العالم ممثلاً لوالده منذ عام١٩١٩ حتى الأربعينيات، ومع ذلك لم تتغير صفاته الشخصية التي كانت تتسم بالتواضع والحلم والتمسك بأخلاق الشريعة الإسلامية، وكان حاد الذكاء وثاقب البصيرة ويحمل صفات البدوي الصابر المتمكن من التصرف والتأقلم مع الأحداث المحيطة به بشجاعة، وتحمل مسؤولية (**لأن المعيشة في الصحراء قاسية ولا يمكن التنبؤ أو التخطيط بسهولة لما سيحدث غداً، وعليك مسؤولية أين ومتى وكيف ولماذا تضع قدمك وهو ما يطلق عليه فراسة أبناء الصحراء**)، وأيضاً يحمل صفات أبناء المدن من تحضر ومدنية مع المحافظة على ثوابت الدين الإسلامي، ومن هنا جاءت قدرته على تحديث وتطوير المملكة خلال فترة الخمسينيات حيث كان وليًا للعهد أثناء حكم المغفور له شقيقه الملك سعود بن عبد العزيز، ثم تولى الحكم بعده عام ١٩٦٤حتى عام١٩٧٥، ومن انبهار العالم الخارجي بسياسته وتطويره للمملكة اختارته مجلة "تايم" الأمريكية ليكون رجل عام١٩٧٤، تبعاً لموقفه القوى أثناء حرب أكتوبر عام١٩٧٣ وقراراته المؤثرة بقطع إمدادات البترول عن الدول التي تعادى مصر وسوريا أثناء الحرب ، مما كان له أبلغ الأثر في تقوية مواقف كل من مصر وسوريا أثناء الحرب وتلا تلك القرارات الهامة للملك فيصل أن بدأ العرب يحددون أسعار النفط بأنفسهم عالميًا ، وكانت تلك المواقف أول صورة من صور التحرر الاقتصادي العربي التي تلت حرب أكتوبر . وكان الملك فيصل رحمه الله الداعم الأول لكل من الرئيس أنور السادات والرئيس حافظ الأسد ، أثناء حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، ووقف بجانبهما وقفة الأخ الشقيق أثناء المعارك ، ولبى طلباتهما العاجلة لإمدادهما بقطع غيار للأسلحة وللمزيد منها ، بأن أرسل المرحوم الرئيس هواري بومدين رئيس جمهورية الجزائر إلى القيادة الروسية في موسكو ومعه طائرة خاصة من السعودية وبها ملايين الدولارات نقداً لشراء الأسلحة لمصر وسوريا ، وعندما رفض الروس في أول الأمر ، تعامل معهم الرئيس هواري بومدين بمنتهى الصرامة والصراحة حتى لبوا طلب الملك فيصل رحمه الله تعالى ،

وهذه المواقف قد ينساها العامة من الناس ، ولكن التاريخ لا يخطئ ، وذكرى الملك فيصل والرئيس هواري بومدين مسجلة بحروف من ذهب في ذاكرة من عاصروا الحرب مثلنا ، ثم اشتركوا في علاج المصابين (شباب الأطباء في ذلك الوقت).

عُيِّن الملك فيصل كأول وزير خارجية في المملكة عام١٩٣٠ ثم رئيسا لمجلس الوكلاء (الذي أسسه الملك عبد العزيز) عام١٩٣٢، ثم عُيِّن عام١٩٤٩ مشرفاً على أول محطة إذاعية بالمملكة، في عام١٩٥٣ أصدر الملك عبد العزيز قراراً بتشكيل مجلس للوزراء برئاسة الأمير سعود بن عبد العزيز، وعُيِّنَ الأمير فيصل نائباً له، ثم عُيِّن رئيساً لمجلس الوزراء عام١٩٥٤ لفترة قصيرة ثم تركه، وعاد عام١٩٥٨ ليتولى رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية وشؤون المال، وتولى وزارة المالية والاقتصاد الوطني، في عام١٩٦٠ تولى شؤون البلاد أثناء غياب أخيه الملك سعود بالخارج للعلاج، عام١٩٦١ أعيد تشكيل الحكومة وتولى الملك فيصل وزارة الخارجية ونائب رئيس مجلس الوزراء، في عام١٩٦٤ اجتمعت آراء أبناء المملكة وأهل العلم والدين ورجال القبائل على تولي الملك فيصل زمام الأمور بالمملكة ، وتُوِّج ملكاً على المملكة العربية السعودية لكي يقيلها من عثراتها الاقتصادية في ذلك الحين، وأيد مجلس الوزراء ذلك القرار في٢/ ١١/ ١٩٦٤نظراً لما أبداه الملك فيصل من نشاط عربي وإسلامي كبيرين، قبل ذلك القرار حيث كان قد قام بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا عام١٩٥٦ أثناء العدوان الثلاثي على مصر وأوقف ضخ البترول لهما متحملاً خسارة يومية للمملكة تقدر بمليون ريال ، وقال للمعتدين مقولته الشهيرة: "لقد كنا نعيش تحت الخيام ونشرب لبن الناقة ونستطيع أن نعود إلى ذلك، فلئن نخسر المال، خير من أن نخسر الشرف".

عام١٩٦١ وافق الملك فيصل على إنشاء رابطة العالم الإسلامي، حضر عام ١٩٦٤ مؤتمر القمة العربي الذي عقد بالإسكندرية في فندق فلسطين، وافتتح في نفس العام المؤتمر الإسلامي، وفي عام١٩٦٧ أعلن حظر البترول عن الدول التي أيدت العدوان على مصر وسوريا والأردن، ثم بدأ في توطيد علاقاته بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وزار مصر عدة مرات ودعا إلى التضامن مع دول المواجهة ماليًّا وسياسيًّا في مؤتمر القمة العربية في

الخرطوم، وقدم دعما ماليا لمصر أثناء توقف الملاحة في قناة السويس ، وإعادة بناء ما دمرته الحرب في سوريا وكان هو والرئيس جمال عبد الناصر وأمير الكويت لهم دور بارز في إنهاء الخلاف بين منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات ، والملك حسين رحمه الله في سبتمبر عام١٩٧٠، حيث حضر مؤتمر القمة الذي عُقد بالقاهرة آنذاك ، وتمت المصالحة التي توفي على إثرها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر رحمه الله، وقام بجولة إفريقية ناجحة عام١٩٧٢ لحثِّ الدول الإفريقية المسلمة، وغير المسلمة لقطع العلاقات مع إسرائيل حتى وصل عدد تلك الدول إلى ٢٨دولة، زار القاهرة قبل حرب أكتوبر بعدة أشهر للتنسيق مع الرئيس الراحل أنور السادات، وكذلك مع الرئيس الراحل حافظ الأسد واتفق معهما على الوقوف بجانب الشعبين المصري والسوري إذا خاضا الحرب، وقد كان، فعندما تم العبور واشتدت وطأة المعارك قام الملك فيصل بتوحيد الموقف العربي بجانب دول المواجهة ، وتم قطع إمدادات النفط عن أوروبا وأمريكا، وخرج العرب منتصرين عسكريًّا واقتصاديًّا ، حيث تم بعد الحرب تحديد سعر البترول تبعاً لتقديرات الدول المنتجة ، وليس تبعاً لتقديرات الدول والشركات المستوردة، فارتفع سعر البرميل من ثلاثة دولارات إلى ما فوق الأربعين دولاراً للبرميل، مما جعل الدول العربية قوة اقتصادية لا يُستهان بها، ولها كلمة مسموعة ومؤثرة في القضايا الدولية، وكل ذلك من حكمة الملك فيصل رحمه الله الذي تحدى الدول الأوروبية و الولايات المتحدة الأمريكية، وفضَّل التضامن العربي والإسلامي على المصالح الوقتية مع العالم الغربي.

أما عن إنجازات الملك فيصل داخل المملكة العربية السعودية منذ أن كان وليًّا للعهد ثم ملكاً، فهذه تحتاج كتاباً كاملاً ؛ لأن عصر والده الملك عبد العزيز رحمه الله كان التركيز فيه على إرساء دعائم الحكم ، وتوحيد شبه الجزيرة العربية في مملكة قوية وإرساء دعائم العلاقات الخارجية ، ولم تكن هناك موارد مالية كافية (لظروف الحربين العالميتين الأولى والثانية) لبناء الدولة الحديثة، أما في عصر الملك فيصل فاجتمعت للمملكة الفكر الثاقب المتنور للملك فيصل والموارد المالية اللازمة التي استعملها بطريقة صحيحة في البناء وسُبل التخطيط العصري والعلاقات الوطيدة المتميزة في كافة دول العالم التي كان قد أرساها بنفسه عندما تولى منصب وزير خارجية المملكة لفترة طويلة.

ومن أهم إنجازاته بالداخل تبعاً لتاريخ تنفيذها أول موازنة مالية مطابقة للمعايير الدولية عام ١٣٧٨هـ، إنشاء وزارة الإعلام ١٣٧٩هـ، ٤مدارس تجارية عام١٣٧٩هـ، مجلس أعلى للتخطيط عام ١٣٨٠هـ والذي تولي مشروعات الإنماء الاقتصادي، تأسيس وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ١٣٨٠هـ، إنشاء مدارس لتعليم البنات عام ١٣٨٠هـ (بتدعيم ورعاية من الملكة عفت حرمه المصون رحمها الله) إنشاء المعهد الفني الملكي ، ومعهد الإدارة العامة والتنظيم الإداري عام ١٣٨٠هـ، إصدار أول عملة ورقية سعودية عام ١٣٨١هـ، إلغاء نظام الرق نهائيًا في السعودية عام١٩٦٢ ميلادية وتعويض مالكي الأرقاء بستين مليون ريال، وضع نواة التعليم الزراعي عام ١٣٨٢هـ، إنشاء جمعية الهلال الأحمر السعودي عام١٩٦٣ ميلادية، إنشاء نظام المحافظات (المقاطعات) بالمملكة عام١٩٦٣ ميلادية، إنشاء تليفزيون المملكة عام١٩٦٥، تنظيم مهنة الصحافة والمؤسسات الصحفية عام١٩٦٣ ميلادية، الاحتفال بتأسيس جامعة الملك عبد العزيز عام ١٩٦٤، وكلية البترول والمعادن عام١٩٦٤ ميلادية ومصنع الحديد والصلب عام١٩٦٥ ميلادية بجدة، إنشاء المعهد العالي للقضاء عام١٩٦٥ ميلادية، إنشاء لجنة موسعة ترعى شؤون البادية والبدو عام١٩٦٥ ميلادية، وافتتاح العديد من الطرق الجديدة في المملكة لخدمة أبناء الحضر والبدو مثل طريق الطائف وطريق الدمام - الرياض - الحجاز، إصدار قانون العمل والعمال عام١٩٦٧ ميلادية ، وإنشاء نظام التأمينات الاجتماعية والمعاشات عام١٩٦٩، إنشاء وزارة العدل عام١٩٧٠ ميلادية هو العام المحوري في حياة أبناء المملكة حيث وضع الملك فيصل أول خطة تنمية خمسية للنهوض بشتى مناحي الحياة على أرض السعودية، وتم تنفيذها بدقة وبحماس حيث وضع حجر الأساس لكلٍ من مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض وافتتاح مدينة الملك فيصل العسكرية بخميس مشيط ، ومشروع الري والصرف بالأحساء ، ووضع حجر الأساس لجامعة الإمام محمد بن سعود، وافتتاح بعض المصانع وإنشاء المؤسسة العامة لتحلية المياه المالحة وجرى افتتاح كلية البنات بجدة عام١٩٧٤، كل تلك الأعمال تمت في عصر ملك واحد للمملكة ، ولم تتجاوز فترة حكمه أحد عشر عاماً ، وكأنه - رحمه الله- كان لا يفكر إلا في البناء ثم البناء ؛لأنه كان يتمتع بالذكاء والنظرة المستقبلية الثاقبة، وحُسن استغلال الموارد والقوة البشرية المتوفرة سواء

المحلية أو الأجنبية ويعرف مع من يتفق، ومع من يختلف ويُقيِّم الأمور تبعاً لمصلحة دينه وبلده والشعوب العربية والإسلامية، حتى توفاه الله إلى رحمته في١٣/ ٣/ ١٣٩٥ هجرية وهو اليوم الذي استمع فيه الشعب السعودي والعالم العربي والإسلامي والعالمي لذلك النبأ المفجع، حيث كان - رحمه الله - يتمتع بتقدير خاص لدى شعوب تلك الدول وقادتها، وشُيع جثمانه في جنازة مهيبة بمدينة الرياض ظهر يوم الأربعاء١٤/ ٣/ ١٣٩٥هجرية حضرها معظم رؤساء وملوك دول العالم من مشرقها إلى مغربها ، وكل أمراء العائلة المالكة وجموع أبناء السعودية، وصار- رحمه الله- مثلاً وقدوة لمن أراد أن يتحدى المستحيل في بناء الأجيال والأوطان.

78



كلاين كريستيان فيليكس

"الثورة التعليمية في أوروبا .. ومؤسس موسوعة المعارف الرياضية"

العالم الألماني كريستيان فيليكس أبو الرياضة الحديثة يُعتبر المخطط التربوي، والتعليمي لأوروبا في المائة والخمسين سنة الأخيرة؛ لأنه أول من نادى بتدريس اللغويات والمنطق والفلسفة للطلبة بجانب العلوم العلمية مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات حتى يتعلم الطلبة التفكير، ذلك النداء كان لا يتفق ونظم الدراسة في القرن التاسع عشر، وطالب أيضاً بتوحيد المناهج الدراسية لكلٍّ من البنين والبنات ؛حتى يمكن أن تظهر القدرات الإبداعية كاملة في المجتمع الأوروبي الذي كان سائراً في الإبداع على ساق واحدة تقريباً، وهي الساق الذكورية، لك أن تتصور أن يظهر شخص واحد يطالب بتغيير مفهومين قديمين متأصلين في مجتمع ما، ويناضل علميًّا وفكريًّا حتى تثبت صحة رؤيته التربوية والعلمية وتثمر هذه الثورة العلمية.

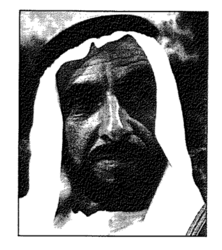
وبرنامج كريستيان فيليكس التعليمي (فيما عُرف ببرنامج جوتينجن لاحقاً نسبة إلى الجامعة التي كان يعمل أستاذاً بها في ألمانيا) في ظهور أكثر من ٦٠٪ من مجموع العلماء الأوروبيين في مختلف فروع المعرفة، والذين أسسوا للبناء العلمي المتطور في الفترة من عام١٩١٠ حتى عام١٩٦٠ قبل ثورة التكنولوجيا الحديثة فيما بعد، ومعظم هؤلاء العلماء كانوا من ألمانيا والنمسا ودول أوروبا الوسطى والغربية، وأسس أيضاً كلاين كريستيان فيليكس مبدأ أن تُنفق الدولة جزءاً من دخلها القومي على التعليم ما بعد الجامعي، في صورة دعم للأبحاث العلمية، وكانت برامجه التي وضعها في برنامج جوتينجن وموسوعة

العلوم الرياضية، هي المفتاح الحقيقي لظهور وشهرة العلماء الألمان في أوروبا ومن ثمراتها أيضاً، تفوق الصناعات الألمانية والصراع الذي نشب في الخفاء بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بين روسيا وأمريكا لاختطاف أكبر عدد ممكن من العلماء الألمان بعد أن سيطرت القوات العسكرية للحلفاء على الأراضي الألمانية ، وكذلك ظهور إبداع العالمة البولندية ميري كوري كأول امرأة تحصل على جائزة نوبل في العلوم مرتين.

ولد كلاين كريستيان فيليكس عام١٨٤٩ في ألمانيا وتلقى تعليمه بها وظهرت بوادر النبوغ والذكاء أثناء حياته الجامعية، وتخرج من الجامعة قبل أن يبلغ عشرين عاماً، وفي سن الواحدة والعشرين وضع النظرية التعليمية الجديدة في ألمانيا الموحدة والتي سبق الإشارة إليها، ووضع برنامجاً لتطوير التعليم الأساسي عام١٨٧٥، وأشرف على تنفيذه بتكليف من فريتز ألنتوف وزير التعليم والثقافة حتى عام ١٨٨٦، وتم تطبيقه بصورة كلية في كل من ألمانيا وإمبراطورية النمسا، وبعض دول وسط أوروبا وبعد ذلك اتجه إلى المساهمة العلمية في وضع أسس الرياضة البحتة والهندسة الحديثة وحساب المثلثات، مما أدى إلى ظهور علم جديد وهو ما يُعرف بعلم "الرياضة الحديثة" أثناء عمله في جامعة إلانجين عام١٨٧٢ كأستاذ لعلم الرياضيات والهندسة، وَقَدَّم تصنيفاً لمختلف فروع الهندسة والمتواليات الهندسية، ثم وضع أول تطبيق لنظرية النماذج الرياضية للمتواليات الهندسية في هندسة المسطحات وفي الهندسة الحديثة للسطوح المنحنية والدائرية والمتعددة الأبعاد، وأجرى أبحاثا تطبيقية عام١٨٨٤ على مختلف جوانب المعادلات التفاضلية، مما مهَّد الطريق لاكتشاف نظرية النسبية، واتجه بعد ذلك لتأليف "موسوعة المعارف الرياضية التي أصدر أول جزء منها عام١٨٩٨ والتي أُعتبرت في ذلك الوقت من أهم المراجع العلمية في الرياضيات والهندسة واعتمدت عليها أوروبا في تطورها العلمي الحديث واكتلمت تلك الموسوعة عام١٩٣٥ بفضل زملائه وتلاميذه بعد وفاته بعشر سنوات.

توفي كلاين كريستيان فيليكس عام١٩٢٥ بعد أن ترك للعالم نظام وأُسس التعليم الحديث لمن يريد أن يطبقه، وأبدع في مجالَيْ الهندسة والرياضيات بقدر ما استطاع، فأصبح مثالاً لمن لم يعرفوا المستحيل في بناء الأجيال.

79



الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

"حكيم العرب.. وأول وحدة عربية ناجحة"

تعددت المساعي والمحاولات والنوايا الصادقة لإتمام وحده عربية بين عدة أقطار في منطقة الشرق الأوسط، ولكنها جميعاً لم يُكتب لها النجاح، فقد شابها التسرع وحب السيطرة وعدم التكافؤ العددي والاقتصادي ، ولكن الأسباب الجوهرية لنجاح أي وحدة أو تكتل هو وجود عناصر القيادة والحكمة والعدل فيمن يتولى قيادة قبائل أو جماعات أو أفراد متفرقين؛ وقد وهب الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمه الله تعالى صفات القائد الحكيم العادل مما يسر له إقامة دولة تتكون من سبع إمارات، كانت متفرقة واتحدت وأصبح اسمها "الإمارات العربية المتحدة"، وهذا العمل ما زال مستحيلاً في عالمنا العربي ودوله الاثنتين والعشرين الذين ما أن اجتمعوا، إلا واتفقوا على ألا يتفقوا!! فما هي سيرة هذا الرجل العظيم صاحب أول تجربة وأرجو ألا تكون آخر تجربة وحدة عربية ناجحة لم تشوبها القلاقل؟

ولد الشيخ زايد بن سلطان عام١٩١٨في قصر الحصن بمدينة أبو ظبي، ونشأ نشأة عربية أصيلة في البادية وعلَّم نفسه بنفسه ، وتعلم أكثر من أخبار منْ سبقوه من أهل الصحراء بتجاربهم وسيرتهم وتاريخهم ولم يلتحق بمدارس نظامية، وكما قال برنارد شو الفيلسوف الإنجليزي إن **التعلم الحقيقي يبدأ بعد الانتهاء من المدرسة؛ فالمدرسة الحقيقية في حياة الفرد هي الدنيا.**

بدأ ا الشيخ زايد بن سلطان حياته السياسية عندما أصبح نائب الشيخ شخبوط في مدينة العين عام١٩٤٥ وتبلورت شخصيته خلال تلك الفترة، وتمكن من اكتساب حب بدو القبائل هذه المنطقة وأرسى قواعد النظام والأمن، وتمتع بينهم بالهيبة والتواضع والذي مكناه فيما بعد من تطبيق تلك النظم بإمارة أبو ظبي نفسها، حيث إن الأمان والنظام كانا العنصرين الأساسيين لتمكين شركات البترول من البحث والتنقيب عن النفط في مناطق الإستكشاف وبدء تصدير البترول من إمارة أبو ظبي عام١٩٦٢.

خلال فترة إدارته لمنطقة العين، أرسى الشيخ زايد قواعد البناء للمدينة الحديثة، حيث أسس سوقا للبلدة وافتتح المدرسة النهيانية، وعَمرْ مدينة الأفلاج مع أن الإمكانيات المالية كانت قليلة جدًّا ومع ذلك أنجز شيئاً جديداً على الأرض وشعر رجال القبائل والمسؤولون أن هذا الرجل سيكون نسخة من جده الشيخ زايد بن خليفة، الذي حكم إمارة أبو ظبي في الفترة من ١٨٥٥ حتى١٩٠٩، فاجتمعت العائلة الحاكمة عام١٩٦٦ واختارت الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان حاكماً لأبو ظبي لما اتسم به من حكمة ونشاط وقدرة على تطوير البلاد، بدأ الجزء الثاني من حياة ابن الصحراء لتحديث وبناء الإمارة بعد أن توفرت له الظروف المالية المناسبة للنهوض بالإمارة بعد بدأ تصدير البترول.

كان تولى الشيخ زايد حكم إمارة أبو ظبي عام١٩٦٦ تجربة حية لقدرته على البناء والتحديث ، فأقام بها نظام المدنية الجديدة من طرق وكباري ومدارس ومستشفيات ومركز للشباب واستطاع خلال خمس سنوات أن يضع اللبنات الأولى للبنية التحتية والمرافق اللازمة لخدمة المواطنين ، مما جعل كل من دولتي قطر والبحرين تفكران في عمل اتحاد مع أبو ظبي والإمارات الأخرى عام١٩٦٨ ولكن تعثر تنفيذ المشروع الوحدوي، هنا ظهرت حكمة الشيخ زايد ، وأيقن أن تعثر البعيد لا يعني ترك القريب، وبدأ التفكير في عمل اتحاد بين الإمارات الأخرى المحيطة بإمارة أبو ظبي والتي كانت أغنى الإمارات وأكثرها تقدماً وحداثة، وبعد اجتماعات بين شيوخ ست إمارات تقرر توحيد تلك الإمارات في دولة واحدة سُمِّيت دولة الإمارات العربية في ٢ديسمبر١٩٧١ وانتُخب الشيخ زايد بن سلطان رئيساً للدولة والشيخ راشد بن سعيد نائباً للرئيس وفي ١١فبراير

عام١٩٧٢ انضمت إليهم إمارة رأس الخيمة لتصبح الإمارة السابعة في الاتحاد، وتكتمل عروة الوحدة بين كل من إمارة أبو ظبي، إمارة الشارقة، إمارة دبي، إمارة عجمان، إمارة أم القوين، إمارة الفجيرة ، وإمارة رأس الخيمة.

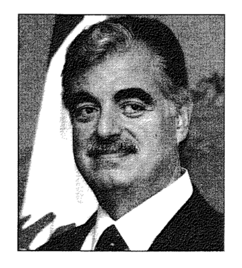
ظهرت القدرات الأصيلة للشيخ زايد في مقدرته على البناء والتحديث عندما تولى حكم الدولة الفتية، وبدأ تحديث وبناء مدن جديدة وموانئ ومدارس وجامعات في كل مكان بالبلاد ، وكان لا يفرق بين الإمارات في الإنشاء والتعمير ولم يضع أسس التخطيط والعمران لكل إمارة حسب إمكانياتها المالية ، ولكن وضع الأسس والموارد المالية للدولة في خدمة كل الإمارات وحسب درجة احتياجاتها من حيث عدد السكان ، ومدى إمكانية التطوير والجدوى الاقتصادية للتعمير الشامل الذي يخدم شعب وسكان كل منطقة بالعدل والمساواة، وهذا مكن من نجاح تجربة الوحدة، وأنشأ وزارة للمالية والاقتصاد الوطني تتولى الإنفاق على المشروعات واستعان في ذلك بالأستاذ الدكتور حسن عباس زكي وزير المالية السابق في مصر ومجموعة من المستشارين الأكفاء في التخطيط، وخلال عشر سنوات أصبحت دولة الإمارات العربية دولة فتية حديثة.

انتقل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بتجربته الوحدوية إلى جيرانه من دول الخليج العربي ، ولعب دوراً كبيراً في قيام مجلس التعاون الخليجي الذي أُسس في مايو عام١٩٨١ ولا زال يؤدي عمله بنجاح حتى الآن سياسيًّا واقتصاديًّا وإجتماعيًّا.

من نعم الله على الشيخ زايد بن سلطان أن رأى بنفسه ثمرة جهوده في البناء والتعمير في كافة أرجاء الإمارات، وبالذات في إمارة دبي التي أصبحت أكبر مركز تجاري في الشرق الأوسط بفضل الله ، وبفضل مشروعاته وقيادته وقيادة شيوخ آل مكتوم، وقد تشرفت بزيارة المرحوم الشيخ زايد في قصره العامر في أبو ظبي في ٢٩ أبريل عام١٩٩٠ بعد حضور سباق الهجن السنوي ، وذلك تلبية لدعوته الكريمة ورأيت على مدى ثلاثة أيام أمضيتها في الإمارات العربية المتحدة، ما يمكن إنجازه بأمانة إذ اجتمعت الحكمة والقدرة والعزيمة ، ولم أتصور أن تلك المدن الجميلة الرائعة كانت جبالا وصحارى

منذ ثلاثين عاماً، لكنها بقيادة الشيخ زايد بن سلطان الذي لم ينس يوماً أصول الشهامة والكرم والعادات القبلية والعربية والإسلامية .

وكان في مقدمة من أوقفوا ضخ البترول أثناء حرب أكتوبر (بعد الملك فيصل رحمه الله) عن الدول المساندة لإسرائيل وقال كلمته الشهيرة: "إن البترول العربي ليس أغلي من الدم العربي"، ولعب خلال حياته دوراً هامًّا في مؤتمرات القمة العربية ، وعقد المصالحات بين الدول العربية وترسيم الحدود مع الدول المجاورة للإمارات ، وكانت كل خطواته وكلماته وتصرفاته تتسم بالتواضع والحكمة حتى أُطلق عليه رحمه الله لقب "حكيم العرب" ووافته المنية في يوم الثلاثاء ٢نوفمبر عام٢٠٠٤ وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها.



رفيق الحريري

"ابن لبنان المتميز .. ومدرس علم الوفاء"

لم ترَ لبنان في عصرها الحديث ابناً وفيًّا ومتميزاً في العطاء المادي والفكري والسياسي، مثل الراحل الرئيس رفيق الحريري الذي تقابلت معه مصادفة منذ خمسة وعشرين عاماً في أحد الاحتفالات، ورأيت فيه نموذجاً للرجل العربي أولاً واللبناني ثانياً، الحريص على مستقبل الجيل القادم من أبناء بلده وكان وقتها يشارك بأمواله للإنفاق على الطلبة اللبنانيين الذين حالت الحرب اللبنانية خلال أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات دون استكمال تعليمهم العالي، وما بعد العالي في لبنان، فأوقف جزءاً من ماله الخاص للإنفاق على البعثات التعليمية اللبنانية، والمبعوثين في كل من فرنسا وأمريكا وإنجلترا وألمانيا وغيرها من البلاد وأحسست بالنشوة لأن أحد أبناء لبنان آمن أن الثقافة اللبنانية يجب ألا تموت، حيث تعودنا منذ الصغر على أن سوريا ولبنان من أهم منتجي الثقافة العربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وإليهما يرجع فضل المحافظة على التراث الأدبي والفني والموسيقي في العالم العربي، حيث بدأ في هذين البلدين بزوغ فجر الترجمة في العصر الحديث في العالم العربي وظهر عمالقة إصدار المجلات والصحف والدوريات المعرفية مثل سليم وبشارة تقلا مؤسسي جريدة الأهرام الغراء وجورجي زيدان مؤسس دار الهلال والسيدة فاطمة اليوسف مؤسسة دار روز اليوسف ويعقوب صنوع وشعراء المهجر جبران خليل جبران وإيليا أبو الماضي وجورج أبيض ونجيب الريحاني ونزار قباني وتوجو مزراحي وفريد الأطرش وفايزة أحمد والرحبانية وفيروز ونقولا حداد والقباني صاحب أول تخت موسيقي كامل في الغناء العربي

بعد انتهاء عصر ما كان يسمى بالصهبجية عام١٨٨٥، (وهم جماعة من العازفين الهواة يلتقون مساءً بعد انتهاء عملهم الأصلي ويغنون ويعزفون لجمهور خاص محدد مجاناً) .

حمل رفيق الحريري مسؤولية الحفاظ على تراث أهل الشام (سوريا ولبنان) على عاتقه عن طريق بعث روح العلم والثقافة في الجيل الضائع من شباب لبنان الذي حدثت الحرب الأهلية اللبنانية في مقتبل عمره ، وأرسلهم في بعثات تعليمية خارج البلاد، ليعودوا بعدها ويستكملوا مسيرة أجدادهم في البناء الثقافي والمعرفي للعالم العربي كما تعودنا منهم ونحن صغار، حيث كانت حرية الصحافة والإعلام والفنون ظاهرة فريدة متميزة في سوريا ولبنان ومصر وبلاد المغرب العربي.

وهذا هو المستحيل في رأيي؛ أن يظهر منقذ للعلم والفكر والثقافة- بعد الله - وسط طوفان البنادق والرشاشات مع الفتنة الطائفية التي تُعتبر فيروس الهدم في البلاد العربية، ولم يفرق رفيق الحريري أثناء اختيار اللبنانيين للابتعاث للخارج عن طريق مؤسسة رفيق الحريري للأسماء بين مسلم سني أو مسلم شيعي أو ماروني، بل وضع الجميع في بوتقة واحدة اسمها إعادة بناء لبنان الموحد ، وكان ولاؤه للوطن وليس للطوائف وزاد على ذلك أن بدأ حملة تعميرية رائدة لإعادة بناء المرافق والأبنية في لبنان لإصلاح ما دمرته الحرب بعد إتمام المصلحة الوطنية وعُقِدَ اجتماع الطائف وانتهت الحرب عام ١٩٨٩ وأنفق ما يوازي عشرة مليارات دولار من ماله الخاص لإعادة الوجه الحضاري المشرق لبلاده ، كما تعودنا أن نراه وكان منهجه في ذلك قول الطبيب الألماني والفيلسوف "شوبنهور" "العالم إرادة وفكر"، حيث كان رفيق الحريري يحمل إرادة تحدى المستحيل وفكر الرجل العصامي الذي بدأ من الصغر وكوَّن أحد أهم الصروح الاقتصادية العربية في عصره؛ لأنه بدأ مدرساً وانتهى اقتصاديًّا كبيراً ورئيساً لوزراء دولة مزقتها الحرب الأهلية من منتصف السبعينيات حتى عام ١٩٨٩م.

ولد رفيق الحريري في صيدا بلبنان عام ١٩٤٤ وكان والده مزارعاً بسيطاً وعائلته من المسلمين السُّنة أتم تعليمه الثانوي عام ١٩٦٤ والتحق بالجامعة في بيروت، ولكنه لم يكمل تعليمه بها لارتفاع مصاريف الدراسة وفضَّل أن يسافر للعمل في المملكة العربية السعودية حيث عمل هناك مدرساً للرياضيات فترة وجيزة ثم عمل محاسباً بإحدى الشركات

الهندسية، ولذكائه وحُسن إدارته للأمور ترقى في هذا العمل بسرعة ثم فكر في إنشاء شركة مقاولات خاصة به عام١٩٦٩، حيث استغل طفرة البناء المتسارعة والقوية في المملكة السعودية خلال فترة السبعينيات ووسَّع من مجال نشاطاته العقارية بالمشاركة مع الإخوة السعوديين حتى أصبحت شركته (سعودي أوجيه)، ثاني أكبر شركة مقاولات بالمملكة بعد شركة "بن لادن" وتقديراً لنشاطه وهمته منحته المملكة العربية السعودية جنسيتها عام ١٩٧٨، وتمكن من تكوين إمبراطورية مالية ضخمة خلال فترة الثمانينيات وشارك في شبكة من البنوك وشركات التأمين والصناعات الصغيرة والفنادق حتى أصبح واحداً من أغنى مائه رجل في العالم وأسس المعهد الإسلامي للدراسات العليا في مسقط رأسه "صيدا"، ثم أسس مؤسسة الحريري للثقافة والتعليم التي تولت الإنفاق على ٣٠ ألف طالب لبناني في الجامعات اللبنانية والأوروبية والأمريكية، ثم قام ببناء مستشفى ومدرسة ثانوية وجامعة ومركز رياضي كبير في لبنان ، وشيد قصراً كبيراً في سوريا وأهداه للحكومة السورية وبذل جهداً كبيراً ليكون وسيط الخير والصلح بين أطراف النزاعات اللبنانية ، وبين الدول الأخرى وبذلت كل من سوريا والمملكة العربية السعودية جهوداً ضخمة لإيقاف نزيف الحرب في لبنان وتعاونت الحكومة السورية مع رفيق الحريري في جهوده الخيِّرة وكان - رحمه الله- موضع ثقة من الرئيس الراحل حافظ الأسد.

وساهم الحريري في إنجاح مساعٍ لعقد مؤتمر مصالحة وطنية بين البرلمانيين اللبنانيين في مدينة الطائف بالسعودية ، مما مهد الطريق لإنهاء الحرب والخلافات بين الطوائف، ولو كان رفيق الحريري شخصية عادية ناجحة خارج حدود بلدها، لاكتفى بها حققه لنفسه ولأسرته وأغلق الأبواب على إمبراطوريته الاقتصادية واقتنع أن عليه المساعدة بالأموال فقط ؛لأنه رجل أعمال وليس محارباً، ولكن حيث إنه شخصية استثنائية نادرة في حب الوطن، تفرغ عدة سنوات لحل مشاكل بلده السياسية والاقتصادية والعلمية والطائفية وذلك ما جعلني أضعه من ضمن القادة الذين تولوا البناء وتميزوا بالعطاء وحُسن القيادة وحب الوطن.

كان هذا الجهد المميز للراحل رفيق الحريري هو الباب السحري لاختياره بلا منافس لقيادة لبنان في المرحلة الحرجة بعد انتهاء الحرب بفترة، حيث تولى رئاسة مجلس الوزراء اللبناني عام ١٩٩٢ ووضع هذا البليونير الطموح كل إمكانياته لبناء لبنان، وعمل مصالحة مع سوريا التي دعمت موقفه وشكل وزارته الأولى التي استمرت من عام ١٩٩٢ حتى

عام١٩٩٨ والتي أعادت لبنان إلى سيرته الأولى كمركز تجاري وسياحي عالمي في الشرق الأوسط، وبذل جهداً كبيراً لإعادة بناء وسط بيروت المُدَّمر وشق الطرق وتجديد شبكات المياه والكهرباء والاتصالات وإعادة تخطيط الأحياء، ثم شكَّل وزارته الثانية عام٢٠٠٠ والتي استمرت حتى عام٢٠٠٤ حيث قدَّم استقالته في نفس العام، وحاز الحريري العديد من الأوسمة اللبنانية والفرنسية والسعودية والمغربية والأرجنتينية تقديراً لجهوده الخارقة في المصالحة والبناء والقيادة.

أنجب رفيق الحريري سبعة أبناء من زوجته السيدة نازك عودة التي تزوجها عام١٩٦٥ ومنهم ابنه سعد الحريري الذي تولى رئاسة الوزراء في الحكومة اللبنانية ليكمل مسيرة والده الذي توفي إلى رحمة الله إثر إنفجار مدوٍّ هائل يوم ١٤فبراير عام٢٠٠٥ عند مرور موكبه بجانب فندق سان جورج في العاصمة اللبنانية بيروت، وارتجت أرجاء العالم العربي والغربي لمصرع إنسان نبيل تحدى كل المستحيلات وبذل ماله وفكره وحياته من أجل إخراج وطنه من دائرة الحرب والفتن والعثرات الاقتصادية، ولكن دائماً ما تنتهي آثار الحروب على الشعوب ؛لأن الأسلحة مصيرها إلى الهلاك نتيجة تهور القادة والعسكريين ولكن البناء الاقتصادي لا يسقط بسهولة ؛لأنه في أيدي الشعب والشعوب دائماً ما تحافظ على المكتسبات الاقتصادية وذلك ما أتمناه لدولة لبنان ذات الحضارة العريقة.

81



كونراد أديناور

"إعادة بناء ألمانيا..عملاق الاقتصاد الأوروبي"

أهمية القائد توازي أهمية الرجال في بناء الأجيال، وتزداد أهميته إذا كان البناء يأتي بعد الدمار الشامل الاقتصادي والعسكري والنفسي للشعوب؛ لأن الفرد المنكسر يحتاج إلى علاج أولاً حتى يستعيد قوته ثم يبدأ في العمل .

ولكن الشعب الألماني المتميز وبقيادة كونراد أديناور الذي وُلد في كولونيا بألمانيا الغربية عام١٨٧٦، حقق المستحيل من الإنجازات في خلال عشر سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية واستطاع أن يقف على قدميه كقوة اقتصادية كبرى في العالم في العشر سنوات التالية لها، وأصبح قطبا أساسيا في منظمة السوق الأوروبية المشتركة، ودعامة أساسية من دعامات المعسكر الغربي وحلف شمال الأطلنطي وكل ذلك بفضل الله وبفضل شيئين أساسيين، قيادة كونراد أديناور الذي تسلم المستشارية الألمانية (رئاسة مجلس الوزراء) لمدة أربعة عشر عاماً من عام١٩٤٩ حتى عام١٩٦٣ وحكمته السياسية والاقتصادية ، وبفضل مشروع مارشال الأمريكي وهو المشروع المالي الضخم الذي قدمته أمريكا لدول العالم الغربي التي تضررت من آثار الحرب العالمية الثانية .

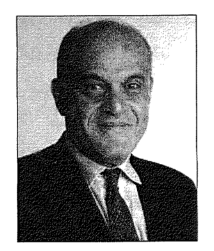
ولكن الأموال لم تكن يوماً مَّا هي الحل الوحيد للمشاكل ولكن القيادة وسواعد الرجال قد توازى أو تفوق أهمية الأموال، فقد صَهرَ المستشار كونراد أديناور الشعب الألماني في بوتقة من العمل الجماعي وزيادة ساعات عمل الفرد وخرجت النساء لتحل محل الرجال الذين ماتوا في الحرب، وعملن في كل المهن المتاحة حتى إن بعضهن عملن في

مصانع الصلب ومصانع السيارات، ووضع كونراد أديناور خطة جديدة لإعادة بناء المدن والمساكن المتهدمة وأدار دفة الحكم في الجزء الغربي من ألمانيا (ألمانيا الغربية) على أساس عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى، وتم تقليص عدد أفراد القوات المسلحة الألمانية تبعاً للاتفاقات الدولية التي أبرمت مع الحلفاء بعد الحرب، فأصبح هناك فائض في الدخل القومي يسمح بمزيد من ضخ الأموال في بناء المصانع والمدارس وإعادة بناء المرافق، ولم تحدث فجوة بين الأجيال في مسلسل نبوغ العقل الأماني؛ لأن ميزانية البحث العلمي والتعليم كان لها الأولوية في برنامج ألمانيا الطموح لإعادة البناء (**ولم نسمع في العالم العربي أن أيًّا من الاحتجاجات أو المطالبة بالتغيير أو بمزيد من الحقوق الاقتصادية، أن طالبت أي حركة منها بزيادة ساعات العمل في المجتمع**) .

برنامج كونراد أديناور الاقتصادي اعتمد على مبدأ هام ، وهو إعادة ترتيب الأولويات في المجتمع، فلم يضع في اعتباره الرفاهية والاستهلاك في المقدمة بقدر ما وضع الإنتاج والتصدير وزيادة ساعات العمل المنتجة للفرد في المقام الأول وتدعيم نظم الضمان الاجتماعي والتعليم والصحة ، ولم تستغرق وقتاً طويلاً في البكاء على الماضي ولم يلتفت الشعب الألماني لمحاسبة بعضه البعض عن أخطاء النظام النازي ، ولم تظهر الانقسامات الاجتماعية الداخلية ، وتدور طاحونة الأحقاد التي تأكل في طريقها عناصر البناء والنهضة، وتقبل الشعب الألماني أن يعمل عدد ساعات أكثر في المصانع والمزارع والمعامل ولم تقف فئة تطالب بالحقوق قبل أداء الواجبات، أي، أن مستر كونراد أديناور كان بذرة طيبة وضعت في أرض صالحة للإنتاج، وعندما طلب منه الحزب الحاكم الذي كان يترأسه (الحزب الديموقراطي المسيحي) أن يتخلى عن زعامة الحزب وعن منصب المستشارية عام ١٩٦٣، حتى يعطي الفرصة لضخ دماء جديدة وشابة تتولى إدارة البلاد .

وافق على ذلك وقدَّم إستقالته عام١٩٦٣ وتولى المستشارية بعده مستر لودفيج ايرهارد، أي أن المستشار كونراد أديناور نزل على رأي الأغلبية من حزبه رغم أنه يعتبر بطل بناء ألمانيا الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك معناه أن هناك مستحيلين في حياته المستحيل الأول هو: إعادة بناء ألمانيا والمستحيل الثاني :هو تنازله عن الحكم في أوج نجاحه وبداية قطف ثمار التنمية في بلاده واعتزل الحياة السياسية حتى توفى في مدينة رودندوف بألمانيا في ١٥أبريل عام١٩٦٧.

82



الدكتور مجدي يعقوب

"البذور من مصر والشجرة بالخارج والثمرة لمصر"

الثلاث جمل ثنائية الكلمات الواردة بالعنوان هي قصة بناء ونجاح طبيب جراحة القلب العالمي الأستاذ الدكتور مجدي يعقوب ابن صعيد مصر وحي شبرا العتيق، وحامل وسام "قلادة النيل" العربية من الرئيس السابق حسني مبارك وحامل لقب "سير" من الملكة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا .

وهو الطبيب الذي يمكن أن يكون قدوة لمعظم أطباء العالم العربي ومصر، ومن خلال معرفتي البسيطة به وبسيرته وبالظروف التي مر بها بعد تخرجه متفوقاً ومن الأوائل، حيث إنني خريج كلية طب جامعة القاهرة ، وهي الكلية التي تخرج منها سيادته، ولكنني تخرجت بعده بعدة سنوات، أجدني محتاراً في وصفه، أهو مظلوم عصره؟ أم محظوظ عصره؟، حيث إن عدم تعيينه معيدا ثم مدرسا للجراحة في القصر العيني كان صدمة من الصدمات التي يتلقاها النابغون في حياتهم، وتجعل منهم أشد صلابة في مواجهة التحديات وأكثر قدرة على تحقيق المستحيلات في بناء أنفسهم، ثم العودة للجذور في أوطانهم وبناء صروح جديدة كُلٌّ في تخصصه، مثل الأستاذ الدكتور أحمد زويل الحائز على جائزة نوبل في العلوم ابن مدينة دسوق ومحافظة كفر الشيخ ومحافظة البحيرة وخريج كلية العلوم جامعة الإسكندرية.

ولد الدكتور مجدي يعقوب في مصر من عائلة تنحدر من صعيد مصر ، وتربى وترعرع في حي شبرا بشمال القاهرة حتى حصل على الثانوية العامة، والتحق بكلية الطب جامعة القاهرة في الخمسينيات وتخرج منها أوائل الستينيات بدرجة جيد جدًّا مع مرتبة الشرف،

وعُيِّن نائب جراحه بمستشفى القصر العيني لمدة ثلاث سنوات حصل بعدها على دبلومتي الجراحة العامة وجراحة القلب (ما يعادل درجة الماجستير) وتقدم للحصول على درجة الدكتوراه، وذلك هو المسار المعتاد لأي متفوق علميًّا، إذا استطاع أن ينهي رسالة الدكتوراه بالقبول من الأساتذة المشرفين ثم ينجح في المرور من الاختبارات النظرية والإكلينيكية، يُعين مدرساً بالكلية في تخصصه، ولكن الأستاذ الدكتور مجدي يعقوب صادف عقبات كثيرة حالت دون وصوله إلى غايته التي يستحقها بجدارة في أوائل الستينيات، ولم تكن تلك العقبات علمية على الإطلاق ولكن كانت اعتبارات أيديولوجية، لم ينهرم ولم يسقط أمام من أرادوا أن يسقطوه في الامتحانات، ولكنه قرر السفر إلى إنجلترا وبدأ صفحة جديدة من العمل والاجتهاد والتحق بالعمل بأحد المستشفيات في بريطانيا واستعد لدخول امتحان الجزء الأول للكلية الملكية للجراحين في بريطانيا للحصول على درجة الزمالة البريطانية "F R C S"، ونجح في الحصول على الجزء الأول، ثم الثاني بجدارة وتفوق على أقرانه من أطباء العالم (حيث إن تلك الشهادة في ذلك الوقت كانت تعقد امتحاناتها في المملكة المتحدة فقط، ويأتي لها المتقدمون من كل أنحاء آسيا وأفريقيا وأوروبا ومن ينجح في اجتياز مرحلتيها يصرح له بالعمل في المملكة المتحدة، وكافة دول العالم التي تسير على نظم بريطانيا التعليمية في المجال الطبي.

تخصص الأستاذ الدكتور مجدي يعقوب في جراحة القلب المفتوح ذلك التخصص الذي أُعتبر جديدا خلال فترة السبعينيات والثمانينيات وكذلك في عمليات تغيير واستبدال الصمامات التالفة بالقلب، ثم انتقل إلى تخصص أكثر دقة وهو إصلاح العيوب الخَلقية في قلوب الأطفال حديثي الولادة، وخلال عشرين عاماً أصبح من أشهر جراحي أوروبا في هذه التخصصات ويفد إليه المرضى من كل أنحاء العالم الغربي والشرقي، حتى إنه من ضيق الوقت المتاح له من كثرة المرضى اضطر إلى تثبيت مكان عمله بقدر الإمكان في مستشفى واحد بالعاصمة البريطانية لندن، إضافة إلى المستشفيات الجامعية في إنجلترا وسافر إلى جميع إنحاء العالم يلقي المحاضرات ويعلم الأجيال الشابة من الأطباء التكنيك الجديد الذي طوره في جراحة القلب والشرايين التاجية والمسجل باسمه في المراجع الطبية العالمية وأوروبا وأمريكا، وفاقت شهرته الآفاق حتى إن أحد رؤوساء الدول في أوروبا عندما احتاج إلى اجراء عملية استبدال وعلاج الشرايين التاجية، طلب من الأستاذ الدكتور

مجدي يعقوب أن يجري له العملية الجراحية بنفسه، وقد كان وأجريت العملية بنجاح في فترة الثمانينيات .

وكان للدكتور مجدي يعقوب طاقم طبي مساعد خاص به من الأطباء والمساعدين والممرضات، ولم ينسَ بلده مصر أبداً خلال فترة شهرته، بل كان يأتي إلى مصر بصفة دورية للاحتفال مع عائلته بعيد الميلاد المجيد في السابع من شهر يناير وعيد القيامة في شهر أبريل ، ويرى والدته وأهله ويصطحب معه زوجته الألمانية، والطاقم الطبي الخاص به على نفقته الخاصة ويجرى بعض العمليات الجراحية للأطفال مجاناً في المستشفى الجامعي للأطفال في جامعة القاهرة المسمى بمستشفى "أبو الريش للأطفال"، وأخيراً بعد أن أنهى أعماله في إنجلترا، وتعدى عمره الخامسة والستين قرر أن يقضى معظم شهور السنة في مصر وأنشأ مركزاً لجراحة القلب بمحافظة أسوان لخدمة أبناء جنوب وصعيد مصر وزوده بالآلات الطبية والمعدات اللازمة للجراحة ، ولِما بعد الجراحة من حجرات إفاقة وعناية مركزة وتعاون معه في تشغيل مركز جراحة القلب في أسوان مجموعة من المصريين المتطوعين وأُنشئت جمعية مدنية تتولى الإنفاق الجارى على هذا المركز من بعض أغنياء مصر ، واشترك فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية في التمويل والدعوة إلى تمويل هذا الصرح الطبي في أسوان، أي أن الدكتور مجدي يعقوب لم يأت إلى مصر لكي يبحث عن الشهرة والمجد وإلا كان قد افتتح هذا المركز في المحافظات الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية اللتين يغطيهما الإعلام والصحافة صباحاً ومساءً، ولكنه افتتح المركز في أكثر الأماكن احتياجاً له وهو جنوب البلاد، وأيضاً وفاءً منه لأبناء بلده وعرفاناً منه لدور أرض الجذور والأجداد "مصر" التي نشأ وتربى وتعلم على أرضها ونسى الماضي كما قال الشاعر العربي:

بلدي وإن جارت عليَّ عزيزة

وأهلي وإن ضنُّوا عليَّ كرام

ولم نسمع عن هذا المركز أي شئ يشوبه التفرقة في اختيار المرضى من بين مسلمين ومسيحين ولا الواسطة، إنما يتم اختيار المرضى تبعاً لحالتهم الصحية ودرجة احتياجهم للجراحة العاجلة في القلب.

بعد نجاح العمل مستشفى جراحة القلب بأسوان، كرَّم الرئيس السابق حسني مبارك الأستاذ الدكتور مجدي يعقوب بأن أهداه وسام "قلادة النيل" وهو أرفع وسام مصري وكانت تلك لفتة يستحقها ابن مصر البار والطبيب الناجح الدكتور مجدي يعقوب الذي يتمتع بكلتا الجنسيتين المصرية والإنجليزية ، وتحدى المستحيلات التي واجهته في بناء نفسه أولاً ثم البناء في وطنه ثانياً، ولا زال السؤال الذي يحيرني ولم أجد له إجابة: هل هو مظلوم عصره؟ أم محظوظ عصره؟ ؛ لأنه سافر للخارج وحقق كل تلك المنجزات في عمره رغم كل المعوقات، وأصبح مثالاً عمليًا لروح الوحدة الوطنية التي تجمع المسلمين والمسيحيين في مصر على قلب رجل واحد في حب مصر والأرض التي جمعتهم في السراء والضراء ، وتمنياتي أن يحذو الآخرون حذوه في العطاء والمحبة والوفاء لبلدهم.

83



مصطفي كمال أتاتورك

"الزعيم التركي الذي أعاد لبلاده وجهها الحضاري"

التاريخ والأحداث مهما كانت دروسها قاسية ومغلوطة في بعض الأحيان في حياة الأمم، فإنه يجب الاستفادة منها لبناء مستقبل جديد لتلك الأمم، يتحاشى الزلات والأخطاء التي أدت إلى الكوارث والهزائم وظهور الوارثين الجدد لدولة وإمبراطورية عظيمة هي الإمبراطورية العثمانية ، التي ورثها العالم الغربي وهي على قيد الحياة، حيث ظهر قائد عسكري تركي كبير هو مصطفي كمال أتاتورك آمن بأن المستقبل هو الأقوى وأن السيطرة والسيادة ستذهب بالضرورة إلى الأجيال القادمة من الأتراك، إذا تغيرت المفاهيم والسياسات التي أدت إلى هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى وتكالبت الدول الكبرى على اقتسام الغنائم، وأيقن أن التغيير الحقيقي يجب أن يأتي صاعقاً من داخل المجتمع التركي وليس من خارجه ؛ **لأن نصائح أعداء الأمس لا يمكن أن تكون صادقة النوايا لبناء اليوم والغد،** والفهم الهادئ والعاقل يرشدنا إلى جوانب القصور والخطأ ويهدينا بالتالي إلى الخطوات الصحيحة والمسارات الأفضل مادام الجيش والشعب والقوى البشرية لا تزال على قوتها؛ لأن المستقبل هو للأقوى، تلك هي أفكار الزعيم التركي مصطفي كمال أتاتورك الذي تحدى المستحيل لإعادة بلاده إلى مسارها الحقيقي كدولة كبرى ومؤثرة.

كما نرى الآن وإن كان بعض الأتراك يعادون سياسة مصطفي كمال أتاتورك السابقة

غير أنهم في نفس الوقت متمتعين بجني ثمارها في التقدم الاقتصادي والسياحي والصناعي والعلمي حتى الآن.

ولد مصطفي كمال أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة في مدينة سالونيك في ١٢ مارس عام ١٨٨١ وتلقي تعليمه في تركيا حيث تخرج في الكلية العسكرية وأصبح ضابطاً، وأبعد عام ١٩٠٤ إلى دمشق لانتمائه إلى جمعية ثورية تعارض الخلافة العثمانية ، ولكن عُفِي عنه فيما بعد، واشترك في حرب البلقان وحارب الإيطاليين في ليبيا، ونجح خلال الحرب العالمية الأولى في صد هجوم الإنجليز على مضيق الدردنيل عام١٩١٥ ولكنه اضطر إلى الانسحاب عام١٩١٨ إلى إسطنبول، وكان ذلك على غير رغبته، ثم كُلِّف عام١٩١٩ بالعودة إلى الأناضول وتسريح الجيش التركي ، وقواته العسكرية تبعاً لاتفاقية الهدنة، وكانت تلك الأوامر شوكة في حلقه ولم تستسيغها نفسه الأبيّة، فنزل إلى الأناضول في مايو١٩١٩ وبدلاً من تنفيذ المهمة التي كُلِّف بها، أنشأ حكومة معارضة لحكومة الدولة التركية المستسلمة للأعداء، ومن هنا بدأ تاريخ تركيا الحديث من أجل إعادة بناء الدولة، فقد استبدل مصطفى كمال أتاتورك أوامر الهدم بمعاول البناء لدولة تركيا الحديثة التي نراها الآن.

انتخب سنه١٩٢٠ رئيساً للمجلس الوطني الجديد الذي اجتمع في أنقرة، وهاجم عام١٩٢١ القوات اليونانية التي كانت تحتل جزءاً من غرب تركيا ، وهزمها في معركة استمرت ثلاثة أسابيع وانتهت في ١٣سبتمبر عام١٩٢١ وخلال العام التالي أخرج اليونانيين من كامل الأراضي التركية، وفي ٢٩أكتوبر عام١٩٢٣ ألغيت السلطنة العثمانية، وأُعلن قيام الجمهورية التركية بدلاً من النظام السابق ونودي بمصطفي كمال أتاتورك كأول رئيس للجمهورية الجديدة.

برع أتاتورك في إجراء إصلاحات جذرية داخل المجتمع التركي ، وكان في نيته أن يجعل من تركيا دولة حديثة علميًّا وصناعيًّا وفكريًّا ، وكان يكره من يطلقون عليها دولة الخلافة المريضة أو رجل أوروبا المريض؛ لأنه كان يؤمن بقدرات الشعب التركي سواء في عهد الخلافة أو في عهد الجمهورية، وكان يرى أن الغرب يريد أن يرث المريض ويقتسم ثروته بعد أن يوهمه بأن الشفاء مستحيل ولكن ظهر لهم رجل يستطيع أن يتحدى المستحيل!!

بدأ أتاتورك في إزالة العديد من الملامح التقليدية في المجتمع، فأنهى حكم السلاطين

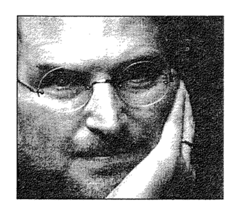
بإعلان الجمهورية، وإنهاء دولة الخلافة الإسلامية وأنهى عصر الحريم وبقاء المرأة خلف أسوار المجتمع ؛لأن المرأة كما ذكرتُ في كتابي السابق "الخالدات مائة أولهن السيدة مريم" هي نصف المجتمع وهي المسؤولة عن تربية أطفالها ومنهم من سيصبح وزيراً وقائداً ومعلماً وصحفيًّا وفلاحاً وعاملاً وطبيباً ومهندساً يبني الصروح في بلاده ، فإذا كان المُربِّى جاهلاً فسيكون المُربَّى أكثر وأشد جهلاً، ولذلك كانت تركيا في عهد مصطفى كمال أتاتورك أول دولة في العالم تجعل من المرأة وزيرة وهي السيدة خالدة أديب ووضع نظاماً جديداً للتعليم العالي على غرار النظم العالمية ، وأدخل الوسائل الحديثة في الزراعة وشجَّع التجارة والصناعة وأقام العلاقات التجارية والسياسية مع دول العالم تبعاً للمصالح التركية، ولم يتدخل في منازعات مع دول الجوار التركي حتى لا يشتت جهوده في طريقه لبناء دولة حديثة ومنح النساء مزيداً من الحريات وأدخلهن سوق العمل وأصبحن قوة منتجة في الاقتصاد التركي، وتبعاً للنجاحات التي حققها في تغيير صورة وطبيعة المجتمع التركي، أُعيد انتخابه لرئاسة الجمهورية التركية ثلاث مرات وضع خلالها مبادئ قد نتفق أو نختلف عليها معه ، ولكنها كانت ضرورية في حينها لاستكمال مسيرة النهضة والبناء الحديث ، التي أسس عليها دولة تركيا الحديثة، ولم يعش مصطفي كمال أتاتورك ليرى كامل ثمرة جهوده لبناء تركيا الحديثة ، حيث توفى فجأة إلى رحمة الله يوم ١٠ نوفمبر عام١٩٣٨ وقد كان ذلك اليوم فاجعة كبرى للشعب التركي الذي بكاه شهوراً.

وإن كانت هناك وجهة نظر أخرى ترى سلبيات مصطفى كمال فإن الآراء تختلف ووجهات النظر تتعارض ولا يبلغ درجة الكمال سوى الأنبياء والمرسلين .

الفصل العاشر

أيتام ولم يعرفوا المستحيل

84



ستيفن جوبز

"مؤسس شركة "آبل" للكمبيوتر...
وحب الإبداع والابتكار وملك التسويق"

ستيفن جوبز الذي نشأ يتيم الأم والأب وتمَّ إلحاقه بإحدى دور رعاية الأيتام (ملجأ) ولكن عوَّضته السماء وعوضه الله عن ذلك بذكاء خارق، وقدرة على الخيال والإبداع وابتكار ما لم يكن موجودا بين أيدي البشر وصقلته التجربة في الدنيا بقدرة فائقة في الحصول من فريق العمل لديه على أفضل ما لديهم وكان يملك موهبة معرفة ما تحتاجه السوق في العشر السنوات القادمة ، وذلك قبل توقع الآخرين لهذا، وأعطاه الله أيضاً موهبة تحويل نتائج الأفكار إلى سلع يمكن تسويقها ، أي الربط بين البحث العلمي واحتياجات المجتمع وهي المشكلة التي يعاني منها الباحثون في عالمنا العربي ؛ حيث تقوم مراكز البحث العلمي بأعمال جليلة وعظيمة وهائلة "**تبدأ في صمت وتنتهي إلى سكون**" داخل الأدراج وملفات الأرشيف وكأنها أبحاث "**تجرى في الحرام وفي الخفاء**"

كنا خلال فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي نذيع مقتطفات من مناقشات رسائل الدكتوراه التي تقدم في الجامعات وكان يتولى رعاية البرنامج أستاذي الراحل دكتور حسين فوزي (سندباد مصر) ويقدم في إذاعة البرنامج الثقافي (البرنامج الثاني) يوميا ، فكان عامة الشعب والطلبة والشباب وأنا منهم يستمعون إليه بما فيه من علوم وأشياء لم يعرفوها من قبل، وقد تستهوي بعضهم وتزيد من معارفهم العامة ، وتولد لدى المجتمع إحساساً بأن هناك شيئا جديدا اسمه اختراعات وتمدن وهناك جنود يعملون في البحث العلمي والمراجع والمناقشات والنتائج ، ويحترمون جهود هؤلاء الطلبة المتميزين ، والموضوع لم

يكن يتكلف إلا تسجيل المناقشة ثم إذاعتها.فما بالك الآن حيث يستطيع التليفزيون نقل صوت وصورة ؟

أردت أن أبدأ هذا الفصل من الكتاب عن العملاق "ستيفن جوبز" مؤسس شركة "آبل" أي التفاحة للكمبيوتر باعتباره أحد رواد رجال الأعمال في الولايات المتحدة والعالم وتقع شركته في ولاية كاليفورنيا في وادي السليكون القريب من لوس أنجلوس وذلك لكي أحفز الشباب العربي على اقتفاء خطواته والتعلم من أعماله الجسورة المتميزة بالذكاء والجرأة والحكمة ونتعلم منه أيضا كيفية وضع همزة الوصل بين الإنتاج والتسويق للمبتكرات والسلع التكنولوجية الجديدة والجيدة والحيوية لتغيير حياة الناس إلى الأفضل ، حيث كان ستيفن جوبز مبتكرا للكمبيوتر الشخصي مع زميل عمره بيل جيتس واللذان جعلا تلك الآلة الصغيرة بمثابة اليد الثالثة للفرد عند اللزوم وتستطيع أن تمده بالعديد من المعارف والمعلومات خلال دقائق وفي أي مكان يتواجد فيه الفرد ، وأخيرا وضع برنامج الآي باد الذي يمكن من خلال قراءة وتقليب وتصفح الموضوعات على الكمبيوتر بلمسة يد .

ولد ستيفن جوبز في شهر فبراير عام ١٩٥٥ في ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية وتوفي والداه ، وكان من حُسن حظه أن تبنته عائلة أمريكية من دار الأيتام وهما بول وكلارا جوبس اللذان كانا لا ينجبان وتعهداه بالرعاية وأدخلاه المدرسة الابتدائية واستمر في المرحلة الثانوية ثم أول عام بالجامعة وتوقف عن الدراسة بعد ذلك ؛لأن شخصيته كانت فريدة من نوعها ويحب أن تسير الأمور على هواه وكان متشبثاً بآرائه ورؤيته الخاصة للحياة التي يرغب أن يعيشها وهي حياة الإلكترونيات والكمبيوتر والأشياء العلمية التي كانت مجهولة أو جديدة على الآخرين وساعده في ذلك أنه نشأ في منطقة "مونتن فيو" قرب وادي السليكون الذي كان يعج بكثير من مراكز الأبحاث في شتى المجالات مثل منطقة "ثاوت باسادينا" في كاليفورينا، فتمرد ستيفن على الدراسة الجامعية الكلاسيكية وكان يهوى مصاحبة من هم أكبر منه سنًّا لكي يتعلم منهم وكان من بين هؤلاء صديق عمره (ستيف وزيناك) الذي يكبره بأربع سنوات وترك الدراسة الجامعية مثله ، وصمما معا العلبة الزرقاء التي كانت تساعد على تخفيض رسوم التليفون للمكالمات البعيدة وربحا بعض النقود من هذا العمل ، وفكرا في تأسيس شركة خاصة بهما وسمياها شركة

"آبل" واعتمدا على خبراتهما البسيطة السابقة التي اكتسباها خلال عملهم أثناء الاجازات الصيفية في شركة لوضع برامج الأتاري وغيرها من الشركات .

وتم تأسيس الشركة الخاصة بهما في : ١/ ٦/ ١٩٧٦م وتعرضت الشركة لأزمات مالية ضخمة في بداية عملها وذلك لعدم اقتناع الشركات الكبرى مثل I B M و"أنتيل" غيرهما بجدوى تصميمات ستيفن جوبز في عالم الكمبيوتر ؛ لأن العلماء في ذلك الوقت اعتبروا أفكاره وأعماله نوعا من عمل الهواة ولا يمكن أن يجتذب العامة من الناس لشراء هذا المنتج الجديد وكان ذلك نفس الموقف الذي عانى منه ستيفن جوبز عندما كان طفلا ترعاه عائلة بول وكلارا جوبس اللذان كانا يستغربان من تصرفاته الغامضة في محاولاته لتصميم الأشياء من لا شيء وقد حول منزلهم إلى ما يشبه الورشة وتغاضيا عن معاتبته لأنه بارع الذكاء ومتصلب الرأي جدًّا ولا يمكن أن يثنيه أحد عن تنفيذ ما يطرأ من أمور على فكره وامتثل ستيفن جوبس لبعض العتاب الخفيف من الوالدين بالتبني ونقل عدده وآلاته إلى جراج المنزل ومن يومها عرف معنى الصمود والتحدي ، فعندما تعثرت شركته ماليًّا اضطرا إلى طلب التمويل من البنوك بعد أن باع آخر شيء يملكه في حياته وهي السيارة "الفولكس واجن" القديمة التي كان يمتلكها ، وكل ذلك مقابل ألا يخرج من السوق مهزوماً ، وأن يحقق طموحاته ، واستمرت هذه المصاعب المالية في حياته حتى عام ١٩٨٠ .

اقترح صديقه :وزيناك" بيع حقوق تصميمات شركة آبل للغير ولكن ستيفن لم يوافق ، وقال لصديقه : بما أننا ليس لدينا الخبرة اللازمة لمنافسة الآخرين الكبار في السوق ، علينا أن ننتقل بأفكارنا إلى أماكن ومنتجات لم تصل إليها أفكار الخبراء الآخرين، وكانت هذه الأفكار العبقرية الجديدة هي" الكمبيوتر الشخصي"

وهناك قاعدة يهودية عظيمة في الاستثمار لاحظتها أثناء وجودي بأمريكا وهي:" ابحث عن ما لا يعرفه الآخرون غيرك وفي نفس الوقت استثمر في الشيء الذي يمكن أن تحتاجه السوق بنظرة مستقبلية"

ويبدو أن البارع ستيفن جوبز قد استفاد منها ؛لأن تفكيرك إذا استمر في مثل ما يفكر فيه الآخرون حتما ستصبح واحدا منهم (تقليدي وعام ومتكرر) ولن تصل إلى التميز ،

وستصبح مثل هؤلاء الذين يبحثون بإصرار وأمل دائم بأن يصيروا موظفي حكومة ، بدخل ثابت ومضمون ومن دون طموح مع ما يصاحب ذلك من ذل وهوان وفقر أبدي (في منطقتنا العربية فقط يحدث هذا).

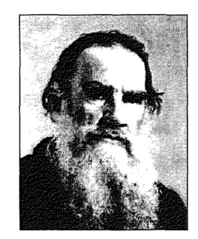
أثبتت إرادة ستيفن جوبز وبراعته في شركة "آبل" وتصميماته في عالم الحساب الآلي والنجاح المتواصل لمنتجاتها بداية من عام ١٩٨٢ حتى أواسط التسعينيات ، صدق رؤيته في البحث عن المنتج الجديد مع حُسن الدعاية لتسويقه ووصلت الأرباح إلى مليارات الدولارات وقفز سعر السهم في شركته إلى مستوى غير متوقع وعندما طلب منه المساهمون التخلي عن إدارة الشركة لأنه يصرف ببذخ على المصممين الجدد من الرسامين والفنانين وافقهم وترك الإدارة وتدهورت أحوال الشركة ، فطلبوا منه العودة مرة أخرى واشترط عليهم الاحتفاظ بطاقم العاملين معه ووضع لنفسه مرتبا مجزيا هو دولار واحد شهريا؛ حتى لا يفهم أن عودته كانت بناءً على طموح مادي أو بغرض منصب، وهنا بدأ التفكير في تصميم الكمبيوتر الشخصي ثم جهاز الآي باد وتوالت النجاحات حتى الآن.

ومن مزايا ومواصفات جهازه الجديد الآي باد أنه يمكن التعامل معه باللمس فقط ، والاتصال من خلاله بالإنترنت ، والاستماع إلى الموسيقى المفضلة والاستمتاع بمشاهدة أفلام السينما مع إمكانية إجراء تلك التعديلات باللمس فقط، وقد قدَّرته الشركة جيدا بعد هذا الاختراع الذي حقق لها أرباحاً طائلة بعد أن كانت على وشك الإفلاس عند ترك ستيفن جوبز لها ، فأعطته طائرة خاصة هدية له ومنحته عددا من أسهم الشركة بما يقارب المليار دولار وكل ذلك بعد قفزة المبيعات التي شهدتها الشركة عندما عاد إليها مع مساعديه متمتعا بخياله العلمي الواسع الذي مكنه من تصميم برنامج الماكنتوش واللاب توب وذلك لوجود من يساعده على تنفيذ أفكاره العبقرية ولهذا لم يتخل عن مساعديه لأن وجودهم وبفضل الله يسرع من أجل الوصول إلى القمة ، ويستمر في المصارعة للبقاء فيها ولم يعرف شيئا اسمه المستحيل من أول ما كان طفلا مشاغبا يريد تحقيق ذاته حتى أصبح أحد أكبر رجال الأعمال في أمريكا والعالم الآن ، وضحى بحياته العائلية لفترة ما من عمره حيث لم يتزوج إلا في سن الرابعة والثلاثين من زوجته الأمريكية لورنس بويل عام ١٩٩٠ وعاش معها حياة سعيدة ، ونال العديد من الجوائز والأوسمة في حياته مثل

جائزة "جيفرسون" للخدمة العامة عام ١٩٨٧ غيرها ، وتتهافت عليه الصحف والمجلات للحديث معه وعنه واختارته إحدى المجلات شخصية العقد (١٩٨٠-١٩٩٠) ووضعت مجلة " تايم" الأمريكية صورته على غلافها عام ١٩٨٢ ووصفته بأنه أكثر الشخصيات مخاطرة ونجاحاً في العصر الحديث .

ولا يكفي يا قرائي الأعزاء أن تقرأوا عن الناجحين وماذا أنجزوا وتتوقفوا عند ذلك ، بل يجب أن تعرفوا كيف نجحوا وما هو الطريق الذي ساروا عليه حتى وصلوا إلى هذه المرتبة الآن .

85



ليوتولستوي

" طلب من خطيبته قراءة مذكرات شبابه قبل الزواج "

"عاش مع زوجته ٤٨ عاما وهما متحفزان لبعضهما البعض"

ليو تولستوي أعظم كُتَّاب روسيا في العصر الحديث ، ومبدع رائعة "الحرب والسلام"والذي فقد أبويه في التاسعة من عمره ونصير الفقراء والفلاحين طوال حياته وعلامة من علامات الأدب الروسي المتميز عالميًّا ، والذي مزج بين القصة والفلسفة العميقة التي عبر عنها في كتاباته الرائعة عن حياة "الطفولة" في منطقة القوقاز وحياة"الصبا" و"قانون المحبة وقانون القوة" عام ١٩٠٨ و" القوقاز" عام ١٨٦٣ ورواية" آنا كارنينا" التي على الرغم من تصويرها الواقعي لمدينة بطرسبرج ، تهتم برسم الصراع الباطن في شخصيات الرواية، "والحرب والسلام "عام ١٨٦٥، وهي قصة نثرية تدور حول حروب نابليون ، صور فيها عدة شخصيات محورية أبدع تصويرها وعرض فيها فلسفته في التاريخ، وصل مجمل أعماله الكاملة إلى حوالي تسعين مجلدا ضخما وترجمت بعض أعماله إلى جميع لغات العالم ، وادعى أواخر حياته أن زوجته كانت عنصرا أساسيا في تعاسته، ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ فقد كانت زوجة مخلصة وتحبه كثيرا وتحترمه ولكنها لم تتصور أن يقدم على توزيع أمواله وأراضيه على الفلاحين والفقراء ويترك للورثة الشرعيين قليلا من المال بعد أن تحملت حياة قاسية معه لمدة ٤٨ سنة ، أنجبت له خلالها ثلاثة عشر طفلا وإضافة إلى ذلك كانت هي المسؤولة عن نسخ كتاباته كلها بعد انتهاء واجباتها المنزلية تجاه أطفالها ، فهل كونه نشأ يتيماً لم يتمتع بحنان الوالدين ، جعله غريب الأطوار، ومن كبار المحسنين؟.

يريد أن يعطي المال والحنان الذي افتقده أثناء طفولته للآخرين وكان يعتبر نفسه "مصباح الفقراء" والمظلومين وفي نفس الوقت ترى زوجته الفاضلة صوفيا أن الحق حق يلزمنا اتباعه وتدافع عن ثروة زوجها وحق أبنائها ، وذلك هو مغزى اختياري لشخصيته ؛ لأنه رغم كل ذلك استطاع أن يكتب ويبدع ويتفوق حتى على نفسه في الأدب حتى سن الثانية والثمانين من عمره .

ولد الكاتب الروسي ليو تولستوي عام ١٨٢٨ لأسرة من النبلاء في عصر روسيا القيصرية ، وتوفي والداه وهو في التاسعة وتلقى تعليمه الأولى في منطقة القوقاز ثم التحق بجامعة كازان ، ولكنه لم يحصل على الدرجة العلمية ، كان يميل إلى الجلوس والحديث مع الفلاحين في الضيعة التي ورثها وكان أحياناً يشاركهم الطعام وحاول إنشاء مدرسة لتعليم الفلاحين وتوعيتهم لحقوقهم ولكنه فشل ثم غيَّر مجرى حياته من الالتزام إلى السهر والتمتع بملذات الحياة في موسكو والتي كانت تبعد عن مدينته ٢٠٠ كم ، التحق بالجيش عام ١٨٥١ واشترك في حرب القوقاز وحروب أخرى ألهبت مشاعره وأعطته البيئة التي كتب على أساسها قصته الرائعة "الحرب والسلام" بعد أن ترك الجيش عام ١٨٥٥ حاول مرة أخرى إنشاء مدرسة لتعليم الفلاحين ، ولكنه فشل ثانيا ، قام بزيارة إلى أوربا الغربية من ١٨٥٧ حتى ١٨٦٠ تعرف فيها على الحضارة الأوربية الحديثة وكان يدخر في ذهنه تعليقات عن كل ما شاهده رغم حياته العبثية خلال هذا الوقت .

تقدم للزواج من الآنسة صوفيا وهي أرستقراطية من أهل العاصمة وسليلة عائلة كريمة وتجيد عدة لغات وتعزف على البيانو ودارسة للهندسة وكانت تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما ، وهو في سن الرابعة والثلاثين ، وافقت عليه في أول الأمر حيث يبدو مثقفا ووسيما ويملك ضيعة باسمه في مدينتهم وكان من الممكن أن تسير الحياة بهما في سعادة وهناء لتقارب مستويهما الثقافي والمادي واشترط تولستوي عليها أن تعيش في بلدته حيث الأراضي وبوسطها منزله الفاخر ، وافقت الخطيبة على شروطه ولكن قبل إتمام قداس الزواج طلب منها شيئا غريبا لم يسبق لرجل في العالم أن فعله ألا وهو أن تقرأ مذكراته أثناء فترة شبابه من سن ١٨ سنة حتى سن ٣٤ سنة بما فيها من مغامرات نسائية وعربدة وسهر ، صُدمت الفتاة من هذا الطلب ولكنها وافقت عليه وبعد قراءتها للمذكرات أحست أن الدنيا تدور بها وفقدت جزءا من براءتها وطفولتها من هول الصدمة التي تتلقاها فتاة عذراء

عندما تقرأ تفاصيل مغامرات خطيبها ، وتحاملت على نفسها ووافقت على الزواج وانتقلت للعيش معه على بعد ٢٠٠ كم من أهلها وكانت نعم الزوجة والأم وأنجبت له ثلاثة عشر مولودا وتولت تربيتهم والعناية بهم من أول الرضاعة حتى مراحل التعليم المختلفة [١] واسم صوفيا لقبت به بعد الزواج .

كان تولستوي يصف في رواياته المرأة على أنها قوية ومتمردة ومليئة بالحيوية والتناقضات وقادرة على الجدال .

ولكن في حياته الفعلية والعائلية يعتبر المرأة ماكينة إنتاج أطفال ونبع لإعطائهم الحنان وتقديم الخدمات لهم ويقف الأمر عند ذلك .

ولما كانت زوجته هي التي تتولى تبييض الأوراق التي يكتبها في المساء وتنظيم ترتيبها وإعادة كتابة الهوامش في سياق موضوع الرواية ، ثم إعادة كتابة الأوراق من جديد بخط جميل ومنظم بحيث يصحو تولستوي صباحا من النوم وكأن هناك عفريتا قد قام بتلك المهمة وكان يثني عليها كثيرا على هذا المجهود الضخم الذي تقوم به بعد انتهاء أعمالها المنزلية الشاقة ونوم الأولاد ، ولكن العيب في هذا الأمر أن زوجها الأديب الكبير الذائع الصيت والشهرة في روسيا والغرب كان كتابا مفتوحا بالنسبة لها وتعرف دقائق ما يفكر فيه وانتبهت للتناقضات التي تدور في عقله وصبرت على ذلك من أجل أولادها وشاركته مشاعره السياسية والدينية والاجتماعية إلى حد ما كي ترضيه ، ولكن تولستوي انزعج من فهمها الزائد لشخصيته وبعد أن كان يملي عليها القصص والروايات وهي تكتبها ، أصبح أقرب إلى سكرتيره الخاص منها وبدأ يخفي بعض يومياته عنها .

وهنا بدأ الصراع والتحدي يدخل في حياته وهو التحدي الذي جلبه على نفسه وعاش به حتى هروبه من المنزل ووفاته ومما زاد من انزعاج زوجته صوفيا ، أنه طلب من ابنته أن يملي عليها رواياته بدلا من أمها مما جعل الأم تغير من تقديره للسكرتير وتفضيله عليها وكذلك من ابنتها وبدأ يخفي أوراقه في معطفه أو في حذائه حتى لا تراها زوجته وبدأ يعاملها كزوجة مهمشة ويكيل لها السباب أمام الآخرين حتى إنها حاولت الانتحار عدة مرات وكان يقول إن حياته معها مملة وأصبحت مستحيلة ولكن المستحيل هو الذي أوجده لنفسه عندما قال:

---

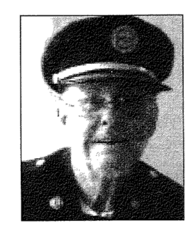
١ - مذكرات صوفيا تولستوي الصادرة في روسيا والمترجمة للغة الأسبانية .

أنا أكتب وأنا أفكر إنها من الممكن أن تقرأني"

عاش تولستوي في هذا العذاب الذي صنعه لنفسه واستطاع أن يكتب مرارا وتكرارا متحديا نفسه وساعدته قوة شخصيته على عبور تلك المحن لفترة طويلة ، حتى جاء وقت النهاية المحزنة لقصة زوجين عاشا ثمانية وأربعين عاما ، فعندما بلغ الثانية والثمانين وبعد أن عارضه الجميع في التنازل عن أملاكه للفقراء ، قرر أن يترك المنزل لأنه في ليلة السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩١٠ استيقظ على صوت خطوات زوجته تقلب من جديد في أوراقه ولم يستطع أن يتحمل هذا الموقف ، فقام وارتدى معطفه وخرج من المنزل وركب القطار ووصل إلى محطة السكة الحديد وتنقل بين عدة قطارات مختبئا حتى عثروا عليه صباح العشرين من نوفمبر عام ١٩١٠ وقد فارق الحياة في إحدى محطات القطارات .

وبعد وفاته بتسع سنوات كتبت زوجته مذكراتها لتبرئ نفسها مما أشيع عنها من أنها كانت العنصر الأساس في تكدير حياة ليو تولستوي الذي أحبته وأخلصت له ، وقد صدرت تلك المذكرات ثم ترجمت للغة الأسبانية فيما بعد، رغم أنه من المستحيل أن يعيش زوجان مختلفان هذه المدة الطويلة معا ، ويتحملا بعضهما البعض ولا ينفصلا ولا يطلب أحدهما الطلاق وينجبا هذا العدد من الأولاد ويصير الزوج أحد عمالقة الأدب الروسي وهذا هو المستحيل الذي حدث بالفعل ، ونحترمهما من أجله .

86



فريدريك سميث

" مؤسس البريد السريع .. كان عليَّ أن أبتكر لكي أستمر"

فريدرك سميث هو رجل الأعمال الأمريكي الذي كان على وشك الإفلاس ودخول السجن بعد أن تراكمت عليه الديون من جراء صفقة فاشلة أبرمها مع الحكومة الأمريكية لنقل الاحتياطي الفيدرالي النقدي من ولاية إلى ولاية ومن مكان لآخر بالطائرات ، وفشلت الصفقة بعد أن أسس الشركة واشترى الطائرات ، وذلك لعدم موافقة الحكومة على المشروع بعدها، فكان عليه أن يتحدى ويفكر مرة أخرى في شيء آخر حتى يسدد الديون ويحتفظ بالعاملين بالشركة الذين وقفوا بجانبها يدعمونها لمدة ثلاث سنوات متوالية تعرضت خلالها للإفلاس وتعرضت للخسائر من عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٧٦ ، وكذلك تشغيل الطائرات الراكضة في المطارات ، وهنا رفع فريدرك سميث راية التحدي والقدرة على الابتكار والتجديد لكي يستمر في السوق ...وقد كان...

ولد فريدرك سميث في ١١/ ٧/ ١٩٤٤ في ولاية ممفيس بأمريكا وتوفي والده عندما كان عمره أربع سنوات ، وكان والده من الأثرياء وكان سميث يعرف أنه سيرث تركة والده عندما يبلغ عمره واحداً وعشرين عاما حسب القانون (سن الرشد)، ولكن سميث كان يميل إلى الاستقلالية المالية عن إرث والده ويريد أن يحقق ذاته بنفسه ويرجع ذلك إلى أنه كان يعاني من بعض الصعوبة في المشي أثناء طفولته ويسير بعكازين في بعض الأحيان وعندما شفي من المرض، يبدو أنه شعر باكتفاء ذاتي داخلي، وخاصة بعد أن مارس الرياضة

وحصل على ميداليات ، ومن هنا يبدو أنه قرر بعد ذلك ألا يعتمد إلا على الله وعلى نفسه وعلى مجموعة العاملين الأوفياء لديه ، والذين لديهم انتماء للشركة .

فكر فريدرك سميث أن ينتقل بمهمة شركته من توصيل النقود إلى توصيل الخطابات والطرود المهمة والسريعة تبعاً لنظرية من الباب للباب مع ميزة السرعة في الإنجاز والتأمين على الطرود ، ووصفه الجميع بالجنون حتى أقرب أصدقائه نصحوه بألا يُقدِم على هذه الخطوة الجريئة والخاسرة ولكنه تجرأ ونفذها مع العاملين لديه واستغل الطائرات المشتراة سابقا بالقروض .

والغريب أن هذه الفكرة كانت تراوده عندما كان طالباً في الجامعة ، وقدم فيها بحثاً باسمه لأستاذه في الجامعة وتعجب لها الأستاذ وأعطاه تقدير متوسط على هذا البحث، ولذا فكر أولا في مشروع نقل الأموال ثم طوره بعد أن تعثر لمشروع النقل بالبريد السريع، "شركة فيديدال إكسبريس" Feoex Express وقال لمنتقديه ومحذريه "لكي تبني مؤسسة كبيرة وناجحة عليك أن تدفع الثمن غالياً ، وبخاصة على الصعيد الشخصي ؛لأن الواقع يحتاج إلى شجاعة وتصميم ومغامرة وفعل ، وكثير من الناس يعتقدون أنهم يستطيعون أن ينجحوا بالكلام والأحلام فقط ، وفعلا نجح فريدرك وأصبح من أصحاب المليارات ، كان شعار فريدرك سميث يقول: لا تنظر إلى الربح أولا ، قدم الخدمة المميزة ، ستجد الربح ينهمر عليك ويطاردك ، واختر العاملين لديك بمهارة وراقب مدى حماسهم للعمل واحتفظ بالأكثر حماساً، ولأنه كان قارئا نهما في عدة مجالات مثل التاريخ والسياسة والاقتصاد ، فأصبح بالسليقة يعرف الأشخاص والأسواق بسهولة وحدث نجاح منقطع النظير لشركته التي توسعت وامتدت فروعها وخدماتها لجميع أنحاء العالم وبلغ عدد العاملين بها ما يفوق العشرين ألفا وغامر مرة أخرى .

واشترى شركة طيران متعثرة بطائراتها وأطقمها وذلك من أرباحه من شركته الأولى مع بعض القروض وتوقعت المؤسسات المالية عام ١٩٨٦ أن تكون هذه الصفقة هي الضربة القاضية لطموحات الرجل المغامر الجريء ولكن فريدرك سميث كان يؤمن بقدرة الجنس البشري على تحويل السقوط إلى نجاح والفشل إلى إنجاز ، وكان يقدر العاملين لديه

ويثني على جهودهم ويحفزهم على الإنتاج وكأنه يشعل تحتهم نار الحماس والولاء ، ولهذا نجحت أيضا شركته الجديدة للطيران واستغل قدراتها الجوية في المطارات لخدمة شركته الأولى وأصبح عدد طائراتها ٣٩٦ طائرة ويخدمها ثلاثون ألف سيارة للخدمات الأرضية وأصبحت شركاته تقدم خدماتها في ١٢٠ دولة ، وسار خلفه كثير من شركات التوصيل السريع للطرود والرسائل والأموال ، وصار فريدرك سميث مثالاً للعبقرية والجرأة المقرونة بالصبر والعمل وعدم السير وراء آراء الخائفين دائما ؛لأن الخوف الدائم هو الوسيلة المثلى لبقائك " محلك سر" والآخرون يركضون.

87



جورج إيستمان

" مؤسس ومخترع "كوداك" واليتيم الفقير السخي على الأبحاث"

"أنت تضغط على الزر .. ونحن نفعل الباقي" هذا هو شعار جورج إيستمان الذي وضعه نصب عينيه لمدة سنوات تحمل فيها الخسائر المالية واضطر أن يعمل صباحا في بنك روتشيستر بأمريكا وينفق راتبه مساءً على أبحاثه ومعمله حتى يتوصل إلى صناعة كاميرا بسيطة غير معقدة يمكن لأي شخص أن يحملها على كتفه ويصور من خلالها رحلاته وجولاته حول العالم .

ومن هنا ظهرت"كوداك" كأول آلة تصوير شخصية تذهب معك إلى كل مكان وتلتقط صراحة أو خلسة ما يدور حولك وعنك وتشهر من تريد وتفضح من تريد ، أي كالسكين لها استعمالات مفيدة واستعمالات خطيرة وكم من صحف انتشرت ومصورين صحفيين نالوا الجوائز على لقطات نادرة أو حاسمة أو خبيثة بناءً على استفادتهم من عبقرية جورج إيستمان اليتيم الفقير الذي لم يكمل تعليمه ولكنه أعطى للبشرية أعظم تطوير في صناعة التصوير التي اكتشفت عام ١٨٢٦م وظلت آلاتها وأدواتها على ما هي عليه خمسين عاماً حتى جاء جورج إيستمان عام ١٨٧٨ ليضع لبنة أول محاولة تصوير بأفلام ورقية حساسة ، وينفق كل مدخراته على تلك الأبحاث ولا يتزوج وينذر نفسه لعمله حتى نجحت شركته وحقق مكاسب تقدر بملايين الدولارات ثم أوصى متبرعا بكل الملايين للإنفاق على الأبحاث العلمية بجامعة روتشيسر بعد وفاته ، حيث قرر أن يترك الدنيا بمحض إرادته وفي التوقيت الذي يناسبه ويقنعه وترك رسالة صغيرة قال فيها : " لقد أنجزت عملي وما

أصبو إليه فلماذا الانتظار؟"!!

ولد جورج إيستمان في الثاني من يوليو عام ١٨٥٤ في ولاية نيويورك بقرية واتر فيل وورث الطموح عن والده رغم أنه فقده بعد عامين من ولادته ونشأ يتيماً وكان والده يؤسس لإنشاء مدرسة خاصة في مدينة روشيستر قبل وفاته، فتولت والدته الأمر ولم تنجح كثيرا وتعرضت العائلة للإفلاس، فاضطر جورج أن يترك الدراسة وهو في سن الرابعة عشرة ودخل سوق العمل مبكرا لإعالة والدته وشقيقاته البنات وعمل فراشا في شركة تأمين يحمل الأوراق من مكتب لمكتب ثم مراسل ثم كاتب بشركة أخرى بأجر أسبوعي قدره خمسة دولارات فقط.

قرر الالتحاق بالمدارس الليلية لدراسة علم المحاسبة ونجح في الحصول على شهادة أهَّلته للعمل في بنك روتشيسر بمرتب معقول للإنفاق على العائلة وادخار جزء منه.

قرر عام ١٨٧٦ الذهاب في رحلة لمنطقة الكاريبي ونصحه أحد أصدقائه بشراء آلة تصوير لالتقاط المناظر الطبيعية للجزيرة، وعند العودة يمكنه أن يبيع تلك الصور للجمهور، أعجب إيستمان بالفكرة واشترى الكاميرا التقليدية القديمة التي كانت معداتها ثقيلة والسوائل اللازمة للتحميض كثيرة وكان يجب عليه أن يحمل خيمة كبيرة تستعمل بمثابة حجرة للتحميض والطبع، وعلاوة على أن عملية التصوير والطبع والتحميض تستغرق عشرين دقيقة للصورة الواحدة، مع الحذر التام على الصفائح المعدنية التي يتم التصوير بها عند الانتقال من مكان لمكان، وهذا هو الواقع أمامه الآن.

قرر جورج إيستمان تعلم فن التصوير وآلاته ليتمكن من تطوير هذه الصناعة.

قرر جورج إيستمان الاستمرار في عمله في البنك صباحا، وفي الليل كان يحول مطبخ المنزل إلى معمل تجارب ويسهر مجتهدا في عمل المحاولات وكان كثيرا ما ينام في ثيابه وعلى منضدة المطبخ مستندا على الكرسي وظل هكذا لمدة عامين متواصلين بداية من عام ١٨٧٨ ميلادية.

توصل إيستمان إلى اختراع الصفائح الجافة التي يمكن استعمالها في آلة التصوير وكان ذلك بعد أن أنفق كل مدخراته على هذا العمل ووجد صعوبة في تمويل إنشاء شركة لإنتاج وتسويق هذا الاختراع الذي أنفق عليه ثلاثة آلاف دولار من السنتات التي كان يدخرها،

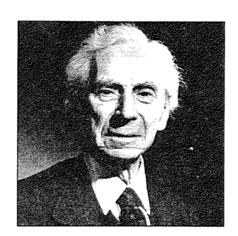
فتطوع رجل أعمال ناجح وليس له خبرة في مجال التصوير بمشاركته في إنشاء مصنع للأفلام الجافة في روشيستر ، كنوع من الاستثمار عام ١٨٨٠ وتم دفع الإيجارات وشراء الآلات ، ورغم الصعوبات والخسائر الأولية صمد الشريكان حتى عام ١٨٨١ حتى حققت الشركة نجاحا في الأول ثم تعرضت لخسائر مرة أخرى عندما أعاد بعض العملاء الكاميرات التي اشتروها لوجود عيوب فنية ولم يكن إيستمان قد ترك عمله في البنك هذه الفترة ، بل كان يعمل بالبنك نهاراً وفي المصنع ليلاً مع شريكه الذي تولى الإدارة وتولى إيستمان الأعمال المالية والفنية وعكف على مزيد من الأبحاث والتطوير حتى توصل إلى حلول لعيوب التصنيع الأولى ، ثم طور آلة التصوير نفسها لتصبح في حجم كف اليد وحصل على براءة اختراع وعرض خمسين قطعة منها للبيع ، ولم يبع منها إلا ثماني كاميرات فقط ، لعدم اقتناع الجمهور بهذه الآلة الصغيرة ولكنه رفض أن ييأس بعد كل هذه الجهود ، والأموال التي دفعها هو وصديقه وقرر أن يتحدى واختار اسما جديدا لتسويق هذه الكاميرات تكون حروفه سهلة النطق وغير معبرة عن شيء معين وكلمة واحدة قصيرة يسهل حفظها ولا يخطئ في نطقها أحد ، حتى لو كانت لغته غير الإنجليزية ، فاختار حرف K لبداية الكلمة لأنه حرف قوي وغريب وأطلق اسم"كوداك" على الكاميرا والشركة ووضع شعارا للتسويق يقول "أنت تضغط على الزر فقط ... ونحن نفعل الباقي" ففتح مجالا للتسويق بالاسم الغريب والمنتج الغريب سهل الاستعمال ، وزود الكاميرات بأفلام يحمل الواحد منها مائة صورة ، ودارت عجلة الإنتاج وقرر أن يبيع الكاميرا بدولار واحد على أن ينتظر الأرباح من بيع الأفلام فيما بعد .

وخلال عشر سنوات وفي عام ١٨٩٠ كان قد باع مائتي ألف كاميرا بعد أن توسعت الشركة واستعان بعاملين جدد حتى لا يرهق العاملين لديه بساعات عمل إضافية ، وتحقق حلم إيستمان بأن جعل التصوير عملية سهلة ومنتشرة في جميع أنحاء العالم وتحققت نجاحات أكثر لشركة كوداك عندما اخترع الألماني هنري أوراسين باخ عام ١٨٨٨ الفيلم الشفاف والذي يمكن طيه على بكرة دائرية وبدأت منتجات كوداك تغزو باريس ولندن وأنحاء أوربا فقرر جورج إيستمان افتتاح مصانع له في هذه الدول وبيع الكاميرات بسعر رمزي.

ظل إيستمان يعمل بنشاط وجدية ولم يتزوج ولم يتمتع في حياته إلا ببعض الهوايات البسيطة كالسفر والموسيقى وصيد الأسماك ؛لأن متعته الأساسية هي أن يرى الآخرين مبتسمين في الصور العائلية التي تلتقط لهم في الرحلات والشواطئ أثناء الإجازات ، رغم أنه كان يكره أن يصوره أحد ويقول : جئت إلى الدنيا لإسعاد الآخرين فقط .

وفي إحدى الليالي يوم الرابع عشر من مارس عام ١٩٢٢ دعا بعض أصدقائه إلى حفل غذاء في منزله (وكان مشهورا بالكرم) ، وتنازل أمامهم عن كل ما يملك من ثروة وعقارات وأموال وشركات لجامعة روتشيسر والأبحاث العلمية ، وعندما انتهى من وصيته تركهم وصعد إلى الدور الثاني من مسكنه وكتب رسالة قصيرة قال فيها :" لقد أنجزت عملي ، فلماذا الانتظار؟" ثم أطلق النار على نفسه من مسدسه ومات ، وهكذا تحدى كل المستحيلات التي واجهته في حياته وتغلب عليها ولكنه لم يستطع تحدي نفسه ورغبته في الموت وينتظر إلى يتوفاه الله في أمان!! .





برتراند راسل

" فولتير العصر الحديث .. ولقاء الأدب مع الفلسفة"

الفيلسوف والأديب الإنجليزي الكبير راسل الحائز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٠ ، توفيت والدته وكان عمره سنتين وتوفي والده وهو في الثالثة من عمره ، فكيف سارت حياة هذا الرجل الذي أتحفنا بمؤلفاته الأدبية والفلسفية على مدى نصف قرن من الزمان والذي جعل عامة القراء يعرفون ما هي الفلسفة بأدق معانيها وهي التحليل الذي يتناول به صاحبه فكرة معينة تناولا فكريا عقليا بحيث يمكنه فهم حقيقة الأمور وردها إلى أصولها الأولى ، أي أن الفلسفة هي كيفية استعمال العقل الذي وهبنا الله إياه لكي نتدبر الأمور بحكمة وفلسفة وليس بتهور وانفعال والسير خلف الآخرين معصوبي الأعين ومفتوحي الأذنين لسماع الأشياء غير المنطقية والموافقة عليها ، ولذلك يعتبر برتراند راسل فيلسوف ومثقف عصره لأن أفكاره الرئيسة كان يخرجها إلى العلن الصريح بعد تحليلها منطقيًا ، وهذه الأفكار كانت تمثل العصر الذي نشأ فيه من مفاهيم علم وأخلاق وسياسة وزاد على ذلك دراسته لعلم الرياضيات واستغل وجوده في السجن عام ١٩١٨ وألف كتاب " مدخل إلى الفلسفة الرياضية" .

وامتاز برتراند راسل بحبه للحرية وحقوق الشعوب وعارض الحرب العالمية الأولى وعارض حرب فيتنام وأيد حقوق الشعب الفلسطيني ، وتعمق كثيرا في أحوال المنطقة العربية وخصوصا عندما زار مصر في أواخر الستينيات وكان يفهم طبيعة العلاقات الاجتماعية والروابط التي تجتمع عليها الشعوب العربية وهي الروابط القبلية والعشائرية

وليست الروابط الفكرية والأيديولوجية ، ولذلك كانت بريطانيا هي رابح الرهان الدائم في المنطقة العربية لأن السياسيين والمسؤولين الإنجليز والكتاب يفهمون أصول اللعبة جيدا بعكس الأمريكيين والروس الذين يغيرون تحالفاتهم كل ثلاثين عاما أو أربعين عاما .

ولد الأديب والفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل في ١٨ مايو عام ١٨٧٢ لأسرة عريقة حيث كان جده لأمه رئيس وزراء إنجلترا في عهد الملكة فيكتوريا وهي جدته التي ربته ، وقد حمل لقب زوجها لورد "جون راسل" لأن اسمه الأصلي عند مولده رافنس كروفت بإنجلترا ، داوم برتراند راسل على القراءة منذ صغره واستغل وجود مكتبة كبيرة بمنزل الأسرة ونهل منها في شبابه والتحق للدراسة بجامعة كمبردج ، وحصل على الدرجة العلمية ثم قدم أطروحته الأول التي نال بها درجة الزمالة عام ١٨٩٥ وكان عنوانها "محاولة في أسس الهندسة "والتي نشرت بعدة لغات عام ١٩٠٠ ، انتقل للعمل في فرنسا ملحقاً بالسفارة الإنجليزية وهناك تزوج من سيدة أمريكية ، ثم عاد إلى إنجلترا بعد انتهاء مدة عمله وأقام في مقاطعة ساكس وقرر أن يكرس حياته وعلمه للفلسفة والرياضيات؛ لإيمانه بأن تأسيس علم المعرفة هو الهدف الأسمى والمسؤولية الكبرى لكل فيلسوف في عصره .

وكان يؤمن بنظرية فرانسيس بيكون بأن"المعرفة قوة"وأصل المعرفة هو الوصول إلى الأساس الحقيقي للأشياء ، وبعد لقاء راسل مع العالم الألماني فتنجنشتاين قرر راسل أن يتفرغ لدراسة علم المعرفة بجانب عمله كأستاذ في كلية ترينتي ، ورفض لقب لورد الذي ورثه عن جده ورفض الوظائف التي يمكن أن تعطله عن عمله الفكري وكانت هذه الفترة في حياته ثرية في الإنتاج والمحاضرات وعرفه الوسط الثقافي الإنجليزي وأنتج ثلاثة من أهم كتب المعرفة في هذا الوقت وهي" مشاكل الفلسفة ١٩١٢ ، التصوف والمنطق ١٩١٨ ، تحليل العقل ١٩٢١ ، حملت تلك الإصدارات مجمل أفكاره التي جلبت إليه المشاكل حين هاجم الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ورفض التجنيد في القوات الإنجليزية ووصف الحرب بأنها عدوانية ولا يصح أن يشارك فيها ، وبناء عليه حوكم ودخل السجن وطرد من كلية ترينتي ومع ذلك صبر وتحمل ولم يغير مبادئه ، ولقبوه في فرنسا بـ"فولتير العصر الحديث" ولقبوه

في إنجلترا بـ" جون لوك الجديد" فيما بعد.

رغم أنه كان عالما رياضيا وفيلسوفا إلا إنه كانت له آراء سياسية جريئة في فترة الأربعينيات والخمسينيات ، فقد هاجم الشيوعية والفاشية مراراً وتجول بمقالاته وأفكاره بعيداً عنهم بعد أن كان قريبا من أفكار هيجل في أول حياته الجامعية وأثناء فترة الشباب ، وسافر ليعمل في أمريكا وهناك قوبل بحفاوة بالغة من الجماهير والأوساط الأدبية ولكن الأوساط الجامعية والسياسية لم تكن على نفس مستوى الترحيب لأن أحد كتبه اعتبرت لا أخلاقية ونُحى عن منصبه في جامعة نيويورك عام ١٩٤٠ والذي كان قد تسلمه عام ١٩٣٨ ، ثم عمل في مؤسسة" بانزي مريون"لمدة عامين أخريين بدأ بعدها التحضير لكتابه الضخم تاريخ الفلسفة الغربية الصادر عام ١٩٤٥ ، وخلال فترة وجوده في أمريكا تبنى راسل مبادئ النزعة السلمية لحل المنازعات بين الدول وناضل ضد استعمال السلاح النووي واستمر في أبحاثه عن" فلسفة المعرفة ومدى المعرفة وحدودها" حتى لا يتهمه أحد بأنه يدعو إلى معرفة كل شيء بما فيها "معرفة الشر" وعندما عاد إلى إنجلترا عام ١٩٤٥ عكف على تعديل كتاب "المبادئ" الذي أصدره من قبل وربط في هذا التعديل بين المنطق والرياضيات وقال كلمته الشهيرة:" المنطق هو طفولة الرياضيات والرياضيات هي رجولة المنطق"

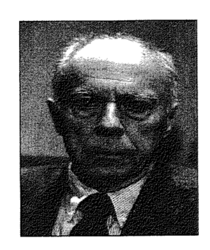
تم الاحتفال بعودته إلى إنجلترا ومنح لقب"فارس" من ملك إنجلترا ووسام الاستحقاق ، ثم تم تقديره عالميا عندما رشح لجائزة نوبل في الأدب وفاز بها عام ١٩٥٠.

وكانت الأوساط السياسية في العالم تعتقد أنه سيهدأ ويغير مواقفه المضادة لهم واتهامه لهم بإشعال الحروب ، ولكنه تحرر مرة أخرى وأسس مؤسسة "راسل "للسلام وأسس محكمة أهلية لمحاكمة الرئيس الأمريكي هاري ترومان والرئيس الروسي جوزيف ستالين وكل من شاركهما في صناعة الأسلحة الذرية وقاد المظاهرات في إنجلترا ضد التسلح النووي .

تم القبض عليه عام ١٩٦١ وأودع السجن مرة أخرى بعد أن تعدى الثمانين من عمره، وظل على موقفه هذا يدعو للسلام والتآلف بين الشعوب وهاجم حرب فيتنام

وقاد المظاهرات ضدها ، وحضر إلى مصر أثناء حكم الرئيس جمال عبد الناصر بعد حرب عام ١٩٦٧ ، وأيد الحقوق العربية والفلسطينية ، توفي برتراند راسل عام ١٩٧٠ بعد حياة اتسمت بالصراع ضد الجهل بمبادئ علم الفلسفة وهو علم استعمال العقل، وصراع ضد مثيري الفتنة والحروب بين الشعوب ، وصراع ضد استعمال السلاح النووي ، وكل ذلك من رجل يتيم الوالدين ونشأ في ظروف خاصة ولكنه كالجبل يسقط الجميع صرعى أمامه، ويظل هو شامخاً، حتى توج بجائزة نوبل للآداب.

89



كلود سيمون

"الأديب يتيم الأبوين ...ثم الأسير وأخيرا جائزة نوبل"

الدنيا أمل وعمل ، والصعوبات التي تجدها في حياتك قد تكون المحرك الهام لاختبار قدرتك على الصمود والتحدي ولا شيء يأتي في الدنيا من دون مقابل إلا الموت والقيء، أما ما عدا ذلك فيجب عليك أن تكافح من أجل الحصول عليه والوصول إليه ، حتى الإيمان الحقيقي بالله وكتبه ورسله ، فبعد أن ترث من عائلتك اسم دينك عليك أن تقرأ وتستمع إلى الآخرين وتتعلم حتى تصل إلى درجة الإيمان الحقيقي والصحيح بدينك الذي تحمل اسمه وهويته.

بدأت بتلك المقدمة لأنها تنطبق على الشخصية الفرنسية العظيمة الأديب كلود سيمون الذي قابل ثلاث معضلات خلال حياته وتغلب عليها ونقش اسمه في سجل الخالدين وحاز نوبل في الأدب ، ورسالتي موجهة إلى أحفادي من الشباب وأبنائي في منتصف العمر؛ لأنهم أمل المستقبل وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وصدق الله العظيم.

وما بأنفسنا في الوقت الحالي والذي يعوقنا عن النهضة الآن ، هي هستيريا التشدد الديني والهوس بلعبة كرة القدم ويجب الاعتدال في ممارسة كليهما حتى نخلي مساحة في عقولنا وفكرنا للعلم والفكر والثقافة .

ولد الروائي الفرنسي كلود سيمون في عام ١٩٢١ بجزيرة مدغشقر الواقعة في المحيط الهندي والقريبة من السواحل الأفريقية (أثناء فترة استعمارها) تلقى أول صدمة في حياته

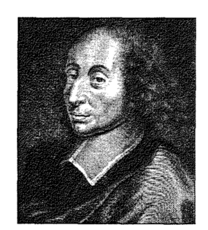
عندما فقد والده ووالدته أثناء فترة طفولته وعاش منكسر الجناح وتميل شخصيته إلى الحزن والهدوء ، تلقى أول مبادئ تعليمه في باريس وعندما حصل على الثانوية التحق بجامعة أكسفورد ثم جامعة كمبريدج وكانت له ميول أدبية منذ الصغر ولكنه درس الفن التشكيلي أيضاً ، عشق السفر والتنقل من بلد إلى بلد واكتسب من ذلك معارف جديدة وصداقات متعددة عوضته عن طفولته الحزينة وأجاد عدة لغات.

عندما بلغ العشرين من عمره التحق بالخدمة العسكرية للجيش الفرنسي واشترك في الحرب العالمية الثانية برتبة جندي ، تم أسره أثناء الحرب من قِبل قوات النازي الألمانية ، وأفرج عنه في صفقات تبادل الأسرى التي تمت بعد ذلك.

بدأ كلود سيمون واسمه الأصلي "إيوجين هنري" ممارسة نشاطه الأدبي بعد عودته للحياة المدنية وتخصص في كتابة الرواية ولاقت رواياته نجاحاً باهرا بعد فترة من الزمن وكان ذلك على مستوى أوربا كلها ولُقِّب بأمير الرواية الجديدة لأنه أدخل أساليب حديثة في السرد تجعلك متشوقا لاستكمال ما بدأت قراءته حتى ولو كنت متعبا ولذا لقبوه بأنه صاحب مدرسة حديثة في الرواية ومن أهم مؤلفاته " درس الأشياء ، الميدان ، العُشب، الريح ، جاليفر ، قداس الربيع ، أجسام موصلة للحرارة، الدعوة.

تتميز رواياته بالعمق في الفكر مع إعطاء مساحة من الخيال للقارئ لكي يتنبأ بما هو قادم من أحداث داخل الرواية ، حاز عى جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٥ وذلك تتويجا لصبره وجهده وتقديرا لمستوى الأدب الراقي الذي قدمه للعالم من خلال حياته وتقديرا لأحد أعماله الرائعة وتوفي كلود سيمون عام ٢٠٠٥م.

90



بليز باسكال

"فرنسي تغلب على اليتم بالعلم والتدين والصبر"

الفرنسي بليز باسكال هو أحد كبار المفكرين النابغين الذين عرفتهم أوربا في القرن السابع عشر ويرجع ذلك إلى أبحاثه العلمية واكتشافاته الرياضية في سن شبابه المبكر بالإضافة إلى تأملاته العميقة في حياة الإنسان وموقفه من الطبيعة واتجاهه إلى التدين ، أي أن تجربته الفكرية الأصيلة في الوصول إلى الحقائق عن طريق العقل هي أبرز سمات شخصيته واشتهر في التاريخ العلمي بأن أسلوبه وفكره يمثل "روح الدقة" .

ويرى باسكال أن الحقائق الأساسية في وجود الإنسان والفكر معاً ، ترجع إلى الإيمان اليقيني الصادر من القلب والمؤمن بالله، ومن ثَمَّ اتجهت فلسفته منذ البداية إلى الدين وسجل تلك التأملات في كتابه "الريفيات" وصدر كتاب آخر بعد وفاته المبكرة – في سن الشباب– يعبر عن مكامن خواطره وهو عبارة عن مقطوعات نثرية ومذكرات فلسفية تعتبر أرقى كتابات النثر والحكمة في العالم، فما هي سيرة هذا العالم الكبير بليز باسكال الذي استعان بالعلم والدين والفلسفة لكي يعبر عن مشوار حياته الذي عانى فيه من اليتم والمرض والوحدة؟

ولد بليز باسكال في فرنسا بمدينة كلير مون عام ١٦٢٣ ومنذ أن أصبح قادرا على الكلام ظهرت عليه بوادر الذكاء اللافت للنظر وكانت اهتماماته تنصب على الأشياء التي تهم الكبار وليس الأطفال ويسأل دائما أسئلة عن الطبيعة والظواهر المحيطة به وهو طفل، وفي عامه الثالث توفيت والدته ولم يكن يستطيع أن يفسر سر غياب الأم ولكن والده تعمد

إبعاد هذا الطفل الذكي عن صدمة فقدان الأم وقام على رعايته بطريقة مثالية عوضته عن حنان الأم وبدأ يعلمه بنفسه وأحضر له الكتب في المنزل وأخذ يبذل أقصى جهده للرد على أسئلته الكثيرة وغير المتوقعة في شتى المجالات وتأكد أن ابنه سيصير نابغة عصره، وقد اعترف بليز باسكال بأن والده هو معلمه الأول وكان يُكِنُّ له حبا عميقاواحتراماً كبيراً.

انتقلت العائلة إلى باريس وهناك تجلى نبوغ باسكال في الهندسة والحساب وهو في سن التاسعة فأصبح قادرا على حل المسائل الحسابية المعقدة ، ، وفهم النظريات الهندسية وحيث إن والده كان دارساً للرياضيات أراد أن يعلمه المبادئ الرئيسة في هذا العلم ففوجئ بأن ابنه يفهم في الهندسة الإقليدية المعقدة ، وكأن الله قد وهبه العلم بالفطرة حتى إنه في سن السادسة عشرة من عمره استطاع أن يؤلف كتابا عن المخروط الهندسي ، وقيل وقتها إن الهندسة لم تعرف عالما لديه القدرة على التفكير الهندسي العميق منذ عصر أرشميدس إلا بليز باسكال.

عندما بلغ باسكال الثامنة عشرة من عمره بدأ في دراسة الفيزياء والمنطق والفلسفة بعد أن أجاد اللغة اللاتينية ، وفي تلك الفترة اخترع آلة لحساب الأرقام تقوم بطرح وضرب وجمع الأرقام بنفسها في محاولة لمساعدة والده الذي كان يعمل محاسباً في باريس، عندما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة ، قام بتصحيح نظرية تورشيلي الهندسية ، واكتشف عدة تجارب أخرى خاصة بالفراغ واخترع لعبة الروليت وانكب على السهر والقراءة وكان لا ينام لعدة أيام متواصلة في بعض الأحيان وإذا نام يستيقظ سريعاً على أفكار جديدة وغريبة مما أدى إلى اعتلال صحته وإصابته بضعف جسدي شديد وآلام شديدة بالرأس واحتار أطباء ذلك الزمان في تشخيص مرضه ، ولكنه كان يستعيض بالقراءة والتأملات الدينية ومعرفة الله للتخفيف من الآمه والسيطرة عليها، وبدأ بليز باسكال في الاستغراق في العزلة والتحدث عن التعاليم الدينية والتركيز على المزيد من الأبحاث العلمية ولم يفكر في الارتباط بأية امرأة وأصبح مثل الزاهد أو المتصوف الذي لا يعرف إلا الله والعلم .

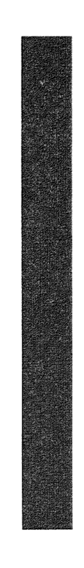
أصيب بليز باسكال بعدة أمراض خلال الفترة من الخامسة والعشرين إلى الثلاثين من عمره ، وبدأ يستعين بالله وبحل المسائل الهندسية وكتابة تأملاته لتخفيف آلام الأمراض الكثيرة التي يعاني منها ، أي أن العمل والانشغال بالقراءة والتدين يمكن أن تصبح الوسيلة

المثلى لسحب جزءٍ من طاقة العقل والفكر وإشغاله عن الإحساس بالألم ويمكن أن تخفف عن الإنسان وطأة العزلة سواء التي يفرضها على نفسه برغبته أو التي يجدها واقعاً مفروضاً عليه في حياته إن كان مغترباً أو أرملَ أو عزباً وهكذا...

ترك لنا بليز باسكال تراثا فلسفيا لا يقل قيمة وقدرا عن تراثه العلمي ولذا نعتبره من عباقرة القرن السابع عشر ؛لأنه بجانب نبوغه العلمي كان يتمتع بدرجة عالية من فهم مغزى وأهمية الأخلاقيات وأهمية الضمير ، وكتب في أوراقه "لا نستطيع أن نعلم الناس أن يكونوا شرفاء ، ولكن يمكن أن نعلمهم كل شيء آخر".

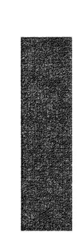
كان بليز باسكال يدعو إلى مواكبة العلم بالأخلاق وقال: "إن علمي بالأشياء الخارجية ، لن يعزيني عن جهلي بالأخلاق" وكان بليز باسكال يتعجب من جدال الجهلاء مع العلماء ويقول : ما السبب في أن الأعرج لا يزعجنا، بينما العقل الأعرج يثير حفيظتنا؟ السبب هو أن الأعرج يعترف بأننا نسير في استقامة بينما هو أعرج ، أما العقل الأعرج فإنه يقول بأننا نحن الذين نعرج !!"

توفي باسكال عام ١٦٦٢ عن عمر يناهز ٣٩ عاما وهو في أوج تألقه الذهني والعلمي بعد صراع مع المرض والذي لم يثنه عن إعطاء البشرية المزيد من العلم والفلسفة والتأملات الروحية عن قدرة الله تعالى، وحياته كانت قصيرة ولكنها مليئة بتحديات المستحيلات من يُتم ومرضٍ ومصارعة الجهلاء وانتصر عليهم جميعا بفضل الله وعناية والده ومعاونة شقيقته جيلبرت باسكال الراهبة المتصوفة.



الفصل الحادي عشر

رجال لم يعرفوا المستحيل في مهن مختلفة







جورجي زيدان
(صحفي)

"شجرة المعرفة اللبنانية .. تطرح ثمارها في مصر"

"**المعرفة قوة**" وهي كلمة المفكر الإنجليزي فرانسيس بيكون، وعقل الرجل محسوب عليه من رزقه وهي كلمة سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، وإذا وضعنا بذوراً من هاتين الكلمتين في أرض لبنان وسوريا وهما منبت الثقافة والفن في العالم العربي، لطرحت لنا تلك البذور شجرة موهبة وعلم وثقافة وأدب اسمه "جورجي زيدان" مؤسس بيت المعرفة الأول في مصر والعالم العربي "دار الهلال" في عام١٨٩٢، هذا الرجل الذي سوف يمر مائة وخمسون عام على مولده بعد عدة شهور من الآن، في ١٤ ديسمبر عام٢٠١١، ومع ذلك صرحه العملاق في الأدب والثقافة "دار الهلال" مازال ينبض بالحيوية والحياة والمزيد من التدفق الثقافي في شرايين المجتمعين المصري والعربي؛ لأن الأستاذ جورجي زيدان جاء إلى مصر يحمل قليلاً من النقود، وكثيراً من المعرفة وقد كان عصاميًّا وجاء إلى مصر وفي جيبه عدة جنيهات لا تتعدى العشرة ، وصمم على أن يعمل ويكافح ويتحدى المستحيلات التي واجهته سواء في لبنان أو مصر وكان في بعض الأحيان يعمل ١٦ ساعة متواصلة في اليوم ولا ينام إلا ٤ ساعات فقط ، ويعرف قيمة النقود جيداً لأنه بدأ حياته في محيط أسرته الفقيرة بداية منظمة وطموح ، حيث كان يساعد والده في المطعم الذي يملكه ببيروت بعد انتهاء يومه الدراسي في المدرسة ومذاكرة دروسه، وبدأ في التعرف على المترددين على المطعم من الأدباء والشعراء والكتاب ، ويتعلم منهم ويسألهم، وعندما لاحظت والدته حبه الشديد للمعرفة والأدب شجعته على الاستمرار في هذا المجال، فأصبح يتولى الحسابات فقط في المحل ، وعندما أراد أن يكمل تعليمه، اشتغل في أحد مصانع الأحذية في بيروت

لمدة عامين وأجاد في تلك المهنة ، ولكنه تركها لضعف صحته بعد أن ادخر بعض المال اللازم لاستكمال دراسته .

ومن هنا رأيت في قصة حياته ونجاحه المستمر نموذجاً فريداً لشخصية عربية أدبية من القرن التاسع عشر ، تسعى وتهرول إلى العلم والثقافة وتعلّم اللغات دون الاعتماد على الدولة أو البعثات الخارجية أو إعالة الأهل، إنما اعتمد على الله وعلى نفسه، عسى أن يقتدي به شبابنا في القرن الحادي والعشرين- إن شاء الله- حيث أصبح يتقن خمس لغات، وهو لم يتعد الثلاثين عاماً ، وذلك رغم أنه التحق أولاً بمدرسة ابتدائية بسيطة؛ ليتعلم القراءة والكتابة والحساب لكي يساعد والده في إدارة المطعم، ثم التحق بمدرسة الشوام وتعلم فيها الفرنسية وعندما توقف عن التعليم لفترة، استمر في القراءة والمطالعة حيث كان لديه ميلٌ كبير للمعرفة والاطلاع، ووثق علاقته بعدد من خريجي الكلية الأمريكية ببيروت ورجال الصحافة والأدب مثل : سليم البستاني ، وفارس نمر ، ويعقوب صروف، وغيرهم، وكان أصدقاؤه يدعونه لحضور احتفالات وندوات الكلية الأمريكية، فهفت نفسه للرجوع إلى الدراسة بداية من١٨٧٦ وتعلم اللغة الإنجليزية، وحصل على شهادة البكالوريا وحاول الالتحاق بكلية الطب ودرس بها ثلاثة شهور ثم تركها إلى كلية الصيدلة، ودرس بها عاماً واحداً ثم تركها وقرر السفر إلى القاهرة ليكمل بها دراسته في مدرسة الطب المصرية وأخيراً تحول إلى الأدب وبرع فيه.

رحلة عمر عجيبة وغريبة وناجحة بكل المقاييس، فمن هو هذا الأديب الذي رثاه عند وفاته عام ١٩١٤م ، ثلاثة من أكبر شعراء عصره وهم: أمير الشعراء أحمد بك شوقي ، وشاعر النيل حافظ إبراهيم ، وشاعر لبنان الكبير خليل مطران.

ولد الأستاذ جورجي زيدان في لبنان بالعاصمة "بيروت" وتعود جذور العائلة إلى قرية اسمها "عين عنوب" وهو من عائلة فقيرة ولكنها مثقفة، ومسيرته التعليمية قد ذكرتها فيما سبق.

جاء جورجي زيدان إلى القاهرة عام١٨٨٣ ليستكمل دراسة الطب، ولم يكن معه إلا ستة جنيهات اقترضها من أحد أصدقائه اللبنانيين(مصباح المحمصاني)، ولكن قرر ترك هذه الدراسة لطول المدة اللازمة لاستكمالها وبحث عن عمل يتفق مع ميوله الأدبية، فالتحق بالعمل في جريدة "الزمان" التي كان يملكها مصري أرمني اسمه "علسكان صرافيان" ولم

تكن هناك صحف أخرى متاحة أمامه؛ لأن أغلب الصحف أوقفتها سلطات الاحتلال الإنجليزي ، بعد ثورة الزعيم أحمد عرابي، ووضح أن طريق جورجي زيدان كان ملبداً بالغيوم والمشقة ومليئا بالثغرات والعقبات ، ولكنه بدأ رحلة التحدي بالعمل بترجمة الأخبار الواردة للصحافة، ثم بدأ يعمل مترجماً للجيش الإنجليزي في مصر والسودان، ورافق الحملة الإنجليزية في رحلتها التي توجهت للسودان لإنقاذ القائد الإنجليزي "جوردون" واستمر يعمل مع الجيش الإنجليزي حتى عاد إلى بيروت عام١٨٨٥ ، وهناك بدأ يتعلم اللغة العبرية والسريانية واللاتينية، وألف أول كتاب له عام١٨٨٦ واسمه "فلسفة اللغة العربية" واُختير عضواً في "المجمع العلمي الشرقي" الذي أُنشئ عام ١٨٨٢ في الشام وكان الغرض من إنشائه هو الاهتمام بالبحوث العلمية والصناعية والإفادة منها لتطوير البلاد، سافر جورجي زيدان إلى لندن في رحلة بحث واطلاع وزيارة لمجامعها العلمية ومكتباتها واشترى عدداً كبيراً من الكتب والمراجع الأدبية ؛كي يستعين بها في مشواره الأدبي المستقبلي ، لأنه كان ينوى العودة إلي مصر، وفعلاً عاد من لندن إلى مصر وعمل في جريدة "المقتطف" رئيساً لتحريرها لمدة عام ونصف ثم تركها، واتجه لمهنه التدريس وعمل مدرساً للغة الإنجليزية، وأخيراً قرر إنشاء دار للنشر مع مطبعة خاصة بها بالاشتراك مع الأستاذ نجيب متري عام١٨٩١ ، ولم تستمر الشراكة إلا عاماً واحداً ، فاستقل كل منهما بنصيبه في الشركة ، حيث أخذ نجيب متري دار النشر التي أصبحت نواة لدار المعارف للنشر، وأخذ جورجي زيدان المطبعة لنفسه وأسس بها مطبعة دار الهلال عام١٨٩٢ والتي أصدر من خلالها "مجلة الهلال" التي بين أيدينا الآن ؛ لأن ابنه أميل جورجي زيدان تولى أمورها أثناء حياة والده، ثم بعد وفاته بالاشتراك مع عمه وأبناء عمومته وكان اختيار الاسم "الهلال" تيمناً بالرمز الإسلامي ، وكناية عن مجلة تعبر عن الثقافة الإسلامية والعربية ، وكان صدورها شهريًّا تعبيراً عن ظهور هلال الشهور الهجرية اثنتي عشرة مرة كل سنة ، وأيضاً تعبيراً عن رمز من رموز سلطات الإمبراطورية العثمانية التي كانت تحكم بلاد العرب ذلك الوقت.

صدر العدد الأول من مجلة الهلال في ربيع أول من عام١٣١٠هجرية الموافق ١٨٩٢ ميلادية، كتب افتتاحية العدد الأستاذ جورجي زيدان بنفسه ، وأوضح فيها خطته في العمل الأدبي والثقافي والغاية من إصدار المجلة ، وبدأ يصدر في أعدادها المتتالية القصص والروايات التي كان قد أصدرها في كتب من قبل مثل (تاريخ مصر الحديثة، تاريخ

الماسونية، تاريخ اليونان، تاريخ إنجلترا) وقصصاً من التاريخ الإسلامي القديم، ولكنها مطعمة ببعض الحقائق مع الخيال الدرامي اللازم لتشويق القارئ على المتابعة مثل قصص: (المملوك الشارد، أرمانوسة المصرية، شجرة الدر، غادة كربلاء، فتح الأندلس، العباسة أخت الرشيد) ولقيت هذه الروايات رواجاً واسعاً ، وترجمت إلى عدة لغات واشتهر الأستاذ جورجي زيدان، ولاقت المجلة نجاحاً باهراً في أول خمس سنوات من عمرها، رغم ما لاقاه من اعتراضات من بعض النقاد؛ بسبب خلطه ما هو تاريخي بما هو عاطفي وقصص عشق وحب وغرام يقحمها إقحاماً في سيرة التاريخ الإسلامي ، واتهمه البعض بأنه يسير على خطى المستشرقين في تناوله للتاريخ الإسلامي، رغم أن ما قدَّمه الأستاذ جورجي زيدان من مؤلفات وأبحاث ومطبوعات وكتب عن الإسلام، يفوق ما أصدره جميع منتقديه ولو اجتمعوا جميعاً، وكانت لغته السهلة في الكتابة مصدرا هاما من مصادر الثقافة الإسلامية لعامة الشعوب العربية للتعريف بحضارتهم وفتوحاتهم وبطولات قادتهم، واعتبرت مؤلفات الأستاذ جورجي زيدان أول مصدر عربي دوري منتظم عن التاريخ الإسلامي ، يُكتب بيد مثقف وكاتب عربي بعيداً عن كتابات المستشرقين وآرائهم المعتادة، رغم ما يدعيه البعض عليه من أنه سلك طريق وفكر بعض المستشرقين.

من أهم مؤلفات الأستاذ جورجي زيدان هي تاريخ التمدن الإسلامي، تاريخ مصر الحديث، العرب قبل الإسلام، الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية، تاريخ آداب اللغة العربية، مع عدد من القصص الإسلامية.

وعبقرية الأستاذ جورجي زيدان أنه استطاع خلال عمره القصير التحرك بحرية كاملة بين عدة مهن ، وعدة تخصصات ، وعدة مجتمعات، وأثبت نجاحه في كل منها .

ويعتبر جورجي زيدان ثالث أشهر الصحفيين الشوام الذين قدموا وهاجروا إلى مصر من سوريا ولبنان ، فحضروا إلى مصر التي كانت تتمتع بحرية الرأي في عهد الخديوي إسماعيل، حيث حضر أولاً الصحفي لويس صابونجي وأسس صحيفة عام١٨٧١ تحت اسم "النحلة الحرة" ثم حضر سليم وبشارة تقلا وأسسا جريدة الأهرام ثم جورجي زيدان ، وأسس دار الهلال وكانت مدرسة للتنوير ونافذة واسعة للقراء المصريين والعرب ؛ للاطلاع على أحدث إنتاج فكرى وثقافي في العالم العربي والعالم الخارجي، حيث إن الأستاذ جورجي زيدان ونجله أميل زيدان ، ومن تولوا إدارة دار الهلال من بعدهما في القرن العشرين اختاروا

عمالقة الفكر والأدب والفلسفة والتاريخ للكتابة بالدار من أمثال :عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وعباس العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وجبران خليل جبران، ولطيفة الزيات ، وأمير الشعراء أحمد شوقي ، وحسين مؤنس، وميخائيل نعيمة ، وأمينة السعيد ، وكامل زهيري ، وصبري أبو المجد ، ومي زيادة ، ويوسف السباعي، وفكري أباظة ، والشاعر حافظ إبراهيم ، وخليل مطران ، وسلامة موسي، وعبد القادر المازني ، وعلي الجارم ، وأحمد بهاء الدين ، ورجاء النقاش ، ومكرم محمد أحمد، وزكي مبارك، ومصطفي وعلي أمين، وصالح جودت ، وزكي نجيب محمود.

ولاتزال المجلة الشهرية لدار الهلال تصدر حتى الآن، وتتميز باهتمامها بالثقافة الراقية للمجتمع المصري والعربي، ويترأس مجلس إدارة دار الهلال حالياً الأستاذ : عبد القادر شهيب ويترأس تحرير المجلة الأستاذ: عادل عبد الصمد ، وبها لفيف من كبار الصحفيين والشعراء، ويكتب بها العديد من أدباء مصر والعالم العربي الحاليين، واستطاعت أن تحافظ على مستواها العلمي في الأدب والثقافة والمعرفة والشعر والمواكبة للأحداث والمؤتمرات والندوات الأدبية الجارية في حدود الإمكان .

وفي فبراير عام٢٠٠٥ احتفلت مؤسسة دار الهلال بالنسخة الرقمية من الأعداد الأولى من المجلة وأصدرتها مجمعة كل خمسة أعداد في مجلد واحد، ولدار الهلال إصدارات أخرى مثل مجلة المصور، ومجلة الكواكب، وسلسلة روايات الهلال ، ومجلة حواء ، ومجلة طبيبك الخاص، وسلسلة إصدارات للأطفال.

وهكذا نرى أن شجرة المعرفة والتنوير التي جاءت لنا من لبنان وهو الأستاذ جورجي زيدان الذي تحدى كل المستحيلات التي واجهته في حياته؛ من أجل بناء هذا الصرح الثقافي "دار الهلال"، مازالت تعطي ثمارها التنويرية والثقافية حتى الآن من عام١٨٩٢ حتى عام٢٠١١ هذه هي مسيرة من أسس ومن شارك في الكتابة بالدار ووفق القائمين عليها الآن لإكمال المسيرة.

92

كلين ناثان
(طبيب)

"تحدى الأطباء.. وأنقذ المرضى النفسيين من النسيان"

هدى الله الطبيب الأمريكي كلين ناثان إلى التفكير في مصير مرضى الأمراض العقلية وبالذات مرضى انفصام الشخصية (الشيزوفيرنيا) الذين يقضون حياتهم كلها في المستشفيات العقلية وينساهم الأهل والأقارب والزمن ويموتون خلف الأسوار بقساوة، حيث لا علاج إلا بالصدمات الكهربائية والتحليل النفسي والكلام!!

بدأ الدكتور كلين ناثان أبحاثه التي اشتقها من فكر جديد وهو امكانية استعمال أدوية كيميائية جديدة ، تمكن المرضى من الشفاء بإذن الله، ويمكن أن يخرجوا بعدها من المستشفيات ويعودوا للمجتمع وينطلقوا من خلف الأسوار، حيث إن أغلب هؤلاء المرضى بارعو الذكاء ومبدعون، ولكنه واجه اعتراضات ومهاجمة من زملائه الأطباء النفسيين الأمريكيين الذين كانوا متوجهين بصلابة إلى المعالجة بالصدمات الكهربائية أو إلى الثبات على المعالجة بنظام النوم الهادئ بالمنومات، وإلى وسائل التحليل النفسي درءاً للمشاكل ومحافظة على مصادر دخلهم من استمرار وجود المرضى بالمستشفيات، ووصفه الأطباء النفسيون بأنه "سيدمر المهنة"، واتخذوا وجهة نظر مواجهة حجرية لأفكاره حتى لا تكتمل أبحاثه للمعالجة بالأدوية الكيميائية للأمراض العقلية، لكنه ثبت على موقفه وتحدى أبناء مهنته وقال: "إذا نجحت أبحاثي فلن يموت المستقيمون بقساوة بعد اليوم" ويقصد بهم المرضى النفسيين والعصبيين، فمن هو هذا الطبيب الصريح الجريء ؟

وُلد كلين في فيلادفيا بالولايات المتحدة الأمريكية في ٢٢مارس عام١٩١٦ ودرس الطب في كلية "سوارتمور" وتخرج في الكلية عام١٩٣٩، ومن المصادفات الجميلة في حياته أنه كان يهوى ركوب الخيل ، وتفوق في ذلك وحصل على البطولات في الفروسية ومنحته

تلك البطولات فرصة الترشح للقبول بكلية الطب، إضافة إلى تفوقه الدراسي، أي أنه كان فارساً مغامراً في صفاته، واستغل تلك الصفات بالمغامرة في الأبحاث الطبية الجديدة عام١٩٥٦، عام١٩٥٧ لصالح المرضى النفسيين وكان يقول عنهم:"إنهم كثير من الناس القادرين على أداء وظيفتهم بطريقة حسنة والحصول على قدر من التسلية من الحياة، ومع ذلك تُركوا مكتئبين ومتوجسين ؛لأنهم لم يستطيعوا أن ينجزوا هذا الهدف المستحيل".

واعتبر أن الطبيب النفسي والمريض وعائلة المريض، عندما يتقبلون الحقائق ويتقبلون التحدي، فإن٨٠٪ من المرضى يمكن أن يخرجوا من المستشفيات ، ويبدأوا حياة سعيدة ومنتجة، ولم يدعِ أنه يستطيع أن يشفى جميع المرضى العقليين ولكنه يمكن أن يُحسن من حالتهم النفسية والمهنية.

حصل الدكتور ناثان على درجتي الماجستير والدكتوراه عام١٩٤٣ من جامعة نيويورك بعد أن عمل طبيباً مقيماً في مستشفى سانت اليزابث للأمراض العقلية بجامعات برنستون، رانجرز، وكلارك، وقام بأبحاث في جامعة كولومبيا إلى أن أصبح مديراً للأبحاث بمستشفى ولاية ماستوستش، تزوج عام١٩٤٢ من ماريوت هيس وأنجب ابنة واحدة هي "مارنا".

الفكرة العلمية التي راودته هي استعمال مشتقات جذور الأفعى الهندية (الريزربين) في علاج مرضى انفصام الشخصية بمركباتها الكيميائية ، وكان هذا الدواء يستعمل في علاج ارتفاع ضغط الدم وهو مستخلص من نبات "رووليفيا سربنتينا" المتوفر في الهند وكان يستعمل في علاج لدغة الثعبان وكثير من الأمراض الأخرى منذ زمن بعيد.

في أول الأمر أجرى تجاربه على الفئران والحيوانات، ووجد أنها أصبحت أكثر هدوءاً ولكنها لا تنام نوماً عميقاً، خلافاً لما تسببه المهدئات العصبية الأخرى التي كانت تُعطَى لمرضى انفصام الشخصية وهي البربيتيورات (مخدرات الأعصاب) التي تجعل المرضى يعيشون وينامون كالأموات ويشعرون بالإجهاد العضلي وتخور قواهم للأبد في المؤسسات والمستشفيات العقلية، فيسْلَم الأهل والأقارب والأطباء والعاملون في المستشفيات من نزعاتهم العدوانية وقدرتهم العضلية، وأحزنته تلك الأوضاع المأساوية لهولاء المرضى؛ لأنه وجد في أغلبهم السمو وطيبة القلب والقدرة على العمل والإبداع والذكاء الخارق، بدأ في إعطاء ٧٠٠مريض هذه الأدوية الكيمائية الجديدة بعد سلسلة من التجارب والأبحاث رغم

أن زملاءه أطباء الأمراض النفسية كانوا يسخرون من أفكاره ويعتبرونها خيالية؛ لأنه منذ فجر التاريخ والمريض المصاب بمرض عقلي أو بالجنون يُعزل عن المجتمع ويُعتبر "ساقط قيد في الحياة المنتجة" ولا يتزوج ولا ينجب ، وأقصى ما يمكن عمله له هو المهدئات والصدمات الكهربائية العلاجية (العنيفة للمرضى) وأن رزق الأطباء وعملهم في المستشفيات العقلية مرهون ببقاء هؤلاء المرضى بداخلها، ولكنه تحدى الجميع واستمر يتابع مرضاه ولاحظ أن نسبة كبيرة منهم تحسنت أحوالهم بدرجة ملحوظة لدرجة أنهم من الممكن إخراج بعضهم من المستشفيات، حتى إنه خلال عام واحد تم علاج ٤٠٠,٠٠٠ مريض نفسي بعقار "أيبرونيازيد" وهو الاسم العلمي للعقار الجديد وخرج ٧٠٪ من المرضى من المستشفيات العقلية في أمريكا ، واستيقظوا من إجهادهم وتنويمهم بالمهدئات ، وعادوا ليشاركوا في دورة العمل والإنتاج مع المتابعة الدقيقة كل شهر لحالتهم ، وبعض التوصيات الهامة لعائلاتهم بالمراقبة وحُسن المعاملة، وتم توفير ثلاثة آلاف مليون دولار أمريكي سنويًا ، كانت ستصرف على هؤلاء المرضى والمرضى الجدد القادمين بعدهم بما في ذلك من خسارة على الإنتاج والاقتصاد القومي.

حصل الدكتور كلين ناثان على أول جائزة علمية عام١٩٥٧، واستمر في أبحاثه لتطوير الأدوية الجديدة حتى حصل عام ١٩٦٤ على جائزة "لازكر" الكبرى للمرة الثانية ، وجاءت وثيقة حيثيات الفوز مدوناً بها حرفيًا : "مئات الألوف من الناس تقود عجلة الإنتاج في الحياة العامة نتيجة جهود وأبحاث الدكتور كلين ناثان ، وأصبحت حياتهم سعيدة ومثمرة، بعد أن كانت حياتهم يأساً وإحباطاً بلا ثمر" وابتهج الدكتور ناثان بالجائزة ولكن بهجته الكبرى كانت أن الله وفقه إلى إسعاد ملايين المرضى النفسيين، وعائلاتهم وبالذات مرضى انفصام الشخصية إلى يومنا هذا؛لأنه تحدى المستحيل وأثبت رجاحة فكره.

93



شامبليون (عالم آثار)

"أنطَقَ حجر رشيد .. فظهرت براعة المصريين الفراعنة"

جان فرانسوا شامبليون هو شاب فرنسي هوى دراسة اللغات والآثار، وانتقل بهوايته إلى مرحلة الاحتراف والإجادة عن طريق البحث العلمي الجاد والقراءة والدراسة، وأوصلته هذه الجدية إلى فك رموز وطلاسم اللغة المصرية القديمة ، وهي اللغة الهيروغليفية وهذه اللغة كانت سرية إلى حد ما في عهد الفراعنة؛ حيث كان مقصورة الكتابة بها على الكهنة ومسؤولي المعابد ، وكانت تدون بها سيرة الحكام والملوك وكبار القوم فقط ، وبعض البرديات التي تتحدث عن سيرتهم ومعاركهم وانتصاراتهم وكانت تعتبر "اللغة المقدسة".

وفي كتاب عن تاريخ الجنس البشرى ذكر العالم الفرنسي "هندريك فان لون" أن تسجيل تاريخ الفراعنة بهذه اللغة المرسومة يُعتبر أول تسجيل لحضارة قديمة في تاريخ الحضارات السابقة أو اللاحقة عليها؛ ولهذا أُعتبرَ أن الحضارة المصرية الفرعونية هي أم الحضارات المدونة، والكتابة بالهيروغليفية هي أصل الكتابات اللاحقة لها، وكل تلك الإنجازات في الحضارة المصرية القديمة كانت تُعتبر أموراً مبهمة لولا هذا الشاب الفرنسي جان فرانسوا شامبليون، عبقري دراسة التاريخ واللغات الذي لم يتلق تعليماً منتظماً في حياته الأولى ولكنه درس بالمنزل وسافر وبحث وتجول بين الآثار والمتاحف ، وتعمق في دراسة اللغة اللاتينية واليونانية ثم القبطية المصرية حتى أجادها ، وربط بين الكلمات العربية العامية المصرية المتداولة في القرن الثامن عشر وبين اللغة المصرية القبطية، والتي كانت تُعتبر اللغة

الرسمية للشعب ومن فرط ذكائه وتخصصه الدقيق والنادر، قدم رسالته العلمية لأكاديمية "جونيول"وهو في السادسة عشرة من عمره ولاقت قبولاً علميًّا عظيماً من المؤرخين الفرنسيين، وصار أستاذاً للتاريخ وهو في سن العشرين عاماً، وأصبح أصغر أستاذ في تاريخ الأكاديمية الفرنسية للعلوم "كولج دي فرانس"، بعد أن تمكن من فك طلاسم الكتابات المدونة على "حجر رشيد" الذي اكتشف في مدينة رشيد بمحافظة البحيرة (شمال جمهورية مصر العربية في منطقة الدلتا)، بعد أن عجز عديد من العلماء من السويد وإنجلترا عن هذا العمل، ولذلك اعتبرته من الرجال الذين لم يعرفوا المستحيل؛ لأن عدم التعليم المنتظم ثم التحاقه بالتعليم بعد ذلك وبرع وأنجز ما عجز العلماء الآخرون عن إنجازه، وهو صاحب العبقرية التي أحيت تاريخ أمة وحضارة عظيمة اسمها "الحضارة الفرعونية" والتي تم تأسيس علم جديد باسمها وهو "علم المصريات - إيجيبت تولوجي" في معظم جامعات العالم المتقدم، ومع ذلك لم ننصفه في دروس وكتب التاريخ بالقدر الذي يستحقه؛ لأننا نذكره اختصاراً ودائماً بثلاث كلمات فقط - شامبليون مكتشف حجر رشيد - ناسين أو متناسين دوره كأحد رموز الثقافة المصرية الفرعونية ، وهو أيضاً مؤلف قاموس اللغة القبطية المصرية، وما وراء ذلك من قصة تحدي للفشل وللمستحيل، فما هي سيرة هذا العالم الجليل جان فرانسوا شامبليون.

ولد شامبليون في مدينة فيجياك الفرنسية في ٢٢ديسمبر عام١٧٩٠ وعاش اثنتين وأربعين عاماً فقط، حيث توفي في ٤ مارس عام١٨٣٢ وعلم نفسه بنفسه في المنزل ، وعشق اللغة القبطية وتعلمها جيداً وصنفها ، ووضع قاموساً لها أرهقه كثيراً حتى انتهى تبويبه وإكماله.

تمكن شامبليون من فك لغز حروف حجر رشيد المكتوبة بثلاث لغات مختلفة في صورة مقدم للفرعون، وكان معني المرسوم المكتوب على جدار الحجر معنا واحداً ويختص بنفس الموضوع، وهذا الموضوع هو عبارة عن وثيقة كتبها كهنة مصر القديمة في العهد البطلمي، بمناسبة تنصيب بطليموس الخامس ملكاً على مصر، فحفروا مرسوم ولايته على لوحة من البازلت الأسود في عام١٩٢ قبل الميلاد، ومحتوى معاني المرسوم الذي كتبه الكهنه في

مدينة "منف" العاصمة القديمة لمصر، هو أنهم يشكرون فيه الملك بطليموس الخامس على أنه أوقف وقفاً خيريًا خاصًا للإنفاق على المعابد والشؤون الخاصة بالكهنة (ولهذا يسمى هذا الحجر تاريخياً باسم - حجر منف - وليس باسم رشيد وهي المدينة التي اكتشف فيها هذا الحجر بالصدفة البحتة أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام١٧٩٨، عندما كان الضابط الفرنسي "بيتي فرانسوا بوستار" (المكتشف الحقيقي للحجر) يقوم بالحفر في المنطقة المذكورة لكي يبني قلاعا دفاعية على الناحية اليسرى من نهر النيل لكي يبني قلعة عسكرية فرنسية جديدة، ثم بدأ في هدم قلعة مصرية قديمة لكي يستفيد من أحجارها في بناء القلعة الجديدة، هنا شاهد حجرة من الجرانيت يبلغ طولها مترا وعرضها مترا إلا ربع، وكان بتلك الحجرة لوحة من البازلت الأسود يبدو أنها جُلبت من مكان ما لاستعمالها في تشييد الجدران وكانت هذه اللوحة غير متجانسة مع بقية ألواح الجدران، ويبدو أنه قد تم انتزاعها من مبنى أكثر فخامة وأكثر أهمية (هيكل) وشعر الضابط بأهميتها واستخرجها بهدوء وروية ؛حتى لا يدمر النقوش والرسوم التي عليها ، والمكتوبة طوليًا بثلاثة أنواع من الحروف المبهمة بالنسبة له، وبالمصادفة كان مهندس الجسور والطرق الفرنسي "ميشيل أنج لانكرى" يمر مروراً روتينيًا على مدينة رشيد، فطلب منه المهندس بيتي بوستار أن يتسلم اللوحة اللغز عسى أن يستطيع معرفة سرها، وعادت بها الكتيبة الفرنسية إلى الإسكندرية، ثم حدثت موقعة أبو قير البحرية ، والتي انهزم فيها الفرنسيون أمام الإنجليز ثم بدأوا الجلاء عن مصر بعدها.

عند انسحاب الفرنسيين من مصر، طلبت منهم القوات الإنجليزية تسليم بعض مما اكتشفوه من الآثار المصرية أثناء حملتهم العسكرية، ومن ضمن تلك كان حجر رشيد، ولهذا السبب يوجد حجر رشيد الآن في المتحف الإنجليزي في لندن (بعد نزاع بينهما على ما لا يمتلكون).

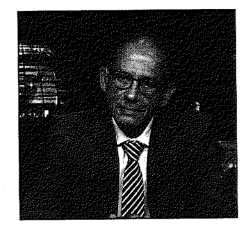
حاول باحثو اللغة والآثار فك شفرة العلاقة بين اللغات الثلاث في هذا الحجر (اللغة الهيروغليفية واللغة الديموطيقية - وهي المصرية الشعبية القبطية - واللغة اليونانية) ولكنهم لم يستطيعوا، حيث كان هناك جزء مفقود من الخط الهيروغليفي، والنص اليوناني الخاص

بلغة البطالمة الذين كانوا يحكمون مصر في هذا العصر، وفشلت جهود العالم السويدي توماس أكربال الذي تعرف على عدد من الحروف وانتهت محاولات العالم السويدي، ومن بعده عالم إنجليزي فشل أيضاً واسمه توماس يونج، حيث لم يتمكنا إلا من التعرف على بعض الأسماء في الوثيقة.

تم عرض اللوحة على شامبليون الذي تمكن من فهم النص اليوناني وقرأ على الحجر اسم الملك بطليموس الخامس واسم كليوباترا، وكان شامبليون قد زار مصر عام١٨٢٨ وزار معابد "فِيَلَةَ" في جنوب مصر، ورأى نفس رسم حروف هذه الأسماء على جدران المعابد، فبدأ يرتب الحروف الهيروغليفية بما يقابلها من اليونانية، وبما يقابلها من الديموطيقية بناءً على فهمه للنص المكتوب باللغة اليونانية التي كان يجيدها هي واللغة القبطية القديمة (المصرية)، واعتماداً على مبدأ القياس اللغوي والفهم العام والمقارنة المنطقية، وتم هذا العمل والجهد العظيم بعد عودته من مصر وهو بذلك تعدى أيضاً مستوى أستاذَيْ اللغات "دي ساسي وأكربالد" اللذيْن نجحا فقط في التعرف على بعض حروف لغة الفراعنة عن طريق القياس وتوقفا عند ذلك، وبعد صدى هذا النجاح المدوي لشامبليون في أوروبا، تم تعيينه أول أستاذ كرسي لعلم المصريات في فرنسا عام١٨٣١، بعد أن وُضعَ كرسي أستاذية لهذا العلم واستمر شامبليون أستاذاً وباحثاً في الكولج دي فرانس، واستطاع ملء الفراغات الشاغرة في بعض الأسماء الملكية الفرعونية على الآثار، والتي وصلت إلى ٧٩اسماً وذلك بالاعتماد على النصوص الإغريقية أيضاً، بحيث أمكن كتابة تاريخ مصر الفرعونية شبه كامل فيما بعد، وتولى شامبليون رئيس قسم الآثار الفرعونية بالمتحف الفرنسي حتى توفي في شهر مارس عام ١٨٣٢وهو في سن الشباب، بعد أن عاش حياته القصيرة عاشقاً للبحث والعلم وأفنى عمره في حب مصر وحب علم المصريات، وجعل باستطاعة المصريين أن يقرأوا عن أنفسهم وعن أجدادهم، وجعلنا ندرك أن الحملة الفرنسية على مصر لم تكن كلها احتلالاً وقتالاً وبعض الدمار، ولكن كان لها حسنات في شتى المناحي (إعمار وعلوم وتخطيط وكتب ومطابع ومعرفة بالعالم الغربي المتقدم علميًا، وما فيه من معارف ومدارس وجامعات وبحوث وعلوم الكيمياء والصناعة والتسليح)، ولكن ستظل أهم حسنات الحملة الفرنسية على مصر، هو هذا

العالم العبقري الشاب جان فرانسوا شامبليون الذي كرمته مصر بإطلاق اسمه على أحد الشوارع بوسط مدينة القاهرة بميدان التحرير، وهو أقل ما يمكن أن نقدمه لهذا العالم الجليل وأتمني أن يكون هناك قاعة باسمه في المتحف المصري الكبير الجديد في منطقة الأهرامات ، والذي وضع حجر الأساس له حسني مبارك رئيس مصر السابق وفاروق حسني وزير الثقافة الأسبق.

94



هاني عازر
(مهندس)

"عادة يعرف الغربُ قدراتك أولاً .. ثم نحن أخيراً"

من المعروف أن كل المِهن إنجازاتها تنتهي بالزوال خلال جيل أو جيلين على الأكثر، إلا مهنة الهندسة فأعمالها باقية وتعيش سنيناً في صورة إعمار وآثار.

المهندس المصري هاني عازر العبقري المقيم في ألمانيا يصفونه بأنه (الشخص القادر على تنفيذ المستحيل في الجدول الزمني المحدد له مهما كلفه الأمر)؛ وذلك لأن عبقريته لم تتخلَّ عنه في تنفيذ الأنفاق وتشييدها بألمانيا منذ شيَّد نفق مترو "دور تموند" عام١٩٧٩ حتى تجلت عبقريته الهندسية عام٢٠٠٦ عندما شيد محطة سكك حديد برلين، والتي بهرت العالم أثناء رؤيتها وذلك عندما استضافت ألمانيا كأس العالم لكرة القدم، حيث أصبحت منذ ذلك التاريخ أهم محطة قطارات في أوروبا والعالم ، وحصلت على جائزة "محطة العام، على مستوى العالم، وهو حالياً يعمل في تطوير محطة سكك حديد شتوتجارت بتكلفة قد تصل إلى ١٠ مليارات يورو وستنتهي بإذن الله عام٢٠١٩ يتحدث المهندس هاني عازر عن حياته للصحفية الأستاذة نشوى الحوفي بجريدة (المصري اليوم) ويقول: "وقعت في غرام الأنفاق لأن فيه تحديًّا كبيراً، فقد عدلت مجرى نهر "سبراى" أثناء تنفيذ أحد الاعمال الهندسية في الأنفاق ثم أعدته إلى مجراه بعد حفر النفق، وشيدت مبني ٣٠ متراً رأسياً ثم قلبته ليكون أفقياً وزودت المحطة بنوع من الزجاج قادر على توليد الطاقة الكهربائية اللازمة لإنارة محطة السكك الحديدية.. وتم تزويد المحطة بعلامات على الأرض والسلالم لهداية المكفوفين أثناء السير".

إنه مهندس يفكر في ما لا يفكر فيه الآخرون وينفذ ما يتوقعه الآخرون، وإن لم يطلبوه

منه (عبقري يتحدى المستحيل)، وإذا نطق صدق وإذا قال "ممكن أن يتم" بدأ العمل فوراً ولهذا وضعه الألمان الذين يُعتبرون "عباقرة الكرة الأرضية" في مقدمة أشهر ٥٠ شخصية ألمانية في العصر الحديث منذ تشييده محطة قطارات برلين عام٢٠٠٦، وضعته الصحفية الشابة اللامعة الأستاذة نشوى الحوفي في مقالها عنه، ليصير نموذجاً ومثالاً طيباً للشباب العربي والمصري لإحساسها بأننا نحتاج في المقام الأول إلى استعادة الثقة في أنفسنا وقدراتنا، وبث الأمل في نفوس لم تعد ترى من الصورة إلا سوادها، والتأكيد على أن ما وصلنا إليه لم يكن النهاية المستدامة، فهناك دوما غد يمكنه أن يأتي بالأمل وبالجديد (من مقالتها بجريدة المصري اليوم في١٩/ ٩/ ٢٠١٠).

قال المهندس هاني عازر: إذا تخصصت في البناء فوق الأرض فذلك سهل وما يواجهك من مصاعب ماثلة أمامك في النور، أما إذا بدأت في البناء تحت الأرض، فذلك هو التحدي لأنك سوف تعمل في الظلام ، ولا تعرف ما سوف يواجهك من صعوبات ومفاجآت غير متوقعة، تلك كانت أجمل الكلمات التي استطاعت أن تكتبها الصحافية نشوى الحوفي في حديث معها.

ولد المهندس هاني حلمي عازر في طنطا عام١٩٤٨ وتلقى تعليمة الأولي والثانوي في مصر، تخرج في كلية الهندسة جامعة عين شمس على أيدي أساتذة مصريين عام١٩٧٣ قسم مدني ثم ذهب إلى ألمانيا عام١٩٧٣ والتحق بالدراسات العليا في جامعة "بوخوم" لكي يستكمل دراسته في هندسة الصرف الصحي والري والكباري والأنفاق، ولكنه وقع في غرام الأنفاق كما ذكرت لأن فيها تحدياً أكبر، عندما تخرج في الدراسات العليا لهندسة الإنشاءات عام١٩٧٩ في جامعة "بوخوم" متفوقاً على أقرانه، طلبته شركة "بولنسكي" الألمانية للعمل بها ، وكان لديها مشروع حفر نفق يمر فيه مترو "دور تموند" عام١٩٧٩، وكانت هناك صعوبات تواجه الحفر وهي أن الأرض التي سيمر بها نفق القطار كانت أرض مناجم فحم (حيث التربة الهشة القابلة للانهيار)، ففكر المهندس عازر أن يصمم نفقاً فولاذيًا (حديديًا) يتسم بالمرونة وقابل لتلقي الاهتزازات الأرضية أثناء مرور القطارات، واعتمد في نظريته تلك على المرونة مع الحركة التي تجدها في آلة

الأكورديون الموسيقية، ونجحت الفكرة الهندسية العبقرية، وتم تنفيذ المشروع وسجلت باسمه في ألمانيا والمراجع الهندسية العالمية، حيث حصل على الشهرة العلمية في أوروبا ولم يكن قد تجاوز الأربعين عاماً، ولفتت إليه الأنظار لكي يتولى تصميم وتنفيذ عدة مشروعات في ألمانيا وخارجها وحصل على الجنسية الألمانية ونفذ مشروعات في مطار برلين بألمانيا، اشترت الحكومة الألمانية جهوده وأبحاثه من الشركة التي كان يعمل بها عام١٩٩٤، وكان هناك مشروع متعثر خاص بتشييد أنفاق قطارات السكك الحديدية بدأ عام١٩٩٤ وتناوب على تنفيذه أكثر من مهندس ألماني، ولم يتم تنفيذ ما تم الاتفاق عليه سواء من حيث التصميم أو التنفيذ وزادت تكاليف المشروع عما كان محدداً له في المناقصات، وفي مايو٢٠٠١ استدعاه رئيس هيئة السكك الحديدة الألمانية وطلب منه تولي مسؤلية الانتهاء من المحطة وأن تكون أقصى مدة للتسليم عام٢٠٠٦ أي قبل مونديال كأس العالم لكرة القدم التي كانت ستقام في يونيو٢٠٠٦، وأصبح المهندس هاني عازر مسؤول مسؤولية كاملة عن المشروع ومعه ٧٥٠مهندساً و١٥٠٠عامل وعليه التعامل مع ٢٥ شركة مشتركة في توريد لوازم المشروع بالتجانس مع القترة الزمنية لكل مورد في المرحلة الزمنية والتوقيت المحدد لاحتياجات المشروع، وبعد خمس سنوات باليوم والشهر والسنة تم افتتاح أكبر وأحدث محطة قطارات في ألمانيا وأوروبا والعالم، والتي تكلفت٥ ,٤مليار يورو وكان موقعها في المنطقة الواقعة بين شطري ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية قبل سقوط جدار برلين العازل عام١٩٨٩.

الصعوبات التي واجهت المهندس عازر أثناء تنفيذ المشروع كانت كثيرة، أهمها المياه الجوفية التي كادت أن تغرق برلين أثناء الحفر، وكان يمكن أن تحول دون إتمام المشروع، ولكن جاءت الفكرة للعبقري المصري الألماني هاني عازر وهي أن يقوم بتجميد التربة (أي المياه الجوفية أيضاً) لدرجة -٢٦ تحت الصفر، مع الحفاظ على عدم تجميد المياه القريبة من سطح التربة وإلا ماتت النباتات وزود التربة بمجسات لقياس درجة حرارة المياه الجوفية لمعرفة الوضع وتحقيق الهدفين، ثم عدل مجرى نهر "سبراى" في برلين كما ذكرت سابقاً وأتم استكمال الحفر، ثم أعاد النهر إلى مجراه بعد الحفر بعد تغطية النفق بالخرسانة، ثم بطبقة

سميكة من الحديد، وعندما تعجب بعض المهندسين من تغطية الخرسانة بالحديد مما يزيد التكلفة قال لهم: إن التغطية بالحديد تمنع تآكل الخرسانة جراء الملوثات الكيميائية في النهر على المدى الطويل، يضاف إلى ذلك حمايتها من هُلب السفن التي ترابط في النهر ، ويتم تثبيتها بالهلب الذي يمكن أن يجرح الخرسانة.

وإنني أرى أن **العبقرية هي أن تفكر في المشكلة قبل حدوثها والاعتيادية هي أن تفكر في المشكلة بعد حدوثها.**

أيضاً قام المهندس هاني عازر ببناء برج يرتفع إلى ستة طوابق بشكل رأسي على شكل جزئين منفصلين، يربطان شرق محطة برلين بغربها على جانبي خط السكك الحديد، ثم تم إنزالهما أفقيًّا ليتلاقيا مع بعضها ليكونا مبنًى واحداً أفقيا فوق خط السكك الحديدية، ولا يعوق المبنى سير القطارات ، ويتم تعديل المبنى من رأسي لأفقي بسرعة ٢سم في الدقيقة، ويعمل على مفصلات وتستغرق عملية تعديل وضع المبنى ٤٨ساعة، وباشر بنفسه عمل تغيير اتجاه البرجين من الوضع رأسي إلى أفقي، وانتظر متلهفاً وواثقاً، وكأنه ينتظر مولوداً جديداً يبهر العالم بعبقريته التي لم تعرف المستحيل؛ لأن أي خطأ في العملية تجعل البرج ينهار فوق محطة السكك الحديدية، ولكن الله وفقه لأنه اجتهد وصبر وانتظر بعدها التوفيق من الله.

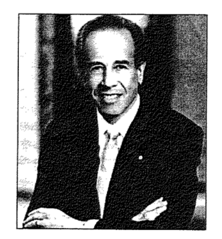
عندما سألته الصحفية الأستاذة نشوى الحوفي كيف استوعبت كل تلك التفاصيل في تصميم محطة القطارات التي تضم خمسة طوابق قال لها: "أن تجيدي عملك وتحبيه معناه الاهتمام بكل التفاصيل التي تجعل منه منظومة متكاملة تلبى احتياجات الجميع، حتى المكفوفين يوجد لهم مقابض (درابزين) به حروف وأرقام بارزة، لو لمسها الكفيف لعلم أين يجد قطاره وعلى أي رصيف من أرصفة المحطة.

هذه حياة المهندس المصري العبقري هاني عازر الذي كان مثله الأعلى في الحياة والده، وكان كلما صادفه نجاح في حياته يسرح في ذكريات ونصائح والده الذي علمه الإتقان ويقول متسائلاً: "هل يشعر والدي بما حققته وهل يَسعَد بأن أخبار نجاحي قد ملأت الدنيا والعالم .

أي أن شخصيته المصرية الأصيلة لم تذُبْ في متاهات الغربة والعمل والاجتهاد كما

ذكرت الأستاذة الصحفية نشوى الحوفي ، وأصبح هاني عازر نجماً هندسيًّا مصريًّا تفتخر به بلده الأصلي مصر وبلده الثاني ألمانيا؛ لأنه شخصية بطولية لم تعرف المستحيل، وقد كرمته السيدة إنجيلا ميركل رئيسة وزراء ألمانيا في وجود الرئيس السابق حسني مبارك بألمانيا عام٢٠٠٦ وذلك في حفل رسمي مهيب حضره كبار رجال الدولة بجمهورية ألمانيا الاتحادية حينئذ ، وقد أطلق عليه الألمان اسم الحفار المصري العبقري.

95



ايزادوري شارب
(فندقي)

"مؤسس مجموعة الفورسيزون"

هل كان يعرف الفتى المكافح الكندي ايزادوري شارب والذي كان يساعد والده في أعمال بناء المساكن خلال فترة الثلاثينيات والأربعينيات، أنه سيصبح نجم نجوم بناء وإدارة الفنادق في القرن الواحد والعشرين والمؤسس لشركة الفنادق العالمية "الفورسيزون" والتي ترفرف رايتها على ٨٣ فندقاً في ٣٥ دولة في أرجاء العالم الشرقي والغربي ويعمل بها ما يزيد على ٣٥ ألف موظف وفندقي وعامل لرعاية وخدمة ما يربو على مليون عميل وضيف سنويًا.

هذا الرجل إيزادوري شارب هو قصة أمل وعمل وهدف، استمرت تراود مخيلته حتى جاء عام ١٩٦١، وافتتح أول فندق في حياته وكان قد بلغ من العمر ثلاثين عاماً، حيث إنه من مواليد ٨ أكتوبر عام ١٩٣١ وذلك لأنه رجل تحدى الصعوبات ولم يعرف المستحيل في حياته. يبدو أن فلسفة نجاح إيزادوري شارب تقول: إذا أردت أن تنجح لا تصدق قول المقزمين المثبطين، شجع نفسك وآمن بكفاءة قدراتك، صدق تشجيع الآخرين لك لأنك حقًا تستحق هذا المدح والإعجاب، واختر معاونيك وأصدقاءك بمنتهى الدقة والحرص وتعلم كيف تتعاون مع الآخرين لتحصل منهم على أفضل ما لديهم، وإذا أردت استمرار النجاح لأعمالك عليك أن تهتم بتطوير القوى البشرية التي تعمل معك واستمرار تدريبهم مع تلقينهم الحكمة التي تقول "متى كان هناك عزم؛ كان هناك سبيل لتحقيق المنشود".

وكان الشعار الدائم لشركته التميز والجودة أولاً ثم تأتي الأرباح بعد ذلك عندما تقدم

خدمات لم يقدمها أحد قبلك .

ولد إيزدواري شارب في ٨/ ١٠/ ١٩٣١ وكان يعمل بناءً مع أبيه في مدينة تورنتو الكندية، عرض عليه أحد رفاقه في مطلع الخمسينيات ، أن يساعده في بناء ما يسمى بالموتيل (فندق صغير) على إحدى الطرق السريعة في كندا ثم خطرت في ذهنه فكرة تطوير الموتيل من كونه مبنى صغيراً يضم غرفاً قليلة يجمعها سقف واحد على الطرق السريعة إلى مبنى أكبر داخل المدن ، ولكنه كان فقيراً ولم يكن لديه المال الكافي لتحقيق حلمه ، فطلب قرضاً من شخص كان بمثابة الأب الروحي له ، كان يعيره الأموال لبناء المنازل مع والده ، وحاول إقناعه بفكرته الرائدة ومن فرط حماسه لهذا المشروع ، قام بطباعة رؤيته مصحوبة بدراسة الجدوى لهذا الممول وطرق كل السبل لإقناعه ، ومن حُسن حظه أنه حصل على موافقة رفاقه من البنائين على العمل معه مجاناً لتحقيق حلم حياته .

شهد عام ١٩٦١ افتتاح أول فندق لإيزادوري شارب في تورنتو وأسس الشركة التي تدير الفندق تحت اسم "تيندر بيرد أوتيل" وقد قرأت في كتاب عن قصة حياته أنه كان يتفاءل باسم مقهى في ألمانيا لقبه "الفصول الأربعة" وهو معنى كلمة الفورسيزون باللغة الإنجليزية ، فقرر إيزادور شارب إطلاق هذا الاسم الجميل والغريب على سلسلة الفنادق وبدأ في تأسيس شركته الخاصة بإدارة الفنادق الفخمة ، ويعترف هو أيضاً أن الصدفة والتوفيق كانا حليفين له في الاختيار ومن الصدف أيضاً أنني أول ما تعرفت على مجموعة فنادق الفورسيزون كان في ألمانيا الغربية عام ١٩٨٩ ولاحظت مدى الرقي في الضيافة والخدمات عندما كنت نزيلاً لديهم ولاحظت مدى الفخامة وأيقنت صدق رؤيتهم بأن الناس تأتي قبل الأرباح.

حقق إيزادور شارب الذي بدأ شابًا فقيراً مكافحاً ثم أكمل تعليمه الثانوي والعالي، نجاحات متتالية خلال فترة السبعينيات والثمانينيات حتى إنه أتم بناء أحد أكبر الفنادق في كندا على غرار الفنادق الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك بتكليف من الحكومة الكندية ، حيث كانت هناك استعدادات لإقامة مؤتمر عالمي يضم آلاف المدعوين ومئات المتحدثين وصار هذا الفندق نموذجاً للفخامة والاتساع وأمكنه توظيف المواهب المحلية واستقدام أمهر الطهاة لجميع نوعيات الضيوف القادمين إلى الفندق وسار على هذا المنوال

وخلال عشرة أعوام استطاع أن يكون لشركته علامة تجارية عالمية مرادفة للجودة وتتفاعل مع الأسواق العالمية في عالم الفندقة بما يلائم ويتماشى مع مختلف العادات والأذواق وكان شعاره الدائم "إن تحسينات طفيفة عندما تضاف باستمرارية متصلة ومع مرور الوقت ، تؤدى في نهاية المطاف إلى تغييرات كبيرة" ولذلك وضعت قصة نجاح إيزادوري شارب نموذجاً لأي شاب يريد أن يعمل في مجال السياحة والفنادق لأن فلسفة إرضاء العميل في المجال الفندقي هي المعيار الأول للنجاح والتي تأتي بعدها الأرباح .

والعمل الفندقي ليس وظيفة أو ربحاً مؤقتاً لجيل واحد من البشر مثل الزراعة أو التجارة أو المحلات الخاصة ، ولكنه عمل تتوارثه الأجيال ويحمل في طياته قيمة الخبرة المضافة من جيل لآخر لأن الفندق أو الاسم التجاري للمنشأة الفندقية يظلا قائمين لمدة لا تقل عن مائتي عام ولذلك كان العمل الدؤوب لمؤسس شركة الفورسيزون لإدارة الفنادق (التي يملكها الغير) إيزادوري شارب والذي اعتمد على الله وعلى نفسه في تأسيسها من أنجح الأعمال في محيط العمل الفندقي خلال الأربعين سنة الأخيرة وتكلل هذا النجاح بافتتاح عدة فروع في أوروبا وأمريكا وآسيا وفي منطقتنا العربية في القاهرة والإسكندرية والبحرين وقطر والأردن ولبنان والكويت والمغرب .

ورغم أن سلسلة الفورسيزون تعتبر من الشركات الكبرى الحديثة على أسواق الفندقة (أقل من خمسين عاماً) إلا أنها أصبحت من أكبر المنافسين للشركات التي دُشنت قبلها وذلك لأنها تفهمت معنى الخدمة الفندقية المميزة والتي تتعدى تأمين الغرف والطعام إلى توفير كل ما يخطر على مخيلة الضيف من خدمات ترفيهية وصحية ورياضية وخدمات رجال الأعمال ورغم ما يواجه صناعة الفندقة من هزات اقتصادية وفترات ركود مالي عالمي وانتكاسات مؤقتة في عمليات التسويق لظروف خارجة عن إرادة المنشأة ، إلا أن الشركات الناجحة هي التي تسعى لتقليل النفقات أولاً ، قبل تخفيض مستوى الخدمة المقدمة للعملاء ، والشركات الناجحة قد تتنازل عن الأرباح أثناء العواصف الاقتصادية ولكنها تحتفظ بمستوى الجودة لأن لديها مرونة في اتخاذ القرارات بطريقة سريعة ومدروسة للحفاظ على العملاء وتدرك جيداً أن المحافظة على النجاح تتطلب جهداً قد يكون أصعب من الوصول إليه أولاً وأن من يريد التميز عليه أن يتقبل قواعد

المنافسة الشريفة القائمة على احترام العميل ونيل رضاه ، تلك هي مبادئ وحكمة إيزادوري شارب الذي بدأ حياته في العمل الفندقي منذ ستين عاماً واستمر نجاحه حتى الآن بفضل الله وبفضل مبادئه الصارمة بالجودة والإتقان وبفضل وقوف زوجته السيدة روزالي بجانبه ، وكما قالت الحكمة الصينية "أعظم رجال الاقتصاد الناجحين هو من يدير أعمال وأموال الآخرين بنجاح" ، وهكذا كان إيزادوري شارب الذي فاقت شهرته الآفاق وصار نموذجاً للعامل والشاب الذي أكمل تعليمه الجامعي ثم صقل خبرته بتجارب الحياة حتى نال تقدير الجميع عالميًّا .

96



مايكل أنجلو
(رسام)

"أعسر مستلقى على ظهره خمس سنوات ليرسم أكبر لوحة في التاريخ"

الفنان مايكل أنجلو تحدى العزلة النفسية التي وجد نفسه فيها ، وقرر أن يثبت قدراته وفنه وسط المجتمع في إيطاليا بأن رسم أعظم وأكبر لوحة في التاريخ القديم والحديث وهو معلق على السقالة لمدة خمس سنوات، ومُسْتَلْقٍ على ظهره ويرسم لوحة في سقف الكنيسة، وكان أعسر (يعمل بيده اليسرى) ويرفعه العمال يوميًّا صباحاً بالحبال ، وينزلونه قبل الغروب حيث لم تكن هناك إضاءة ولا أنوار، ذلك رغم ما كان يعانيه من ابتعاد وعزلة عن المجتمع ، ومع ذلك أعطى واستمر في العطاء الفني حتى بلغ عامه التاسع والثمانين، وأحدث ثمن لإحدى لوحاته والتي عُرضت للبيع بالمزاد في صالة كريستي في لندن في شهر يونيو عام٢٠١١ كان التقدير الأولي لقيمتها يتراوح بين٥ , ٤-٦ مليون دولار ؛ وذلك لأنه أحد أشهر الرسامين في التاريخ وأحد تلاميذ الفنان الكبير ليوراندو دافنشي ، وهو إيطالي الجنسية أيضاً ومن فناني عصر النهضة في أوروبا.

ولد الفنان مايكل أنجلو في فلورنسا بإيطاليا عام١٤٧٥ وتلقى تعليمه في فن الرسم على يد الفنان الإيطالي "غيرلندايو"وهو في سن الثالثة عشرة ، وقد عارض والده هذا النوع من التعليم في أول الأمر، وكان يتمنى أن يصبح ابنه أحد رجال الدين، وبعد ذلك تعلم أصول ومبادئ النحت على يد المثَّال الإيطالي "لورنزو" في سن السابعة عشرة توفي أستاذه "لورنزو" وحدثت اضطرابات سياسية في البلاد فاضطر للهروب إلى روما واستقر بها، وهناك أنجز أحد أهم تماثيله وهو تمثال "داود" ومن روما بدأت شهرته، وكلفه أحد الباباوات بتنفيذ

ضريح له يدفن فيه بعد وفاته، وعاش الفترة الأولى من حياته حرًّا طليقاً مثل بقية البشر حتى بدأ يقرأ مؤلفات الشاعر "دانتي" وأحس بعدها برغبة وقرب من الشعور الديني العميق ، وجاءته أيضاً رغبة في العزلة عن المجتمع، حيث رأى أن العزلة فيها قدرة على الإنتاج الفني والتفرغ للإبداع ، وقال عن نفسه خلال هذه الفترة: "شعرت في هذا الوقت أن المجتمع عدوي وأن في العزلة خلاصي، وفي التأمل الطويل غذاء وصفاء لروحي وحفزا لقواي الفكرية".

بدأ مايكل أنجلو في كتابة الشعر والأدب ، ومارس شتى أنواع الفنون حتى امتلأت روحه بالخيال الفني وحب الجمال ، وحَرمَ نفسه من ملذات الصبا والشباب وعاش حياة تميل إلى حياة الرهبان ، وعكف على الدراسة والعمل والإنتاج من أجل الفن ، ومن أجل تسلية نفسه وإمتاعها وذلك بديلاً عن الأصدقاء وصحبة النساء والسهر في البارات والحوانيت ، والتي كانت منتشرة في أوروبا في ذلك الوقت ، وعاش وحيداً في بيت ضيق المساحة ولكنه واسع وفسيح في نظره وفكره ؛ لأن به أصدقاءه المقربين وهم: الفرشاة والألوان وأزمير النحت والكتب، وأنجز أحد أهم تماثيله وهو تمثال "موسى والعبيد" وكان يجد نشوة عند تمام أحد أعماله النحتية ، ويقف أمامه ويدقق في ملامحه ويطيل النظر حتى أصيب بما يشبه جنون العظمة ولولا تدينه لأصيب بالجنون، وقال عن نفسه يوما من الأيام واصفاً الغلظة التي انتابت شخصيته من طول بقائه وحيداً منكبًّا على رسم اللوحات ونحت التماثيل: "رغم تفتح عقلي على الشعور الديني، لم ينفذ الإيمان الخالص إلى أعماق قلبي، وأشعر أنني غير متدين بطريقة صحيحة كما أمر الله، فلا الرحمة ولا المحبة ولا الصفح ولا الرقة ولا الحنان، استطاعت أن تتمكن منى ، وتكبح عناصر القوة المضطرمة في نفسي ؛ لأنني ما زالت أؤمن بالطبيعة الجبارة التي تتطلب أن يكون الإنسان قويًّا حتى يمكنه مجابهة الآخرين بالرغم من أن بعض القوة تؤدي إلى الظلم ولكن الطبيعة لم تشفق عليَّ وتجعلني حنوناً ، ولكن جعلتني جباراً وأحث على القوة، ولذا وهبت نفسي للفن والنحت حتى أثبت كبريائي وعظمة فكرى في أعمال تُعتبر تحفا فنيةً يعجب بها الآخرون ويقدرون مدى موهبتي".

وقد كان جمهور الإيطاليين عند حُسن ظن مايكل أنجلو ووقروه كثيراً واشتهرت أعماله الفنية وذاعت شهرته في كل أنحاء روما وفلورنسا التي عاد إليها عام١٥٠١ وأنجز عدة

تماثيل جميلة ورائعة مثل تمثال "هرقل" وتمثال "كوبيدون" وتمثال "الحب الراقد" وقد وصفه الكاتب الفرنسي رومان رولان بقوله "إن مايكل أنجلو أسطورة فنية قل أن يجود بها الزمان مرة أخرى فهو رسام ونحات وشاعر وممتلئ بالحيوية والنشاط ومثالي الأخلاق والطباع ومهندس صمم عدداً من الكباري في مدينة فلورنسا، أي أنه كان عبقري زمانه وحياته كانت أسطورة في حد ذاتها ووهبه الله ملكة الصبر وطول العمر الذي مكنه من أن يترك للبشرية تحفاً فنية مميزة تمثل أروع ما وصل إليه الخيال البشرى".

وهكذا أصبحت عزلة الفنان مايكل أنجلو عن المجتمع هي عزلة القوى الذي ينتج ويعمل ، وليست عزلة الضعيف البعيد عن المجتمع من جراء الاكتئاب.

جاءت لحظات قمة الإبداع الفني في حياة مايكل أنجلو عندما كلفه أحد باباوات الفاتيكان (البابا سيكستوس الرابع) بتزيين مصلى وسقف إحدى الكنائس في الفاتيكان، وهنا أحس مايكل أنجلو أن هذا التكليف تشريف، فاعتبره مشروع عمره في الفن والإبداع حيث جمع أدواته وفرشاته وألوانه وبدأ يرسم لوحة "قصة خلق الأرض" على قبة وسطح الكنسية من الداخل وكان العمال يرفعونه يوميًّا بالحبال على السقالة، ويبدأ في الرسم مستلقياً على ظهره ووجهه متجه إلى سقف الكنسية ، ودوام على هذا العمل الشاق وهو أعسر اليد لمدة خمس سنوات متصلة وبصفة يوميه يحضر صباحاً ليعمل وينزله العمال مساءً، وهذه اللوحة على سقف الكنسية حتى الآن ، والتي تمثل الحياة على الأرض منذ بدء الخليقة، وتعتبر أكبر لوحة مرسومة في التاريخ ، وأصعب لوحة من حيث الفكرة وكيفية التنفيذ، وقال عنها مايكل أنجلو: "إنني عندما كنت أرسم على سقف الكنسية ومعلقاً في الهواء ومشدوداً إلى حبل، كان شعوري وكأنني غائب عن الوعي الحياتي تائه في فني مندمج ومتألق مع روحي ، ولدى إحساس بأنني بعيد عن فوضى الطبيعة والبشر على الأرض، سعيد بأنني لم أضيع حياتي هباءً مثل بقية البشر".

وفعلاً لم يضيع مايكل أنجلو حياته هباءً، حيث بقيت تماثيله ورائعته الفنية المرسومة على سقف الكنسية بإيطاليا ، والتي تمثل معاناة فنان استطاع أن يحول عزلته عن المجتمع ويستفيد منها بأن أعطى المجتمع عملاً رائعاً باقياً حتى الآن، أي نعم أضاع شبابه وحرم نفسه من متع الحياة ، ولكنه في نفس الوقت أبعد نفسه عن الالتحام الكامل بالمجتمع؛لأن

القسوة التي كانت في طبيعته حوَّلها إلى طاقة إبداع بالقسوة على الأحجار والرخام ليصنع منها تماثيل بالأزمير بدلاً من أن ينفثها في البشر، وتوفي مايكل أنجلو عن عمر يناهز التاسعة والثمانين في فبراير عام١٥٦٤ وقد عاصر في حياته تسعة من باباوات الفاتيكان، والمستحيل في حياة هذا الفنان أنه استطاع أن يُبدل قسوة العيش والعزلة وقسوة الرخام والحجارة إلى أبهى صور الجمال الراقي التي نتمتع بها حتى الآن ، وكما ذكرت سابقاً عرضت إحدى لوحاته للبيع بملايين الدولارات.



الأستاذ محمد عبد الوهاب (موسيقار)

"أستاذ الموسيقي النادر.. وأستاذ الشك الصحي"

موسيقار الأجيال الأستاذ محمد عبد الوهاب يستحق منا أن يُكتب عنه كتاب كامل يتناول مسيرة حياته، كما فعل الأديب الشاعر الصحفي المتميز الأستاذ فاروق جويدة في كتابه الذي أطلق عليه اسم "رحلتي" وشمل رحلة الحياة والأوراق الخاصة بالأستاذ محمد عبد الوهاب ؛وذلك لقربه الشديد منه ولمكانته الأدبية والصحفية في مصر والعالم العربي .

ولكنني قررت وبمنتهى الخجل- من نفسي- أن أكتب عن عملاق الموسيقى العربية وموسيقار الأجيال؛ لأنني رأيت فيه صفة من المستحيل أن تراها في إنسان غيره، وهو أنه كان يستطيع أن يتكيف وببراعة مع ظروف المجتمع التي كانت تتغير حوله خلال فترة عمره الذي تجاوز الخمسة والثمانين عاماً، وأيضاً لم يختلف اختلافاً كبيراً ومدويًّا مع أحد من الفنانين المعاصرين له، وكذلك لم يختلف أو يتحالف مع أحدِ الحكام والملوك الذين عاصرهم بداية من الملك فؤاد ثم الملك فاروق ثم الرئيس محمد نجيب ثم الرئيس جمال عبدالناصر ثم الرئيس السادات رحمهم الله جميعاً ثم أخيراً حسني مبارك الرئيس السابق ، ولم نسمع منه كلمة نقد سواء كانت سياسية أو اجتماعية خلال فترة حكم هؤلاء جميعاً .

ومن أهم صفات الأستاذ محمد عبد الوهاب والتي تعتبر من المستحيلات أيضاً أنه لم يكن يجامل أي شخصية هامة أو مؤثرة في مصر إذا فرضت عليه صوتاً ، وطلبت منه أن يلحن له أو لها وهو غير مقتنع بقدرات صوته أو صوتها، وحدث أن طلب منه أحد المسؤولين الكبار جدًّا في مصر أثناء فترة الستينيات أن يستمع إلى صوت أحد أقاربه الشبان

لكي يجعله يغني ويلحن له إذا أعجبه صوته، فلما حضر الشاب واستمع إليه الأستاذ محمد عبد الوهاب، لم يعجبه صوته مطلقاً، فما كان من الأستاذ محمد عبد الوهاب إلا أن طلب من الشاب أن يغني أحد مقاطع أغنية ما، ثم طلب منه إعادتها بصوت أخفض، ثم طلب منه إعادتها ثالثاً بصوت أكثر انخفاضاً ثم رابعاً ، وهكذا حتى وصل صوت الشاب في الانخفاض إلي درجة الهمس! وهنا قال الشاب للأستاذ محمد عبد الوهاب هل حضرتك لا تريدني أن أغني؟؟ فرد الأستاذ محمد عبد الوهاب عليه وقال: أيوه يا ابني بالضبط كده! واتصل ثاني يوم بالمسؤول الكبير واعتذر له عن التلحين لصوت لا يصلح للغناء ، وهذه القصة رواها لي صديقي العزيز متعه الله بالصحة الأستاذ زكريا عامر مهندس الصوت بالإذاعة والتليفزيون المصري والذي سجل للأستاذ عبد الوهاب كل أعماله الأخيرة خلال الثلاثين عاماً السابقة لوفاته، وكذلك لعب دوراً بارزاً في خروج آخر روائع الأستاذ محمد عبدالوهاب "من غير ليه" إلى النور بعد أن أعدها الأستاذ محمد عبد الوهاب لكي يغنيها الفنان عبد الحليم حافظ في السبعينيات ، ولكن عبد الحليم توفي إلى رحمة الله قبل أن يغنيها ويوجد شريط نادر في الإذاعة المصرية لمقاطع من أغنية "من غير ليه" بصوت عبد الحليم حافظ أثناء تدريب الأستاذ محمد عبد الوهاب له على اللحن، وهذا التسجيل كان في مستشفى كنجز كروس بلندن أثناء مرض عبد الحليم حافظ الأخير عام١٩٧٧، وعندما توفي عبد الحليم تُرك هذا اللحن بالأدراج لعدم اقتناع الأستاذ محمد عبد الوهاب بأى صوت آخر يمكن أن يؤدي هذا اللحن غير عبد الحليم حافظ.

ومن أهم الصفات الحميدة التي رأيتها في الأستاذ محمد عبد الوهاب الذي قابلته ثلاث مرات في القاهرة وعدة مرات في باريس هو حرصه الزائد على الجدية في كل شيء، وهذا الحرص أدى به إلى إتقان عمله بمنتهى الحرفية سواء في التلحين أو في الغناء وقد تعلّمتُ منه ما يُطلق عليه "بالشك الصحي" أي الشك الذي يؤدى بك إلى محاولة إجادة عملك بأقصى ما يمكن من عدم الرضا عن هذا العمل والشك في كماله على الوجه الأمثل حتى تصل إلى درجة الرضا عن هذا العمل ، ثم تقدمه للجمهور في أفضل صورة، وقد لاحظته في طريقة كلامه وحديثه وطعامه وآرائه فأحسست بأنه لا يتصرف أي تصرف إلا بعد مرور هذا التصرف على فلتر عقله وفكره، ومن هنا أدركت لماذا لم يختلف مع أحد طوال عمره ولديه الثقة بالنفس التي تجعله يحمل صفة "كبرياء المتواضع" وهي الصفة التي حملها الأديب نجيب محفوظ أيضاً حامل جائزة نوبل في الأدب .

وكان الأستاذ محمد عبد الوهاب يحمل في قرارة نفسه صفات وهدوء ورصانة وأدب الملوك والرؤساء ، وكانوا هم يعاملونه وكأنه واحد منهم وخصوصاً الرئيس جمال عبدالناصر والرئيس أنور السادات الذي كان يستقبله في استراحة القناطر الخيرية ، ومعه الأستاذ المهندس زكريا عامر، (عندما قرر الرئيس السادات تغيير نشيد السلام الوطني المصري إلى أغنية بلادي بلادي لكِ حبي وفؤادي وذلك بعد توقيع معاهدة السلام) ويطول الحديث الودى بينهما في كل الأمور الفنية وغيرها، فكيف استطاع هذا العبقري الأستاذ محمد عبد الوهاب ابن حي باب الشعرية العريق أن ينتقل من هذا الحي الشعبي الجميل إلى قصور الأمراء وقصر أحمد بك شوقي أمير الشعراء في العشرينيات والثلاثينيات، ثم إلى قصور الرؤساء بعدها ويعلم نفسه اللغة الفرنسية ويتكلمها بطلاقة رغم أنه لم يتلق تعليما عاليا منتظما في حياته ، وينتقل بفنه من هذه القصور إلى مستوى عامة الشعب الذين نشأ بينهم ويحافظ على تواضعه الجم وأدبه ، ولا يدخل في نفسه الغرور على مدى سبعين عاماً من عمره الفني؛ ولذا وصفته السيدة أم كلثوم بعبقري الموسيقي العربية ومن الصعب أن يتكرر قريباً.



مؤلف الكتاب مع تمثاله الخاص بموسيقار الأجيال الأستاذ محمد عبدالوهاب

ورأيي أن المحافظة على مستواه الفني والاجتماعي والثقافي خلال تلك الأعوام يعتبر من المستحيلات التي يجب أن نحترمها، وبالذات لأنه لم ينضم لحزب معين ولم يتناول الخمور ولم يكن يهوى السهر ، ووضع برنامجاً لحياته الاجتماعية والطبية والغذائية والتزم به طوال عمره، حتى درجة الحرارة التي كان يعيش فيها لم تكن لتتعدى ٢٨ درجة مئوية ، ولم يسمح لمخلوق كائنا من كان أن يجبره على تغيير نموذج حياته، ونظامه الدقيق في المحافظة على صحته كما حكى لي الأستاذ زكريا عامر، أي أن المستحيل في هذا الجزء من الكتاب هو أن الموسيقار استطاع أن يتصدى لأي محاولة للتغيير في صفاته الحميدة وهي الإجادة والإتقان والصبر وحسن الخلق.

ولد الأستاذ محمد عبد الوهاب في ١٣ مارس عام١٩٠٢ في حارة برجوان بحي باب الشعرية بوسط القاهرة، والده الشيخ محمد أبو عيسى ، والذي يرجع أصله إلى مدينة أبوكبير بمحافظة الشرقية تلقى تعليمه الأولي بالمدرسة وحفظ القرآن الكريم بالكُتاب ودرس العزف على العود في معهد الموسيقي العربية وظهرت بوادر نبوغه في العزف والتلحين في فترة مبكرة من عمره، اشتغل أولاً بالغناء بالصالات والمسارح والتمثيل في القاهرة لفترة قصيرة، ثم تفرغ بعدها للتلحين والغناء فقط .

وأثرت نشأته الدينية على حياته فيما بعد، حيث عاش ملتزماً وصادقاً ويحب ويقدر إتقان العمل ، وتعلم النغم من المنشدين الدينيين وكان صوت المؤذن في جامع سيدي الشعراني بحي باب الشعرية يؤثر فيه جدًّا ويستمتع به .

وصقل هوايته للموسيقى بالدراسة، وظهر نبوغه في العزف والتلحين والغناء في عشرينيات القرن الماضي ، والتزم من أول حياته الفنية بتلحين الكلمات الجادة البعيدة عن الإسفاف، ولحن بعض المسرحيات الغنائية لعدة فرق في مصر، واستمع إليه أمير الشعراء أحمد بك شوقي وتبناه فنيًّا وأدبيًّا ، وتعهده بالرعاية الأبوية حتى يحميه من الاضطرار للغناء والتلحين من أجل لقمة العيش، وهذا ما كان سائراً في ذلك الوقت ؛ وحتى ينأى به عن السهرات والخمور والإدمان، كما حدث لبعض الفنانين في ذلك الزمن .

وخلال مرافقته لأمير الشعراء، تعرف محمد عبد الوهاب على عِلية القوم من الأمراء

والباشوات والبهوات وأعيان البلاد، ومجتمع مصر المخملي الراقي في ذلك الوقت ، واستطاع محمد عبد الوهاب بذكائه واستعداده الفطري للرقي والتطور أن يمتزج بسهولة مع هذه الطبقة الراقية من المجتمع المصري، وقد رأيت في متحف أحمد شوقي بالجيزة (كرمة ابن هانئ) صورة نادرة تجمع الزعيم الكبير سعد زغلول باشا، ويجلس بجانبه أمير الشعراء أحمد شوقي والأستاذ محمد عبد الوهاب يقف وراءهم في خلفية الصورة عام١٩٢٦.

ارتبط الأستاذ محمد عبد الوهاب بصداقة خاصة مع الأستاذ الشاعر فاروق جويدة؛لأن والد الشاعر كان من أشد المعجبين بفنه في محافظة البحيرة وعَلمَ ابنه الأستاذ فاروق كيفية تذوق اللحن الجميل والكلمات الراقية، وتقابل الأستاذ فاروق فيما بعد مع الأستاذ عبدالوهاب في منزل الأخير عام١٩٧٠ وارتبطا بصداقة لم يشوبها مصلحة أو منفعة لكنها صداقة فكر قريب من فكر، والتي استمرت عشرين عاماً ، وكان الأستاذ محمد عبد الوهاب هو الشخص الوحيد الذي كتب الأستاذ فاروق جويدة قصيدة في رثائه عند وفاته عام١٩٩١ ولم يرثِ من قبله إلا والده فقط؛ لأن مشاعره تجاهه كانت مشاعر ابن لوالده، وقد وصفه الأستاذ فاروق جويده بأنه من جيل العمالقة في تاريخ مصر، هذا الجيل الذهبي في عصرها الحديث في القرن العشرين ، والذي أعطى للثقافة المصرية الريادة والضوء والمهابة وشكَّل وجدان هذه الأمة.. وأحيا جذوة الإبداع فيها في مجالات السياسة والفكر والفن والعلوم والمسرح والأدب والفلسفة والتعليم ، وإنشاء جامعة القاهرة ولو كَتبَ التاريخ عن أهم عشر شخصيات في تاريخ مصر الحديث لكان الأستاذ محمد عبد الوهاب واحدا منهم ، ولو صنفنا منهم المبدعين لكان عبد الوهاب أولهم .

ويعتبر الأستاذ فاروق جويدة من أصدق المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الأستاذ محمد عبد الوهاب الفني ؛لأن الأوراق الخاصة بالفنان الكبير تسلمها سيادته من السيدة نهلة القدسي حرم الفنان محمد عبد الوهاب، وذلك لوصيته لها قبل الوفاة أى أنه حَمَّلَه مسؤولية كتابة تاريخه الفني ومسيرة حياته، وأوفي الكاتب الكبير بما كُلِّف به ، وحمل على عاتقه مسؤولية التأريخ لرحلة قرن من الفن الجميل وصدر الكتاب المذكور عن دار الشروق عام٢٠٠٧ واسمه "رحلتي".

من أهم صفات الأستاذ محمد عبد الوهاب أنه كان يحترم الوقت جدًّا ، ورغم صداقاته الكثيرة لعدد من رجال السياسة والأدب والصحفيين والنقاد والفنانين، إلا أنه كان يختار من بين هؤلاء من يقربه منه، حتى لا يضيع وقته في الاجتماعيات والسهرات وجلسات النميمة والقيل والقال التي يتمتع بها الناس أحيانا وكان يشعر أنه من الخطأ أن يترك وقته مضيعة لمن يستحق هذا الوقت ومن لا يستحقه وكان يقول دائماً : "إن من يحاول الإجادة في عمله ، لن يجد لديه وقتا للثرثرة مع الآخرين فيما لا يفيد!!.

ولذا أصبح الأستاذ محمد عبد الوهاب مُهابا ومُقدَّرا من الملوك والحكام ، وفي نفس الوقت فنان العالم العربي الأول؛ وذلك لترفعه عن المجادلات والهجوم على الآخرين وحُسن استماعه لجميع الآراء حيث كان يستمتع بأحاديث الآخرين، إذا كانوا مثقفين ويحاول الاستفادة من معلوماتهم ، حتى ولو كانوا من غير الفنانين لدرجة أنه كان يتمتع بثقافة طبية عن الأدوية والأمراض وأعراضها في مختلف التخصصات من كثرة استماعه لأصدقائه من الأطباء ، وكان يتمتع بذاكرة قوية جدًّا وهي ما نسميها في الطب "ذاكرة فوتوغرافية" تلتقط المعلومة وتسجلها فوراً، وكان يحب أن ينقل المعلومات الموثقة إلى الآخرين في جلساته الخاصة، وكان مقتنعا تماماً أن الشك الصحي هو الطريق لإجادة العمل وإتقانه؛ لأن الواثق دائماً في عمله قد لا يراجع نفسه كثيراً، وذلك يؤدي به إلى الاستسهال وعدم الإتقان، أما الذي يعاني من الوسوسة أو الشك الصحي، فهو شخص حريص على النجاح وخائف من الفشل، وهذه ظاهرة صحية أيضاً في علم الطب؛لأن الطبيب العالم هو الذي لا يتسرع في تشخيص المرض، قبل التأكد بالفحوص والأبحاث ومراجعة نفسه.

كان الأستاذ محمد عبد الوهاب شخصية مرنة في كل صنوف فن الموسيقي، وينتقل من عصر إلى عصر بمنتهى السهولة والإتقان، ومن الموسيقي الشرقية بالآلات القديمة إلى الموسيقى الغربية بالآلاتها الحديثة مثل الشيلو والكونترباص والكاستنانيس والأورج واستطاع أن يُطعِّمَ ألحانه ببعض الألحان الغربية بعد تطويعها لتتناسب مع ذوق ورغبة المستمع العربي ، وأحدث تطويراً هامًّا في الموسيقى الشرقية لم يسبقه إليه أحد حيث كانت بعض أغانيه يحتوي اللحن الواحد منها على عدة نغمات بياتي ودوكا ونهاوند، وكان يتذوق

الشعر العربي تذوقاً عالي المستوى ، وذلك يرجع إلى مرافقته لأمير الشعراء أحمد بك شوقي والذي لحن له العديد من قصائده .

وكان محمد عبد الوهاب أول ملحن في فترة العشرينيات والثلاثينات يجعل عامة الناس يستمعون إلى أبيات شعر أحمد شوقي، أي أنه مع السيدة أم كلثوم قد ساهما في الارتقاء بثقافة وبذوق المستمع المصري والعربي على مدى نصف قرن، وكان لا يرد على منتقديه خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي ويقول: عليك أن تضع أوراق الصفحات التي تنتقدك وتقف عليها واحدة بعد الأخرى ، وسوف تجد نفسك تعلو رويداً رويداً حتى تصير قامة كبرى وكان ذلك ردًّا على اختياره للقصائد الجادة في الشعر العربي لتلحينها رغم وجود الكثير من الإسفاف ، وفن الكباريهات والأغاني الخليعة في ذلك الوقت .

ولكن رهان الأستاذ محمد عبد الوهاب كان على أمل ظهور طبقة من جمهور المستمعين الجدد المثقفين في المجتمع المصري والعربي ، وفعلاً حدث ما كان يتوقعه هو والسيدة أم كلثوم وكبار الملحنين والمؤلفين، حيث اندثرت بقايا فناني الملاهي الليلية والحانات وأُطيح بهم وجاءت فترة الأربعينيات والخمسينيات والستينيات ليسيطر الجيل الذهبي على الساحة الفنية من أمثال :الأستاذ فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ ومن الملحنين الأستاذ رياض السنباطي ومحمد فوزي ومحمد الموجي وكمال الطويل وأحمد صدقي وبليغ حمدي، وظهر أيضاً كبار كتاب الأغاني مثل: أحمد رامي وعبد الفتاح مصطفي وحسين السيد ومرسي جميل عزيز وعبد الوهاب محمد والأمير عبد الله الفيصل.

هذه هي معلوماتي البسيطة والمتواضعة عن الأستاذ محمد عبد الوهاب الموسيقار الكبير والذي حظيَ بإعجاب وتقدير ثلاثة أجيال من أبناء الشعب المصري والشعوب العربية وأطلقنا عليه موسيقار الأجيال لهذا السبب، وعاش لما يقرب من التسعين عاماً وكبح جماح نفسه في الملذات مثل: المأكل والمشرب والسهر والعبث واستسهال الإنتاج السريع للأعمال الفنية، ولهذا اعتبرته إنسانا تحدى نفسه وطوعها لكي تسير في الطريق الصحيح طوال تسعين عاماً؛لأن أصعب شيء في الوجود أن يستطيع الإنسان أن يكبح جماح نفسه واعتبرته نوعاً من تحدى المستحيلات التي يندر من يستطيع تحملها، وقد

أكون على صواب أو على خطأ والله أعلم.

وتوفي المرحوم الفنان الأستاذ محمد عبد الوهاب في الأسبوع الثاني من شهر مارس عام١٩٩١ وأقيمت له جنازة عسكرية - إذ كان يحمل رتبة العميد أنعم بها عليه رئيس مصر الأسبق أنور السادات - وشعبية مهيبة (وقد حضرتُ هذه الجنازة) وشيعه إلى مثواه الأخير جمع غفير من أبناء الشعب المصري ، وكبار المسؤولين في الدولة وعدد كبير من سفراء الدول العربية والإسلامية في مصر ، وكبار فناني مصر وذلك تقديراً للفنان الكبير الذي تميز بالعبقرية الممتزجة بالإرادة والإتقان وحب العمل.

98



موليير
(مسرحي)

"عميد المسرح الفرنسي وصراعه مع السجون والديون"

أغلب المثقفين يعرفون فرقة "الكوميدي فرانسيز" الفرنسية، والتي تعتبر بمثابة المسرح القومي الفرنسي والتي أسسها الكاتب المسرحي الفرنسي العالمي "موليير" .

ولكن ما هي العقبات والتحديات والمستحيلات التي تصدى لها هذا المحامي الفرنسي اليتيم خلال حياته حتى صار علامة مميزة في تاريخ الكتابة المسرحية والتمثيل في القرن السابع عشر والصعوبات التي صادفته بداية من عدم موافقة والده على امتهانه هذا العمل ووقوف رجال الدين في هذا العصر موقفاً متشدداً منه حتى بعد وفاته لدرجة أنهم رفضوا الصلاة على جثمانه بعد الموت لولا تدخل ملك فرنسا نفسه، وبين البداية والنهاية كان تعرض فرقته المسرحية للإفلاس وتراكم الديون عليه حتى إنه أُدخل السجن مرتين ونزحت فرقته المسرحية ثلاث عشرة سنة لتقدم عروضها في الريف الفرنسي، حتى سُمحَ لها بالعودة مرة أخرى إلى باريس واستئناف عروضها المسرحية بالعاصمة، لتصبح واحدة من أشهر الفرق المسرحية في أوروبا حتى الآن، وهذه هي قصته في مواجهة الصعوبات إلى أن صار كاتباً وممثلاً مسرحيًّا لم يعرف المستحيل.

ولد موليير عام ١٦٢٢ في فرنسا، وكان محظوظاً حتى في تاريخ ميلاده؛ لأن القرن السابع عشر هو الزمن الحقيقي في تاريخ البشرية الذي ظهرت فيه روائع الفن المسرحي الحقيقي ، بداية من أعمال الشاعر المسرحي البريطاني الكبير وليام شكسبير ، وكان المسرح قبل ذلك

يميل إلى عرض الروايات المقتبسة من الأساطير اليونانية أو يعرض المسرحيات المستوحاة من الأديان والمسرحيات الهزلية للمهرجين من أجل إضحاك الجماهير، أي لم يكن هناك عمق فلسفي للروايات المسرحية حتى ظهور هذين النجمين الأوربيين، وبعض كتاب المسرح الروسي والألماني والأسباني، وهؤلاء الكتاب العمالقة ليس من حقنا أن نهملهم وذكرى هؤلاء الكتاب ستظل علامة بارزه في تاريخ الفن ؛ لأننا لا نزال نشاهد كثيراً من أعمالهم ونتعلم منها.

فقد موليير والدته وهو في سن الحادية عشرة واهتم والده بتربيته، ورغم أن كان يعمل بائعاً للسجاد فقد ربى ابنه "جان ستيد بوكلان" وهو اسمه الحقيقي، على حب العلم والثقافة وأدخله مدرسة اليسوعيين في باريس ثم ألحقه بكلية "كلير مونت" وألحقه فيما بعد بكلية الحقوق في مدينة "أورليان"، ودرس موليير الفلسفة أيضاً على يد مسيو "جاسندي" ودرس أصول الشعر الفرنسي على يد الشاعر "لوكريس" وعندما تخرج في كلية الحقوق اشتغل بالمحاماة سنة واحدة ترافع فيها في قضية واحدة، ولم يستطع ولم يشأ أن تكون مسيرة حياته في مهنة المحاماة؛ لأنه يحب المسرح والأدب من صغره، حيث كان جده لأمه يصطحبه معه إلى العروض المسرحية أثناء طفولته فتعلق بهذا الفن، وكان والده شديد القسوة عليه دائماً ودائم التحذير له من سلوك هذا الدرب، وأتذكر زميل الدراسة في مدرسة الإبراهيمية الثانوية المرحوم الفنان إسماعيل توفيق الحكيم ابن الأديب الكبير توفيق الحكيم، وكيف أنه هوى الموسيقي من الصغر ومارسها، وكون فرقته الموسيقية برغم معارضة والده الكاتب الكبير والعظيم توفيق الحكيم.

كذلك حاول والد موليير إثناءه عن هذا الطريق مراراً ثم أخيراً سلط عليه مدرسه القديم في المدرسة واسمه "جورج بينيل" والذي كان موليير يُكِنُّ له عظيم الاحترام، وعندما جلس موليير مع أستاذه الذي جاء متحمساً لإقناعه بآراء والده وترك الفن المسرحي، استطاع الشاب موليير أن يقنع أستاذه بأهمية العمل المسرحي والتأليف للمسرح؛ لنشر الوعي بين الجماهير، ومن أطرف ما حدث بعد ذلك أن موليير استطاع أن يقنع مدرسه بالعمل معه كممثل على المسرح مساءً!!

وفي يونيو عام١٦٤٣ اتفق موليير مع بعض من أصدقائه وثلاثة من أفراد أسرته

ومدرسه على تكوين فرقة مسرحية خاصة بهم يتولى موليير تأليف الراويات والتمثيل بالفرقة أيضاً ، وسميت فرقة "المسرح العظيم الفخم" وحمل أفراد الفرقة أسماء فنية لكل منهم ومن وقتها ظهر اسم "موليير" بديلاً عن اسمه الأصلي "جان باتيسيد" وكانت المسارح تؤجر بالأسبوع في تلك الفترة، وظلت الفرقة تستأجر المسرح بعد الآخر وتعرضت لخسائر وديون ثقيلة ورفض والد موليير تسديد ديون ابنه بعد أن قُبضَ عليه ودخل السجن مرتين ، وقضى بعضاً من فترات العقوبة لعجزه عن سداد الديون وظهرت استحالة بقاء الفرقة في مدينة باريس واضطرت الفرقة لتقديم عروضها في الريف الفرنسي عام١٦٤٥ وصارت تعرض فنها من منطقة إلى منطقة أخرى لمدة ثلاثة عشر عاماً في رحلة تجوال مسرحية لم تتعرض لها فرقة مسرحية عبر التاريخ، حتى اهتدى موليير إلى صديق دراسة قديم يعمل أميراً لمنطقة "كونتي" بفرنسا ، وعرض عليه الأمير أن يعمل سكرتيراً له بدلاً من حياة الترحال والتشرذم التي يعيشها، ولكن موليير رفض هذه الوظيفة؛ حبًّا لمهنته في التمثيل والكتابة ووفاءً لفرقته المسرحية التي تعبت معه من كثرة التجوال، وأيضاً حبًّا في الاستقلال عن المناصب وكبار القوم.

ابتسم الحظ لموليير عام١٦٥٨ عندما شاهده دوق "أورليان" على المسرح، وهو يمثل مسرحية "الدكتور المحب" وأعجب به وبها ، وهذا الدوق كان شقيق ملك فرنسا في نفس الوقت وعندما طلب منه موليير أن تعرض الفرقة مسرحيتها في باريس، رفع شقيق الملك الطلب إلى أخيه عام١٦٥٨ ووافق الملك وسمح للفرقة أن تعرض المسرحيات وتستقر في باريس وسميت الفرقة باسم "فرقة شقيق الملك" وقدمت أولى حفلاتها بمسرح "البوريون" أولاً ، ولاقت نجاحاً كبيراً حيث تفردت بتمثيل العروض المسرحية الجادة ذات المعاني الاجتماعية والفلسفية العميقة من تأليف دارس الحقوق والفلسفة والأدب الموهوب موليير، ثم تغير اسم الفرقة إلى "الفرقة المسرحية الملكية" ونالت تقدير واحترام الدولة وانتقلت عروضها إلى إحدى قاعات قصر "اللوفر" مما أضفى عليها مزيداً من الشهرة والفخامة في العروض والديكورات واحترام المشاهدين، وظل موليير يمثل فيها مسرحياته حتى آخر ليلة في حياته التي توافق ١٧فبراير عام١٦٧٣ ومن أشهر مسرحياته الثلاثين والتي أبدعها أثناء حياته ومثل الدور الأول بها مسرحيات "المتزمت،

البرجوازي الشريف، مريض الوهم (آخر مسرحياته)، النساء العالمات، طرطوف، المتحذلقات المضحكات، البخيل.

ومن أهم صفات كتاباته المسرحية أنها كانت تصور خبايا النفس البشرية، وتتصدى للعيوب والرذائل التي تصيب المجتمعات في جميع أجناس العالم وفي كل الأزمنة، ولم يتطرق موليير لنقد مجتمع معين أو ثقافة معينة ، ولذا اكتسبت مسرحياته صفة العالمية وعندما كتب بعض المسرحيات بنزعة هزلية، كان بها أيضاً مضمون اجتماعي يدعو إلى الفضيلة، وكانت كتاباته تميل إلى الرقة في التعبيرات وتصور طبيعة الإنسان في أبرز ملامحها واختلف موليير عن معاصريه من كتاب المسرح بعمق الأفكار التي كان يقدمها والتي تشجع المتفرج على التفكير في الأحداث ، وابتعد أيضاً عن استعمال حكايات الأساطير اليونانية والبيزنطية القديمة التي ملَّ منها الجماهير .

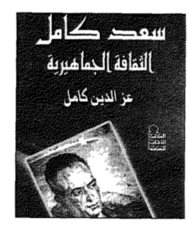
ولم يتطرق للعمل أو التأليف في المسرحيات الدينية أو التي تحتوي تراثاً فكريًّا عقائديًّا قد يتفق أو يختلف الناس عليه، ولذا ظهرت جفوة كبيرة بينه وبين رجال الدين؛ حيث لم تكن مسرحياته على هواهم أبداً وبالذات مسرحية "الطرطوف"، ولذلك عندما حضرت ساعة وفاته يوم ١٧ فبراير عام١٦٧٣ بعد عودته من المسرح وفي نفس الليلة، تلكأ رجل الدين في الحضور إلى المنزل لمناظرته قبل الوفاة ، وعندما وصلوا إلى المنزل كان موليير قد أسلم الروح، وثاني يوم رفضت الكنسية الفرنسية أن يُصلَّى على جثمانه صلاة الموتى قبل أن يدفن لولا اتصال زوجته بملك فرنسا لويس الرابع عشر، التي طلبت منه التوسط لدى رجال الدين في كنسية "سانت أوستاتش" بأن يدفن زوجها كمسيحي تبعاً للطقوس المعتادة، وتدخل الملك لدى كبير أساقفة فرنسا والذي سمح بدفنه ليلاً ، ولكن من دون احتفال ديني ومن دون صلاة جنائزية على الجثمان، ولا قداس .

ورغم أن زوجته هذه كانت إحدى مصائبه في الدنيا حيث كانت تصغره بثلاثة وعشرين عاماً وشخصية تافهة، وعابثة إلى حد عدم تحمل المسؤولية وسببت له كثيراً من الآلام والمتاعب خلال حياته القصيرة معها وكان يتحملها ويحترمها كثيراً لأنها شقيقة إحدى زميلاته في المسرح، ولكن الاختلاف بينهما كان شاسعاً في الفكر والعبقرية والهوايات

والاهتمامات ، ومع ذلك تحملها من ضمن ما تحمل خلال مشوار حياته.

كان موليير رقيقاً وحنوناً وصابراً وقوى الشخصية مما مكنه من عبور مسيرة الحياة ، حتى أسس إحدى أهم الفرق المسرحية الفرنسية وهي فرقة "الكوميدي فرانسيز" أو المسرح الفرنسي، وهي الفرقة المكونة من ممثلي فرقته بعد أن تم دمجها مع فرقة "بورجوني" ليكونا معاً فرقة واحدة عام١٦٨٠ أي بعد وفاة موليير بسبع سنوات، وفرقة المسرح الفرنسي لاتزال قائمة حتى الآن في باريس وتسافر لتقديم عروضها في شتى أنحاء العالم في حال دعوتها وتنشر الثقافة والفن المسرحي الفرنسي الجاد الذي أسسه عميد المسرح الفرنسي موليير بعد سلسلة من التحديات ، صادفت هذا الموهوب الذي لم يعش إلا ٥٠عاماً فقط ولكنه ترك أثراً سوف يعيش ألف عام.

99



الأستاذ سعد كامل
(أديب)

"من السجن إلى مؤسس قصور الثقافة الجماهيرية"

رحلة حياة الأستاذ الأديب سعد كامل ليست سيرة حياته الذاتية فقط، ولكنها أيضاً تعبير عن صورة مجتمع بأكمله وكل ما يدور فيه، الزمان والمكان والناس خلال حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي ، وتعبر عن رحلة جيل بكامله عانى فيه بعض المثقفين من المطاردة ووأد الأفكار ، حتى لو كان بعضها صحيحاً ويمكن أن يستفيد منه المجتمع .

ولكن في كل العصور يظهر من يتحدى المستحيلات ويواجه الصعاب ثم يرسل الله له من يقف بجانبه من المسؤولين الكبار العظام ، حيث يشدون من أزره وينتشلونه من غياهب السجون ويقدرون موهبته ويتبنونها ويخرجونها إلى العلن وغالباً ما يكون هؤلاء المنقذون من خارج إطار القرابة والصداقة ؛ لأن أغلب المحيطين بهم هم أقرباء وأصدقاء الأوقات الجميلة وأيام العز والمنصب والثروة، أما المثقفون فعدد أصدقائهم لا يتعدى أصابع اليدين، وهذا خوفاً فطرياً لدى عامة الناس من الاقتراب من المفكرين وبالذات في الأوقات الحرجة، وهذه هي قصة حياة هذا الأديب العبقري الأستاذ سعد كامل، وكيف أنقذه وزير الثقافة السابق العظيم الدكتور ثروت عكاشة (الذي كان له دور مؤثر ورائع وهام في تثقيف جيل بأكمله خلال القرن الماضي، وما هي خدمة العمر الذي أداها له الأستاذ الدكتور أحمد عكاشة أستاذ الأمراض النفسية وشقيق الوزير)، حين ذهب إليه في السجن واستمع إليه ثم نقل ما سمعه منه إلى شقيقه الدكتور ثروت الذي ذهب إليه أيضاً

وسَمع أفكاره وأخرجه من السجن بعد موافقة الرئيس جمال عبد الناصر، ثم كلفه بتنفيذ الأفكار التي سمعها منه في السجن.

وكانت تلك الأفكار هي إنشاء "قصور الثقافة الجماهيرية" في محافظات مصر، والتي ينهل الجميع من روافدها حتى الآن، وأصبح هذا الرجل قاطرة الثقافة الجماهيرية والشعبية خلال فترة الخمسينيات والستينيات ومنتصف السبعينيات، حتى حدثت الانتكاسة الثقافية التي نعيش فيها الآن والتي تعتبر أقصى من نكسة يونيو١٩٦٧ والتي أمكن تدراكها وتصفية آثارها بحرب١٩٧٣ وإتفاقية السلام فيما بعد، ولكن النكسات الثقافية للشعوب تحتاج لجيل أو جيلين متتالين لرفع أنقاض الجهل والتخلف الفكري والثقافي، لأن إعادة بناء مدينة أو محافظة يحتاج إلى خمس سنوات فقط، وإعادة بناء ثقافتهم وفكرهم يحتاج إلى ثلاثين عاماً أو أكثر، وهذه المقالة هي سيرة حياة الأستاذ سعد كامل أحد مؤسسي قصور الثقافة الجماهيرية، والتي أصدرها المجلس الأعلى للثقافة عام٢٠١٠ في كتاب قام بتأليفه شقيقه الأستاذ عز الدين كامل عن سيرة حياته وعلقت عليه الأستاذة الدكتورة ليلي الراعي واحدة من رؤوساء القسم الأدبي في جريدة الأهرام الغراء وهي ابنة أستاذنا الراحل والفاضل الأستاذ الدكتور علي الراعي مؤسس تخصص النقد الأدبي للجيل السابق علي جيلنا، والذي كان أول من تولى مؤسسة المسرح مع الأستاذ أحمد حمروش وبدآ معاً توسيع قاعدة المسرح وإنشاء فرق الأقاليم، وبدأ دور الثقافة الشعبية والثقافة للجميع مثل المشروع الذي أقامه محمد بك فريد عام١٩٠٨ لتعليم الشعب ومحو أميته الثقافية، والذي أزعج سلطات الاحتلال الإنجليزي، فأصبح أول المصريين الذين حكم عليهم بالنفي الاختياري إلى ألمانيا، وكانت هناك محاولة أخرى من الدكتور أحمد أمين عام١٩٤٥ لإحياء ثقافة الشعب وقدمها لوزير المعارف في ذلك الحين وطالب فيها بتغذية الشعب بغذاء ثقافي ومحو أميته؛ لأنهم محرومون ثقافيًا وقال كلمته الشهيرة: "**إن منع الثقافة إجرام كبير كإجرام حبس بريء أو تجويع فقير**".

ولد الأستاذ سعد كامل في نوفمبر عام١٩٢٣ بحي السيدة زينب بالقاهرة ووالده كان مدرساً للغة الإنجليزية ورَثَ عن والدته "زكيه هانم" حب الفن والأدب والسياسة، وكان شقيق والدته هو الطالب في كلية الحقوق (فتحي رضوان) الوزير فيما بعد والذي لعب أثراً

كبيراً في حياته وأشركه وهو صغير في حملة "صنع في مصر" والتي كانت تدعو إلى شراء المنتجات المصرية فقط، ثم في حملة مشروع القرش في الثلاثينيات لإقامة مصانع مصرية خالصة وزَكّى فيه الروح الوطنية، تلقى تعليمه الابتدائى في محافظة الفيوم عند انتقال والده للعمل لها، وكان مدرس الرسم له هو الفنان (صلاح طاهر) الذي تعلم منه التذوق الفني، تنقل في المرحلة الثانوية بين ثلاثة محافظات: المنيا أولاً ثم بني سويف وأخيراً القاهرة في مدرسة الخديو إسماعيل ثم مدرسة السعيدية، وكان يكتب مقالات في جريدة بني سويف المحلية وهو بالثانوي وصقله سياسيًّا الصحفي حسن سلومه الذي كان يعمل بجريدة الأهرام وذلك بتوصية من أحد أقاربه، ثم التحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة وتخرج فيها عام١٩٤٥ وعمل محاميا تحت التمرين في مكتب خاله فتحي رضوان، قبض عليه بتهمة الاشتراك في حادث مقتل أمين عثمان مع ٢٥ فرداً أخرين ومن بينهم محمد أنور السادات (الرئيس فيما بعد) عام١٩٤٦ وكانت تهمتهما متطابقة عند المحاكمة في فبراير عام١٩٤٧، لاحظ سعد كامل أن فريق الدفاع عن المتهمين يتكون من لفيف من أكبر المحامين في مصر، والمسيحي يدافع عن المسلم والمسلم يدافع عن المسيحي أمام القضاء وأيضاً تطوع المحامي اليهودي المصري زكي العريبي للدفاع عن ثلاثة متهمين مسلمين مصريين، وكذلك المحامي توفيق دوس عن محمد إبراهيم كامل (وزير الخارجية فيما بعد)، ومكرم عبيد باشا يدافع عن المتهم الرئيس في القضية سعيد توفيق، فرأى سعد كامل مصر كلها انصهرت في قضية واحدة وزاد ذلك من حسه الوطني، حتى إنه بعد الحكم ببراءته لم يتوجه إلى منزله ولكن توجه إلى حسين توفيق (المتهم الهارب) وأبلغه بالحكم عليه بعشر سنوات سجنا، وساعده على الهروب من مخبئه ورافقه إلى منزل الأستاذ إحسان عبد القدوس الذي رحب به وأخفاه في منزله عن عيون البوليس السياسي حتى تم نقله إلى بني سويف سرًّا.

سافر إلى بولندا عام١٩٥١ على نفقته الخاصة لحضور مؤتمر حضره ٨٢وفداً من أنصار السلام الذي ضم صفوة مفكري العالم، وكان الداعي للمؤتمر زوج ابنة ميري كوري العالمة البولندية العظيمة، وجميع الوفود دعت إلى منع نشوب حرب تستعمل بها القنبلة الذرية مرة ثانية ، ألقى سعد كامل كلمة بسيطة وقال فيها "باسم ١٧ مليون مصري (عدد المصريين في هذا الوقت) .. وباسم حضارة وادي النيل من أربعة آلاف عام .. نقف مع

السلام في كل مكان".

في عام١٩٥١ توطدت علاقة سعد كامل بسفارات الدول الاشتراكية وفي عام١٩٥١ تقابل مع إحدى الموظفات بالسفارة المجرية، وأعجب بها وتزوجها واسمها ماري والتي شهدت معه سنوات السجن الواحدة تلو الأخرى وهو بالسجن الحربي والواحات وطرة وهي دائماً بسجن القناطر، وكانت في بعض الأحيان يُفرج عنها بعده بسنوات، وكان والدها مصري يهودي تحول إلى المسيحية بعد زواجه من والدتها المسيحية الإيطالية.

تم الزج بسعد كامل إلى السجن مرة أخرى عام١٩٥٢ بعد حريق القاهرة لاشتباه في مسؤولية الحزب الذي ينتمي إليه عن الحريق ، وتم الإفراج عنه بعد ثورة يوليو، تم دعوته إلى مهرجان الشباب العالمي في رومانيا عام١٩٥٣ وكان البوليس المصري يتابع تحركاته فألف وفداً شبابيًّا من ٦٣ فرداً من ثلاثة تخصصات مختلفة فنية استعراضية بقيادة الفنانة تحية كاريوكا، رياضية بدنية بقيادة الآنسة سميحة حتاته لاعبة كرة السلة في نادي الجزيرة وهي شقيقه صديقه السجين الدكتور شريف حتاته، ووفد سياسي بقيادته، وكل ذلك بعيداً عن عيون بوليس الثورة، حيث كانوا يعقدون اجتماعات التمهيد للسفر في نادي الجزيرة، ونجح الوفد المصري في رومانيا نجاحاً باهراً ، وكتبت عنه جميع صحف العالم الشهيرة؛ لأنه فاجأ العالم بالاستعراضات المصرية، تم وضع سعد تحت المنظار بعد عودته هو وزوجته، حتى جاء نوفمبر١٩٥٣ حيث جاءه زوار الفجر وأحس بخطواتهم في المنزل ولم يعتقد مطلقاً أنهم لصوص حيث لا شيء بمنزله ذا قيمة يستحق السرقة، وتمت محاكمته وأودع سجن الواحات وأودعت زوجته سجن القناطر بعد أن أمضى بعض الوقت في السجن الحربي، وكان في تلك القضية مجموعة من الفنانين أيضاً.

استمر الدخول والخروج من السجون حتى عام١٩٥٩ لدرجة أن سعد كامل تأقلم على الوضع وفكر في عمل فرقة مسرحية مع زملائه في سجن الواحات، ويقدمون عروضهم للمساجين ووافقت إدارة السجن ، وتم بناء مسرح خشبي بالحجارة وبالجهود الذاتية، كان خاله فتحي رضوان قد أصبح وزيراً للثقافة في عهد الرئيس عبد الناصر، فطلب من زكريا محيي الدين التوسط لنقل ابن شقيقته إلى أحد سجون القاهرة ؛ لأنه مريض ونصحه

صديقه السجين الطبيب شريف حتاته أن يذكر للجنة الطبية التي فحصته أنه يعاني من قيء ومرض مزمن بالمعدة، وتم نقله للقاهرة ستة شهور ليمكث في سجن ليمان طرة ثم عاد ثانياً إلى سجن الواحات ، وتوسط خاله مرة أخرى لعودته بسبب اشتباه إصابته بمرض نفسي، وعاد للقاهرة وتم إيداعه أولاً تحت الحراسة في مستشفى أحمد ماهر وكان الأطباء يتجمعون حوله ليستمعوا إلى أفكاره، ثم نقل إلى مستشفى عين شمس الجامعي، وتعاطف معه الأطباء أيضاً، وظهر من بينهم طبيب شاب اسمه الدكتور أحمد عكاشة، وكان نائباً بالقسم وشقيق الدكتور ثروت عكاشة أحد الضباط الأحرار وأعلاهم ثقافة على الإطلاق، وحكى الدكتور أحمد عكاشة لعائلته عن هذا السجين العبقري الذي يحمل في عقله مشروع للثقافة المجتمعية في أوساط العمل والفلاحين والفقراء ، واستمع الدكتور ثروت عكاشة إلى أخيه الطبيب الشاب ولاحظ مدى إعجابه بثقافته، وذهب إلى الرئيس جمال عبد الناصر وقصَّ عليه حكايته مع السجون والبهدلة واستأذنه في الإفراج عنه، ونجحت المساعي وصدر قرار بالإفراج عنه ولحسن الحظ تولى ثروت عكاشة وزارة الثقافة، بعد ذلك وبدأ سعد كامل يعمل معه على نشر المنتديات الثقافية للتوعية الجماهيرية ، وبدأ في قرية زنين بالجيزة، ثم ذَهب للعمال والفلاحين والفقراء في أماكنهم وكأنه أراد أن يُشرف الدكتور ثروت عكاشة ويرد له الجميل، ويثبت للرئيس عبد الناصر أنه قادر على تحقيق حلمه الثقافي والتنويري للشعب ، ويدعم موقفه بعد انهيار الوحدة المصرية السورية عام١٩٦٢، وتم خلال الفترة من عام١٩٦٠-١٩٦٥ عمل خطة خمسية للثقافة ووضع سعد كامل برنامجا لبناء ١٥ قصر ثقافة على مستوى محافظات مصر بحيث يكون هناك قصر في عاصمة كل محافظة، حتى لا تكون الثقافة حكراً على محافظتي القاهرة والإسكندرية وتم إنشاء مراكز ثقافية تقوم بعرض أفلام التوعية وأفلام السينما في القرى والمحافظات ، وتم فصل الثقافة عن الإعلام لوجود تعارض بينهما في الأهداف، ورغم المعوقات الكثيرة والمشاكل البيروقراطية والصدام مع المحافظين والبوليس والتي صادقت سعد كامل، استمر في طريقه الوعر ما عدا الفترة التي تنحى فيها الدكتور ثروت عكاشة، وأطيح بسعد كامل وقتها، وتم نقله للعمل بجريدة أخبار اليوم .

ولكن دارت الأيام وتعثرت مشروعات الثقافة واستعان الرئيس جمال عبد الناصر بالدكتور ثروت عكاشة لكي يتولى مرة أخرى وزارة الثقافة ، وعاد سعد كامل ليلعب

الدور الرئيس في الثقافة الجماهيرية وساعده الدكتور على الراعي والكاتب أحمد حمروش والكاتب ألفريد فرج والفنان زكريا الحجاوي والأديب عبد الرحمن الشرقاوي والأديب يوسف إدريس وغيرهم، وقامت الفرق المسرحية والغنائية في مصر بزيارة المحافظات دورياً وتقديم العروض المسرحية والفنية، وتم إنشاء مكتبات في قصور الثقافية بحيث يستعير منها الأفراد الكتب وتم عمل حفلات خاصة بالأوبرا للمثقفين من العمال وساكني المحافظات للارتقاء بالذوق الفني للمجتمع المصري ، وطلب سعد كامل الإفراج عن زوجته من سجن القناطر للنساء أثناء عمله في هذه البرامج واستجيب إلى طلبه بصعوبة بالغة .

وهذه هي حكاية مؤسس برنامج الثقافة الجماهيرية الذي عاش فقيراً ومات فقيراً وخرج من السجون ليفتح أبواب المعرفة والثقافة للشعب المصري.

100

رجال المنجم في جمهورية شيلي
(إنقاذ)

"رسالة عزيمة وصبر من تحت الأرض.. ومهمة تحدٍّ فوق الأرض"

الأعمار بيد الله عزَّ وجلَّ ، ولكن على الإنسان حُسن التدبير والسعي ، وإذا كانت الحاجة أم الاختراعات، فإن العزيمة هي أم الإنجازات، هذه هي قصة العمل الجبار والعظيم الذي قامت به جمهورية شيلي على مدار اثنتين وعشرين ساعة لإنقاذ ثلاثة وثلاثين عاملاً انهار عليهم منجم نحاس ، يوم الخامس من أغسطس عام ٢٠١٠، وهي عملية الإنقاذ التي تابعها العالم من خلال شاشات التليفزيون وانبهر بها ما يزيد على ٢مليار نسمة على مستوى العالم بعد أن استمر احتجازهم لمدة ٦٨يوماً على عمق٦٢٥ تحت سطح الأرض ، داخل منجم جنوب غرب البلاد، ودخلت عملية الإنقاذ تلك موسوعة جينيس للأرقام العالمية كمثال لأغرب وأتقن وأطول عملية إنقاذ في التاريخ الحديث، واُعتبر القائمون عليها قدوة في الإصرار والعزيمة وحسن التخطيط ، وكذلك العمال الثلاثة والثلاثون المحتجزون داخل المنجم الذين أصبحوا قدوة في الصبر والتفاؤل والأمل .

ووقفت جميع دول العالم بجانب شيلي تعرض عليها مساعداتها ومن ضمن تلك الدول: أمريكا والصين وكندا وأستراليا وروسيا وفرنسا وألمانيا ، وكانت عملية الإنقاذ العملاقة التي تمت، كما حدث أثناء زلزال أكتوبر عام١٩٩٢في مصر وكنت في ذلك الوقت في لندن ورأيت في التليفزيون الإنجليزي عملية الإنقاذ التي قامت بها الحكومة المصرية مشكورة والمحاولات الحثيثة للدولة في توفير المساكن لأغلب المتضررين خلال عدة شهور(وهو ما لا يحدث في كل أنحاء العالم) ، ومع ذلك شاهدت بثاً حيًّا في التلفزيون الإنجليزي من موقع المنازل والبيوت التي تأثرت بالزلازل، وبه آراء لكثير من المصريين الذين ينتقدون أعمال الإنقاذ الحكومية التي تمت من خلال رجال الشرطة والجيش وشركات المقاولات الكبرى .

وهؤلاء المنتقدون كانوا دائماً مجموعة من المتفرجين على الأحداث والمصائب ولا يشتركون في حلها، وعددهم دائماً أكبر من عدد المنقذين، وهم من الذين يتخذون من النقد طريقاً للشهرة وللأحاديث التليفزيونية وإذا بحثت عن محصلة إنجازاتهم بالمقارنة بالجهات الرسمية في الدول ستجدها قريبة من الصفر، ولكنها ظاهرة تكسير عظام من يعمل أو يحاول أن يعمل والمنتشرة بيننا .

ونعود إلى قصة منجم سان خوسيه ، وهو من المناجم القديمة التي أعيد تشغيلها للحصول على معدن النحاس بعد أن زاد الطلب عليه من القوة الاقتصادية الجديدة الصاعدة في الصين والهند، ولم يكن به التجهيزات الحديثة التي تفرضها منظمة العمل الدولية لحماية عمال المناجم الذين لهم وضع خاص من جهة الأمان والتغذية والإجازات والإحالة المبكرة على التقاعد مع حفظ كامل حقوقهم المالية، ولذا التزمت جمهورية شيلي بجميع نفقات إنقاذ هؤلاء العمال، والتي بلغت ٢٧مليون دولار والتزمت أيضاً أدبيًّا أمام العالم وأصبح اسم جمهورية شيلي على كل لسان ومحل احترام وتقدير ؛ لأن الحكومة تحملت مسؤليتها بصدق وعزيمة على الانجاز ، وتم تكليف وزير في الدولة مهمته الإعداد والتنسيق والتنفيذ لهذا العمل الذي يعتبر تحدياً للمستحيل في عُرف البشرية ؛حيث إنه لم يحدث من قبل أن تم الإنقاذ بهذه الكيفية التي تم بها إنقاذ جميع العاملين في منجم منهار، وقد حدثت تلك الحادثة بعد أن انهارت كتلة صخرية تصل أوزانها لعشرات الأطنان لتسد وتغلق تماماً أبواب ومداخل ومخارج المنجم ، ولتحوله بمثابة قبر جماعي للعمال وهم أحياء بداخله لولا لطف الله بهم سبحانه وتعالي، وقد تفانى العمال في إرسال رسالة تشير بأنهم جميعاً مازالوا بخير وتمسكوا بالأمل في إنقاذهم فما كان من الأهل فوق الأرض إلا أن يفكروا في الأهل تحت الأرض ما داموا متشبسين بالحياة ولديهم القدرة على الصبر .

وتم وضع خطة بواسطة خبراء متخصصين كلٌّ في مجاله ، وتم وضع جدول زمني للتنفيذ ومن دون أي تردد ولا تسويف ولا حسابات مادية ومالية، ولم تجد جمهورية شيلي حرجاً من الاستعانة بخبرات الدول الأكثر تقدماً في عمليات الإنقاذ واستعانت شيلي بخبراء وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" والذين صمموا بدورهم كبسولة أرضية بمواصفات قياسية عالمية يمكن أن يدخل إليها الإنسان بطوله وعرض الكبسولة ٦٤سم، دائرية ومبطنة من

الداخل والخارج ، وغير قابلة للاحتكاك بحوائط النفق الذي تم حفره رأسياً من سطح الأرض حتى عمق ٦٢٥ متراً أسفل القشرة الأرضية، وكان هذا العمل أول تصميم بهذه الكيفية في التاريخ، واشتركت كل من أمريكا وكندا وأستراليا وجنوب أفريقيا بخبراتهم المختلفة مع وكالة "ناسا" والحكومة التشيلية، وحدث نوع من التلاحم الدولي والتضامن والحماس لإنقاذ هؤلاء العمال، تقديراً للقيم الإنسانية أولاً وتقديراً لصمودهم، وخلال الإعداد لعملية الإنقاذ ، والتي تم التجهيز والإعداد لها ثمانية وستين يوماً متواصلاً، كان يتم إمداد العمال بالماء والطعام والأوكسجين والأدوية عن طريق فتحة مؤقتة من سطح الأرض حتى مكان تواجدهم ، وكذلك تم مدهم بوسائل اتصال دقيقة يمكن من خلالها طمئنة الأهل عليهم ويتم عن طريق تلك الوسائل نقل مشاعر التضامن الشعبي والأسرى والحكومي مع معاناتهم تحت الأرض ، وكيف أن الدولة حكومة ومسؤولين وشعباً تعاملوا مع الحادث بأكبر قدر من الجدية والإحساس بالمسؤولية ، وبأكبر قدر من الكفاءة والإنسانية والحرص على آدمية المواطنين، وقد طمأنتهم الحكومة أن حفر النفق بطريقة رأسية من أعيي إلى أسفل لا يكون به خطورة عليهم ولا خوف من انهيار النفق على رؤوسهم، أنه سيتم تبطين جدار النفق أولاً بأول بعد كل مسافة حفر حتى لا يحدث انهيار أو احتكاك بالكبسولة الفضائية الأرضية الدائرية، والتي ستعمل بنظام المصعد (الأسانسير) في الصعود والهبوط حيث ستحمل فرداً فرداً على مدى الاثنتين والعشرين ساعة المحددة لإنقاذ الجميع، وقد اتفق عمال المنجم على أن يكون أول الصاعدين في كبسولة الإنقاذ هو أصعبهم حالة مرضية ؛ لأن أغلبهم كانت صحته جيدة ونفسيته ممتازة عندما عرفوا اهتمام الدولة والعالم بهم، وكان آخر الصاعدين إلى سطح الأرض أكبر العمال سنًّا ؛لأنه كان رئيس الوردية واعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله والشعب عن سلامة العمال الذين يرأسهم ورئيس العمال هذا اسمه "لويس أورزوا" ويبلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً، وبعد أن تمت عملية إنقاذ جميع العمال بدأت مرحلة العمل في إخراج طاقم الإنقاذ المسؤول عن تشغيل وعمل الكبسولة داخل المنجم، وهو الطاقم المكون من الستة الأفراد الذين تدربوا على استعمال الكبسولة ، والذين نزلوا الواحد تلو الآخر في الكبسولة أولاً وتولوا عملية الإنقاذ تحت الأرض لإخراج العمال بسلام، ثم صعدوا هم أخيراً.

وقد غطى تلك العملية ١٥٠٠ صحفي عالمي ومعظم شبكات التليفزيون العالمية،

وجمع غفير من المواطنين في شيلي وشاهدها بالبث الحي على التليفزيون مليارا نسمة وأحس الشعب الشيلي والرئيس الشيلي أن بلادهم ولدت من جديد في نظر شعوب العالم، وأصبحت قصة إنقاذ العمال بها كثير من العظات والإيمان بالله وبقدرته على تسخير العقول النيرة والصابرة لاستقبال استغاثة ونداء من هم تحت الأرض، وألهم الله من هم فوق الأرض لإنقاذهم، وكُتب لهم عمر جديد بعد عمل شاق ومثمر ولكنه يبدو مستحيلاً لبعض الضعفاء المستكينين ممن يعيشون بيننا الآن؟؟!!

101



يورى جاجارين
(رائد فضاء)

"بدت في عينه الدنيا صغيرة.. كرة نلهو بها ونحسبها كبيرة"

إذا كنت غير متحمس لعمل كبير وعظيم في حياتك، فأرجوك لا تقدم عليه الآن؛لأن تاريخ البشرية هو مغامرة رجال شجعان كانوا على استعداد لاقتحام حدود الزمان والمكان ويفكرون بطريقة تختلف عن عامة الناس ، ولديهم العزيمة والحماس لتحدي المستحيلات التي يهابها الجميع، ومن أمثلة هؤلاء الكولونيل يوري الكسيافيتش جاجارين أول إنسان في التاريخ صعد إلى الفضاء الخارجي، ودار حول الأرض وخرج من نطاق الجاذبية الأرضية ولم يَهَبْ التجربة ، وقال للمذيعة القديرة السيدة آمال فهمي عندما استضافته في برنامج "على الناصية" بالإذاعة المصرية أثناء زيارته لمصر عام١٩٦٢:

"إن المخاطر التي تواجه الإنسان على سطح الأرض، لا تقل عن المخاطر التي تواجهه في الفضاء"، وقد كانت كلمته في محلها بالنسبة لمسيرة حياته، فبعد أن صار بطل أبطال الاتحاد السوفيتي كأول رجل فضاء في العالم، توفي في حادث طائرة عابر عام١٩٦٨، ولا ندرى إن كان الحادث قضاءً وقدراً، أم أنه كان حادثاً مدبراً له خصيصاً، خوفاً من شعبيته الكبيرة والطاغية في الاتحاد السوفيتي والعالم أجمع في الفترة من عام١٩٦١ حتى عام١٩٦٨، ؟ و ما إذا كان المسؤولون في هذا الوقت قد قرروا ضرورة التخلص منه – كما جاء في أحدث كتاب للكاتب الروسي "بيرو فوشيه" والذي ظهر في موسكو عام٢٠١١ وعنوانه "١٠٨دقائق غيرت العالم" والمقصود بتلك الدقائق هي زمن رحلة يوري جاجارين إلى الفضاء، وصار هذا الكتاب بمناسبة مرور ٥٠عام على الرحلة، مع أن يوري جاجارين كان إنسانا متواضعا

جدًّا يحب الشجاعة والمغامرة ويحترم قدرات الآخرين ويقدرها، حتى إنه عند زيارته لمنطقة الأهرام في الجيزة أُعجب جدًّا ببطل تسلق الأهرامات عم "حفناوي" الذي تسلق أمامه الهرم الأكبر في ثلاث دقائق، ونزل منه في دقيقتين، حيث احتضنه جاجارين عندما نزل وأعطاه ميدالية تذكارية من عنده عام١٩٦٢ أثناء زيارته لمصر، وطلب أمراً محدداً أثناء هذه الزيارة وهو أن يرى مدينة بورسعيد الجميلة، واعتبرها مدينة الصمود والتحدي في تاريخ مصر الحديث واحتفظ بحفنة من ترابها المختلط بدم الشهداء في العدوان الثلاثي قدمها له محافظ بورسعيد وكانت ملفوفة في الحرير الأبيض، وشعر بالرهبة عندما دخل إلى الهرم الأكبر ومكث داخله فترة طويلة في حجرة الملك خوفو.

قام الكولونيل يوري جاجارين بأول رحلة في العالم إلى الفضاء في ١٢أبريل عام١٩٦١ وقام العلماء السوفييت بتدريبه جيداً وعمل الاختبارات الصحية والنفسية اللازمة لهذه الرحلة في مركز أبحاث الفضاء، تولى الإشراف على الإعداد الأب الروحي لبرنامج الفضاء الروسي العالم البروفوسير "سيرجى كوروليف"، وتولى طاقم طبي خاص إعداد جاجارين وتأهيله لمرحلة المرور خارج مدار الأرض، وانعدام الجاذبية الأرضية والتي وصفها جاجارين خلال المؤتمرات الصحفية والندوات التي عقدها بعد عودته قائلاً: "شعرت في أول الأمر بعدم الارتياح لكنني سرعان ما تعودت على انعدام الجاذبية داخل سفينة الفضاء بعد أن انطلقت خارج الغلاف الجوي ، وهي ظاهرة لم يتعود عليها سكان الأرض ولم يمارسها أحد من قبل، ولكن المرء في الفضاء، سرعان ما يؤقلم نفسه عليها، ففيها يشعر الشخص بخفة غير عادية في الوزن في جميع أطراف جسمه حتى إنني طرت من مقعدي ووجدت نفسي معلقاً في الفراغ بين سقف الكابينة وأرضيتها، وبدا لي كما لو كانت ساقاي وذراعاي لا علاقة لهما بي ، وأن جسدي كله ليس له وزن ووجدت نفسي بين وضعي الجلوس والنوم وسابحاً في الفراغ ، وإلى جواري تعوم كل الأشياء غير المثبتة في السفينة مثل الأقلام والأوراق ونوتة الملاحظات ، ولكنني استطعت أن أدون ملاحظاتي جيداً، ولم أجد صعوبة في الكتابة واندمجت وكأنني في بيتي وعندما نسيت ووضعت القلم بجانبي، رأيته بدأ يسبح في الهواء بمفرده وفي تلك اللحظة أحسست أنني في الفضاء حقيقة".

ومن ضمن الأشياء التي طمأنت يوري جاجارين أثناء تدريبه على الرحلة وأثناء

الإعداد لها هي كلمات العالم الروسي "سيرجى كوروليف" الأب الروحي لبرامج الفضاء الروسية ، والذي كان يسأل عنه ويحدثه دائماً كما لو كان أباه وأمه ويتابع نظامه في الأكل وميعاد الوجبات وكان يقول له: "رجاء يابني ألا يشغلك ما حولك ولا الاهتمام فيما إذا كنت تطير فوق المحيط أو فوق ثلوج الجبال أو الوديان، عن تناول طعامك، وأقراص الطعام لديك تحتوى على ما تشتهيه حتى تعود إلينا على الأرض وسوف أدعوك إلى وجبة شهية طازجة ساخنة عندما تعود للأرض".

أي أن جميع الأطقم المعاونة لجاجارين خلال رحلته الجريئة تكاتفت للرفع من روحه المعنوية ومساعدته على النجاح في مهمته ، وكان هو أيضاً على مستوى المسؤولية لدرجة أن الطبيب المسؤول عن ملاحظته ليلة السفر دوَّن في مذكراته ما يلي: "في الليلة الموعودة لغزو الفضاء، رفض يوري جاجارين تعاطي أي منوم أو مهدئ وخلال سبع دقائق فقط استغرق في نوم عميق، حتى إنني دخلت عليه على أطراف أصابعي بعد نصف ساعة من آخر قياس للضغط والنبض والحرارة وسرعة التنفس، فوجدته مستلقياً على ظهره واضعاً ذراعه خلف رأسه ونائماً نوماً عميقاً ، وكانت جميع مقاييس وظائفه الحيوية (تنفس- نبض) منتظمة وطبيعية وظل هكذا حتى استيقظ بنفسه واستعد للرحلة".

هذه هي قصة يوري جاجارين الذي اعتُبر في فترة الستينيات من القرن الماضي بطل أبطال الاتحاد السوفيتي ، وجرى تكريمه بعد عودته بسلامة الله إلى الأراضي الروسية وزار جميع أنحاء العالم يحكي قصة تحديه للمستحيل ؛بأن أصبح أول إنسان يخرج من نطاق الجاذبية الأرضية وأول رجل فضاء في التاريخ والمزعج الكبير لوكالة الفضاء الأمريكية التي فوجئت بنجاح أول رحلة فضائية روسية متقدمة في ذلك على الولايات المتحدة الأمريكية ، مما دعا الرئيس الأمريكي جون كينيدي إلى الاجتماع مع الهيئات العلمية والبحثية في أمريكا ، وطلب منهم ضرورة ملاحقة التقدم الروسي في مجال الفضاء وتعديل البرامج العلمية والتعليمية حتى لا تصير أمريكا أمة متخلفة تكنولوجيًا عن روسيا، وفعلاً تمكنت أمريكا من إرسال رجال إلى سطح القمر عام١٩٦٩ متخطية بذلك الاتحاد السوفيتي.

قامت الملكة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا بدعوة يوري جاجارين إلى حفل عشاء بقصر باكينجهام الملكي، وجلس بجوار الملكة مع عدد من الشخصيات الإنجليزية المرموقة وزار

يوري جاجارين الهند وعدداً من دول أوروبا وآسيا وزار مصر مرتين إحداهما بدعوة من الرئيس المرحوم جمال عبد الناصر عام١٩٦٢ واستضافه الرئيس في منزله بمنشية البكري وعرَّفه على أولاده، واستضافه التليفزيون المصري وأجرت الحوار معه المذيعة اللامعة السيدة تماضر توفيق ، وقلَّده الرئيس عبد الناصر قلادة النيل.

توفي يوري جاجارين في ١٥ مارس عام١٩٦٨ في حادث طائرة "ميج"وقالت التحقيقات إن سبب الحادث خطأ بشري من جاجارين؛ لأنه كان هناك سرب طيور اعترض مسار الطائرة فاضطر جاجارين أن يطير بطريقة حلزونية لتفادي الطيور وتفادي الاصطدام بأحد الأبراج، وبعد ذلك طويت صفحة التحقيقات، وقد ثبت فيما بعد أنه كانت هناك طائرتان حربيتان في نفس المجال الجوي لطائرة جاجارين ، وكانت إحداهما لا تبعد عنه أكثر من ٥٠٠متر وقد تم فتح تحقيق جديد عام١٩٨٩ بناءً على تلك الرواية إن كانت حقيقية أم لا، والعلم عند الله فيما جرى لهذا الروسي الجريء الذي اصطفت الملايين في جميع أنحاء العالم للترحيب به عند زيارته لدولهم، فأصبح شخصية عالمية عليها أن تدفع ثمن شهرتها، غير المرغوب فيها سياسيًّا على ما يبدو.

وترك يوري جاجارين خطاباً لزوجته قبل صعوده في رحلته إلى الفضاء ، وطلب من زوجته ألا تفتحه إلا عند وفاته، متصوراً أنه يمكن ألا يعود ثانية إلى الأرض وقد فتحت زوجته الخطاب بعد مصرعه في حادث الطائرة وقرأت فيه:"كنت أتمني ألا تقع عيناك على هذه السطور المكتوبة، حبيبتي لا تحزني وتذكري أن الموت قد لا يصيبنا لأننا صعدنا منازل الهواء، فلربما تعرضنا للحوادث القاضية حتى ونحن نسير على سطح الأرض المستوية" .

وأوصاها خيراً بابنتيهما "جالينا" و"يلينا" وقد كانت زوجته "فالنتيانا" وفيَّة على عهدها له، فلم تتزوج بعده وتولت تربية البنات وأهدت مقتنياته الشخصية للحكومة الروسية التي افتتحت متحفاً باسمه في مسقط رأسه مدينة "سلومونيك"، وتولت إحدى بناته منصب مديرة بمتحف الكرملين في عهد الرئيس فلاديمير بوتين وهذه هي قصة البطل الروسي يوري جاجارين الذي تحدى المستحيلات ، وأولها أنه لم يخف على حياته مثل جميع مخلوقات الله، وارتضى أن يكون حقل التجارب الأول للعلماء لإمكانية إرسال البشر إلى

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA مكتبة الإسكندرية

الفضاء، وتتجلى شخصيته في خطابه الذي تركه لزوجته السيدة فالنتيانا ولحديثه مع المذيعة آمال فهمي في القاهرة عندما ذكر لها أن المخاطر التي يمكن أن تصيب الإنسان على الأرض قد تكون أصعب من المخاطر التي يمكن أن تصيبه في الفضاء، وإنني أرى سلامة منطقه هذا ؛لأن الإنسان عندما يكون في مهمة صعبة أو مستحيلة يستجمع كل قدراته في الحرص والحذر فيسْلَمَ بإذن الله، وعندما يكون في مهمة سهلة تتراخى لديه عوامل الحرص والحذر إلى حد ما، وقد تصيبه حادثة مَّا في هذه الأثناء والله أعلم والأعمار بيد الله عز وجل أولاً وأخيراً.

102

والدان لم يعرفا المستحيل

"الأم أوديني والأب أوجيستو ورحلة إنقاذ الابن"

هل يمكن أن تتغلب عاطفة الأمومة والأبوة على بعض المقاييس والنظريات العلمية التي تبدو ثابتة لبعض الأطباء؟ حيث تولى الأب أوجيستو والأم أوديني مسيرة تحدى المستحيل في إثبات سبب المرض الغامض الذي أصاب ابنهما "لورينزو" وأدى إلى إصابته بالشلل الكامل، ووقف الأطباء حائرين وعاجزين عن تفسير سبب محدد لذلك التطور السلبي للجهاز العصبي لدى بعض الأطفال الذي يصيبهم بفقدان القدرة على الحركة والإبصار والسمع خلال سنوات عمرهم الأولى، حيث بدأ الوالدان رحلة البحث عن السبب وأسسا رابطة خاصة لعائلات المصابين بذلك المرض وعقدا مؤتمرات علمية يدعون لها كبار الأطباء والصيادلة وشركات الأغذية والأدوية للنظر والمناقشة والبحث، حتى اكتشفوا المسبب الأصلي للمرض وهو تناول أنواع معينة من الدهون تصيب الجهاز العصبي بالخلل الذي يؤدي إلى ظهور المرض، والذي أمكن بموجب تلك المؤتمرات والأبحاث الجديدة تلافي ظهور المرض في الأجيال الجديدة.

تلك هي قصة هذين الوالدين اللذيْن لم يعرفا المستحيل وتحديا الجميع من: أطباء وعلماء ؛ لأن عاطفة الأمومة والأبوة هبة من الله لمخلوقاته ، وهي أقوى من ظاهرة حب البقاء للشخص نفسه؛ لأن الأم يمكن أن تضحي بنفسها من أجل ابنها، وقصة هذين الوالدين قرأتها للأستاذ الدكتور عبد الهادي مصباح الزميل الكريم ، وأستاذ التحليل والكيمياء بجامعة بنها والتي نشرها في جريدة (المصري اليوم) الكبيرة ثقافيًّا وعلميًّا وفكريًّا في شهر يناير عام٢٠١١.

تبدأ قصة هذا الطفل "لورينزو" في الولايات المتحدة الأمريكية (كما ذكر الأستاذ

الدكتور عبد الهادي مصباح) عندما أُصيب بمرض غامض ونادر (ووراثي على ما يبدو) يؤدي إلى تآكل الغلاف المحيط بالأعصاب والمخ فيصيبها بالتلف والضمور، وتم إدخال الطفل أحد المستشفيات لمحاولة علاجه، ولكن لم يُكتب له الشفاء وتحول الطفل إلى جسد يتنفس ويأكل ولا يتحرك ولا يدرى بمن حوله ، وبدأ في فقدان الوعي وعدم الاستجابة للمؤثرات المحيطة به، وعندما أدخله الوالدان أحد المستشفيات وأحضرت الأم بعضا من قصص الأطفال التي كانت تقرأها له بالمنزل عسي أن يستعيد بعضا من ذاكرته بعد أن أبلغها الأطباء أن حالته ميؤوس منها، وعندما زارته في إحدى المرات رأت الممرضة تقرأ له تلك القصص بفتور ومن دون حماس واهتمام كما لو كانت تقرأ لجثة هامدة أو كمن يقرأون على القبور وعلى الموتى، فقالت للممرضة عندما رأت هذا الفتور: "أتظنين أنك تقرأين لجثة هامدة لا تشعر ولا تحس.. إن يأسك ينتقل إليه من خلال نبرات صوتك الممل، أرجو أن تتركيه فذلك أفضل من أن تنقلي إليه يأسك"، فلم ترد عليها الممرضة واعتقدت أن الأم قد أصابها لوثة عقلية من جراء مرض ابنها وهي لم تستوعب كلام الأطباء في أن ابنها حالة ميؤوس منها وفي طريقه إلى الموت وتناولت الأم منها القصص، وبدأت تقرأها وقالت له تأكد أن الغد سوف يأتي بأفضل ما فيه واليوم سوف يرحل بأسوأ ما فيه بإذن الله، وأعطته نظرات وكلمات الحنان والأمل والابتسامة التي تعود عليها منذ أعوام وهي مدة مرضه، وقررت أن تعمل شيئاً غير تقليدي في حياتها هي وزوجها؛ لأن القاعدة العامة في علم الاجتماع تقول: "إن المشاكل المستعصية تحتاج إلى حلول غير تقليدية"، ومن هنا بدأ تحديهما للمستحيل!!

ذكر الأستاذ الدكتور عبد الهادي مصباح في مقاله عن هذه العائلة، أن السيدة التي كانت تعمل محررة في إحدى الصحف الأمريكية وزوجها المتخصص في علم الاقتصاد ويعمل في بنوك واشنطون وهو من أصل إيطالي قد قررا أن يستقيلا من عمليهما مؤقتاً ويتفرغا للبحث والقراءة عن هذا المرض الذي يصيب الغلاف الدهني للجهاز العصبي ، ويسبب تراكم الدهون الضارة على جدار الأعصاب الرئيسة ونهايات الأعصاب ويسبب التناثر المتعدد لدهون من نوع معين، وهو مرض وراثي ينتقل من الأم التي تحمل جيناته

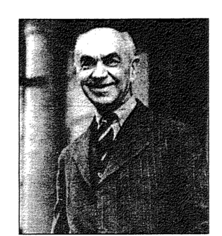
إلى الابن ومن خصائص هذا المرض ارتفاع نسبة الدهون المشبعة في الدم، والتي يصنعها جسم الإنسان من بعض الدهون التي يتناولها في الأغذية المختلفة، ويوجد أشخاص قابلون للإصابة بالمرض نتيجة نقص إنزيم معين في الجسم مسؤول عن التخلص من تلك الدهون الضارة، وهذا الإنزيم موجود في الأطفال الأصحاء، وغير موجود في الأطفال المرضى مما يؤدي إلى أن تتجمع هذه الدهون المشبعة في الدم وتدمر الغشاء الميليني المحيط بالمخ والأعصاب المركزية والطرفية ، وفقدان الحركة والبصر والكلام وخلال سنوات قليلة يتوفى المريض بعد سلسلة من المعاناة والعذاب للمريض وأقاربه.

قرأ الوالدان كما ذكرت كل ما كتب عن المرض واتصلا بكل العائلات التي يعاني صغارها من هذا المرض، وأسسوا رابطة أهلية تولت الدعوة إلى مؤتمر علمي عام لكل أطباء الأمراض العصبية المتاح لهم الحضور إلى الولاية وجمعوا التبرعات اللازمة للأبحاث، وتمت دعوة شركات الغذاء المنتجة للدهون وشركات الأدوية والأغذية الطبية، وكل ذلك من خلال العناوين، وكان الوالدان يدرسان الكيمياء الحيوية في نفس الوقت حتى يمكنهما أن يديرا جلسات المؤتمر وأحضرا كل المقالات العلمية التي كُتبتْ عن هذا المرض، وتحدث المجتمعون في المؤتمر وأدلى كل منهم بآرائه الجديدة وإمكانية حل لغز هذا المرض اللعين الذي يسبب مضاعفات قاتلة، وكان الأب يركز في الإتصال على الشركات الكيميائية التي تُصنِّع الأدوية والأغذية الخاصة بالأمراض المحددة، وهنا طلب منهم فكرة تصنيع نوع معين من الزيوت والدهون عندما يتناوله الطفل، فإن جسمه ودورته الدموية الخالية من هذا الإنزيم لا يمتص هذه الدهون الضارة، وطلب من الشركات أن يصنعوا هذا الزيت إن أمكن على حسابه الخاص لكي يجربه على ابنه، وبالفعل استجابت الشركة وأجرت الأبحاث وأمكن تصنيع زيت خاص خالٍ من العنصر المهدرج الذي يؤدي امتصاصه إلى هذا المرض ونجحت التجربة وتحسنت صحة الابن، وأمكن استعمال الزيت الجديد على الأطفال الآخرين الذي سَلموا بإذن الله من الإصابة بالمرض فيما بعد ، وكل ذلك بفضل الله وبفضل التحدي الكبير الذي قرر كل من الأم أودوني والأب أوجيستو أن يحاولا به إنقاذ أبناء الآخرين من مرض قال

لهم الأطباء والعلماء إنه ميؤوس من علاجه، ولكنهما مثالان لتحدي المستحيل كما أورد تلك القصة العلمية الزميل الأستاذ الدكتور عبد الهادي مصباح في جريدة المصري اليوم عام٢٠١١.

وتكريماً لذلك الاختراع المذهل، فقد أقرته منظمة الأغذية والدواء الأمريكية وأطلق اسم الطفل "لورينزو" على هذا الزيت وسمي "زيت لورينزو" تخليداً لصبره ومعاناته وتوفيق الله لوالديه أن صمما على حل لغز هذا المرض بالعزيمة والصبر وتحدى المستحيل.





ماكس كيلاند
(رياضي)

"بطل رياضي ثم معاق ثم وزير للداخلية"

طوبى لراكبي الشدائد ، فالشدة تصنع الصبر ، والصبر يصنع المثابرة والمثابرة تصنع الرجاء والرجاء لا يخذل صاحبه ، هذه الكلمات الجميلة التى قرأتها في كتاب "كيف أصبحوا عظماء" للكاتب السعودي د. سعد سعود الكريباني (طبعة ٤ عام ٢٠٠٦) ، أغرتني أن أضع بين أيديكم إحدى شخصيات هذا العمل الأدبي الفريد ، وهذه الشخصية الأمريكية هو البطل الرياضي في كرة السلة والمضرب والبيسبول والسباحة "ماكس كيلاند" هذا الشاب الذي تخرج من المدرسة ثم الجامعة وحصل على شهادات التفوق العلمية والرياضية ثم تم تجنيده في حرب فيتنام في سن الرابعة والعشرين وقبل انتهاء الحرب بفترة وجيزة وأثناء استعداده للعودة إلى أمريكا بعد انتهاء مدة خدمته العسكرية الإجبارية ، أُنزلت فرقته على هضبة بالقرب من معسكرهم ولاحظ ماكس سقوط قنبلة لم تنفجر فتحرك ليسحبها إلا أن الانفجار قذفه إلى الوراء ، وعندما نظر إلى جسمه أدرك أنه فقد يده اليمنى ورجله اليمنى وأصيب بجرح شديد في ساقه اليسرى والتي تم بترها أيضاً عندما نقلوه إلى المستشفى وأنقذوا حياته بصعوبة بعد عدة عمليات جراحية .

أفاق ماكس كليلاند من الصدمة العصبية والنفسية التى ألمت بالبطل الرياضي ولم يفكر في البكاء على الماضي ولم يرهن بقية عمره للحزن والدموع وفقدان المجد الذي كان ! ولكنه قوى عزيمته بعبارات الروائي والناقد البريطاني هكسلي "ليست التجربة ما يحدث للمرء ، بل هي ما يفعله المرء بالذي يحدث له" .

بدأ ماكس كيلاند حياة جديدة باستعمال كرسي متحرك (لأنه فقد ساقيه) وتعلم قيادة سيارة خاصة بالمعاقين وطاف بها أرجاء الولايات المتحدة منادياً بدعم قدامى المحاربين .

وفي عام ١٩٧٧ وكان في الرابعة والثلاثين من العمر ، عينه الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر رئيساً لإدارة قدامى المحاربين ، فكان أصغر من شغلوا هذا المنصب ثم د خل ماكس معترك السياسة وانتُخب مرتين عضواً بمجلس الشيوخ التابع لولاية چورچيا ، وخاض الانتخابات لمنصب نائب حاكم ولاية چورچيا ولكنه لم ينجح وفي عام ١٩٨٠ عاد ماكس إلى مسقط رأسه وفي عام ١٩٨٢ انتُخِب وزيراً للداخلية في ولاية چورچيا وأعيد انتخابه مرة أخرى عام ١٩٨٦ وزيراً للداخلية أيضاً ، وأصبح هذا الأمريكي ذو العزيمة الحديدية مصدر إلهام في أرجاء أطلانتا عاصمة ولاية چورچيا وخصوصاً عندما يقابلونه في إحدى المناسبات الرياضية أو الاجتماعية وكثيراً ما يشارك في مباريات كرة السلة وهو على كرسيه المتحرك ويلعب الكرة بيده اليسرى فقط في مباريات المعاقين ويسجل الأهداف وينظر الجميع إليه كشخصية عظيمة تحدت المستحيل وانتقل في حياته من بطل رياضي إلى معاق مصاب عمليات حربية إلى وزير داخلية ولاية چورچيا مرتين ، وفي كل تلك المراحل لم تفارقه العزيمة والصبر والبسمات ، وقال قولته الشهيرة والتي ذكرها الكاتب السعودي الدكتور سعد سعود الكريباني في كتابه عنه : "لا تدور الحياة حول يد وساق ، فالناس ينظرون إليك كما تنظر أنت إلى نفسك".

هذه كانت قصة رياضي وجندي لم تهزمه الإصابة أو بتر الساقين على أن يعمل ويجتهد حتى وصل إلى منصب وزير داخلية .

المصادر والمراجع التي اعتمد عليها الكتاب

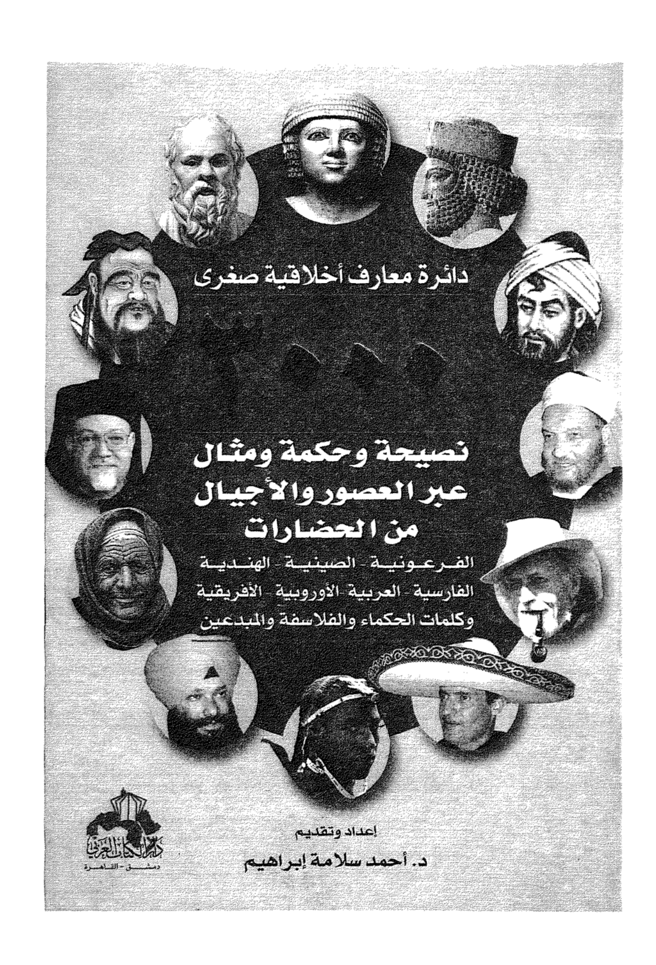
- **دائرة المعارف البريطانية**
- الذين غيَّروا القرن العشرين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر والتوزيع ، ط٢، ٢٠٠٣م **الأستاذ صلاح منتصر الصحفي الكبير بجريدة الاهرام.**
- أقدم لك: ستيفن هوكنج: ترجمة : ممدوح عبد المنعم محمد ، مراجعة :ا.د إمام عبدالفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢م. ج .ب. **ماك ايفوي وأوسكار زاريت.**
- أهم مائة شخصية عالمية في السبعينيات ، ترجمة : مدحت عايد فهمي، مكتبة مدبولى ، القاهرة، ط١ ، ١٩٨٨م **رونالد روبنسون.**
- أقدم لك : نيتشه، ترجمة :الاستاذ الدكتور:عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢م. **لورانس جين - كيتي شين.**
- عظماء ومشاهير معاقون غيروا مجرى التاريخ ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، القاهرة ، ط٤ ، ٢٠٠٧م. **أحمد الشنواني.**
- السادات الذي عرفته ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م. **أحمد الطويلة.**
- السياسة الخارجية للمغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز ، صالون غازي الثقافي العربي ، سلسلة الأفق الحضاري للإسلام .ط١ ، ٢٠٠٩م. **أسامة الألفي.**
- **بيرم التونسي** : مقامات بيرم ، مكتبة مدبولي ، ط ٢ ، ١٩٨٥م.
- معارك صنعت أبطالا: دار الكتاب العربي ، دمشق ، القاهرة ، ط١، ٢٠١٠م. **رمزي المنياوي.**
- مفكرون من عصرنا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٨م. **سامي خشبة.**

- وراء كل عبقري قصة معاناة، دار الكتاب العربي ، دمشق، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٩م. **سلمى مجدي.**
- قطوف من سير العظماء ، تقديم د/ عبد الحافظ حلمي محمد، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي الجزء الأول ، د.ط. **صبري الدمرداش.**
- نبلاء الإنسانية، أعلام الفكر والفلسفة والفن (١٦٣٣-١٩٩٨) ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٨م. **صدقي إسماعيل.**
- عظماء بلا مدارس، مكتبة العبيكان، السعودية ، ط٣، ٢٠٠٨م.
- أيتام غيَّروا التاريخ، مكتبة العبيكان، السعودية ، ط، د.ت. **عبد الله صالح الجمعة.**
- سعد كامل (الثقافة الجماهيرية – مسيرة نصف قرن) ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م. **عز الدين كامل.**
- المهاتما غاندي ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٨م. **عصام عبدالفتاح.**
- محمد عبد الوهاب(رحلتي : الأوراق الخاصة جدا) ، دار الشروق ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م. **فاروق جويدة.**
- الموسوعة في أعلام الدنيا ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠١٠م. **مجدي سيد عبدالعزيز.**
- البحث عن الذات (قصة حياتي) : ، المكتب المصري الحديث ، ط٢ ، ١٩٧٨م. **محمد أنور السادات.**
- مشاهير القرن العشرين ، تونس ، ١٩٩٤م. **محمد بوذينة.**
- الأعمال الكاملة ، تحقيق الدكتور : محمد عمارة ، دار الشروق ، ط٢ ، ٢٠٠٦م. **الإمام محمد عبده.**
- بناء دولة مصر (محمد علي) ، تقديم د/ عبدالخالق لاشين، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠٠٩م. د/ **محمد فؤاد شكري وآخرون.**

- سيد جلال ، سلسلة رواد الاستثمار ، **إصدارات وزارة الاستثمار**.
- السيد ياسين ، سلسلة رواد الاستثمار ، **إصدارات وزارة الاستثمار**.
- عبد اللطيف أبو رجيلة ، سلسلة رواد الاستثمار ، **إصدارات وزارة الاستثمار، مصطفى بيومي**.
- فاتنات الدنيا وأفاعي الزمان: دار الكتاب العربي . دمشق ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢م. **أحمد الشنواني**.
- كيف أصبحوا عظماء؟: المملكة العربية السعودية . ط٤ ، ٢٠٠٩م - ١٤٢٧هـ. **دكتور/ سعد سعود الكريباني**.
- أيتام غيروا مجرى التاريخ: مكتبة العبيكان . المملكة العربية السعودية ، ط٢ ، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م ، العبيكان للنشر . **أ. عبدالله صالح الجمعة**.
- إصدارات وندوات ودعوات المجلس الأعلى للثقافة . وزارة الثقافة المصرية ٢٠٠٩ - ٢٠١٠م وهيئة قصور الثقافة.
- السلطان عبدالحميد الثاني المفترى عليه .. آخر السلاطين المحترمين: دار الكتاب العربي - دمشق ، ٢٠١٠م. **تأليف الأستاذ/ منصور عبدالحكيم**.
- **بالإضافة إلى العديد من الصحف السَّيَّارة وخاصة (الأهرام المصرية والمصري اليوم والأخبار والجمهورية والوفد والشروق وأخبار الأدب وسواها) وكذا مجلة العربي الكويتية وبعض الجرائد الفرنسية والإنجليزية والأمريكية ومجلة الهلال المصرية**.

إصدارات سابقة للمؤلف




دائرة معارف أخلاقية صغرى
نصيحة وحكمة ومثال
عبر العصور والأجيال
من الحضارات
الفرعونية - الصينية - الهندية
الفارسية - العربية - الأوروبية - الأفريقية
وكلمات الحكماء والفلاسفة والمبدعين
إعداد وتقديم
د. أحمد سلامة إبراهيم
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

الفهرس

بعض من الشخصيات التي وردت بهذا الكتاب:

الشخصية	الوصف	البلد
الإمام محمد عبده	منارة التحديث والتجديد الفقهي في العصر الحديث	مصر
لويس برايل	عبقري كفيف جعل العميان يقرأون	فرنسا
غاندي	ثائر زاده الوقار... والحلم والصبر والنضال	الهند
بيل جيتس	إن لم تكن الأفضل في مجالك فغيِّر هذا المجال	أمريكا
ستيفن هوكنج	عالم مُقعدوعلى كرسي متحرد... نوبل في الفيزياء	إنجلترا
محمد عابد الجابري	شعاع الفكر المُشرق من المغرب العربي	المغرب
شارل ديجول	عملاق فرنسا في الحرب والسلام والكبرياء	فرنسا
ماك آرثر	محارب يبدأ حربا وهو في سن السبعين	أمريكا
طلعت حرب	اقتصادي لم يحلم بمفرده... بل حلمت مصر معه	مصر
الشيخ زايد بن سلطان	حكيم العرب... وأول وحدة عربية ناجحة	الإمارات
سيمون بوليفار	الفيلسوف الذي تحدى إمبراطورية وحرر قارة	فنزويلا
رفيق الحريري	ابن لبنان المتميز... ومدرس علم الوفاء	لبنان
كلاشينكوف	هرب من سيبيريا سيراً ١٠٠٠ كم وصمم سلاحاً	روسيا
باراك أوباما	الرجل الذي صنع حظه... بالاجتهاد والتميز والعمل	أمريكا
أنطونيو جرامشي	يؤلف ٣٠ كتاباً وهو داخل السجن	إيطاليا
د. مجدي يعقوب	البذور من مصر والشجرة بالخارج والثمرة لمصر	مصر
الملك فيصل بن عبد العزيز	ابن الصحراء الوفي.. والحكيم عندما يتولى مسؤولية البناء	السعودية
إبراهام لنكولن	الرجل الذي حقق حلم الأنبياء والفلاسفة بتحريره للعبيد	أمريكا
فلاديمير بوتين	الثعلب الجميل الذي أحيا البلد الأصيل	روسيا
الشيخ أحمد ياسين	عزيمة + شلل + سجن + يُتم = مصباح المقاومة	
ماريو يوسا	أحرقوا كتبه منذ أربعين عاماً ثم حصل على نوبل في الأدب	
بيرم التونسي	البقال المطارد الذي زادته المطاردة إبداعاً	
سكيرو هوندا	من ميكانيكي سيارات إلى مخترع موتوسيكل إلى السيارة هوندا	
عباس العقاد	المدرسة الفكرية القائمة على أسس عقلية وأستاذ كتابة العبقريات	
حمد بن محمد الجاسر	علامة الجزيرة العربية ورائد التنوير والصحافة	
انجبار كامبراد	من بائع كبريت إلى مؤسس أكبر شركة أثاث في أوربا	
جورجي زيدان	شجرة المعرفة اللبنانية.. تطرح ثمارها في مصر	
باولو كويلهو	من المصحة العقلية إلى السجن إلى أشهر كُتّاب البرازيل	البرازيل
بليز باسكال	فرنسي تغلب على اليتم والمرض بالعلم والتدين والصبر	فرنسا


Bibliotheca Alexandrina
1166935



I.S.B.N. 978-977-376-652-3
9 789773 766528



